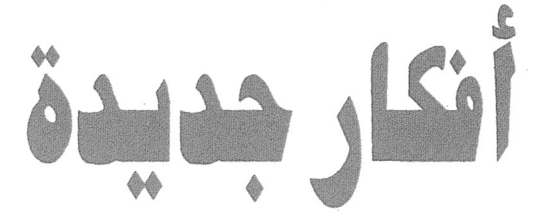
تود ج . بوشهولز



من اقتصاديين راحلين

مقدمة للفكر الاقتصادى الحديث

ترجمة

نزيرة الأفندى عزة الحسينى

مراجعة

أ . د . حازم الببلاوى



المكتبة الأكاديمية

أفكار جديدة

من اقتصاديين راحلين

مقدمة للفكر الاقتصادى الحديث

مؤلف هذا الكتاب هو TODD G. BUCHHOLZ، عالم اقتصادى ومحامى، حاصل على درجات علمية من جامعة كمبريدج ومدرسة هارڤارد للقانون. وقد تولى تدريس علم الاقتصاد فى هارڤارد، حيث حصل على جائزة «آلان يونج» فى التدريس. وكان يعمل كمدير مشارك فى مجلس السياسة الاقتصادية التابع للبيت الأبيض، وقت صدور هذا الكتاب عام ١٩٨٩.

تود ج . بوشهولز

أفكار جديدة

من اقتصاديين راحلين

مقدمة للفكر الاقتصادى الحديث

ترجمة

نزيرة الأفندى   عزة الحسينى

مراجعة

أ.د. حازم الببلاوى



الناشر
المكتبة الأكاديمية
١٩٩٦

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

An Introduction to Modern Economic Thought

BY
TODD G. BUCHHOLZ

Buchholz, Todd G. 94 - 959237

أفكار جديدة من إقتصاديين راحلين: مقدمة للفكر الاقتصادى الحديث /تأليف تود ج. بوشهولز؛ ترجمة نزيرة الأفندى وعزة الحسينى؛ مراجعة د. حازم الببلاوى. ـــــ [Cairo]: المكتبة الاكاديمية.. 1995

350 p.

الطبعة العربية الأولى: © ١٩٩٥

المكتبة الأكاديمية ـ ١٢١ ش التحرير الدقى ـ القاهرة

تليفون: ٣٤٨٥٢٨٢/ فاكس: ٣٤٥١٨٩٠ ـ ٢٠٢


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

تمهيد

يشرح هذا الكتاب النظريات الاقتصادية الحديثة، من خلال استكشاف أفكار المفكرين الاقتصاديين العظام وحياتهم. ذلك أن كثيراً من المشكلات الاقتصادية الراهنة قد تحدت أجدادنا أيضا. وليس أدل على ذلك من أن أصداء «آدم سميث» وخلفاءه لا تزال تخاطبنا حتى اليوم. وحتى أقدم فهما أفضل لنظرياتهم، فقد استخدمت أمثلة معاصرة، راجياً أن يجدها القارئ ممتعة، وواضحة كذلك .

وعلى نحو ما يتعلم أى دارس لعلم الاقتصاد فى أول يوم لدراسته أن علم الاقتصاد يعنى بالندرة والاختيار ، فإننى قد اخترت أن أغفل الحديث عن مفكرين لامعين كثيرين حتى يتسنى لى أن أركز على التعاليم الأنجلو ـ أمريكية . ومن ثم ، فإن فالراس Walras، وجيفونز Jevons ومينجر Menger وغيرهم قد حظوا باهتمام أقل مما كان يمكن أن يحظوا به فى كتاب أطول. ويحدونى الأمل فى أن يجد القارئ دافعاً لمتابعة هؤلاء المفكرين فى مؤلفات أخرى. كما أننى عندما أعدت صياغة أفكار بيكون Bacon لم أكن أهدف إلى تقديم شئ ممل، وإنما استهدفت إثارة العقل لفترة قصيرة، وإن كانت مثمرة.

وأود أن اعتذر لهؤلاء المفكرين الاقتصاديين الذين ورد ذكرهم فى هذا الكتاب، والذين لا يزالون أحياء حتى اليوم . ذلك أن عنوان الكتاب وهو « أفكار جديدة من اقتصاديين راحلين» لا يعنى الإشارة إليهم، أو إلى شخصياتهم، ولا إلى قدراتهم

على الخطابة ـ ورغم ذلك لا يمكننى أن أعتبر مسئولا عن أوجه التشابه. ويتعين عليهم أن يلتمسوا العزاء فيما يسبغ عليهم من شرف ذكرهم جنبا إلى جنب مع سميث وريكاردو وكينز وغيرهم.

كما أود أن أشكر عدداً من الأفراد والمؤسسات لتنشيطهم لذهنى وطاقاتى . فقد شجع مارتن فيلدشتاين ولورانس ليندساى هذا المشروع، وطلبا من طلبة جامعة هارفارد أن يقرأوا مسودته الأولى. لقد استمع طلبتى فى هارفارد إلى استطرادات عديدة حول تاريخ الفكر الاقتصادى. وقدم كل من رونالد كوسى وميلتون فريدمان تعليقات مفيدة عن ألفريد مارشال. وقد سمح لى جيفرى ميكسى بجامعة كامبردج، والسير هارى هينزلى العميد السابق لكلية سانت جون بكامبردج بأن أتجول وأتأمل فى ذات الأروقة من جامعة كامبردج التى كان يتردد عليها عديد من أبطال هذا الكتاب. وقد بحثت، قبل كتابة الفصول الخاصة بكل من مالتوس ومارشال وكينز، فى قصور وقاعات القرون الوسطى عن ذكريات هؤلاء الأفراد ومذكراتهم. وقد حفزنى تراثهم على المضى قدما إلى الأمام. كما أشكر كل من مايكل موهر ودوجلاس سترم من جامعة باكنيل، اللذين أثارا اهتمامى بالتاريخ الاقتصادى وتاريخ الفكر الثقافى.

وبطبيعة الحال فإن الأفكار التى تم التعبير عنها فى هذا الكتاب هى أفكارى الخاصة، وليست أفكار أيٍ ممن عملت لديهم سواء كان ذلك فى الماضى أو الحاضر.

وأخيرا ، أشكر أسرتى التى منحتنى بمساعدتها وروحها المرحة الأمل فى أن أجد دروسا قليلة وضحكات قليلة بين العلماء «المكتئبين». وربما لم يكن العلماء الاقتصاديون على هذا الحال من الاكتئاب، لو أنهم عرفوا زوجتى الحبيبة المرحة، «دببى» التى أهدى إليها هذا الكتاب.

مقدمة

بقلم : مارتن فيلدشتاين

يتأثر كل منا بالسياسات الاقتصادية للحكومة، وبالقرارات الاقتصادية الخاصة ، وليس فى وسع أى أحد أن يكون ناخبا مطلعا أو حتى قارئا فاهما لما تنشره الصحيفة اليومية دون أن تتوافر لديه معلومات عن علم الاقتصاد . من منا يمكنه أن يخطط للمستقبل الذى سنعيش فيه ونعمل ـ نحن وأطفالنا ـ دون أن يدرك القوى التى تشكل حياتنا الاقتصادية ؟

إن قضايا السياسة الاقتصادية التى نناقشها اليوم ـ وهى السياسة التجارية، والتضخم والدور الصحيح للحكومة، واستئصال الفقر، ووسائل زيادة معدل النمو الاقتصادى ـ هذه القضايا ناقشها اقتصاديون لأكثر من قرنين. ذلك أن كثيراً من السياسات الاقتصادية الراهنة ـ سواء (الجيد) منها أو (السيئ) ـ هى نتاج أفكار هؤلاء الاقتصاديين الأوائل. والكثير من المناقشات الحالية التى تدور حول السياسة الاقتصادية لايمكن ان يفهمها إلا أولئك الذين لديهم على الأقل بعض الاطلاع على أفكار هؤلاء الاقتصاديين.

إن عمالقة علم الاقتصاد خلال المائتى عام الماضية كانوا رجالاً اهتموا بالقضايا السياسية الحاسمة لزمانهم . لقد درسوا وظيفة الاقتصاد حتى يتسنى لهم الدفاع عن سياسات اقتصادية أفضل . بيد أنه على الرغم من اهتمامهم بالسياسة، إلا أنهم لم

يكونوا مجادلين عنيفين أو سياسيين، وإنما كانوا رجالا سعوا إلى إقناع معاصريهم فى الحكومة، وكذا الجمهور العريض، بالتحليلات والأدلة التى تستجيب لمعايير الجدل المهنى.

ومثل أى فرع من فروع العلم ، فإن علم الاقتصاد يتقدم باكتشاف حدود الأفكار السابقة. وعلى الرغم من أن علم الاقتصاد لا تتوافر لديه الفرص اللازمة لإجراء التجارب ـ وهو ما يميز العلوم الطبيعية ـ إلا أن فى وسع الاقتصاديين أن يستخدموا الملاحظة المنتظمة وتحليل الخبرة لرفض النظريات القديمة وإيجاد نظريات جديدة.

وتعرقل التغييرات التى تطرأ على التكنولوجيا، وعلى البيئة السياسية والمؤسسية، عملية استخلاص نتائج محددة بشأن التأثيرات المحتملة للسياسات الاقتصادية البديلة. ومن الممكن أن يستغرق الأمر عقودا قبل أن تستقر القضايا، وقد تضطر أجيال جديدة من الاقتصاديين والمسئولين عن السياسة إلى أن يعلموا أن استنتاجات الماضى ما تزال صحيحة فى البيئة المتغيرة اليوم.

لقد رفض آدم سميث، Adam Smith ـ مؤسس علم الاقتصاد الحديث فى القرن الثامن عشر ـ المعرفة التقليدية فى زمانه، بمحاولته أن يبرهن على أن تدخل الحكومة فى الاقتصاد أمر ضار بصفة عامة، وأن المنافسة بين البائعين والمشترين الأفراد تخدم على نحو أفضل مصلحة الجمهور. ولقد اعترفت الحكومات فى جميع أنحاء العالم، فى السنوات الأخيرة، بفضائل اقتصاد السوق القائم على المشروع الخاص، وليس على التخطيط الحكومى والملكية العامة. والواقع أن خفض معدلات الضريبة فى الولايات المتحدة، وخصخصة الصناعات المؤممة فى إنجلترا وفرنسا، وإحياء المزارع العائلية فى الصين، وإعادة بناء الاقتصاد السوفيتى الذى يطلق عليه مصطلح إعادة البناء أو «البيروسترويكا » Perestroika، هى السلالات المباشرة للأفكار الأولى لآدم سميث.

لقد ساعدت نظريات جون ماينارد كينز John Maynard Keynes ـ التى وضعت فى انجلترا خلال كساد الثلاثينيات ـ الحكومات على تجنب العودة إلى البطالة الجماعية. بيد أن الحجج الكينزية ضد الإدخار، والمؤيدة لزيادة الإنفاق الاستهلاكى يجرى التخلى عنها تدريجيا باعتبارها غير ملائمة للأحوال المختلفة للغاية للاقتصاد الحالى. ذلك أننا نفهم الآن أن زيادة الإدخار يمكنها بصفة عامة أن تكون أساس الاستثمار المتزايد فى (المصانع الجديدة) والمعدات، ومن ثم لتحقيق نمو اقتصادى أسرع، ومستوى معيشة أعلى.

وعندما اتخذ المسئولون عن الاحتياطى الفيدرالى قرارات بشأن السياسة النقدية ومعدلات الفائدة ، فإنهم كانوا يعتمدون على أفكار وأدلة يمكن اقتفاء آثارها التى تصل إلى اقتصاديى القرن التاسع عشر مثل جون ستيوارت ميل John Stuart Mill، وكذا على أحدث المعلومات التى يجرى تطويرها فى واشنطن . وعندما يناقش المسئولون فى وزارة الخزانة قواعد الضريبة الملائمة لدور أعمال والأفراد، فقد يستفيدون من الحجج التحليلية التى ترجع إلى أكثر من قرن، إلى ديفيد ريكاردو David Ricardo وألفريد مارشال Alfred Marshall .

وبالمثل، فإن تحليل السياسة التجارية ونظم الطاقة والبيئة، والتشريع المضاد للتكتل الاحتكارى، يستند إلى أفكار ظهرت خلال القرون الماضية. ولذلك فإن تعرُّف هذه الأفكار الاقتصادية يعد أمرا مهما لأى شخص يريد أن يفهم كيف يحتمل أن تؤثر السياسات الجديدة على الاقتصاد، ولماذا يتم اختيار سياسات معينة.

وفى هذا الكتاب، يقدم تود. ج بوشهولز Todd G. Buchholz مدخلا يتسم بالحيوية والوضوح للأفكار الأساسية لعلم الاقتصاد، من خلال دراسة الاقتصاديين العظام الذين صاغوا هذا الفرع من العلوم. وقد قدم بوشهولز تفسيرات غير فنية وواضحة، وأمثلة حديثة، بدلا من النماذج التقليدية والرسوم البيانية المعقدة التى تركز عليها كتب النصوص الدراسية المعترف بها لعلم الاقتصاد.

لقد قابلت تود بوشهولز لأول مرة عندما كان يدرس مقررا تعليمياً عن مقدمة في علم الاقتصاد فى جامعة هارڤارد. لقد كان بوشهولز مدرسا ممتازا مما أسفر عن اختياره من بين ثلاثين مدرساً، آخرين لنفس المقرر التعليمى لنيل الجائزة السنوية للتدريس المتميز للمقدمة فى علم الاقتصاد. وتتضح مهاراته (فى فصول الدراسة) فى هذا الكتاب الجدير جدا بالقراءة.

كامبردج، ماساشوسيتش

يونيو ١٩٨٩

الفصل الأول

محنة الاقتصادى

ليس من السهل أن تكون اقتصاديا، ذلك أن مديرى الشركات يهاجمون الاقتصاديين لأنهم لا يحسبون التكاليف والمكاسب بدقة كافية. ويتهمهم المحبون للغير بأنهم يعنون كثيراً بالتفاصيل الخاصة بالتكاليف والمكاسب. أما بالنسبة للسياسيين، فإن الاقتصاديين يعدون بمثابة فريق مؤخرة السفينة الذين لايتركونهم يعدون بالرخاء دون تقديم تضحيات. وقد انبرى بعض أذكى الكتاب لتوجيه الإهانات لهم ومنهم جورج برنارد شو، George Ber-nard Shaw، وتوماس كارلايل Thomas Carlyle,. والواقع، أن الموسم المفتوح للهجوم على الاقتصاديين، قد بدأ منذ وصف كارلايل علم الاقتصاد بأنه «علم الكآبة».

ومع ذلك، فإن الاقتصاديين يشعرون بأنهم يتعرضون دون وجه حق للهجوم. وذلك نظرا لأنهم ليسوا عادة سبب الأخبار السيئة ، وإنما هم ببساطة مجرد رسل يحملون هذه الأخبار. ومن ثم فإن الرسالة بسيطة: إن على البشر أن يتخذوا خيارات صعبة، فلسنا بعد فى جنة عدن، ولا اللبن والعسل يتدفق على العالم. وعلينا أن نختار بين هواء أنظف أو سيارات أسرع، وبين منازل أكبر أو حدائق أكبر، وبين مزيد من العمل أو مزيد من اللهو. والواقع أن الاقتصاديين لا يقولون لنا أياً من هذه

الأمور هو الأمر السئ . إنهم يقولون لنا فحسب أنه لا يمكننا بالضرورة أن نحصل عليها كلها، وفى الحال. ذلك أن علم الاقتصاد هو علم دراسة الاختيار، وهو لايقول لنا ما يتعين علينا أن نختاره. إنه يساعدنا فحسب علي فهم عواقب خياراتنا.

والواقع أن الاقتصاديين العظام لم يكونوا راضين بأن يكونوا مجرد رسل. وعلى الرغم من أنهم تعرضوا للسخرية بأن أطلقت عليهم ألقاب غير ذات موضوع ـ سميث الأخرق، ميل الرفيع الثقافة، كينز المترف، إلى آخره ـ إلا أنه لا يمكن الاستخفاف بهم أو الحط من قدرهم بسبب دوافعهم. ومن السخرية أن الاقتصاديين أنفسهم يتعرضون لكثير من النقد الفظ فى عصرنا، وذلك نظرا لأن معظم المفكرين الاقتصاديين البارزين ـ كما لاحظ كينز ـ بدأوا كمصلحين مثاليين حمقى، يبحثون عن سبل لتحسين العالم. وكان ألفريد مارشال، بصفة خاصة، يرى أن علم الاقتصاد هو مهنة ينبغى أن تمزج العلم الرفيع بالإخلاص للشعب. وفى الوقت الذى كان فيه عالم القرون الوسطى يرى أن هناك ثلاث مهن كبرى هى: الطب الذى استهدف الصحة الجسدية، والقانون الذى استهدف الصحة السياسية، واللاهوت الذى استهدف الصحة الروحية.. فإن مارشال قد حداه الأمل فى أن يجعل من علم الاقتصاد المهنة النبيلة الرابعة، التى تستهدف صحة مادية أفضل ليس للأغنياء فحسب، وإنما للجميع. وقد حاول مارشال بشجاعة إصلاح ذات البين بين اتجاهين متنافرين وقويين: اتجاه نحو علم اقتصاد رياضى دون أن يكون له تطبيق عملى، واتجاه آخر نحو راديكالية عاطفية محضة، دون أن يكون له انعكاس نظرى دقيق. ولذلك فإن المنهج الذى كافح من أجل تحقيقه فى كامبردج جمع ما بين العقول الأكثر علمية وتلك الأكثر عاطفية . وكان كينز بالطبع هو المحصلة الفريدة لهذا المنهج.

لقد كانت السياسة هى العلاقة الأقوى دائماً بين علم الاقتصاد وبين العالم الحقيقى. وفى الواقع، لقد كان علم الاقتصاد يسمى «الاقتصاد السياسى» حتى

هذا القرن، وقد عمل معظم الاقتصاديين النوابغ تقريباً فى بعض الوظائف الحكومية. وليس أدل على ذلك من أن اثنين منهما ـ هما ديفيد ريكاردو وجون ستيوارت ميل ـ قد فازا فى انتخابات البرلمان البريطانى. ولذلك فإننا نرى أن الاقتصاديين العظام قد تميزوا ليس بوميض الاهتمام العلمى فحسب، وإنما نرى كذلك تدفق العاطفة لديهم. فإلى جانب الإحصائيات والرموز العديدة والحسابات فإننا نصادف أيضا علامات تعجب جريئة.

والواقع، إننا نرى عبر تاريخ الفكر الاقتصادى مواجهات، وأحياناً تعاوناً، بين الحكومة والاقتصاديين. وقد حظى علم الاقتصاد الحديث بالدفعة الأولى عندما أنكر آدم سميث الزواج المحرم بين الملوك وتجار أوروبا. ذلك أن من بين الأشياء القليلة التى اتفق عليها آدم سميث، وكارل ماركس Karl Marx، وثورستاين فبلن Thorstein Veblen، هى إدراكهم أن رجال الأعمال ينزعون إلى استخدام السياسة من أجل مساعدة أنفسهم. فقد حذر سميث، فى بيان شهير، من أن رجال الأعمال قلما يجتمعون دون أن يتآمروا ضد المستهلك. وحتى اليوم، ينبغى أن تتأكد من أن الخطيب الذى يشيد بالسوق الحر فى اجتماع الغرفة التجارية سوف ينتهز الفرصة لضمان الاحتكار أو إبرام عقد حكومى خاص، أو استصدار لائحة لضمان أرباحه. ومن دواعى الارتياح، أن السياسيين ليسوا دائما فى وضع يرغمهم على الرضوخ. ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وعد الزعماء الاشتراكيون بتحقيق الرخاء والفردوس الوشيك من خلال النقابية والتأميم. ولكنه بدلا من ذلك، ازداد الاقتصاد البريطانى سوءاً وتدهوراً. ويحكى أحد كتاب السيرة الذاتية لونستون تشرشل Winston ChurchiL قصة لقاء تشرشل مع زعيم حزب العمال فى غرفة الرجال خارج قاعة مجلس العموم البريطانى. لقد دخل الزعيم العمالى الغرفة أولا واتخذ وضعه واقفا، ثم دخل تشرشل بعد دقيقة واحدة من أجل ذات المهمة. وعندما رأى الزعيم العمالى خصمه واقفاً فى الطرف الآخر سأله: « نشعر

بالتحفظ اليوم، ألسنا كذلك ياونستون؟ فرد عليه تشرشل مزمجراً: «هذا صحيح، ولكن لماذا فى كل مرة تجدون فيها شيئاً ضخماً، ترغبون فى تأميمه!؟».

والواقع أن معظم رؤسائنا قد أظهروا فهماً ضئيلاً للمبادئ الاقتصادية. فقد اعترف جون. ف. كينيدى ذات مرة بأن الوسيلة الوحيدة التى يتذكر بها أن مجلس الاحتياطى الفيدرالى يسيطر على السياسة النقدية، وليس السياسة المالية هو أن اسم رئيس مجلس الادارة ويليام ماكيزنى مارتن William McChesny Martin يبدأ بحرف M، وهو ذات الحرف الذى تبدأ به السياسة النقدية. ومن الواضح، أن كينيدى لم يكن فى وسعه تعيين فولكر أو جرينسبان لهذا المنصب.

وتعد الحملات الانتخابية من أكثر الأوقات العصيبة بالنسبة للاقتصاديين. فعندما يعد السياسى ناخبيه بمزيد من الزبد ومزيد من العتاد الحربى، فإنه يتعين على الاقتصاديين أن يحذروا من العواقب الوخيمة. والواقع أن أى تقدم يحرزه الاقتصاديون فيما يتعلق بزيادة الوعى الاقتصادى يمحى خلاله ثانية واحدة من جزء الإفراط فى الوعود من جانب المرشح. ولذلك، فإن أحاديث عام الانتخابات هى المعادل السياسى للظهور فى أوقات الذروة فى برامج التليفزيون. فعندما يظهر مرشح للرئاسة على شاشة التليفزيون، فإنه لا يسمح لنفسه بأن يبدو أكثر قدرة وذكاء من «جيد كلامبت» مقدم برنامج «بيفرلى هيلبيليس» وليس هذا تحدياً كبيراً بالطبع، بالنسبة لبعض السياسيين.

وليس من العسير إدراك لماذا يسيئ السياسيون فهم آراء مستشاريهم الاقتصاديين. ذلك أن الاقتصاديين يتحدثون بلغة مختلفة عن تلك التي يتحدث بها السياسيون للجمهور، فهم يتحدثون بلغة النماذج. وليس أدل على ذلك، من أنهم فى محاولاتهم لشرح العالم المعقد فإنهم يعمدون أولا إلى تبسيط الأوضاع إلى عدد قليل من العوامل التى تبدو أكثر أهمية فى أى وقت معين، وذلك لأن كل ظاهرة اقتصادية تتأثر بآلاف الأحداث فعلى سبيل المثال يتوقف معدل الإنفاق الاستهلاكى

فى الولايات المتحدة على بعض العوامل التالية: الطقس، والذوق الموسيقى، الوزن، والدخل، والتضخم، والحملات السياسية، وأداء الفرق الأوليمبية الأمريكية. ويتعين على الاقتصاديين، حتى يفرزوا هذه العوامل ويرتبوها طبقا لأهميتها، أن يصمموا نماذج، من شأنها استبعاد عديد من العوامل اللانهائية التى يمكن أن تكون من الأسباب المحتملة. وفى هذا الصدد، فإن أفضل الاقتصاديين هم أولئك الذين ينجحون فى تصميم النماذج الأكثر بقاء وقوة.

ويتعين على كل العلماء، بالطبع، أن يصمموا نماذج. فطوال سنوات عديدة، استقرت الفيزياء على نموذج الجاذبية الذى وضعه نيوتن. أما علماء الفلك فلا يزالون يستخدمون النموذج الذى وضعه كوبرنيكس. ويبحث توماس كوهن Thomas Kuhn فى كتابه الكلاسيكى والمثير للجدل «هيكل الثورة العلمية» "The Structure of Scientific Revolutions" تطور تلك النماذج[٢] وفى ضوء هذا، لماذا يكون علم الاقتصاد أكثر صعوبة من هذه العلوم الصعبة؟ وفى هذا المقام قد يساعد أن نطرح مثالا يوضح الأمر: تصور جراحاً يجرى عملية فى كلية. فبعد تقرير أشعة إكس، يعرف الجراح أن الكلية اليمنى للمريض توجد تحت القولون ببوصة واحدة. ومع ذلك، تصور أنه بينما يستخدم الجراح مشرطه.. فإن وضع الكلية يتغير. وعلى نفس الوتيرة، فقد يحدث نفس الشئ تماماً بالنسبة للاقتصادى، بينما هو يقوم بعزل الأسباب المؤثرة وتقدير درجة تأثيرها على الظاهرة، التى قد تتغير بعد ذلك. ولذلك فكما تتغير العلاقات الإنسانية والمؤسسات الاجتماعية ، فإن موضوع بحثنا العلمى يتغير كذلك. ومن ثم، فإن علم الاقتصاد قد لا يكون علما «صعباً»، غير أن هذا لا يعنى أنه علم سهل. ونظراً لأنه يتسم بهذا النحو من السيولة، فمن الصعب تحديده فى وضع معين ودراسته.[٣] ولذلك، لا عجب فى أن اللورد كينز قد أصر على أن الاقتصادى الضليع يتحلى بمجموعة من المزايا غير العادية، أكثر من تلك التى يتحلى بها الفرسان أو حتى القديسيين:

«ينبغى أن يكون ملماً بالرياضيات، ومؤرخاً، وسياسياً، وفيلسوفاً... وينبغى أن يفهم الرموز، وأن يتحدث فى إيجاز. ويتعين عليه أن يتأمل الخاص فى ضوء مصطلحات العام، وأن يلمس المجرد والمادى فى نفس شطحة الفكر. وينبغى أن يدرس الحاضر فى ضوء الماضى من أجل المستقبل. ولا ينبغى أن يخرج عن دائرة اهتمامه أى جانب من طبيعة الإنسان أو مؤسساته. ويتعين عليه أن يكون هادفاً، غير مبال فى ذات الوقت؛ وأن يكون منعزلا وغير خاضع للتأثير كالفنان، ومع ذلك، عليه أن يكون فى بعض الأحيان، قريبا من أرض الواقع كالسياسى[٤]».

أصل علم الاقتصاد:

من أين نبدأ فى دراسة تاريخ الفكر الاقتصادى؟ قد يمكننا أن نبدأ بالكتاب المقدس، إذ إنه يتضمن بيانات كثيرة عن الأرض والعمل ورأس المال. بيد أن الكتاب المقدس يقدم وصايا أكثر مما يقدم تحليلات دقيقة[٥]. وعلى الرغم من أن آدم سميث قد اكتسب اسمه وموقفه الأخلاقى من الكتاب المقدس، إلا أن هذا الكتاب لم يقدم له سوى قدر ضئيل من الإلهام بالنسبة لنظرياته الاقتصادية.

وقد يمكننا أيضا أن نستكشف الملاحظات العميقة التى أبداها أرسطو Aristotle ، والتى تمتدح الملكية الخاصة، وتندد بتراكم الثروة من أجل الثروة ذاتها. غير أن أرسطو كان يعرف عن علم الاقتصاد ما يكفى لأن يدرك أن الزمن مورد نادر، ولذلك.. فقد كرس من وقته للفلسفة ولتعليم الإسكندر الأكبر أكثر مما كرس للنظرية الاقتصادية. وينطوى هذا الأمر على مغزى، إذ إن أرسطو يبقى واحداً من عمالقة الفلسفة، ولكن علينا أن نعترف أنه ترك ملاحظات ضئيلة فى تاريخ علم الاقتصاد، على الرغم مما ينطوى عليه ذلك من مخاطرة توجيه إهانة للمناهج الجامعية المتحمسة عن الحضارة الغربية.

وفى القرون الوسطى، ناقش علماء اللاهوت بعض القضايا الاقتصادية. لقد تصارع الدارسون الكاثوليك على قضايا العدل والمبادئ الأخلاقية فى السوق،

وابتكروا بصفة خاصة، مبدأ «السعر العادل»، ونقحوا وجهة نظر الكنيسة بشأن الربا. وبينما كان «العهد القديم» يحظر بصفة خاصة الإقراض بفائدة لأعضاء ذات الجماعة، إلا أن رجال اللاهوت فى القرون الوسطى حاولوا التمييز بين العناصر المختلفة للفائدة مثل المخاطرة وتكلفة الفرص، والتضخم، والتضحية، وذلك بهدف إحداث ثقوب في النهى المطلق مما يسمح بوجود ثغرات فيه. لقد واجه رجال اللاهوت خيارات مؤلمة، بمعنى أنهم اذا استمروا فى تقديم التفسيرات (الدينية) الصارمة، والتى من شأنها أن تهدد الأنشطة التجارية، فإن هؤلاء المعلمين سوف يفقدون جدواهم، وذلك نظرا لأن كثيرين من الأشخاص كانوا يرغبون فى أخذ فرصهم حتى مع العقاب السماوى. ومن ناحية أخرى.. فإنه إذا أجاز رجال اللاهوت ببساطة النزعة التجارية بكل أشكالها وصورها، فإنهم قد يفقدون مصداقيتهم كزعماء للكنيسة.. لقد ابتكروا معظم نظرياتهم الاقتصادية، بينما كانوا يباعدون ما بين العلمانى والمقدس. وهذا الأمر ليس وضعا مريحا، كما أنه لايساعد على دراسة علم الاقتصاد. فقد كانوا يتحدثون عن علم الاقتصاد باعتبار أن ذلك واجب تجاه رعاياهم، بيد أن الواجب الدينى كان يتمثل فى توجيه الرعية إلى ملكوت السماوات، وليس إلى تحسين مستوى المعيشة. ومع انشقاق البروتستانت وانقسام الرعية، فإن المهمة غدت أقل يسرا فى إدارتها[٦].

ولا يمكننا أن نشق طريقنا بسرعة خلال صفوف التجاريين؛ لأنه إذا ما تحدثنا بصفة عامة، فإنهم كانوا جماعة من الكتاب ومستشارى البلاط لدى الملوك الأوروبيين خلال القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر. ولم يكن لديهم كتاب جيد مشترك، وكانت تحركاتهم بالتأكيد مصالح مختلفة. وقد دعمت العائلات الملكية فى إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وهولندا حدود بلادهم، وخاضوا المعارك من أجل السيطرة على المستعمرات عبر البحار، ولذلك شرع المحامون والتجاريون فى إسداء النصح والمشورة للملوك والملكات حول كيفية إدارة اقتصادياتهم.

وإذا ألقينا نظرة على تطور الأحداث.. ففى وسعنا أن نسجل عديداً من المبادئ الجوهرية التي تنطوى عليها توصياتهم: أولاً، يتعين على الأمة أن تحافظ على جعل بيتها مرتباً، من خلال منح الاحتكارات وبراءات الاختراع، وأوجه الدعم والامتيازات للرعايا المخلصين للعرش. ثانياً، ينبغى على الأمة أن تسعى للسيطرة على المستعمرات بقصد الحصول على المعادن الثمينة والمواد الخام، والتى كانت تعتبر مقياساً جيداً للثروة القومية، نظرا لأنها قد تسدد تكلفة حروب الغزو. ثالثاً، يتعين على الأمة أن تحد من تجارتها الخارجية؛ بحيث يتسنى لها أن تصدر السلع تامة الصنع أكثر مما تستورد . ذلك أن تحقيق ميزان تجارى إيجابى على نحو مستمر، من شأنه جلب الذهب (الثروة) من الأمم المدينة.

وهكذا، وفى ظل النزعة التجارية، نرى أمماً توسع نطاق حدودها. ومع ذلك ـ وفى نفس الوقت ـ نرى قيوداً مشددة على الاقتصاد الداخلى، إذ توزعت القوة الاقتصادية عن طريق النقابات الحرفية والاحتكارات والجمارك على الأشخاص المفضلين سياسيا. وقد اتسع التحكم والتدخل فى بعض الأمم عنه فى أمم أخرى. وليس أدل على ذلك من أن وزير المالية الفرنسى ـ جان بابتيست كولبرت، Jean Baptiste Colbert ـ قد وضع تنظيما شاملا ومحكما لصناعة كثير من السلع خلال حكم لويس الرابع عشر، ومنح سلطة كبرى للحرف. وفى استعراض مذهل للسلطة الإمبريالية، أعلن ذات مرة، أن نسيج القماش الذى تنتجه ديجون ينبغى أن يتألف من ١٤٠٨ خيطا!

لقد مثل التجاريون الموضوع الرئيسى لآدم سميث، ولذلك فإنه قد يكون من المعقول، أن نستهل به دراسة الفكر الاقتصادى الحديث. وقد فند آدم سميث نظرياتهم من نواحٍ عديدة. فهم يقيسون الثروة على أساس النقود والمعادن النفيسة، بينما أعتقد سميث أن الثروة الحقيقية ينبغى قياسها بمستوى معيشة الأفراد، ذلك أن حقائب الذهب لا تتحول بالضرورة إلى حقائب مواد غذائية. ومن ناحية أخرى

فقد كان آدم سميث يرى أنه ينبغى قياس الثروة من وجهة نظر المستهلكين من أفراد الأمة. ومن ثم.. فإن الإجراءات التى من شأنها وضع الأموال فى أيدى رؤساء الوزارات أو المنافقين من التجار، لا تساعد بالضرورة مواطنى الأمة. وأخيراً فقد عرف سميث بأن الدافع الفردى والاختراع والابتكار يدفع الاقتصاد إلى تحقيق رخاء أكبر. ولذلك فإن السياسات التجارية القائمة على توزيع هبات الاحتكار والحماية، تؤدى إلى شلل الجسد السياسى. وهكذا بدأ علم الاقتصاد الحديث.

هل ينبغى تجاهل الاقتصادى ؟

منذ أيام آدم سميث، لم ننجب سوى عدد قليل من الاقتصاديين الأفذاذ. والواقع أن النظرية الاقتصادية الأساسية لا تشـرح كـل شئ. وقد واجه الاقتصاديون المعاصرون ـ بصفة خاصة ـ أوقاتاً عصيبة، وهم يفسرون سوق العمل والانخفاض فى نمو الإنتاجية منذ أوائل السبعينيات. ومع ذلك فإن الاقتصاديين قد اتفقوا ـ بدرجة كافية ـ على أن البلاد والأفراد يقدمون على مخاطرات حمقاء بتجاهلهم للمبادئ الأساسية للنظرية الاقتصادية؛ إذ إن الأمة التى تفرض حواجز على التبادل التجارى ـ كرغبة سلفية منها لتحقيق ظروف تجارية مستقرة ـ تلحق الضرر بالمستهلكين. كما أن الأمة التي تحرص على بقاء أسعار المنتجات الزراعية مرتفعة تضر مستهلكيها، وتجد لديها فائضاً من الغلال التى تفسد فى الصوامع. وهناك عدد قليل من الاقتصاديين يختلفون حول هاتين النقطتين. ومع ذلك، فإن عدداً أقل من السياسيين فى العالم يستمعون لوجهات النظر هذه.

حتى إذا لم تأخذ الحكومات دائما بنصيحة الاقتصاديين، فإن فى وسعنا أن نتطلع إلى الاقتصاديين ليقولوا لنا إلى أى مدى وصل مستوى معيشتنا، وإلى أين يتجه. فمنذ اشتعلت شرارة الثورة الصناعية فى إنجلترا، تطلع الأمريكيون دائما إلى الأمام للحصول على ماهو أكبر وأفضل. ونحن نرى أن ما وصلنا إليه فى الحاضر إنما يمثل الحد الأدنى. ومع ذلك.. فإن التاريخ لم يعرف فى الماضى مثل هذا

التقدم المستمر، ففى كل عام حين تتجنب الدول الصناعية الوقوع فى عصر مظلم جديد.. فإننا نسجل بذلك نصرا للإنسانية. وعليك أن تصغى إلى كلمات جورجيس دوبى Georges Duby، وهو يصف أوروبا خلال القرن الحادى عشر. فمن المفزع أن نفكر فى أن تلك العقود التى امتلأت المآسى جاءت بعد ـ وليس قبل ـ الوفرة المادية النسبية لليونان وروما وبابل ومصر فى عصرها القديم.

«... العالم الغربى فى عام ألف.. عالم وحشى يطوقه الجوع. إن عدد سكانه الضئيل هو ـ فى الواقع ـ عدد كبير جدا ذلك أن الأفراد يناضلون بأيديهم وحدها تقريباً، وهم بمثابة العبيد للطبيعة القاسية التى لا تلين، وللأرض التى لاتنتج لأن ما يبذل فيها من مجهود ضئيل وضعيف. ولا يتوقع أى فلاح عندما ينثر بذرة القمح أن يحصد أكثر من ثلاثة ـ إذا لم يكن عاماً سيئاً، وهذا يعنى حصوله على خبز يأكل منه حتى وقت عيد الفصح. وعندئذ سوف يحاول تدبير طعامه من الأعشاب وجذور النباتات، ومن ضفاف الأنهار، وسوف يقوم بالمهام الثقيلة للصيف، على بطن خاوية، ويذوى من الإرهاق فى انتظار الحصاد.. وفى بعض الأحيان، عندما تتسرب إلى الأرض الأمطار الغزيرة للغاية ـ على نحو يعرقل حرث التربة خلال موسم الربيع، وعندما تهب الرياح العاصفة وتتلف المحاصيل الزراعية ـ عندئذ.. يؤدى نقص المواد الغذائية إلى مجاعة، تفضى إلى موجة من الموت جوعاً. وقد وصفت حوليات تلك الأزمنة مثل تلك المجاعات: «وقد طارد الأشخاص بعضهم البعض حتى يأكلوا بعضهم البعض، وقد قتل الكثيرون أشقاءهم من البشر حتى يقتاتوا على لحمهم البشرى، مثل الذئاب تماماً» (٧).

فهل يواجه العالم المتقدم مثل هذه الأحداث الرهيبة؟ هل يتدهور به الحال إلى مثل هذا الوضع المخيف الذى يعانى منه بعض جيرانه من دول العالم الثالث؟ لا أحد يستطيع أن يعرف ، حتى كينز فى أكثر أحلامه غرابة، لا يمكن أن يعرف

الاجابة. إننا نعرف فحسب أن هدف كبار الاقتصاديين كان يتمثل فى تعليمنا كيف نتجنب مثل هذه الهوة المظلمة.

من المثير للدهشة أن كثيراً من دروس الاقتصاديين العظام ما تزال تتحدث إلينا. فكثير من نظرياتهم الحكيمة ينطوى على مسائل عملية أو أمثلة ترتبط بالحاجز. ويسعى هذا الكتاب إلى التماس حكمتهم بالنظر فى النظريات الأساسية لعلم الاقتصاد، فمن كان أول من فطن إلى هذه الأمور الجوهرية، ووضع هذه النماذج المعمرة؟ إن فى وسعنا أن نتعلم من الأساتذة الكبار. وقد قصد من بعض الأمثلة المعاصرة الواردة فى هذا الكتاب أن تكون باعثة على المرح. ذلك أن ديفيد ريكاردو لم يكن فى وسعه أن يلقى نظرة على «جزيرة جليجان» ليشرح نظرية الميزة النسبية. إلا أننى آمل ألا يؤدى هذا إلى أى نوع من الازدراء، وأن يقدم بعض العون لفهم النموذج الصعب. والواقع أنه ليس من الضرورى أن يكون علم الاقتصاد علماً كئيبا فلماذا لا تكون لنا الضحكة الأخيرة على كارليل، وذلك بأن نترك للاقتصاديين الراحلين حق تصحيح سمعتهم السيئة، وأن يقدمون لنا الدروس التى تركوها لنا؟. من الأفضل أن تنشرح صدور أشباح الاقتصاديين فى مقابرهم من الضحك والسعادة، بدلاً من أن يشعروا بالإحباط واليأس، لأننا نسينا أعمالهم وتركنا أنفسنا نعود القهقرى إلى القرن الحادى عشر.

الفصل الثانى

العودة الثانية لآدم سميث

عندما فاز رونالد ريجان فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٠، ابتهج المؤيدون المحافظون فى واشنطن. وقد تبادلوا تهنئة أنفسهم فى حفلات الكوكتيل، وتطلعوا إلي الأمام لتحقيق الرخاء فى ظل الاقتصاد الريجانى،كما لاحظوا أنهم كانوا يرتدون نفس رابطة العنق التى كانت تميز شخصية آدم سميث.

لماذا كان السياسيون والعناصر النشطة الذين كانوا يشعرون بالزهو والخيلاء الوطنى يحتفلون بشخصية رجل اسكوتلاندى من القرن الثامن عشر؟ لماذا لم يحتفلوا بتيودور روزفلت أو توماس جيفرسون أو حتى بارى جولدووتر؟ هل كان آدم سميث حقا أكثر صلة بالأزمة الاقتصادية المعاصرة من آلاف الاقتصاديين والزعماء السياسيين، الذين جاءوا من بعده؟

وكان آدم سميث يعتقد أن أفكاره ستكون ضرورية وفعالة إلى الأبد، وتلك كانت سمة مشتركة للمثقفين فى القرن الثامن عشر، وهو عصر ثورى حقا. لقد بدأ الفوران السياسى يغلى في فرنسا وأمريكا. ففى الوقت الذى كتب فيه سميث أعظم أعماله «ثروة الأمم» The Wealth of Nation، كان التجار يتاجرون داخل الجزر البريطانية وعبر البحار السبعة، وكان عدد السكان يتزايد، والتجار، ينظمون مصانع صغيرة، وكانت النظم المصرفية تنتشر فى جميع أنحاء بريطانيا والقارة، غير

أن ثورة التنوير الأكثر قوة وعمقاً، كان يضطلع بها مفكرون، يبحثون عن تفسيرات جديدة للعالم الذى يحيط بهم. ولا عجب أن كان سميث قد أعلن ذات مرة فى محاضراته: «إن الإنسان حيوان قلق»[1].

ومنذ القرون الوسطى وحتى عصر كولومبس Columbus تقريباً، كان رجال اللاهوت يسيطرون على الفكر الثقافى الأوروبى. وكان حكماء الكنائس يفسرون الظواهر الطبيعية طبقاً للعقيدة الدينية. غير أنه اعتباراً من القرن الذى أدى إلى مولد سميث، بدأ عدد متزايد ممن يتبعون السبل الجريئة لكل من فرانسيس بيكون Francis Bacon ونيقولاس كوبرنيقوس Nicolaus Copernicus فى البحث عن تفسيرات عقلانية للأحداث الطبيعية. وأخيراً، برز العلماء على نحو مستقل عن الكنائس الحاكمة، وطبقوا «المنهج العلمى» لقوانين الطبيعة بغض النظر عما يسفر عنه من نتائج مثيرة للجدل.

فقد هاجم جالليليو جاليلى Galileo Galilei الاعتقاد الدينى بأن الله منح الإنسان كتابين فقط هما الكتاب المقدس والطبيعة. وقد زعم جالليليو أن لغة كتاب الطبيعة هى لغة الرياضيات، وأثبت باستخدام الرياضيات والتجربة، دون أن يستعين بالكتابات المقدسة، قانونه الخاص بالأجسام الساقطة. وكان جالليليو يدرك أنه يخطو على أرض غادرة، وحاول أن يتجنب المحاكمة. وفي عام ١٦٣٢، شعر بالخوف عندما أكدت تجاربه التى استخدم فيها التيلسكوب هرطقة كوبرنيكوس بأن الأرض تدور حول الشمس ولذلك أهدى اكتشافاته للبابا. وكان على صواب فيما يتعلق بالأرض، وكان على صواب أيضاً فى أن يخاف من غضب الكنيسة والمحكمة التى أدانته فيما بعد.

وقد حذر رينيه ديكارت René Descartes فى نهاية كتابه «مقال بشأن المنهج (١٦٣٧)» Discourse on Method من الانفجار الفكرى فى القرن الثامن عشر، وذلك من خلال سعيه للتدليل على أن فى وسع الناس أن يكونوا «سادة ومالكى الطبيعة»، باستخدام العلم العملى.

ومع ذلك.. فقد كانت الشخصية المضيئة لحركة التنوير هى شخصية إسحق نيوتن Isaac Newton. لقد تابع نيوتن البحوث العلمية لجاليلليو، وبحث ـ دون الاستعانة بالنصوص الدينية ـ عن إجابات كشف عنها في نظريته عن الجاذبية، وقوانين حركة المادة، واكتشاف حساب التفاضل والتكامل.

وبدا أن نيوتن يصور الإله على أنه كان لاعباً أساسياً عند بدء الخليقة للكون فقط، وباعتبار أنه مسئول عن العالم اليوم، مثلما يكون صاحب محل رهونات مسئولا، بعد ان تغادر الساعة المرهونة المحل. وقد رأى الفيلسوف الألمانى ليبنتس Leibniz أن نيوتن قد ضاعف من عدم احترامه للمقدسات الدينية، عندما شبه الله بصانع ساعات غير بارع.

وقد ولد آدم سميث وسط هذه الحركة. وعلى غرار جالليليو ونيوتن، بحث سميث عن علاقات السبب والنتيجة، ولكنه بدلاً من أن يركز نظره على الكواكب، ركزه على الأفراد.

ولد سميث عام ١٧٢٣ وتربى مع أمه فى كيركالدى، وهى ميناء صغير يقع عبر خليج فورث بأدنبره. وقد مات أبوه الذى كان يعمل مراقب حسابات فى الجمرك، قبل شهور من مولده، أما سميث نفسه فلم يتزوج قط.

ولقد كان سميث أسكوتلانديا غريب المنظر، رغم أن هذا لم يتضح فى أربطة عنق آدم سميث التى ارتداها المحافظون فى واشنطن. لقد كانت له أنف كبيرة، وعينان جاحظتان، وشفة سفلى بارزة، ورعشات عصبية، وعثرات في الكلام . وقد اعترف سميث ذات مرة بملامحه غير العادية قائلا: « إننى لست وسيماً فى أى شئ سوى فى كتبى».

وكان سميث طالباً مجداً، التحق بجامعة جلاسجو، وهو فى الرابعة عشرة من عمره، ثم قبل بعد ذلك منحة دراسية فى كلية باليول بجامعة أوكسفورد. ومثل

معظم طلاب الجامعة الآخرين فى ذلك الوقت، كان سميث يعتزم دراسة اللاهوت والانضمام إلى رجال الدين. ومثل كثيرين من طلاب الكلية فى كل زمان، كان سميث يشكو من مدرسيه وقد ندد بالمحاضرين وقال: «إن الجانب الأكبر من الأساتذة فى جامعة أكسفورد، قد تخلوا فى تلك السنوات العديدة حتى عن التظاهر بالتدريس». والأهم من ذلك إن سميث وجه إلى الرقابة الأكاديمية انتقاداً لاذعاً، واشتكى لأصدقائه من أن المسئولين فى الكلية قد صادروا نسخته من كتاب ديفيد هيوم عن «بحث فى الطبيعة الإنسانية» Treatise on Human Nature . وعلى الرغم من أنه قد سمح لسميث بقراءة كل المؤلفات اليونانية القديمة والكلاسيكيات اللاتينية، إلا أنه قد حظر عليه أن يقرأ كتابا من أكثر مؤلفات عصره فعالية.

وعلى الرغم من القيود الأكاديمية، إلا أن سميث قد تأثر أيما تأثير بنزعة الشك عند ديفيد هيوم فى كتابه (نظرية عـن الطبيعة البشرية) A Theory of Human, Nature وبه عنوان فرعى هو «محاولة إدخال المنهج التجريبى في التفكير على الموضوعات الأخلاقية» ، ولذلك فقد رفض الاستمرار فى إعداد نفسه للانضمام إلى رجال الدين. وبدلا من ذلك عاد إلى كيركالدى، حيث ألقى فيما بعد محاضرات، ذات شعبية عامة فى البلاغة علم والقانون.

وفى عام ١٧٤٨ ، عاد سميث إلي جامعة جلاسجو لتدريس المنطق، وشغل فى العام التالى كرسى الفلسفة الأخلاقية الذى كان يشغله مدرسه السابق فرانسيس هاتشيسون Frances Hutcheson. وكان هاتشيسون «الجامعى الراديكالى» قد أثار مديرى الجامعة برفضه إلقاء محاضرات باللغة اللاتينية. وعندئذ قدمه مجلس الكنيسة للمحاكمة لنشره المبادئ الزائفة والخطيرة التالية:

١ ـ أن معيار الخير الأخلاقى هو تعزيز السعادة للآخرين.

٢ ـ أنه من الممكن معرفة الخير والشر دون معرفة الله.

وكما سنرى.. فإن سميث قد استوعب كثيراً من تصريحات هاتشيسون الخطيرة. ولقد ناضل هاتشيسون بصورة نبيلة من أجل الحرية الأكاديمية ، فى مواجهة العقيدة الحاكمة، وعلى عكس جالليليو.. فإن هاتشيسون لم يحاول أن يتجنب توجيه اللوم له بإهداء أبحاثه للبابا، وهو أمر لم يكن من شأنه أن يتمخض، على أى حال، عن أى خير كثير فى أسكوتلاندا البروتستانتية.

ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن أفكار سميث ترتبط عادة فى الوقت الراهن بالسياسات المحافظة، غير أنه نظراً لأن جذوره الثقافية كانت راديكالية إلى حد ما، علاوة على أن بعض المحافظين المعاصرين يشعرون بقليل من القلق تجاه سميث. رغم ذلك، فإن آخرين كانوا يسعون باستماتة لوضع نظرياته الرأسمالية على نفس المذبح المقدس، مثل: الله، أو الأم، أو فطيرة التفاح أو الديمقراطية.

وبعيداً عن اتباع الأسلوب الكسول لأساتذة أكسفورد، الذى كان قد هاجمه.. فإن سميث الأستاذ سرعان ما اكتسب مكانة مرموقة بسبب محاضراته الواضحة واهتمامه بطلبته. وعلى الرغم من أنه كان يلقى المحاضرات، ويتولى تنشئة الطلاب، ويعقد مناقشات غير رسمية، فقد وجد وقتاً ليعمل أميناً لصندوق الكلية، ثم أصبح فيما بعد عميدا لها.

ولم يقم سميث بتدريس أى منهج في علم الاقتصاد. والواقع أنه لم يتلق أى منهج فى علم الاقتصاد، وهو ما لم يفعله أى شخص آخر. وحتى القرن التاسع عشر، كان الأكاديميون يعتبرون علم الاقتصاد فرعاً من فروع الفلسفة. ولم تنشئ جامعة كامبردج حتى عام ١٩٠٣ برنامجاً لعلم الاقتصاد منفصلاً عن « العلوم الأخلاقية ». ورغم ذلك، فإن سميث ضغط أفكاره الأولية عن علم الاقتصاد فى محاضرات عن فلسفة التشريع. وتشير الملاحظات التالية التى دونها أحد الطلبة إلى أصل تحليله الأساسى للعمل، والذى توسع فيه فيما بعد فى كتابه «ثروة الأمم» كما يلى:

«إن تقسيم العمل هو السبب الكبير لزيادة الثروة العامة، والتى تتناسب دائما مع كد الشعب، وليس مع كمية الذهب والفضة على نحو ماهو متصور، على نحو خاطئ»[٣].

لقد ناقشنا حتى الآن تعليم سميث وظهوره، ولكننا تجنبنا الحديث عن صفاته الشخصية المميزة والواقع أنها موضوع دقيق، فقد لاحظ سيجموند فرويد Sigmund Freud أن الأشخاص لديهم ميل لإعلاء شأن أجدادهم، وقد أطلق على ذلك اسم «الرومانسية العائلية». ولذلك قد يصاب الاقتصاديون الناشئون بخيبة الأمل، عندما يكتشفون أن أجدادهم لم يكونوا فى مثل ذكاء نيوتن، ولا براعة فولتير Voltaire، وليسوا فى مثل السلوك المشين لبيرون Byron. وفى الواقع ـ وعلى الرغم من الميل إلي الرومانسية العائلية ـ إلا أن المؤرخين الاقتصاديين يعترفون بأن سميث كان أخرق إلى حد ما.

وفى الوقت الحاضر، يشعر الاقتصاديون المحترفون بالسأم من القصص الكثيرة عن تصرف سميث على نحو يتسم بشرود الذهن. ورغم ذلك فإن هذه الحكايات لايزال من الممكن أن تسلى الدارس المبتدئ.

وذات يوم بينما كان النبيل تشارلز تاونشيند فى جلاسجو، اصطحبه سميث فى جولة فى مصنع لدبغ الجلود. وبينما كان يتحدث بحماسة عن مزايا التجارة الحرة، سار سميث ـ دون أن يدرى ـ مباشرة إلى بركة ضخمة تمتلئ بسائل لزج يثير الغثيان. وبعد أن جذبه العمال من البركة، وخلعوا ملابسه ودثروه فى بطانية شكا سميث من أنه لا يمكنه قط أن يجعل حياته منظمة.

وفى يوم آخر، نزل سميث من سريره وبدأ يمشى، ويمشى، ويمشى وبعد خمسة عشر ميلاً أيقظه من نومه قرع أجراس الكنيسة. وقد شوهد أشهر الاقتصاديين فى زمانه وهو يعود جرياً إلى منزله، بينما جلباب نومه يتطاير فى النسيم.

سميث الفيلسوف

حتى قبل أن يكتب سميث كتابه « ثروة الأمم »، كان قد حظى بالشهرة فى عام ١٧٥٩ بكتابه عن السلوك الأخلاقى ، «نظرية الأحاسيس الأخلاقية» The Theory of Moral Sentiments ، وأصبح يعرف باسم «سميث الفيلسوف »، نظراً لزيادة مبيعات الكتاب. وقد اقتضت « نظرية الأحاسيس الأخلاقية » تقاليد حركة التنوير. فكما كان العلماء يبحثون عن أصل النظام الشمسى، كان سميث يبحث عن أصل المقبول وغير المقبول أخلاقيا.

كيف يمكن للمرء المعنى أساسا بنفسه أن يصدر أحكاماً أخلاقية من شأنها إرضاء الآخرين؟ وبعد كل شئ.. فإن كل شخص يتمحور حول نفسه، تماماً مثلما تقف الشمس فى مركز الكواكب. فهل تعبأ الشمس بما تفكر فيه الكواكب الأصغر؟ لقد ناضل سميث مع هذا التناقض، سائلاً نفسه إذا كان الناس أنانيين، فلماذا لا تشبه كل مدينة الحالة الخبيثة، التى صورها المنظر السياسى توماس هوبز Thomas Hobbes فى كتابه «التنين» Leviathan، إذ ذهب إلى أن حياة الإنسان تكون حياة «وحيدة وبائسة وكريهة ووحشية وقصيرة» إلى أن تنشأ الحكومات.

وأخيرا، قدم سميث إجابة ماهرة. فقد قال إنه عندما يواجه الناس خيارات أخلاقية.. فإنهم يتصورون وجود « متفرج محايد » يقدر موقفهم بعناية، ويسدى لهم النصيحة. ولذلك، وبدلا من أن يتبعوا ببساطة مصلحتهم الشخصية، يأخذون بنصيحة هذا المراقب الخيالى. وعلى هذا النحو يتخذ الناس قراراتهم على أساس التعاطف وليس الأنانية.

ويحط كثير من النقاد من شأن الاقتصاديين فى العصر الحديث، لافتراضاتهم القائمة على الدوافع الأنانية فقط، ولاهتمامهم فقط بالتكاليف والمكاسب، ولتجاهلهم الجانب الأكثر نبلاً فى الإنسان. وهم يعلنون أن الاقتصادى قزم

أسطورى أخلاقى، وقد ينطبق هجومهم على البعض، ولكنه لا ينطبق على آدم سميث، فقد كان واعياً بالتعاطف والعواطف، ومن ثم خصص كتاباً كاملاً لهذه العواطف. وفضلاً عن ذلك.. فإن كتابه «نظرية فى الأحاسيس الأخلاقية» قد أشار إلى كثير من المفاهيم التى طورها علم النفس التحليلى الفرويدى بعد أكثر من قرن ذلك أن مفهوم فرويد عن «الأنا العليا» ـ وهى الضمير الذى يكبح البشر عن القيام بأعمال معينة، ويجعلهم يشعرون بالذنب إذا لم يستمعوا له ـ ليس بعيداً عن المراقب الخيالى الذى وصفه سميث.

وقد حلقت شهرة سميث عندما انتشر كتابه فى جميع أنحاء بريطانيا والقارة الأوروبية. وقد ترك الطلاب الأغنياء ـ الذين سمع آباؤهم بمؤلفات هذا المفكر الأسكتلندى ـ مدارسهم فى فرنسا وسويسرا وموسكو للالتحاق بجامعة جلاسجو. ويتصور المرء سميث فى القرن العشرين، وهو يظهر فى برنامج تليفزيونى، أو يتحدث فى المذياع بشكل مستمر عن كتابه . وإذا ما أخذنا فى الاعتبار حالة الشرود الذهنى المزمنة التى تعتريه ، فربما سيكون ضيفاً مثيراً للاهتمام، خاصة عندما يظهر فى برامج التليفزيون الليلية المتأخرة، وهو يرتدى جلباب نومه. ومن المؤكد أن سميث لم يكن قانعاً بالبقاء حبيساً داخل البرج العاجى؛ ففى جلاسجو التقى مع رجال البنوك والتجار والسياسيين، وفى نادى الاقتصاد السياسى، حاول شرح كيف يعمل رجال الأعمال. وكما سنرى، لقد تعلم سميث ألا يثق فى دوافع التجار.

إلى فرنسا والطبيعيين (الفيزيوقراط)

وسرعان ما بدأت جلاسجو ـ رغم اتجاهها العالمى ـ الإحساس بالملل نحو سميث، فاستقال من منصب الأستاذية عام ١٧٦٤، وأصبح معلماً لابن دوق بوكليش الراحل. وكانت أم الفتى قد تزوجت من تشارلز تونشيند المعجب بسميث، الذى أصبح ـ فيما بعد ـ وزيراً للخزانة وشق طريقه إلى كتب التاريخ،

عندما أشعلت الضرائب التى فرضها، ثورة بعض أهالى المستعمرات عبر الأطلنطى. وقد انطوى عمل سميث على التجول فى أوروبا، حتى يساعد الفتى على صقل ملكاته وقدراته، وأن يحضر الحفلات الراقصة التى تتسم بالإسراف والبذخ، وكان سميث يتقاضى نظير ذلك ٣٠٠ جنيهاً استرلينياً كل عام، بالإضافة إلى المصروفات، وكذا ٣٠٠ جنيهاً استرلينياً كل عام كمعاش (وهى ضعف مرتبه الرسمى تقريباً). وقد استشار سميث مستشاره المحايد، الذى وافق على قراره على نحو يتسم بالتعاطف. ولأنه قبل العرض.. فقد اضطر إلى مغادرة جلاسجو فى منتصف المنهج الدراسى، وقد حاول أن يعيد المصروفات التي جمعها من طلابه المخلصين إليهم ، غير أنهم رفضوا ذلك.

وكانت أول وقفة فى جولته وأكثرها بعثاً للسأم هى تولوز بفرنسا. وذات ليلة، أوحى استياء سميث بما نتذكره عن المسرحية الهزلية القديمة عن قضاء أسبوع فى بروكلين. ويمكن أن نتصور أن سميث سيكون أكثر سعادة بقضاء أسبوع هناك، ذلك أنهم على الأقل يتكلمون نوعاً من اللغة الانجليزية، بينما كان سميث يتحدث الفرنسية بصعوبة بالغة. وبدلاً من أن يمضى سميث وتلميذه أسبوعاً، فقد مكثا عاماً ونصف عام فى تولوز. لقد قال صمويل جونسون ذات مرة: أنه لا شئ يساعد الإنسان على تركيز تفكيره على نحو رائع، سوى أن يعرف أنه سيعدم شنقاً خلال أسبوعين. ورغم أن تولوز لم تكن بالضبط مقصلة.. فإنها ألهمت سميث بأن يركز تفكيره، وأن يكتب عن علم الاقتصاد. وفى خطاب يتسم بالتواضع، كتبه إلى هيوم Hume، قال فى سميث: «لقد بدأت اكتب كتاباً كى أزجى وقت الفراغ»[٤].

وبعد الإقامة فى جنوب فرنسا، تحرك الركب إلى جنيف، حيث التقى سميث مع فولتير Voltaire، وأخيراً إلى باريس. وكانت باريس تفور بالنشاط الإبداعى الثقافى والفنى. واستمتع سميث بالمسرح، وقابل شخصيات مثيرة للاهتمام، مثل:

بنيامين فرانكلين Benjamin Franklin، واكتشف مدرسة نشطة لعلم الاقتصاد تعرف باسم مدرسة الطبيعيين (الفيزيوقراط) Physiocrats. وقد أسس فرانسوا كيزناى Francois Quesnay وهو طبيب فى بلاط الملك لويس الخامس عشر، وكان معتداً بنفسه، وله أصدقاء يشغلون مناصب رفيعة. وقد قدم الطبيعيون بعض الأفكار البسيطة فى لغة مبهمة وجداول غامضة، أطلقوا عليها اسم «الجدول الاقتصادى» Tableau economique. وجمع كيزناى تلاميذ مطيعين، أطلقوا عليه لقب السيد والأب، «كونفوشيوس أوروبا» و«سقراط الحديث[٥]» وقد عمل الطبيعيون بهمة ونشاط لتقدم بحث حركة التنوير عن قوانين الطبيعة، غير أنهم كانوا لا يعتقدون بأن فى وسع الإنسان أن يسيطر سيطرة كاملة على الطبيعة؛ ففى إمكان الأشخاص أن يحققوا الازدهار فقط إذا فهموا قوانين الطبيعة. وفى الواقع أن الطبيعية تعنى «حكم الطبيعة».

ويصور «الجدول الاقتصادى» تفكير الطبيعيين على نحو ذكى. وتماماً مثلما بدأ أطباء مثل كلود برنارد Claude Bernard فى تشريح الجسم الإنسانى ورسم جدول للدورة الدموية فإن كيزناى وضع جدولاً لدورة الدخل فى الاقتصاد. وبدلاً من الأيدى والأقدام والأذرع وسيقان الأقدام، رأى كيزناى أن الجسد السياسى يتألف من ثلاث طبقات يعتمد بعضها على البعض بصورة طبيعية، وهى: المزارعون والصناع والملاك (أصحاب الأراضى الزراعية وغيرها من الممتلكات). ومن سوء الحظ، أنه عقد الجدول بخطوط متعرجة على نحو لم يكن يفهمه أحد، فيما بدا، غيره. واعترف كيزناى بأنه حتى تلميذه الأساسى ميرابو الأب Mirabeau the elder «كان يتعثر فى هذه الخطوط المتعرجة»[٦]. ورغم ذلك، وفى أسلوب يتسم بالتملق.. امتدح ميرابو الجدول على أنه اختراع غير عادى مثله مثل الكتابة.

وقد ناقش الطبيعيون بحماس نقطتين هما: الأولى، هى أن الثروة تنشأ من الإنتاج، وليس من حيازة الذهب والفضة، على نحو ما كان يفكر التجاريون. والثانية، هى أن الإنتاج الزراعى وحده هو الذى ينتج الثروة، بينما لا ينتجها التجار

والصناع وغيرهم من العمال. والواقع أنهم سوف يحصلون فى أى امتحان لعلم الاقتصاد على درجة قدرها ٥٠٪، فقد قالوا بحق إن الأمة التى تنتج السلع هى أمة أغنى من تلك التى تكدس ببساطة المعادن النفيسة. ولكنهم يفقدون نقاطاً فى هذا الامتحان، عندما يقولون إن الصناعة والتجارة والصناعات الخدمية هى أنشطة «عقيمة»، وغير منتجة ، وأنها مجرد أدوات لنقل الثروة. وبدون الخطوط المتعرجة التي توجد فى كل أنحاء النموذج.. فإننا نلاحظ أن الطبيعيين كانوا يدافعون عن سياسات من شأنها جعل الزراعة هى القطاع الإنتاجي الوحيد، بل والقطاع الأكثر إنتاجاً. وعلى سبيل المثال، جادلوا الحكومة فى أن تحرر الاقتصاد من القيود المفروضة على التجارة، والتى أبقت إيجارات المزارع منخفضة على نحو مفتعل، وحالت دون تشجيع الاستثمار فى الأراضى. وعلاوة على ذلك.. اقترحوا فرض ضريبة على ملاك الأراضى الزراعية، ليس بقصد عقابهم، ولكن لأن فى وسعهم تحملها، نظرا لأنهم كانوا يمتلكون القطاع «الإنتاجى» فى الاقتصاد. وبإيجاز، احتضن الطبيعيون ـ بحماس ـ مفهوم الملكية الخاصة والربح الخاص، ولكنهم كانوا يرون أن ذلك يقترن بمسئوليات تلقى على عاتق الملاك. وبعد كل هذا، فإن تحليلهم كان يصر على أن هذا أمر طبيعى.

وقد استمع آدم سميث بعناية واهتمام للفرنسيين. وقد أكد تحليلهم بعض أفكاره. ولكنه لم يقبل وجهة نظرهم حول القطاع العقيم والقطاع الإنتاجى. وكذلك كان موقف هيوم، الذى طلب من أحد أصدقائه أن يعصف بهم ويسحقهم، وأن يدق أعناقهم وأن يجعلهم تراباً ورماداً»[٧]، وربما كان ضمير سميث العادل هو الذى منعه من أن يتمنى سحقهم. ويعترف سميث بأن «الطبيعية» بكل ما تنطوى عليه من عدم كمال «ربما كانت الأقرب للحقيقة التى اعتمد عليها موضوع الاقتصاد السياسى»، ولكنه أضاف ـ بشئ من التعاطف ـ أنها نظام لم يلحق قط أى ضرر بأى جزء فى العالم، ومن المرجح ألا يتسبب فى

أى ضرر»[٨]، وهكذا فقد ربت برفق على أجنحة الطبيعيين، الذين أعطوا العالم مذهباً لا ينطوى على أى ضرر أو أذى.

وفى عام ١٧٦٦، عم الأسى عندما مات شقيق الدوق الأصغر المريض فى باريس . وهكذا انتهت جولة سميث وعاد إلى كيركادلى عن طريق لندن. وخلال السنوات العشر التالية عمل سميث فى تأليف كتابه، وسافر إلى النادى الأدبى فى لندن لمناقشة الأفكار مع إدوارد جيبون Edward Gibbon وإدموند بيرك Edmund Burke، وتبادل البذاءات مع صامويل جونسون Samuel Johnson وجيمس بوزويل James Boswell. وعلى الرغم من النقد القاسى من جانب جونسون، إلا أن سميث كان يحظى بمراجعات نقدية من جانب المتناقشين كلما زار باريس.

ثروة الأمم

وأخيراً، فى مارس عام ١٧٧٦ صدر كتابً ثروة الأمم الذى كتبه سميث لإزجاء وقت الفراغ. وقد أشاد هيوم ـ المثل الأعلى بالنسبة لسميث ـ بالكتاب على الملأ وبصوت عال، ولكنه حذر من أن الشعبية سوف تأتى ببطء. ولأول مرة ابتهج سميث من خطأ وقع فيه هيوم. ذلك أن كتابه حقق نجاحاً سريعا، ونفدت طبعته الأولى خلال ستة شهور.

ولكن هل هو كتاب جيد؟ إنه ليس كتاباً جيداً فحسب، وإنما هو كتاب عظيم. ونظر سميث بثقة للعالم، وكتب تسعمائة صفحة من التحليل والنبوءة والحقيقة والأسطورة معظمها واضح وساحر، ويستهدف مساعدة القارئ على الفهم. ذلك أن كتاب «ثروة الأمم» يقدم القراء إلى عالم الفلسفة والسياسة والعمل، ويصحبهم سميث إلى ذلك كله باعتباره مرشداً حاد الذكاء وينزع للشك، ومع ذلك فهو متفائل إلى أبعد الحدود. وعندما تنفجر الثورة الصناعية، يشير سميث بثقة إلى كل لاعب، اعتباراً من الفلاح إلى الراهب إلى التاجر حتى

شاحن السفينة، وهو بذلك يضفى ـ باقتدار ـ المعنى والدلالة على الاضطراب الاجتماعى الذى حدث. وعلاوة على ذلك.. فقد عالج سميث السياسة الاقتصادية دون تحيز لحزب معين أو طبقة معينة، ولا يمكن لأحد أن يتهمه بالتعاطف أو عدم الاخلاص. وعلى الرغم من أنه أخيراً قد صدق على ظهور البرجوازية، إلا أنه حذر المجتمع من أن يستسلم بسذاجة لمداهنات البرجوازية. بإيجاز.. فإن صدور ثـروة الأمم عام ١٧٧٦ قد جاء بإعلان استقـلال الاقتصاديين.

ويكشف العنوان الكامل عن مفتاح رائعة سميث: «بحث فى الطبيعة وأسباب ثروة الأمم»، وهنا يتعين أن نلاحظ أن سميث يركز على تحقيق هدف معين، ألا وهو كشف قوانين السببية، التى تفسر كيفية تحقيق الثروة، ولذلك.. فإن العنوان وحده يضعه فى نواميس حركة التنوير. ويؤكد النص الشك من خلال شرح القوانين التى ترشد «الممثلين الاقتصاديين»، ثم يستنبط ما تنطوى عليه هذه القوانين السلوكية من معان بالنسبـة للمجتمـع. وقد يبدو «الممثلون الاقتصاديون» ـ إلى حد ما ـ مصطلحاً فنياً، غير أن سميث يقصد منه ببساطة الأشخاص، إذ إن كل فرد يكون «ممثلاً اقتصادياً» فى مرحلة معينة من اليوم، ومثلما لا يكون هناك «هاملت» Hamlet دون الأمير.. فإن سميث لا يمكنه أن ينشئ علم الاقتصاد دون فهم الناس. وهو فى ذلك قد تبع مكيافيللى Machiavelli وهوبز Hobbes، فكل منهما رأى البشر كما هم، لا كما ينبغى عليه أن يكونوا، وتحدث هوبز عن الحيـاة باعتبارها: «ليست سوى حركة الذراعين والرجلين... والقلب، الذى لايعدو أن يكون باياً، والأعصاب لا تعدو أن تكون أسلاكاً، والمفاصل لا تعدو أن تكون عجلات كثيرة تعطى الحركة للجسم كله...؟ (تأكيدات أصلية)[٩] ذلك أن الإنسان ممكن فهمه وغير معصوم من الخطأ.

وتشكل الدوافع الطبيعية أو «الميول» المهمة، التى يكشف عنها سميث فى الطبيعة البشرية، أساس تحليله وأساس علم الاقتصاد الكلاسيكى، ذلك أن كل

البشر يريدون أن يعيشوا حياة أفضل من تلك التي يعيشونها . ويكتشف سميث ذلك قائلاً: «رغبة فى تحسين أحوالنا.. وعلى الرغم من أن هذه الرغبة تتسم بالهدوء والسكينة بصفة عامة، إلا أنها تأتى معنا من الرحم ولا تتركنا قط حتى نموت» وبين الرحم والقبر «ربما توجد لحظة وحيدة نادرة يشعر فيها أى إنسان بالرضا على نحو كامل ومكتمل علي وضعه، بمعنى ألا تخالجه أى رغبة فى التغيير أو التحسين من أى نوع»[١٠] ، ويشير سميث، ثانيا، إلى «ميل معين فى الطبيعة الإنسانية... للمقايضة ومبادلة شئ بآخر، وهو أمر مشترك بين كل البشر»[١١] .

وحتى يمكن زيادة ثروة الأمم، يرى سميث أن على المجتمع أن يستغل هذه الدوافع الطبيعية، وعلى الحكومة ألا تقمع الأشخاص المهتمين بتحقيق مصالحهم الشخصية، ذلك أن المصلحة الشخصية تعد مصدراً طبيعياً غنياً. فالأشخاص سوف يكونون حمقى، والأمم سوف تفتقر إذا اعتمدوا على الإحسان والغيرية. ويرى سميث أن الإنسان يحتاج باستمرار تقريباً للمساعدة من الآخرين. ولكنه أمل بلا جدوى إذا «توقع أن تأتى هذه المساعدة من ميلهم الفطرى للخير فقط. فمن المرجح ـ إلى حد كبير ـ أن يحقق ما يريد إذا ما كان فى وسعه أن يوضح لهم أن هذه المساعدة، هى من أجل تحقيق مصلحتهم». ويعلن سميث، فى أكثر من فقرة يستشهد بها فى تاريخ الفكر الاقتصادى: «إننا لا نتوقع الحصول على طعامنا من وازع حب الخير لدى القصاب أو بائع الجعة أو الخباز، وإنما من مراعاتهم لمصلحتهم الشخصية»[١٢] ، بل إن أولئك الذين يستمتعون بذبح الماشية، أو صنع الجعة أو خبز الفطائر لن يمارسوا هذا العمل طوال اليوم، إذا لم يتم تعويضهم. ولم يقترح سميث قط أن الذى يحركهم هو المصلحة الشخصية فقط، وإنما يقول ببساطة إن المصلحة الشخصية تمثل دافعاً أكثر قوة واستمراراً من العطف، أو الغيرية أو الاستشهاد، وبإيجاز: إن المجتمع لا يمكنه أن يعتمد فى مستقبله على الدوافع النبيلة، ولكن يتعين عليه أن يستخدم الدوافع الأقوى بأفضل وسيلة ممكنة.

ولكن إذا تحرك كل فرد إلى الأمام فى اتجاهه الخاص، فلماذا لا يقع المجتمع فى حالة الفوضى، شئ ما مثل نقاط تقاطع معقدة على الطريق السريع مع توقف إشارات المرور؟ ألا يجب نسمع عن وقوع صداع مخيف عندما تتصادم المصالح الشخصية؟ إذا لم تكن الطرق آمنة دون وجود سلطة المرور التى تحدد من الذى يتحرك، فهل يمكن للمجتمع أن يبقى على قيد الوجود دون وجود سلطة للتخطيط المركزى، تحدد من الذى ينتج وما هو الشئ المنتج؟

نعم. إن هذا المجتمع لن يبقى على قيد الوجود فحسب، وإنما سوف يزدهر أكثر من تلك المجتمعات التى تأخذ بالتخطيط المركزى. وما هو أكثر إثارة للدهشة، أنه سوف يتفوق سواء فى الإنتاج وفى التوافق الاجتماعى على أى نظام اقتصادى يرتكز على الغيرية . لقد درس سميث علم الفلك، وتقبل فكرة التوافق الطبيعى فى الكواكب، حتى إذا تحرك كل كوكب فى مجراه الخاص. وقد اعتقد أن فى وسع الأشخاص أن يتحركوا فى سبل مختلفة، ومع ذلك يتوافقون ويساعد كل منهم الآخر، ولكن دون قصد. ويعلن سميث ـ فى بيانه الكلاسيكى ـ أنه إذا سعى الجميع إلى تحقيق مصالحهم الشخصية.. فإن المجتمع بأسره يزدهر: «فالفرد... لايهدف إلى تحقيق مصلحة عامة، ولا يدرك إلى أى حد يساهم فى تحقيقها فالفرد يسعى فقط إلى تحقيق مصالحه الشخصية، وهو فى هذه الحالة ـ كما فى حالات كثيرة أخرى ـ تحركه يد خفية لتحقيق هدف لم يكن جزءاً من نواياه»(١٣) ، تلك اليد الخفية أصبحت الرمز البارز لعلم الاقتصاد عند آدم سميث.

ومع ذلك، فإن سميث لم يستند فى مناقشته على أى رؤية، ذلك أن اليد الخفية تمثل مجرد المنظم الحقيقى للتوافق الاجتماعى، ألا وهو السوق الحر. وقد قال فردريك أ. هايك، Friedrich A. Hayek ـ وهو واحد من أكثر المدافعين المتحمسين، خلال القرن الحالى ـ عن السوق الحر، أنه إذا لم يقم نظام السوق على نحو طبيعى.. فمن الممكن اعتباره أعظم اختراع فى التاريخ البشرى. ذلك أن

منافسة السوق تدفع الشخص المهتم بمصلحته الشخصية إلى أن يستيقظ فى الصباح، وأن يتطلع إلى الأرض، وأن ينتج من موادها الأولية لا ما يريده هو، وإنما ما يريده الآخرون، وهو لا ينتج الكميات التى يفضلها، وإنما الكميات التى يفضلها جيرانه. وهو لا يبيعها بالثمن الذى يحلم به، وإنما بالثمن الذى يعكس إلى أى مدى يقيم جيرانه ما ينتج.

الاقتصاد الحر فى التطبيق:

دعنا نبدأ بجارنا جون المهتم بمصلحته الشخصية كمثال على ما نريد شرحه . فعلى عكس آدم سميث، فإن جون يستيقظ فى فراش نومه، وليس فى ميدان المدينة. وبينما كان جون يقرأ الصحيفة، وكان يعجب بالتمثال الخشبى الجميل للنسر (القابع الموجود) فوق مائدة الطعام، والذى يبدو كما لو كان مستعداً للانقضاض على سطح المائدة، لقد استمتع جون فى الواقع بنحت هذا التمثال؛ إذ طرأت على ذهنه فكرة: لم لا ينحت المزيد من هذه التماثيل ليبيعها؟ فبعد كل شئ، فالخشب المعالج خصيصاً والمستورد من تسمانيا ستبلغ تكلفته ٥٠ دولاراً لكل تمثال، ويمكنه أن ينحت تمثالاً واحداً كل أسبوع. ولذلك، قرر أن يبيع التمثال الواحد بـ ٢٠٠ دولاراً، نظراً لأن الأرباح الكبيرة يمكن أن تجعله غنياً، وتمكنه من شراء الأشياء التى يحلم بها مثل السيارات الكبيرة، وقضاء أجازة صاخبة فى أكابولكو، وما هو أهم من ذلك أنه يحب النحت.

وبدأ جون يعمل، واستأجر دكاناً، ودعا جيرانه ونقاد الفن المحليين لافتتاح معرضه. وبينما ضحك الحاضرون، بكى هو، فهم يظنون أن تماثيل النسر قبيحة، وصرخ هو أكثر. ولم يشتر أحد تمثالاً واحـداً. وأخيراً عرضت أمه بيـع التمثال بـ ٤٩ دولاراً، واستسلم لذلك، وترك العمل، وأعطت اليد الخفية إشارة الموافقة.. لماذا؟

إن جون بدلاً من أن ينتج شيئاً يريده جيرانه، أنتج ما يريده هو. وبدلاً من أن يحدد سعراً يستطيعون هم دفعه، حدد سعراً باهظاً. ولكن في حالة جون، لم يكن في وسع أحد أن يدفع له أكثر مما كلفه بالفعل إنتاج التماثيل. ألم يحدد جون سعراً أكثر من التكلفة؟ لا.. إن الإجابة ليست في تحديد سعر مرتفع، وإنما في ألا ينتج على الإطلاق! لماذا وافقت اليد الخفية على خروج جون من العمل؟ لقد استخدم جون في صنع التماثيل موارد نادرة. إن الأرض تعطينا فقط كثيراً لنعمل به. وإذا ما كان جون قد استخدم الخشب الثمين المستورد من تسمانيا، فلا أحد غيره يستطيع ذلك. ومن ثم، ترغم اليد الخفية الناس على التخلي عن الإنتاج، إذا لم ينتجوا شيئاً أكثر قيمة مما بدأوا به. لقد اشترى جون الخشب بـ ٥٠ دولار، ونحته، وقدم للعالم تماثيل قيمتها أقل. إن المجتمعات لا يمكن أن تتحمل إهدار الموارد عن طريق خفض قيمتها. ومن ثم.. فإن الأشخاص الذين يشترون الخشب، وينتجوا منه أرغول أو عكازات للمعوقين يزيدون من قيمة هذه الموارد ويزيدون المجتمع ثراء. وهم يستحقون أن تصفق لهم اليد الخفية، أما جون فيستحق لكمة.

وعودة إلى لوحة الرسم بالنسبة لجون. لقد صب لنفسه فنجاناً من الشاى، ولعن التمثال الموجود فوق مائدة الطعام، وهوى بقبضته بعنف إلى أسفل، فسقط الشاى على المائدة، ثم لعن نفسه لسكب الشاى على المائدة الجديدة التى صنعها منذ شهر. وخطر له خاطر جديد، وتساءل: لم لا يصنع موائد ويبيعها؟ وهو الآن أكثر حكمة . بحث عن مصنع الخشب ليمده بالخشب اللازم، لصنع مائدة واحدة بتكلفة حوالى ١٠٠ دولار، وسوف يستغرق صنعها حوالى أسبوعين، وقدر أن وقته يساوى ٢٠٠ دولار فى الأسبوع، وذلك استناداً إلى عمله السابق كنجار. وقدر أن التكلفة الإجمالية للمائدة الواحدة تبلغ تقريباً ٥٧٥ دولار، وذلك مع الأخذ فى الاعتبار تكلفة الآلات والإيجار، والمواد اللازمة الأخرى. وتفرج جون فى

المحلات على موائد مماثلة لغرفة الطعام، واكتشف أن فى وسعه أن يبيع الموائد بـ ٥٨٥ دولار، وهو بذلك لا يكون قادراً على أن يعطى لنفسه ٢٠٠ دولار فى الأسبوع فحسب، وإنما سيحقق ربحاً كذلك.

وأخيراً أعطت اليد الخفية موافقتها لجون، فهو يأخذ موارد نادرة وينتج شيئاً أكثر قيمة مما بدأ به، ليس طبقاً لرغباته وإنما طبقاً لرغبات المجتمع.

وهكذا رأينا اليد الخفية تشجع إنتاجاً، بينما لا تشجع إنتاجاً آخر، بيد أن آدم سميث يرينا كذلك كيفية تنظيم السوق للأسعار. تذكر أن سمات سميث تتسم بالمصلحة الشخصية . لماذا لا يرفع جون أسعار موائده عن ٥٨٥ دولار ليزيد الأرباح؟ إنه لايستطيع ذلك؛ لأنه إذا غالى فى أسعاره، فسوف تهبط الأرباح، نظراً لأن الناس ـ ببساطة ـ سيتجاوزون دكانه ويشترون من منافسين آخرين أسعارهم أقل. وبالطبع يمكن لكل صناع الأثاث أن يجتمعوا معاً ويتفقوا على رفع الأسعار. ولكن حتى إذا كان فى إمكانهم أن يتفقوا، فإن أشخاصاً آخرين من المعنيين بمصلحتهم الشخصية سوف يرون الأرباح العالية التى تحققها صناعة الأثاث، ومن ثم يفتحون دكاكين. ويمكن لأصحاب المشروعات هؤلاء أن يحققوا أرباحاً طائلة بخفض الأسعار، وسحب العمل من الاحتكار.

والواقع أن الأسعار والأرباح تعد مؤشراً بالنسبة لأصحاب المشروعات على ماينتجونه، وما يتقاضونه من أسعار؛ إذ إن الأسعار المرتفعة والأرباح العالية تمثل مؤشرات يسمعها أصحاب المشروعات، تدفعهم إلى أن يبدأوا فى إنتاج سلعة معينة. وتهز الأرباح الضئيلة أو الخسائر رجل الأعمال هزا عنيفاً بلا رحمة حتى يتوقف عن الإنتاج.

ومع ذلك.. فإن الأسعار والأرباح ليست ببساطة أموراً مجردة. ماذا يعنى فى الواقع إذا كانت الأرباح مرتفعة؟ إنها تعنى أن الأشخاص فى حاجة إلى المنتج أو أنهم يريدونه. فإذا ما قرر المستهلكون أنهم يفضلون أسطوانات الديسك أكثر من

أسطوانات التسجيل، فإن الطلب سيرتفع بالنسبة للديسك. ويكون فى وسع المنتجين أن يرفعوا ثمنها. غير أن صانعى أسطوانات التسجيل سيستجيبون لهذه المؤشرات بإنتاج أقل للتسجيلات وإنتاج المزيد من الديسك، وعندئذ يتحول العمال من مصنع إلى آخر، وتعود الأسعار إلى حالتها الطبيعية . وفى خلال العقد الماضى.. انخفضت أسعار الكومبيوتر الشخصى، ومسجلات الديسك، ليس بسبب انخفاض التكلفة فحسب، وإنما لأن عدداً كبيراً من الصناع ذوى المهارة التكنولوجية العالية قد دخلوا حلبة المنافسة بقصد تحقيق أرباح. والواقع أنه على المدى الطويل.. فلا يمكن لأى صناعة أن تكسب أكثر من الربح العادى. ذلك أن السوق الحر يغرى تلقائياً الأشخاص المهتمين بتحقيق مصالحهم الشخصية على إرضاء الغرباء... وهكذا، فنحن لسنا بحاجة إلى دعوة المخطط المركزى، كما أن رب العمل ليس بحاجة إلى إرغام.

تقسيم العمل:

لقد وفى آدم سميث بوعده فى أن يبين لنا الطريقة التى تنظم بها اليد الخفية الإنتاج والأسعار والأرباح. غير أن الاسكتلندى المرح وعد كذلك بأن يعلمنا ما الذى يزيد ثروة الأمم وإذا ما فشل فى الإجابة عن هذا السؤال، فلن يكون قد حقق شيئاً يذكر أكثر مما حققه الطبيعيون (الفيزيوقراط) . ومما يدعو إلى الإبتهاج أن نراه ينجح مرة أخرى بإجابة من كلمتين واضحتين هما: تقسيم العمل، وقد ناقش قضيته على نحو منطقى وتجريبى. ومع سميث تنبعث الحياة فى التجريبية عندما يصف مصنعاً لصناعة الدبابيس. وهنا نجد مرة أخرى أكثر الفقرات شهرة فى الفكر الاقتصادى. وقد عرَّف مارك توين Mark Twain الكلاسيكيات بأنها كتب يمتلكها كل فرد، ولكن لا أحد يرهق نفسه بقراءتها، ولعله مما يبعث على الأسى أن تصبح الكلاسيكيات فى كثير من الأحيان، مجرد مصطلحات تبعث على السأم، بأن تفتقد القوة والدراما اللتين كانتا تتحلى بهما عندما ظهرت أصلاً. وعلينا أن نتصور القوة الأساسية فى الفقرة التالية، لأنها ظهرت قبل أن تصبح المصانع

شائعة، وعندما كانت مجموعات تتألف من ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط تنتج أكثر سلع العالم.

إن عاملاً ليس مدرباً على... مهنة صناعة دبابيس الأبرة... ربما يمكنه بالكاد ـ ويبذل أقصى جهده ـ صنع دبوس واحد فى اليوم، ومن المؤكد أنه لا يستطيع أن يصنع عشرين دبوساً . ولكن بالأسلوب الذى تتم به هذه الصناعة الآن.. فإن العمل كله ليس مهنة متميزة فحسب، ولكنه تقسيم إلى عدد من الأقسام، يشكل الجانب الأكبر منها مهناً مميزة بذاتها. ذلك أن رجلاً يسحب السلك، وآخر يفرده، وثالث يقطعه، ورابع يدبب طرفه، وخامس يصقل رأسه، وتستلزم صناعة رأس الدبوس عمليتين أو ثلاث عمليات متميزة، فصناعته الأساسية تعد مهنة متميزة. ويعتبر تلميع الدبوس مهنة أخرى، بل إن تغليف الدبابيس فى الورق يعد مهنة قائمة بذاتها. وهكذا.. فإن المهنة المهمة لصناعة دبوس الابرة على هذا النحو تنقسم إلى ثمانى عشرة عملية متميزة، وهى تتم كلها، فى بعض المصانع بأيد متميزة... لقد رأيت مصنعاً صغيراً من هذا النوع يعمل فيه عشرة عمال فقط.. وينتج كل شخص (فى المتوسط) ثمانمائة دبوس فى اليوم. ولكن إذا ما عمل كل منهم بمفرده ـ وعلى نحو مستقل ـ ودون أن يتدرب أى منهم على هذه المهنة المميزة، فمن المؤكد أن أيا منهم لا يمكنه أن يصنع عشرين دبوساً، وربما لا يصنع دبوساً واحداً فى اليوم [١٤].

وهكذا يمكن بالتخصص وتقسيم العمل، أن يزيد إنتاج يوم واحد بنسبة ٤٠٠ ألف فى المائة! كيف يمكن لسميث أن يشرح هذا ببساطة؟ هل نحن على وشك أن نقابل القدم الخفية أو شبحاً منصفاً آخر يعمل بالفعل من أجلنا بينما نحن نائمون؟ لكى نكون منصفين لسميث، فإننا نذكر أنه لم يعد بزيادة قدرها ٤٠٠ ألف فى المائة فى كل وضع، ولكنه أعلن بالفعل عن ثلاث سبل يؤدى فيها تقسيم العمل إلى زيادة الإنتاج: أولها، أن يتحلى كل عامل بمزيد من المهارة

والخدمة فى عمله الخاص، ثانيها، أن يبلد العمال وقتاً أقل فى الانتقال من مهمة إلى أخرى، ويتضح معنى هذا خاصة إذا كان تغيير فريق العمل ينطوى على تغيير زى العمل والآلات، والانتقال إلى موقع آخر. وأخيراً، من المرجح أن يخترع العمال المتخصصون آلات تساعد فى إنجاز عمل معين يهتمون به يومياً. وقد كان سميث يعتقد أن العمال هم بالأحرى، ـ وليس المهندسون ـ الذين يقدمون على الاختراع فى معظم الأحيان.

إن جانباً كبيراً من الآلات المستخدمة فى الصناعات، التى يتم فيها تقسيم العمل إلى حد كبير، هو فى الأصل من اختراع العمال العاديين، الذين يعمل كل منهم فى عملية بسيطة ، ومن ثم يكون من الطبيعى أن يتجه تفكيرهم إلى إيجاد سبل أسهل وأسرع لأدائها. ومن اعتاد كثيراً على زيارة مثل هذه المصانع، فلابد وأن يرى ـ من حين لآخر ـ آلات جميلة جداً من اختراع هؤلاء العمال[١٥].

لاحظ أن سميث بدأ بالإشادة بتقسيم العمل من أجل زيادة الإنتاجية، إلا أنه انتهى إلى بالاعتراف بفضل تقسيم العمل بالنسبة للتقدم التكنولوجى.

ومنذ منتصف السبعينيات فصاعداً، درس مستشارو الأعمال والاقتصاديون ومؤلفو كتب إدارة الأعمال ،المصنع اليابانى بحثاً عن السر الكامن وراء نجاحه. فمن بعض النواحى.. تبدو المصانع اليابانية أقل تقسيماً للعمل، وأقل التزاماً بمبادىء سميث، فهى تتبع نظام حلقات العمل أكثر مما تتبع خطوط الإنتاج. ومع ذلك.. فإن رجال الأعمال اليابانيين يزعمون أن عمالهم يخترعون ويبتكرون أكثر كثيراً من أقرانهم الأمريكيين. وقد ألهم تمجيد الأساليب اليابانية بعض التشبه بها وأساطير قليلة عنها، مثل حكاية مديرى الشركات الأمريكية والفرنسية واليابانية، الذين صدر الحكم بموت كل منهم، وعندئذ عرض عليهم الجلاد أن يطلب كل منهم طلبه الأخير، تساءل الفرنسى «أود الحصول على زجاجة كابيرنى سوفينو». ورد اليابانى: «أود إلقاء محاضرة عن مزايا إدارة الشركات اليابانية» وأخيراً أبدى

الأمريكى الطلب الأخير، قائلاً «أرجوك اقتلنى قبل سماع المحاضرة عن الإدارة اليابانية». وقد سلم سميث بأنه حتى يتسنى تحقيق الكفاءة، يتعين تقسيم الوظائف طبقاً لكل مهمة. ولكنه حذر من أن تقسيم العمل يؤدى إلى تباين فى معدلات الأجور بالنسبة للمهام المختلفة. ولا تدع فرضية سميث المعقدة عن معدلات الأجور مجالاً لإجراء مناقشة موجزة ودقيقة. بيد أنه أعطى لواضعى النظريات الاقتصادية أسساً مقنعة لشرح الأسباب التى تفسر سبب حصول جماعة على أجر أكثر من الأخرى:

١ ـ قد تنطوى الوظيفة على ظروف غير ملائمة، ومن ثم يقبل العمل بها عدد ضئيل بشرط تعويضهم بزيادة الأجر. وبذلك فإن العامل الذى ينظف النوافذ فوق قمة مبنى «إمباير ستيت»، يحصل على أجر أعلى من الذى تحصل عليه امرأة تنظف مائدة الغذاء المصنوعة من الفورمايكا، وبالطبع، فإنه كذلك يستمتع بمنظر أفضل.

٢ ـ تتطلب بعض الوظائف تدريباً خاصا، ولذلك يتقاضى كتاب الاختزال فى قاعات المحكمة أجراً أعلى مما يتقضاه المحضرين.

٣ ـ قد يتقاضى المرء من عمل غير منظم وغير آمن أجراً أعلى، فعمال البناء يحصلون مقابل عمل كل ساعة على أجر أعلى مما يحصل عليه عمال مدربون، لأن الأحوال الجوية تمنع عمال البناء من العمل عدة ساعات فى اليوم.

٤ ـ عندما تقتضى الوظيفة درجات عالية من الثقة والأمانة، ترتفع الأجور، لأن الأشخاص العاديين لا يمكنهم أن يقدروا قيمة الماس. ولذلك يشعر عدد كبير من الأشخاص بمزيد من الارتياح، عندما يشترون من حانوت غال الثمن، ولكن موثوق منه مثل تيفانى، وليس من حانوت يقدم خصماً فى أسعاره.

٥ ـ عندما يكون احتمال النجاح أقل، فإن ثمن النجاح سيكون مرتفعاً. ومن أمثلة ذلك أن المحامين فى المحاكم المدنية يقبلون ـ فى أحيان كثيرة ـ

قضايا عن حادث طارىء، ولا يتقاضون أتعابهم إلا إذا كسبوا القضية. ولكن إذا لم يكسبوا القضية.. فإنهم لا يتقاضون أكثر مما يتقاضاه كاتب الاختزال. والواقع أن سميث لم يعتقد أن كل الممثلين الاقتصاديين يتحلون بنزعة عقلانية كاملة، وقد كان يشك فى أن الأشخاص الذين يعملون فى مهن خطرة، يبالغون فى تقدير فرص النجاح، ومن ثم ينتهى بهم الحال بالحصول على دخول أقل مما كانوا يتوقعون.

تقسيم العمل بين المدن والبلاد:

إن سميث لم يعد أبداً بأن تقسيم العمل وحده يحقق الثروة للأمة، ذلك أن التجارة الحرة بين الصناع والموردين والمدن أمر ضرورى كذلك. ما قيمة إنتاج ١٠ آلاف دبوس إبرة، إذا لم يمكن تسويقها تجارياً، نظراً لوجود قيود أو تكاليف نقل عالية؟ قد يمكن للصانع أن يصنع أيضاً عشرين دبوساً أو لا يصنع شيئاً. وعلاوة على ذلك.. يمكن لتقسيم العمل أن يتم بين المدن، وليس بين العمال فى المصنع فقط؛ إذ يمكن لمدن معينة أن تتخصص، مثلما يمكن لأشخاص معينين أن يتخصصوا؛ إذ يمكن لمدينة بويز أن تنتج القمح بينما تنتج بوسطن الكومبيوتر. وتتمثل النقطة المهمة فى أن ثروة الأمة تنمو إذا اتسع نطاق الأسواق، ويكون ذلك إذا ارتبط المزيد والمزيد من المناطق بشبكة واحدة من الطرق التجارية.

بالنظر إلى الولايات المتحدة عام ١٧٥٠ ، فقد امتدت طرق التجارة على طول الساحل الشرقى من بالتيمور حتى بوسطن. ومع ذلك، فقد كان على المستوطنات الواقعة غربى بنسلفانيا أن تدافع عن نفسها. ذلك أن المستوطنة التى تحقق الأكتفاء الذاتى تشبه العامل الذى يصنع دبوس الإبرة، وعليه أن يعتمد على قطع، وثنى، وربط وتسويق الدبوس. وفى الولايات المتحدة، تطورت طرق النقل فى البر وعبر الأنهار، وانخفضت تكاليف التوزيع، ومن ثم قد يمكن دخول المزيد والمزيد من المدن فى سوق مشتركة، مما يؤدى إلى ازدهار ثروة كل مجتمع، وكذا ثروة الأمة بأسرها. وفى الواقع، كلما بنت الصناعة البحرية سفناً أكثر آماناً، وطورت مهارات

ملاحية أفضل، انخفضت تكاليف الملاحة عبر الأطلنطى، وهو الأمر الذى نشط المستعمرات وبريطانيا خلال القرن الثامن عشر. بل إن هزيمة القراصنة قد أسهمت فى زيادة ثروة الأمم.

إن الاعتماد على النفس ـ على نحو ما دعا ايمرسون ـ قد يشكل جانباً من النفسية الأمريكية ، غير أن المصالح الاقتصادية الأمريكية قد ازدهرت على الرغم من ذلك.

وفى الوقت الذى كان يدافع فيه سميث عن حرية التجارة ، فقد أصر على أن إنجلترا يمكن أن تكسب من التجارة إذا ما أمكنها شراء سلعة من بلد آخر بأقل مما تتكلف صناعتها فى إنجلترا. وقد لا يحب الإنجليزى الفرنسى، ولكن إذا ما كانت زجاجة النبيذ الأبيض الفرنسى تتكلف جنيهاً واحداً، فى حين تتكلف مثيلتها فى إنجلترا جنيهين.. فإنه يكون من الحماقة بالنسبة لإنجلترا أن تنتج نبيذاً. ذلك أن فرنسا تتمتع بميزة مطلقة فى النبيذ. وإذا كان النبيذ الفرنسى ـ بطبيعة الحال ـ يتكلف ضعف النبيذ الإنجليزى، فإنه يكون من الحماقة بالنسبة لإنجلترا أن تشترى النبيذ الفرنسى. وينبغى أن تؤخذ وجهة نظر سميث جيداً فى الاعتبار، إذ لماذا يتعين على إنجلترا تبديد مواردها النادرة، والتى يمكن استخدامها فى إنتاج الصوف بتكلفة أقل مما تنتجه فرنسا، وألا تنتج بالأخرى عنباً لأن تكلفته أعلى. وطبقاً لآراء سميث.. يتعين على الأمم أن تستورد فقط المنتجات التى تحرز فيها بلد أخرى ميزة مطلقة (ينبغى ألا تنسى حجج سميث، إذ أن ديفيد ريكاردو سيبدو لامع الذكاء، عندما يصلح هذا الجدل، ويقنع كل الاقتصاديين تقريباً بأن التجارة يمكن أن تزيد ثراء أمة، حتى إذا لم ينتج أى بلد آخر سلعا أكثر رخصا) .

وإذا استخدمنا معطف سميث كمثال، فقد ذكر سميث أن كل العمال المختلفين، والذين انقسموا تبعاً للمناطق الجغرافية، وتضافرت جهودهم بحيث أصبح من الممكن أن يشعر بالدفء.. هؤلاء هم: رعاة الغنم، وعمال فرز الصوف،

وعمال تمشيطه وصباغته، وغزله، ونسجه، والتجار، والبحارة (ومن المفترض أن المواد المصنوع منها معطفه هي مواد مستوردة) . ومن المثير للغاية، أن أحداً من هؤلاء العمال ليس مضطراً لأن يعرف أياً منهم الآخر، أو أن يعرفوا سميث، أو أن يعرفوا لماذا كان يريد معطفاً، بل إن كل ماكانوا في حاجة إلى معرفته هي أن أجر رعى الغنم أو صبغة الصوف عالٍ بما يكفى لجعل عملهم مجزياً، وأن شخصاً ما كان مستعداً لبيعها من أجل المساهمة فى المنتج النهائى. ويطور هايك Hayek ـ إلى حد كبير ـ مناقشة سميث فى مقال مهم، مشيراً فيه إلى تشتيت المعلومات باعتبار أنه من أكبر العقبات التى تعترض المجتمع، فلا يوجد مخطط مركزى فى وسعه أن يقرر ما إذا كان ينبغى على المجتمع أن ينتج معطفاً من أجل آدم سميث، أم لا. وحتى إذا توافرت لديه كل المعلومات، فإنها قد تتغير. غير أن نظام أسعار السوق يخبر الأفراد عما يكونون فى حاجة إلى معرفتــه، ويستخدم هايك مثال القصدير فى الفقرة التالية:

لنفترض أنه فى مكان ما فى العالم ظهرت فرصة جديدة لاستخدام القصدير، أو أن واحدة من مصادر عرض القصدير قد اختفت. بالنسبة لنا.. فإن ذلك لاينطوى على أى تأثير على أهدافنا، بل ينطوى على دلالة ضئيلة، مؤداها: أى من هذين السببين جعل القصدير أكثر ندرة. ذلك أن كل ما يحتاج مستخدمو القصدير إلى معرفته، هو أن بعض القصدير الذى اعتادوا على استهلاكه ، يستخدم الآن على نحو يدر ربحاً أكثر فى كل مكان، ونتيجة لذلك.. فإن عليهم أن يقتصدوا فى استخدامه. ولا يقتضى الأمر بالنسبة للغالبية العظمى منهم حتى أن يعرفوا فى أى مكان تنشأ الحاجة الملحة إليه.. وإذا عرف بعضهم مباشرة الطلب الجديد، وغيروا الموارد إليه، وإذا قام الأشخاص الذين يدركون الفجوة التى نشأت بملء هذه الفجوة بموارد أخرى.. فإن الأثر سينتشر بسرعة فى كل أنحاء النظام الاقتصادى، وسوف يؤثر ليس فى كل استخدامات

القصدير فحسب، وإنما كذلك فى استخدام المواد البديلة، والمواد البديلة لهذه المواد البديلة، وفى عرض كل ماهو مصنوع من القصدير، ومواده البديلة، إلى آخره. ويتم كل هذا دون أن تعرف الغالبية العظمى من هذه العناصر الفعالة أى شيء على الإطلاق عن السبب الأصلى لهذه التغييرات.

ويمجد الفيلسوف ألفريد نورث هوايتهيد Alfred North Whitehead وجهة النظر هذه فى عبارة ملفتة للنظر «إنها إحدى البديهيات المستفزة والتى تتسم بالخطأ العميق، وهى بديهية لا تتوقف التعاليم الأولية عن تكرارها، ويرددها أشخاص بارزون عندما يلقون خطبهم، وهى أنه يتعين علينا أن ننمى عادة التفكير فيما نفعل. غير أن العكس تماماً هو الذى يحدث فى الوضع، ذلك أن الحضارة تتقدم بتوسيع نطاق عدد من العمليات المهمة التى يمكـن أن نؤديهـا دون أن نفكر فيها» (١٦)، فنحن نستفيد بمعرفة الآخرين من خلال رموز ومؤشرات لا نفهمها.

ويستخدم هايك أيضاً حجة «الجهل» لمهاجمة أصحاب اليوتوبيا، الذين يعتقدون فى اقتصاد يستند على حب الغير، فالفرد هو الخبير الأول فيما يريده وليس هناك أحد آخر يعرف ذلك أفضل منه، ولا أحد سواه يمكن أن يصدر حكماً أفضل بشأن تأثيرات الخيارات البديلة على تحقيق ما يريد. ولذلك.. يتعين على الأشخاص أن يراعوا مصالحهم، وإذا سعى الجميع لتحقيق «الصالح العام»، فيتعين عليهم أن يعرفوا الكثير عن كل فرد آخر، مثلما يعرفون عن أنفسهم، فانظر إلى چيل Jill... هذه المرأة التى تشبه القديسين فى طباعها. وهى ربما تحب جاك Jack، الذى لم تقابله قط، ولكن كيف تعرف جيل ما يريد، وكيف يقيِّم جاك ما يريد؟ ونفترض أن كلاً من جيل وجاك يعمل من أجل الغير وليس للمصلحة الخاصة، فجيل تريد أن تبيع منزلها. ونظراً لأنها تحب جاك وتريد أن تقدم خدمة له فإنها تعرض أن تبيع له المنزل بـ ١٠٠ ألف دولار فقط. ونظراً لأن جاك يحب جيل فهو لا يجرؤ على الشراء بسعر منخفض، ولذلك فهو يعرض ٢٠٠ ألف دولار لشراء المنزل.

ولكنها ترفض وتعرض قبولها أن تبيع بمبلغ ١١٠ ألف دولار. ويشعر جاك بالإهانة لأنها ترفض هديته، ويصر على شراء المنزل بـ ٢١٠ آلاف دولار.. فنجد أننا هنا بصدد حالة لا نعرف كيف سينتهى الأمر فيها، وهذه هى بالتحديد وجهة نظر هايك؛ أى لا تظهر أى مؤشرات للسوق، ويفقد المجتمع القدرة على تخصيص موارده النادرة، نظراً لأنه لا يوجد أحد يريد أن يعترف بكم يمكن تقييم المنزل، وهذا ما كتبه أدم سميث حول هذه النقطة قائلاً: « إن الفرد بإتباعه مصلحته الشخصية، يعلى فى كثير من الأحيان مصلحة المجتمع على نحو أكثر فعالية مما يعتزم ذلك فى الواقع. ولم أعرف قط الكثير من الخير الذى حققه أولئك الذين يؤثرون التجارة من أجل الصالح العام» (١٧).

وقد اتبع ميلتون فريدمان Milton Friedman خطى سميث/هايك، فإذا أمسكت بنسخة من كتابه «حرية الاختيار» Free to Choose، فسوف ترى صورة لفريدمان على الغلاف الأمامى ممسكاً فى يده قلماً رصاص، وهو ليس رمزاً لجهده فى الكتابة، وإنما رمزاً لعلم الاقتصاد عند آدم سميث. ويرى فريدمان أنه لا يوجد شخص بمفرده، أو حتى الفائز بجائزة نوبل، يمكنه أن يصنع قلماً رصاص. ذلك أن هذا القلم يصنع من جرافيت يأتى من سرى لانكا، وممحاة تصنع من زيت بذر اللفت الأندونيسى وكلوريد الكبريت، والخشب من أوريجون Oregon، وتتم عملية التجميع فى Wilkes - Barre فى بنسلفانيا. وهكذا.. فإن القلم الذى تبلغ تكلفته ١٠ سنتات فقط هو منتج السوق العالمى.

موضوع للإنسان العادى:

على الرغم من أن سميث امتدح باستمرار التجارة الحرة وبواعث التجار ، إلا أنه لم يكن يدافع عن البورجوازية ذلك أن كتابه « ثروة الأمم» يفيض بالنقد للتجار، كما أنه ليس مذكرة من أجل الأغنياء. لقد امتدح سميث بحماس التجارة الحرة وتقسيم العمل، لأنه كان مقتنعاً بأنهما يساعدان الإنسان العادى أكثر مما يساعدان الأمير:

«دون المساعدة والتعاون لعديد من الآلاف.. فإن أقل شخص فى بلد متحضر لايمكن أن يزود باحتياجاته... وإذا ما قورن، فى الواقع، بالترف المتسم بالمزيد من البذخ للشخص العظيم، فإن سبل معيشته لابد وأن تبدو ـ دون شك ـ سهلة وبسيطة للغاية. ومع ذلك فقد يكون صحيحاً أن سبل معيشة أمير أوروبى لاتزيد كثيراً دائماً عن سبل معيشة فلاح مجد ودؤوب، وذلك نظراً لأن سبل معيشة الأخير تزيد عن سبل معيشة كثير من ملوك أفريقيين، هم أسياد مطلقين على أرواح وحريات آلاف المئات من الوحوش العرايا»(١٨).

وكما فعل أتباعه، فإن سميث يرى بإعجاب أنه فى ظل نظام السوق، فإنه بإمكان حتى الفقراء والضعفاء سياسياً أن يزدهروا. وعلى العكس، فإنه فى ظل نظام موجه مركزياً، فإن السلطة السياسية تحدد الوضع الاقتصادى: فلا يزداد أحد ثراء سوى أصدقاء الملك واللوردات. ومرة أخرى، يوسع ميلتون فريدمان نطاق وجهة نظر سميث فى كتابه الرأسمالية والحرية Capitalism and Freedom، حيث يذهب إلى أن نظام السوق يقلل من التفرقة العرقية والعنصرية الفعالة، نظراً لأن المستهلكين يشترون ممن يعرض أفضل سعر، وليس ممن يعرض الدعوات الصحيحة، أو ممن تبدو بشرته جميلة. ومن ناحية أخرى.. أشار إلى أنه فى ظل نظام اشتراكى، فإن عضو جماعة الأقلية ينبغى أن يحصل على خدمة سياسية من جانب المخطط، حتى يتسنى له التقدم(١٩).

ولاتزال معتقدات فريدمان مثاراً للجدل، وقد قدم النقاد أمثلة مضادة كثيرة لها، وأشاروا ـ على سبيل المثال ـ إلى أن مديرى الشركات يرقون فقط عمال الأقلية إذا أحرزوا تقدماً كبيراً فى متغيرات مرنة، مثل: «القدرة على الزعامة» و «الشخصية». وعلاوة على ذلك.. يصر النقاد على أن السلطة الاقتصادية يمكن أن تتحول إلى سلطة سياسية من خلال حملة تبرعات، مما يؤدى إلى ترك الفقراء اقتصادياً دون صوت سياسى. ويقبل فريدمان وجهة النظر هذه، ولكنه يسددها بشدة إلى نقاده

بالإشارة إلى أن حكومة صغيرة يحظر عليها التدخل فى معظم الأحداث الاقتصادية، فيشتعل أوار المنافسة، ويزداد الأدب، والاقتصاد ثراء.

وعلى الرغم من أن سميث كان واثقاً من أنه كشف أسرار ـ تحقيق ثروة كبرى، إلا أنه لم يدع أنه يضع كتاباً للمبادىء الأساسية المعصومة من الخطأ. ذلك أنه اعترف بالفعل ببعض الأخطاء فى تقسيم العمل، ثم برهن مرة أخرى على أنه حساس بالنسبة إلى ما هو أكثر من التكاليف والأرباح، وهو يذكر بأن حبه الأول كان للفلسفة الأخلاقية. فنظراً لأن سميث مؤمن راسخ الإيمان بتأثير الظروف المادية على العقل الإنسانى، فقد خشى أن يؤدى استخدام التجميع إلى سلب العمال ذكاءهم وروحهم «إن الانسان الذى يقضى كل حياته فى أداء عمليات بسيطة قليلة ـ تتمخض عن تأثيرات مماثلة دائماً ـ لا توجد لديه أى فرصة لممارسة فهمه، أو لتدريب قدرته الإبداعية على إيجاد الوسائل الملائمة للقضاء على الصعوبات. ولذلك.. فمن الطبيعى أن يفقد عادة مثل هذه الممارسة، ومن ثم يصبح ـ بصفة عامة ـ أحمق وجاهلاً بقدر ما يمكن للكائن البشرى أن يغدو كذلك». وقد أوصى سميث، فى لحظة من لحظاته الأبوية، بالتعليم العام كعلاج للبلادة العامة، نظراً لأن العمال المتعلمين من المرجح كثيراً أن يخترعوا، وأن يمارسوا نشاطاً عقلياً بينما يؤدون أعمالاً مادية. وقد قال سميث: «يمكن للجمهور ـ بنفقات ضئيلة للغاية ـ أن يسهل ويشجع، بل وحتى يفرض على كل أفراد الشعب، أهمية تحصيل التعليم الأساسى»[٢٠].

وعند هذه النقطة، دعنا نلخص «ثروة الأمم». لقد رأى أدم سميث العمل على أنه الآلة الأساسية للنمو الاقتصادى، وتحدث زيادة معدل النمو عند (١) زيادة عرض العمال، (٢) تقسيم العمل، أو (٣) ارتفاع نوعية العمل عن طريق آلات جديدة. وبقدر ما تستمر أفكار جديدة فى الانطلاق لتحقيق استثمار واختراع مربح، للسماح بالتبادل التجارى الحر، بقدر ما يساعد هذا على دفع النمو

الاقتصادى إلى الأمام. وما هو أكثر أهمية من ذلك، هو أن الجمهور العام سوف يستمتع بمستوى معيشة أعلى. ولقد أعاد بول صامويلسون Paul Samuelson الاقتصادى الحائز على جائزة نوبل ـ والذى تملأ خلافاته مع ميلتون فريدمان مجلدات ـ فحص نظريات النمو عند آدم سميث، مستخدماً فى ذلك الأساليب الفنية الرياضية الحديثة، وأكتشف أنه إذا استمر حدوث الاختراعات على نحو متكرر... فإن معدلات السرعة ومعدلات الأجر الحقيقى سوف ترتفع فوق معدلات الكفاف». وأعلن صامويلسون: «الاكتشاف السعيد الذى جاء به آدم سميث بألوان خفاقة، هذا الاكتشاف جاءنا من شخص راحل، وإن كان يمثل فى نفس الوقت صيحة معاصرة»(٢١).

سياسات وتطبيق:

لم يكن آدم سميث مفكراً نظرياً يقبع فى البرج العاجى. لقد كان يريد للعالم أن يتبع تعاليمه ، والتقى بحماس السياسيين وسماسرة السلطة. واهتز فرحاً عندما أخذ رئيس الوزراء بيت Pitt بنصيحته، أو عندما استشهد به رئيس الوزراء فوكس Fox. وقد سامح فوكس لأنه استشهد بفقرات شهيرة من مؤلفاته، دون أن يقرأ أياً من هذه المؤلفات.

وقد أشار ذات مرة الرئيس هارى ترومان، Harry Truman، أن يأتوا له باقتصادى له ذراع واحدة. لماذا؟ لأنه قد ضاق ذرعاً بالاقتصاديين الذين كانوا يقولون نحن نستطيع أن نفعل ذلك، من ناحية، ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يقولون ربما نستطيع. لقد كان لآدم سميث ذراعان، ولكنه كان بكل ثقة يشير بأصبعه إلى أفضل السياسات التى يتعين على نظام الحكم أن يتبعها. لقد حذر المشرعون من أن المصالح الخاصة ستضغط بعنف فى اتجاه مضاد للإجراءات التى تتخذ لزيادة ثروة الأمم.. كما أن تحذيره لايزال أصدقاؤه يرددونه فى البرلمانات والمؤتمرات فى كل أنحاء العالم، ولا يدين منهج سميث لعلم الاقتصاد بالتفاؤل الساذج لشخصية

دكتور بنجلوس التى صورها فولتير Voltaire ، حيث إن بنجلوس يعيش «فى أحسن العوالم الممكنة» بالرغم من كل الدلائل التى تحيط به. ومن ناحية أخرى، لم يكن مثلما قال ويليام سافير William Safire (على لسان سبيرو أجنيو Spiro Agnew) : « سلبية غنى مثرثر». وبدلاً من ذلك، اعترف بالعقبات وبين كيفية تجنبها، ودعنا نلقى نظرة على عديد من هذه الاهتمامات السياسية.

قيود التجارة الداخلية :

تذكر نظام السوق التنافسى الذى وصف فيما سبق، حيث ترغم الدخول فى صناعة ما الأسعار والأرباح على الانخفاض إلى حد تكلفة الإنتاج، بالإضافة إلى الحصول على عائد عادى من الاستثمار. وكان سميث يرى أن التجار يجلبون للوطن أرباحاً طائلة فى بعض الأحيان. لماذا لم يعمل نموذجه إذن؟ لقد وصف سميث سيناريوهين مختلفين يشرحان الأرباح الباهظة.

فى الحالة الأولى.. لا يمكن لأصحاب المشروعات أن يدخلوا صناعة تحقق أرباحاً طائلة بسبب ظواهر طبيعية. وعلى سبيل المثال.. فإن الأرض القريبة من جيريز، بإسبانيا فقط هى التى يمكن أن ينمو فيها العنب الملائم لصناعة شراب الشيرى. ولا يمكن لرجال المشروعات الإنجليز أن يزرعوا أشجار العنب اللازم لصناعة شراب الشيرى حول قصر باكنجهام، حتى لو تطوعت العائلة الملكية لهرس العنب بأقدامهم الملكية. ولذلك فإن ملاك الأراضى فى جيريز قد يستمتعون بأرباح عالية. وقد يحاول أصحاب المشروعات بالطبع، أن يقنعوا الناس بشرب نبيذ برتغالى بدلاً من الشيرى، والذى من شأنه أن يخفض الأرباح الباهظة.

أما الحالة الثانية التى أشار إليها سميث فهى أكثر ضررا؛ إذ قد تستمر الأرباح الشاذة عندما تتحد مجموعات صغيرة للإبقاء على ارتفاع الأسعار. وقد كتب فى هذا الصدد: «إن الأشخاص الذين يعملون فى تجارة واحدة نادراً ما يجتمعون معاً ـ حتى وإن كان اجتماعهم للترويح والتسلية ـ وعندها فغالباً ما تنتهى المناقشة بينهم

بمؤامرة ضد الجماهير، أو بإجراء بعض التغييرات لزيادة الأسعار[٢٢]». وتبعا لما يرى سميث.. فإن التحالفات الشيطانية بين التجار أنفسهم لا تكون عادة قوية على نحو كاف. ولذلك، فإن التجار يغرون الحكومة بأن تقوم بدور الشياطين، لأن المؤامرات لا تمنع عادة دخول السوق ما لم تدعم الحكومة الاحتكار (الكارتل). وقد وجه سميث نقداً شديداً للقيود التي تنطوي على كثير من التناقضات التي تحد من التجارة، وكذلك تقسم العمل لصالح الجماعات التي يمكن تمييزها، وتعطل قوانين التدريب والنقابات التجارية والصناعية، بصفة خاصة، والمنافسة. وقد وصف سميث نتيجة سخيفة، مؤداها: أن صانع العربات الخشبية لا يمكنه ـ قانوناً ـ أن يصنع العجلات اللازمة للعربات، ولكن صانع العجلات يمكنه أن يصنع عربات يضعها على العجلات الأربع التي صنعها! وإذا كان في وسع صانعي العجلات أن يحظروا المنافسة من خلال القانون.. فإن في إمكانهم أن يتقاضوا أسعاراً مرتفعة. وإلى جانب تنديد سميث بالقانون الأساسي للتدريب فقد ندد كذلك بقانون الفقراء الإنجليزي؛ إذ كان يتعين على المواطنين ـ حتى يحصلوا على إعانات الفقر ـ أن يفوا بالشروط الأساسية لمحل الإقامة. وكان معنى هذا أنه لم يكن في وسعهم التحرك بسهولة من صناعة إلى أخرى أو الانتقال من مدينة إلى أخرى؛ تبعاً لتغير الطلب على الأنماط المختلفة للعمال. وقد هاجم سميث بعنف الاحتكارات التي تمنحها الحكومة، والتي بمقتضاها «يعاني السوق باستمرار من نقص المخزون من خلال عدم العرض الكامل للطلب الفعلي، وبذلك يبيعون سلعهم بسعر أعلى بكثير من السعر الطبيعي، ويرفعون أجورهم أو أرباحهم»[٢٣].

والسؤال الآن: كيف انتقلت مخاوف سميث من المؤامرة إلى هذا الجانب من الأطلنطي؟ منذ أيام تيودور روزفلت، Theodore Roosevelt، التي اتسمت بترويض الاحتكارات، فإن الولايات المتحدة كانت تبدي اهتماماً كبيراً بالاحتكارات واحتكارات القلة (مجموعة صغيرة من الشركات تسيطر معاً على الصناعة) أكثر مما تهتم بقواعد التدريب، التي لم تكن شائعة في أمريكا مثلما كانت شائعة في

أوروبا؛ إذ كان السياسيون والاقتصاديون الأمريكيون يخشون من إمكانية الشركات الكبيرة أن تحمى نفسها من المنافسة، ومن ثم تحقق أرباحاً مرتفعة. وهكذا، على مدى السنين، قدمت الحكومة آلاف الشركات للمحاكمة، تلك الشركات التى جأرت بالشكوى من خلال محاميها، وكانت الدعوى المقدمة ضد هذه الشركات هى تثبيتها للأسعار، والحد من المنافسة بمقتضى قانون شيرمان المضاد للاحتكارات، وقانون كلايتون. وعلاوة على ذلك.. فإن وزارة العدل سعت مراراً وتكراراً لمنع اندماج الشركات فى بعضها البعض. وخلال السبعينيات.. تبارى بعض الاقتصاديين وأساتذة القانون ـ وهم عادة الطلاب السابقون لعمداء جامعة شيكاغو: ميلتون فريدمان، وجورج ستيجلر، George Stigler، وريتشارد بوسنر، Richard Posner ـ فى الجدل فى أنه بينما يعد تثبيت السعر شراً، فإن «الضخامة» من خلال الاندماجات قد لا تكون كذلك، نظرا لأن الضخامة لا تعنى بالضرورة منع دخول شركات أخرى فى السوق، وقد تؤدى فى الواقع إلى دعم الكفاءة.

وفضلا عن ذلك.. فإن دارسين معاصرين كثيرين ينظرون إلى السوق نظرة تتسم بضيق الأفق الشديد؛ إذ إن منافسة القرن العشرين تتضمن الشركات الأجنبية، وليست الشركات المحلية فقط. وكدليل على ذلك، كان فى وسعهم أن يشيروا إلى فشل شركة جنرال موتورز فى الثمانينيات، فى مقابل نجاح شركة (هيونداى) الكورية لصناعة السيارات، وأنه فى خلال شهور من وصول هذه السيارات إلى شواطئ أمريكا تحركت فى جميع أنحاء ديترويت، وتركت علامات مؤثرة على ميزانية جنرال موتورز. وبالنسبة لسوق الكومبيوتر الشخصى.. فإن المستثمرين فى «الجاراجات» الذين كونوا شركات أطلقوا عليها أسماء الفاكهة، تحدوا عمالة «آى بى إم» و «هنى ويل». ومما يبعث على السخرية، أن شركة «آبل» للكمبيوتر بدأت فى بريطانيا كمستورد أمريكى متواضع، ثم نمت إلى أن أصبحت صناعة قوية تقلدها مبتكرات أكثر تواضعاً مثل شركة «آبريكوت» للكمبيوتر.

وفى ظل تأثير اقتصاديى «مدرسة شيكاغو».. عرقلت إدارة ريجان عدداً من عمليات اندماج الشركات أقل مما عرقلته الإدارات السابقة عليها، وهو الأمر الذى عرضها لانتقادات كثيرة، وبدلا من ذلك.. هاجمت حالات تثبيت الأسعار. ويزعم نقاد مدرسة شيكاغو أن تثبيت الأسعار يعد مجرد عرض للضخامة، وأن الاندماجات التى سمحت بها إدارة ريجان سرعان ما تتحول إلى احتكارات. وكما يقول الذين يناصرون حزباً فى الانتخابات «إن النتائج لم تظهر بعد».

ورغم ذلك.. فإن السخرية الكبرى تبدو جلية بالفعل؛ ففى جزء مهم من هذا القرن، قال عدد كبير من الاقتصاديين البارزين، مثل جوان روبنسون Joan Robin-son، إدوارد شامبرلين Edward Chamberlin وجون كينيث جالبريث John Ken-neth Galbraith أن العالم البسيط لآدم سميث عن المنافسة الكاملة، يبدو أقل أهمية كلما تمضى السنين، وتتضخم الشركات. ومع ذلك فإن كثيراً من الاقتصاديين المحدثين يصرون على أنه نظراً للمنافسة الدولية، فإن رؤية آدم سميث تزداد تألقا وأهمية يوماً بعد يوم!»[٢٤].

قيود التجارة الدولية:

كتب سميث «ماهى الفطنة فى سلوك كل أسرة خاصة، هل يمكن أن يكون الذعر حماقة فى مملكة عظمى؟» وبعد أن برهن سميث[٢٥] على صحة نظرية المزايا المطلقة، هاجم بشدة التجار الذين يضغطون للمطالبة بالحماية من المنتجات الأجنبية، والحكومات التى ترضخ لهذه الضغوط؛ إذ إن الحكومة ـ من خلال التعريفات والحصص ـ ترغم المستهلكين على دعم التجار، لأن المستهلكين يدفعون أسعاراً أعلى من اللازم. والواقع أنه دون المنافسة الأجنبية.. فإن التجار المحليين يرفعون أسعارهم وأرباحهم. والواقع أن القوى التي تكافح التجارة الحرة تبدو «مثل جيش ثابت فى مكانه ومفرط فى عدده... يشكل قوة هائلة بالنسبة للحكومات، ويرهب فى مناسبات كثيرة الجهاز التشريعى» وقد أعرب سميث عن أسفه؛ لأن

الموظفين الذين اعترضوا على حرية التجارة قد جرى تملقهم على الملأ، فى حين أن الذين كافحوا من أجل الصالح العام تلقوا الإهانات وسوء المعاملة المشين.(٢٦)

وقد زادت أوجه التشابه المعاصرة، غير أن التنقيحات التى أجراها ريكاردو على نظرية سميث، توحى بأن علينا أن نرجئ المناقشة. حتى إذا قبلنا النظرية الأساسية لسميث، فهل يسمح ذلك بأى استثناء بالنسبة للتجارة الحرة؟ نعم، ولكن ليست كثيرة. لقد فكر سميث ورفض حجة «الصناعة الوليدة»، التى تطالب بفرض تعريفة جمركية «مؤقتة» خلال السنوات الأولى للتنمية. وقد أيد الكسندر هاميلتون Alexander Hamilton حجة الصناعة الوليدة فى الولايات المتحدة بعد ذلك بسنوات، وقد رعت اليابان صناعة شبه الموصل الوليدة بعد ذلك بمائتى سنة. وقد ساورت سميث الشكوك من أن يكون فى وسع الحكومة أن تتوفر لديها الإدارة السياسية، اللازمة لإزالة الدعم عندما يكتمل نموها . ذلك أن الصناعة ستتعلم الصياح والبكاء مثل الطفل، بالرغم من أن لها شهية الراشد. أو أنه فى رواية جديدة للحجة.. فإن الصناعة ستصاب بضيق التنفس، ويسيل لعابها اشتهاءً كمواطن عجوز واهن العقل، يطالب بالحماية ضد المنافسة. لقد صاحت صناعة الصلب فى الولايات المتحدة مطالبة بالحماية على أساسين، أولهما باعتبارها عجوزاً وهن عقله، وثانيهما باعتبارها طفلاً ولد من جديد. غير أن الحماية اللازمة للصلب قد تكون ضارة بصفة خاصة؛ نظراً لأنها سترفع أسعار كل شئ، اعتباراً من غسالات الأطباق حتى عربات القمامة، وتلحق ضرراً بالآلات الأمريكية التى تصدر للخارج.

ولم يَكُنْ سميث يُكِنُّ سوى قدر ضئيل من التعاطف بالنسبة للتعريفة الجمركية، التى تفرض كإجراء انتقامى ضد الحماية الجمركية التى يفرضها بلد آخر، لأن التعريفة الجمركية الانتقامية تمحو فقط إمكانية تحقيق المزيد من الثروة المحتملة من العالم. وبالطبع.. فإن انتقاماً ناجحاً، يكفل إقناع المعتدى الأصلى أن يتراجع، يعد أمراً حسناً، وإن كان لا يضيف شيئا. ولكن كيف يتسنى للمرء أن

يعرف مسبقاً ما إذا كان فرض التعريفة الجمركية على نحو انتقامى سوف يغرى بفرض تعريفة ثالثة أم لا؟ ذلك أنه من المؤكد أن الكساد الكبير خلال الثلاثينيات قد تعمق، لأن الأمم فرضت تعريفات جمركية عالية كرد انتقامى من جانبها على الآخرين. وقد ذكر سميث على نحو لاذع: «إن الحكم عما إذا كانت مثل هذه الإجراءات الانتقامية من المحتمل أن تتمخض عن مثل هذا الأثر أم لا، أمر ربما لايساعد كثيراً فى علم التشريع... بقدر ما ينتمى إلى براعة حيوان ماكر وداهية، يسمى ـ على نحو مبتذل ـ رجل الدولة أو السياسى»[٢٧]. وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة تحمى بوضوح صناعات معينة، فإن السياسيين والاقتصاديين يذكرون اليابان ـ فى كثير من الأحيان ـ باعتبارها البلد الذى ينتهك ـ على نحو سافر ـ التجارة الحرة.

وهناك أسلوبان للرد الانتقامى يستحقان الذكر، فنظراً لأن اليابان تفرض الحماية من خلال لوائحها الغامضة، فإن هنرى روزوفسكى Henry Rosovsky، الاقتصادى بجامعة هارفارد، قد اقترح ـ على نحو يتسم بالغرابة ـ أن تدخل الواردات اليابانية إلى الولايات المتحدة، عن طريق عملاء الجمارك فى بويز وايداهو Idaho. وسوف يزيد روزوفسكى عدد العاملين، ويمد ساعات عملهم إلى تسع ساعات إلا خمس دقائق، ويفتح العمل كل يوم اثنين فى الشهور التى تنتهى أسماءها بحرف «الراء». وفى حالة أخرى، أكد جون كونّالى John Connally، حاكم تكساس السابق ـ خلال حملة الترشيح عن الحزب الديمقراطى للرئاسة الأمريكية عام ١٩٨٠ ـ أن الأمر يقتضى اتخاذ إجراءات أشد، فقد اقترح ـ على نحو غير مقبول ـ منع الصادرات اليابانية من دخول الولايات المتحدة، وأن نقول لهم «استمعوا إلى أجهزة سونى، واجلسوا داخل سيارات تويوتا فى موانئ يوكوهاما». ولقد حصل كونالى الذى أنفق ملايين الدولارات على حملته الانتخابية على نفس عدد الأصوات فى الولايات المتحدة، التى كان سيحصل عليها فى يوكوهاما.

والواقع أن منطق آدم سميث بشأن التجارة الحرة قد خضع فقط ـ من حين إلى آخر ـ لمطالب مؤيدى الحماية. وعلى سبيل المثال.. سمح سميث بفرض تعريفة جمركية لموازنة ضريبة داخلية فرضت على منتج محلى. كما خضع لمطالب التعريفة الجمركية من أجل دواعى الدفاع الوطنى، من خلال الاعتراف بأن أمن بريطانيا يقتضى إقامة صناعة بناء سفن سليمة. ومع ذلك.. فقد كان سميث يعتقد أن مثل هذه الحماية تعرقل «نمو الوفرة».

إذا لم يتعين على الحكومة أن تحمى صناعاتها، أو تنظم العمل، أو توزع الخدمات على التجار، فماذا ينبغى عليها أن تفعل؟ متى يحطم سميث أغلال اليد المرئية للحكومة؟ يحدد سميث بوضوح الدور السليم للحكومة: أولا، الاهتمام بالدفاع الوطنى، وثانيا: إدارة العدالة من خلال نظام المحاكم، وثالثا: صيانة المنشآت والموارد العامة مثل الطرق والقنوات والجسور والنظم التعليمية وكرامة الملك.

العودة الثانية

كان الذين يرتدون رباط عنق آدم سميث في عام ١٩٨٠ يعتقدون ـ بصفة عامة ـ فى حكومة قومية محدودة السلطات، وببرامج رفاه اجتماعى أقل، وبتدخل حكومي أقل فى الأسعار، وبتدخل فيدرالى أقل، وبتقديم مساعدة أقل لشئون الحكم المحلى؛ إذ إن السوق الحر ستقدم معظم ما يريده المواطنون فى حياتهم. وعندما تولى الرئيس الأمريكى رونالد ريجان السلطة فى عام ١٩٨١، فإن مستشاره الاقتصادى الأساسى كان يمزح قائلاً: «لا تقف هناك ساكناً، عليك أن تحرر شيئا من القيود». وعلى الرغم من أن اتجاهاً نحو التحرر من القيود، بدأ فى ظل إدارة كارتر بإصدار قانون تحرر شركات الطيران عام ١٩٨٧، إلا أن ريجان قد زاد من إيقاع هذا الاتجاه، عندما ترك أسعار الغاز الطبيعى والبترول والسفر بالطائرات لليد الخفية تحركها كيفما تشاء، فى نفس الوقت الذى تخلى فيه عن الخطوط الإرشادية للأسعار والأجور التى وضعها كارتر.

وعلى الرغم من الانتصارات الأولية لريجان، إلا أن الجهود الخاصة المبذولة للتحرر من القيود قد تعثرت، عندما بدأت المصالح القوية لشركات الملاحة البحرية وشاحنات النقل والبناء والتشييد تتصدى للحكومة. وفي عام ١٩٨٣ ، حلت الإدارة فريق العمل الخاص بالتحرر من معونات الفقراء، والذى كان يرأسه آنذاك جورج بوش نائب الرئيس. وبعد انقضاء فترة الرئاسة الأولى لريجان، وجدت قوى التحرر مزيداً من القضايا، التى تثير ابتهاجاً فى موسكو أكثر مما تثيره فى واشنطن.

وقد قال أندى وارهول Andy Warhol أنه يصعب أن يكون الفرد ـ فى المستقبل ـ مشهورا لمدة خمسة عشر دقيقة فقط، ولكن آدم سميث ظل مشهورا لأكثر من قرنين من الزمان. كيف نتذكره؟ لقد أعطى آدم سميث نظاما للعالم، وسط أكثر العصور ثورية فى الحضارة الغربية، وهو العصر الذى شهد تمرداً اجتماعياً عنيفاً، واضطراباً ثقافياً، ونمواً اقتصادياً متفجراً، مما أدى إلى ارتباك وحيرة رجال أقل شأناً. ومع ذلك فإن آدم لم يخترع السوق، كما أنه لم يخترع علم الاقتصاد، ولكنه علّم العالم السوق وعلم الاقتصاد. وليس أدل على ذلك من أن كتابه «ثروة الأمم» قدم معظم ما يعرفه الاقتصاديون، طوال خمس وسبعين عاماً تقريباً.

وبعد مائتى عام من صدور «ثروة الأمم».. فإن آراء سميث تبعث من جديد وتتألق. ولكن ماذا حدث لسميث؟ لقد عاش حياة سعيدة بعد صدور كتابه، وهو ما يدعو إلى الحقيقة والسخرية فى آن واحد ـ فمن حيث الواقع، كان ذلك حقيقة لأنه اختلط اجتماعياً مع أكثر الرجال شهرة فى عصره، ورأى كتابه يترجم إلى معظم اللغات الأوروبية، وحظى بالتقدير والتكريم في كل أنحاء بريطانيا والقارة، وشاهد مسئولين حكوميين يسجلون بدأب وانتباه مذكرات عندما يتكلم. أما من حيث السخرية.. فذلك لأنه أمضى الثلاثة عشر عاما السابقة على وفاته فى عام ١٧٩٠ ، يعمل فى خدمة الحكومة التى طالما انتقدها، وذلك فى وظيفة مسئول الجمارك لدى جلالة الملكة. لقد كان متساهلاً فى اقتضاء الجمارك، ولذلك ساهم فى زيادة ثروة الأمم.

الفصل الثالث

مالتس: نبوءات يوم الحساب والانفجار السكانى

ذات يوم من عام ١٩٠٨، واجه فريق أشبال شيكاغو فريق عمالقة نيويورك فى مباراة حاسمة للفوز ببطولة العصبة القومية. وخلال المباراة المثيرة ـ فى نهاية الدورة التاسعة فى البيسبول ـ غيَّر العمالقة الهداف الأول للفريق، وهو لاعب شاب كفء، ولكنه فشل على نحو يتسم بالإهمال فى تسجيل هدف ثان، مما أثار الاحتجاج واقتضى الأمر إعادة اللعبة. وقد فاز الأشبال فى الوقت الإضافى من المباراة.

وكان اسم الشاب هو فريد ميركل، Fred Merkle، ولكنه منذ تلك اللحظة حتى موته، كان يطارده اسم جديد هو «ميركل الأحمق»، ولم يستطع التخلص من هذا اللقب، بالرغم من الجهود الجسورة والنبيلة التى بذلها بعد ذلك.

ويعرف كل فرد تقريبا فى وقتنا الراهن ـ فيما يبدو ـ سيجموند فرويد، وزلات اللسان الفرويدية، والرموز الجنسية، وأى شخص متعلم ينكر معرفة فرويد فلابد أنه يكبت هذه المعرفة.

ولم يلعب توماس روبرت مالتس Thomas Robert Malthus قط كرة البيسبول، ولم ير إطلاقاً محللاً نفسانياً. ومع ذلك فإن اسمه أصبح شهيرا كاسم فرويد، وإن

كان لا يستحق سوء السمعة التى لحقت به مثلما لم يكن يستحقها ميركل الأحمق. لقد قرض بيرون ـ الذى كان من المرجح أنه فى حاجة إلى محلل نفسانى أكثر مما يحتاج مالتس ـ شعراً عن مالتس، وأنشد الأطفال أبياتا شعرية تسخر منه . وبعد عقود من موته هاجمه ماركس بشراسة وضراوة. غير أنه بعد قرن من موته، مجده كينز، وتنبأ بأننا فى ذكرى القرن الثانى لموت مالتس سوف نحتفل به باحترام غير منقوص، ولكن غير منقوص بالمقارنة بماذا؟

ما الجريمة النكراء التى اقترفها مالتس، والتى وصلت إلى أنها دفعت حتى شعراء رومانسيين مثل كوليردج Coleridge لأن يقولوا هذا الرثاء: «انظروا إلى هذه الأمة القوية حكامها ورجالها الحكماء يستمعون إلى مالتس! إنه لأمر محزن، محزن حقاً» ؟

ففى عام ١٧٩٨ ، سلب مالتس الأحلام الرومانسية من الناس الذين كانوا يتطلعون إلى القرن التاسع عشر بإيمان طوباوية. ولذلك حاكمته الصحف ووجدت أنه مذنب؛ لأنه تنبأ بأن الزيادة السكانية ستتمخض عن مستقبل لا يعتريه التمزق فحسب، وإنما تصيبه كذلك تمزقات اجتماعية وتحلل. ومن ثم، ففى عشية قرن جديد، كان مالتس هو «الفيصل النهائى» أو على الأقل كانت نظريته كذلك.

لقد ولد فى ١٣ فبراير عام ١٧٦٦ فى روكيرى، فى بيت كبير يملكه والده دانيال، وقد كان غريب الأطوار. وعندما كان مالتس فى الأسابيع الثلاثة الأولى من عمره التقى بوالديه الروحيين الأسطوريين، وهما ديفيد هيوم، David Hume، وجان جاك روسو، Jean - Jacques Rousseau، اللذين كان يعبدهما دانيال مالتس. وقد أظهر روبرت ـ هكذا كانوا يسمون الفتى ـ دلائل ذكاء مفرط فى سن مبكرة، ولذلك سرعان ما تلقى تعليماً خاصاً. وقد نما طويلاً ووسيماً، والتحق ١٧٨٤ بكلية السيد المسيح بجامعة كمبردج، حيث كان يدرس ليصبح رجل دين، ولكنه كان فى الوقت ذاته يقرأ الرياضيات والفلسفة. ومثلما تأثر آدم سميث

بنيوتن، كذلك تأثر به مالتس فقد قرأ بعناية كتابه «الأصول الرياضية للفلسفة الطبيعية» ، Philosophias Naturalis Principia Mathematica. وعلى الرغم من اهتماماته الثقافية الجادة وتطلعاته لرسامة الكهنوت، إلا أن مالتس كان محبوباً، ورجلاً ذكياً من كامبردج، وعلى استعداد لأن يتظاهر بإصدار أصوات وتعبيرات كوميدية ساخرة. فقد كان مالتس يرتدى شعره المستعار فى قصعات تصل حتى رقبته، على حين أن معظم الأشخاص الآخرين كانوا يرتدون ضفيرة، تتدلى من مؤخرة الرأس وربما كان مالتس محدداً «للموضة» ، ذلك أن معظم طلاب الجامعة، ظلوا طوال عشرات السنين التالية، يرتدون شعورهم فى قصعات على نحو مما كان يفعل مالتس. وماهو أكثر إثارة من ذلك، فهو أنه بينما كان معظم الطلاب يرشون شعرهم بمسحوق أبيض، فإن مالتس كان فى بعض الأحيان يستخدم اللون البمبى، الذى ربما كان من مجموعات البانك، التى انتشرت أخيراً بين الشباب فى أوروبا قبل زمانه.

وقبل أن يتخرج مالتس من الجامعة فى عام ١٧٨٨ .. حذره عميد كلية السيد المسيح من أن عيوبه فى الكلام نتيجة إصابته بشق خلقى فى سقف الحلق، سوف تضر بفرصه فى الترقى فى الكنيسة. وعلى الرغم من ذلك.. فإن مالتس فاز بجوائز الخطابة باللغات اليونانية واللاتينية والانجليزية فى جامعة كامبردج! ولم يعبأ بالنصيحة، وتلقى رسامة الكهنوت، ثم مارس عمله فى كنيسة فى أوكوود، ثم عاد إلى كلية السيد المسيح كأستاذ فى عام ١٧٩٣ . وعلى الرغم من أنه لم يكرس كل وقته للكهنوت مرة أخرى قط ، إلا أن الاقتصاديين لا يزالون يشيرون إليه على أنه القس مالتس. ومن المرجح أن مالتس ــ نظراً لصورة التشاؤم المتزمت ــ يلائم نظريته فى السكان، أفضل مما يتلاءم معها رجل عادى مرح وسعيد . وعلينا أن نتذكر تعريف هــ.ل. مينكين H.L. Mencken للمتزمت: إنه الشخص الذى يطارده الخوف من أن شخصا ما، فى وقت ما، فى مكان ما، يشعر بالمرح. ومن الناحية

التفسية، ربما نشعر بمزيد من الارتياح بطرح مالتس وتحذيراته جانباً إذا صوَّرناه على أنه متزمت.

تبديد الأوهام الطوباوية

عندما عاد مالتس إلى كلية السيد المسيح، كان مد الثورة يعلو ويعنف، ففى عام ١٧٩٣، أعدم الثوريون الفرنسيون بالمقصلة لويس السادس عشر، وأعلنت الجمهورية الفرنسية الحرب على إنجلترا . ولكن على الرغم من الأوقات المفزعة إلا أن بعض الكتاب والوعاظ، أعلنوا أن المد العالى سوف يتمخض فى النهاية عن أكثر الأزمان التى عرفها الإنسان شاعرية وهدوءاً عن جنة عدن. وقد سبق أن كتب روسو نثراً طوباوياً، ذهب فيه إلى أن الإنسان ولد سعيداً وحراً، غير أن المجتمع أفسده. ولاحظ فولتير Voltaire أن النزعة الطبيعية المفرطة لدى روسو، أثارت فيه حنيناً إلى المشى على قدميه ويديه، وهو يقرأ مؤلفه. غير أن مالتس قاوم رؤية الطوباوية. وقد ثار ـ بصفة خاصة ـ على ويليام جودوين William Godwin وهو قسيس بروتستانتى، ومؤلف نشرات دعائية، وكتب فى عام ١٧٩٣ «بحث فى مبادئ العدل السياسى، وتأثيره على الفضيلة العامة والسعادة» . وكان جودوين يعتقد تماماً وببساطة أن «الإنسان كامل، وفى كلمات أخرى قابل للتطور المستمر» ، (قد تخالف هذا الرأى ابنته مارى شيلى مؤلفة كتاب فرانكنشتاين) . ونظرا لأن «الحقيقة قادرة على كل شئ» ، ففى وسع الإنسان أن يحول نفسه إلى كائن أفضل، يصلح للسعادة والانسجام مع جاره: «سيسعى كل إنسان ـ بوازع من الحماس اللطيف ـ إلى تحقيق الخير للجميع» . وتحت تأثير زعم روسو بأن تاريخ المجتمع المدنى كان تاريخ المرض الإنسانى.. تصور جودوين إلغاء الحكومة والمحاكم والجريمة والحرب والحزن والغضب كلما حقق الإنسان الكمال، بل إن الموت والنوم يمكن أن يستريحا: «إن جيلا لن يخلف جيلا.. قبل التخلص من الموت، ويتعين علينا أن نتخلص من النوم، لأنه صورة الموت. ذلك أن النوم من أهم أوجه القصور البارزة للإطار الإنسانى. فهو حالة شاذة ومضطربة للقدرة والملكة العقلية» . وقد تراقصت

رؤى مماثلة في رأس م كوندورسيه M. Condorcet، وهو رياضي وفيلسوف فرنسي، نشر في عام ١٧٩٤ «مخطط لمشهد تاريخي عن تقدم العقل الإنساني» وقد أبدى كوندورسيه تفاؤلا مثيرا لهرب روبسبير، الذى سرعان ما سيلقى القبض عليه وينام إلى الأبد.

إن ماكان أكثر إثارة لانزعاج مالتس، هو أن جودوين ورئيس الشمامسة ويليام بالى، William Paley، قد ذهبا إلى أن زيادة السكان كانت مؤشراً طيباً، إذ إنها تعنى مزيدا من السعادة الكاملة. وقد قال بالى إن انحلال السكان كان الشر الأعظم الذى يمكن لدولة أن تعانى منه. وعند نهاية القرن الثامن عشر، قدر بعض الدارسين ـ بما لديهم من شذرات من معلومات غير موثوق منها ـ أن عدد السكان زاد ببطء شديد خلال المائة عام الماضية، بينما كان آخرون يشعرون بالرضا لأن السكان قد زاد عددهم. ولما كانت الأيدى العاملة القوية تدعم النمو الاقتصادى، لذلك أصدر وليم بت، William Pitt، رئيس الوزراء، قانوناً يقضى بزيادة معونة الفقر التي تقدم للزوجين وأطفالهم، وكان هذا القانون بشيراً بالمساعدات الراهنة، التى تقدم للعائلات فى نطاق برنامج إعالة الأطفال .

وكما كان متوقعا.. فإن دانيال مالتس قد أومأ برأسه موافقاً ـ فى اغتباط ـ على ائتلاف جودوين ـ بالى ـ روسو. ولكن بينما أومأ الأب برأسه موافقاً، فإن الابن أشاح بيده. لقد مشيا كثيراً فى الغابات، فى محاولة من كل منهما لإقناع الآخر بالنتيجة التى يقتضيها المنطق. وأخيرا، شعر روبرت بالإحباط، وبعين تغشاها الدموع، اندفع فى غضب، وكتب «بحث فى مبدأ السكان، لما يؤثر على تطوير المجتمع فى المستقبل، مع ملاحظات عن تأملات م. جودوين، وم. كوندورسيه وكتاب آخرين» . أما الأب الذى غشت عينيه الدموع من الفرحة بالمقدرة الثقافية لابنه، فقد رتب لنشر هذا المقال باسم مجهول.

النظرية المخيفة

لقد كانت هناك مقالات قليلة أكثر إثارة للفزع، تصور أن الأرض تنكمش بمعدل سريع للغاية. ففى كل خمس وعشرين عاماً تنشطر إلى نصفين، يبقى

أحدهما فى مداره، ويتجه الآخر نحو الشمس فيشتعل وينفجر. ويتعين على الناس أن تزحف وتتزاحم نحو النصف الباقى حتى تبقى على قيد الحياة، حاملين معهم أطفالهم وأجدادهم وما فى حوزتهم من مقتنيات مقدسة، مما يستطيعون حمله، وما هو أسوأ من ذلك، أنهم لا يعرفون أيا من نصف الأرض سوف يبقى. والواقع أن نبوءة مالتس تختلف عن ذلك اختلافاً ضئيلاً، فهى أقل إثارة للفزع فقط. فبدلا من انشطار الأرض وتفجرها.. وصف مالتس السكان وهم يتضخمون من حيث العدد ويزيدون بمعدل انفجارى، فى حين أن الموارد الغذائية لا تزيد إلا بمعدل ضئيل جدا. واستخدم مالتس معلومات من الولايات المتحدة، قدمها بنيامين فرانكلين، Benjamin Franklin، وأكد أن السكان يتضاعف عددهم كل خمسة وعشرين عاماً، وقد يتضاعف عددهم على نحو أسرع بالطبع. وفى الواقع، اختار مالتس نماذج متحفظة نسبيا. وقد قال فرانكلين إن بعض القرى يتضاعف عدد سكانها كل خمسة عشر عاماً! وعلي الرغم من أن مالتس لم يحصل على معلومات موثوق منها من فرانكلين حول الإمدادات الغذائية ، إلا أنه وصل إلى نتيجة مفادها أن إنتاجية المواد الغذائية لم تواكب قط زيادة السكان. ويقول مالتس إن السكان الذين لاكابح لهم يزيد عددهم، طبقاً لمتوالية هندسية على حين أن المواد الغذائية تزيد تبعا لمتوالية حسابية فقط.

ماذا تعنى هذه المتواليات؟ تعني المتوالية الهندسية (أو المعدل الأسي) أن العدد يتضاعف باستمرار على نحو ثابت، أما المتوالية الحسابية فهى تعنى أن العدد يزيد باضطراد، وقد قدم مالتس مثالا جيدا لذلك. لو أن عدد السكان فى الوقت الراهن يبلغ بليون نسمة، فإن عدد البشر سيزيد على النحو التالى: ١، ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤، ١٢٨، ٢٥٦، فى حين أن المواد الغذائية ستزيد على النحو التالى ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩ حسب المتوالية الحسابية. وحيثما كان يوجد لدى كل شخص سلة واحدة من المواد الغذائية فى البداية، فإنه بعد مائتى عام، سيتشارك

٢٥٦ شخصاً فى ٩ سلال، وبعد مائة عام أخرى فقط، فإن ٤٠٩٦ شخصاً سيكون عليهم أن يشاركوا بعضهم البعض فى ١٣ سلة.

إن المتواليات الهندسية يمكن أن تكون مثيرة للدهشة وقوية للغاية ، ومضللة كذلك. وقد تساعد أمثلة قليلة فى هذا الصدد لشرح هذا المعنى، فلو أن «سكوت» أراد أن يستعير تليفزيون «دنيس» لمشاهدة مباراة كرة قدم يوم ٢١ يناير ووعده بدفع بنس واحد فى أول يناير، على أن يضاعفه كل يوم إلى أن تبدأ المباراة، فثمة احتمالين: إما أن يكون «سكوت» غنياً جداً أو أن يكون دنيس غبياً إذا ماقبل لعبة مونوبولى النقود المعروفة، ذلك أن «سكوت» سيكون مديناً لدينيس بـ ١٠,٤٨٥,٧٦ دولار وقت بداية المباراة! وتوضح أيضاً الفوائد المركبة فى البنوك المتواليات الهندسية. وعليك أن تتذكر قصة الهولندى الذى اشترى جزيرة مانهاتن من الهنود بحوالى ٢٤ دولار، فلو أن الهنود وضعوا النقود فى حساب الفائدة المركبة، فإن ورثتهم، كان فى وسعهم أن يستردوا الجزيرة فى الوقت الحاضر، بما فى ذلك مبنى الإمباير ستيت، والمركز التجارى العالمى، وكل « التحسينات » التى طرأت على الجزيرة منذ القرن السابع عشر.

غير أن الفائدة المركبة يمكن كذلك أن تكون مضللة، على نحو مانرى فى هذا المثل الأكثر حداثة، ففى عام ١٩٨١ وافق الكونجرس على قانون يسمح بفتح حسابات التقاعد للأفراد، وهو يقضى أساساً بالسماح للأفراد بوضع مبالغ، تصل إلى ألفى دولار كل سنة فى صندوق لا تفرض على إيداعاته أى ضرائب حتى سن التقاعد. وعندئذ ظهرت على الفور إعلانات فى الصحف تفيد أن من يبلغ عمره خمسة وعشرين عاماً، يمكنه بسهولة أن يتقاعد، وأن يحصل على مليون دولار بمجرد أن يدخر ألفى دولار كل عام. وقد بينت الرسوم البيانية أن أذونات الخزانة الدولارية قد حلقت فى طبقات الجو العليا، وذلك لأن سحر الفائدة المركبة قد أطلقتها إلى عنان السماء. بيد أن الإعلانات ذكرت القصة الحقيقية،

فقد قدرت البنوك سعر فائدة يبلغ ١٢ فى المائة طوال الأربعين عاماً التالية، ولكنها لم تقل للقارئ إنه إذا كان سعر الفائدة يتراوح معدله حول ١٢ فى المائة طوال أربعين عاماً.. فإنه من المرجح أن التضخم سيزيد طوال أربعين عاماً، بحيث يقضى على معظم المكاسب. وعليك أن تتصور شخصاً مقتصداً فى نفقاته، قابعاً على مكتبه طوال أربعين عاماً لا تربطه بالعالم الخارجى سوى صلة ضئيلة. وعندما يأتى عام ٢٠٢١، يتقاعد من عمله، ويمسك بيده المرتعشة الإعلان الصادر عام ١٩٨١، وقد أصبح ورقه أصفر اللون، ويتصل تليفونياً بصراف بنكه ليدبر له عربة مصفحة لينقل فيها ثروته، ويشرح له صراف البنك أنها حوالى عشرة ملايين دولار وعندئذ يبكى فرحاً، ويسمع صوتاً. ويتدخل عامل التليفون قائلاً: «لو سمحت.. ضع ٤٠٠ ألف دولار لدقيقة أخرى فى المكالمة التليفونية».

لم تكن النتائج التى تضمنها كتاب «دراسة فى السكان» جديدة تماماً، سواء بالنسبة لمالتس أو للآخرين، إذ إن كلا من فرانكلين وسير جيمس ستيوارت قد نشرا من قبل أبحاث تنذر بهذه النتائج. بل إن مالتس نفسه كان قد عبر عن مخاوفه منذ عامين ماضيين فى بحث، سعى دون جدوى فى أن يجد له ناشراً: «لايمكنني أن اتفق مع رئيس الشمامسة بالى، الذى يقول إن مقدار السعادة فى أى بلد يقدر تقديرا أحسن بعدد الأشخاص... ذلك أن الزمن الذى ربما كان فيه العدد الفعلى للسكان وحده، مؤشرا للسعادة قد ولى». ولكن حتى إذا ما كان بحث مالتس غير جديد، إلا أن دعمه بعبارات بليغة، وصور مؤثرة، قد عرض فناً جديداً فى فن الإقناع. لقد سيطر مالتس على النظرية، وسيطر بها على انتباه بريطانيا.

وإذا ما انشطرت الأرض إلى نصفين ، ثم انشطرت مرة أخرى، فسوف نرى اندفاعاً هائجاً. ولكن ماذا يحدث بالضبط إذا تجاوزت الأفواه ملاعق الطعام؟ قبل زمن طويل من انطلاق النمو الهندسى فى الرسوم البيانية، كان هناك نوعان من

العقبات يعرقلان التقدم، هما: ضوابط إيجابية «وضوابط وقائية». وبوضوح.. لم يقصد مالتس بالضوابط الإيجابية أى معنى ينم عن التفاؤل، لقد عنى بالضوابط التى تزيد من معدل الموت. ما القوى الإيجابية التى يمكن أن «تنقذنا» من المتواليات الهندسية؟ إنها الحرب والمجاعة والطاعون. إن الطاعون يحوم فى كل مكان على استعداد لإنقاذنا، كما أن وفيات الأطفال تحررنا من الزيادة المفرطة للسكان. والمجاعة تطاردنا دائماً.

إن المجاعة تبدو أخر قوى الطبيعة وأكثرها فزعاً. ذلك أن قوة السكان تتفوق على قوة الأرض التى تنتج ما يسد به الإنسان رمقه بالكاد. ولذلك فإن الموت المبكر لابد أن من يزور الجنس البشرى فى شكل أو آخر. ومن ثم فإن رذائل البشرية تتسم بالنشاط والقدرة على خفض عدد السكان فهى النذر فى الجيش العظيم للدمار، وهى تضطلع فى كثير من الأحيان بالعمل المفزع. ولكن إذا فشلت فى حرب الإبادة هذه، عندئذ تتقدم مواسم المرض، والوباء والإسهال والطاعون، فى هجمات مخيفة وتحصد السكان بالآلاف ومئات الآلاف. وإذا ما كان نجاحها لا يزال غير كامل، فإن المجاعة الحتمية الهائلة تمشى بتشامخ فى المؤخرة، وبضربة قوية واحدة، تسوى السكان بالأرض[٤].

أما الضوابط الوقائية التى تخفض معدل المواليد، فكانت تبدو أقل قسوة، بيد أنها كانت أقل ترجيحاً. ويقترح مالتس أن الأشخاص لو كبحوا جماح شهواتهم، وأرجأوا الزواج، فإن حالهم يكون أفضل. وفى آخر الأمر.. فإن إنجاب الأطفال يخفض مستوى معيشة الأسرة. غير أن مالتس كان يرى أملاً ضئيلاً فى هذا الصدد، نظراً لأنه كان يعظ معتنقى العقائد الجديدة. والواقع أن الطبقات العليا والوسطى ممن يقرأون بحثه سوف يؤيدون حجته. ولكن ماهى الفرصة المتاحة له لإقناع الطبقات الدنيا، الذين يبدون دائما أكثر إنجاباً وتكاثراً، فى أن يمتنعوا عن الزواج أو إنجاب الأطفال، خاصة عندما كان قانون مساعدة الفقراء يشجع الزوجين

على إنجاب الأطفال؟ وقد صور مالتس دائرة متكررة ينضبط فيها النمو السكانى عن طريق الضوابط الطبيعية الكئيبة؛ مما يجعل الأجور عن حد مستوى الكفاف فقط. ذلك أنه إذا ارتفعت الأجور.. فإن العمال سينجبون مزيداً من الأطفال، مما يؤدى إلى نقص الموارد الغذائية، ويسفر عن هبوط لا مفر منه فى مستوى المعيشة.

ويعترف مالتس ـ فى تصريح رائع يصور الفكرة على نحو أقل مما تقتضيه الحقيقة ـ بأن «السيناريو» الذى وضعه له «سمة حزينة» (هل يمكن للمرء أن يطلق عليه سمة سوداء؟)، ثم يعرب مالتس عن الحزن بقوله: «مما يؤسف له أن منع تكرار التعاسة أمر يتجاوز قدرة البشر». ومع ذلك، حاول أن يبقى على ابتسامته ومرحه الأخلاقى فى قوله: «الحياة «نعمة مستقلة عن مستقبل الدولة.. ولدينا كل مبرر لأن نفكر بأنه لا يوجد شر فى العالم أكثر مما تقتضيه الضرورة المطلقة»(٥). ذلك أن الله، وليس مالتس، هو الذى يقدم المصيدة المالتسية، على أمل أن تبدأ البشرية التعاطف والفضيلة.

لقد كانت النشرة التى أصدرها مؤلف مجهول، بمثابة الوباء الذى اجتاح منزلى بالى وجودوين، وأهلك أنصارهما، وجعل نظرياتهما تبدو كما لو أن المجاعة الثقافية قد أصابت الطوباوية. وتحول بالى إلى الاقتداء بمنهج المرتدين عليه، أما جودوين فقد حارب، ولكن على أسس مالتس، حيث أوقف تهويماته الطوباوية، وجادل بأن الانضباط الأخلاقى قد ينذر بوقوع كارثة. ومع ذلك.. فإن الانتصار الأساسى لمالتس كان فوزه على رئيس الوزراء بيت، فعلى الرغم من أن بيت قد دافع فى عام ١٧٦٦ ببراعة عن قانون مساعدة الفقراء فى البرلمان، إلا أنه بعد أربع سنوات فقط تبنى آراء مالتس، وسحب تأييده للقانون الجديد، وناقش بيت موقف مالتس القائل بأنه طالما أن قانون مساعدة الفقراء قد شجع وحده الفقراء على إنجاب الأطفال، فإنه قد عجل بالموعد الذى تدمر فيه «الضوابط الإيجابية» السكان. والواقع أن إلغاء قانون مساعدة الفقراء من سجل الحسابات الجارية، سيكون أمراً مسكناً، عن طريق زيادة حوافز العمل وخفض المزاعم بشأن إمداد المواد الغذائية.

ولا يمكن انتقاد مالتس بأنه عدو لا قلب له للفقراء، ذلك أن البحث يقرع أجراس البيانات المتعاطفة التى تقول إن الفقراء سيعانون أكثر إذا تفاقمت الضوابط الإيجابية. وقد تمسك كينز فيما بعد بالرأى القائل بأن حب الحقيقة وبصيرة الروح العامة هما اللذان دفعا مالتس إلى التوصل إلى نتائجه. ولكن كيف كانت عضلات حنجرة بيت قوية، بحيث اضطر إلى ابتلاع كلماته اعتباراً من عام ١٧٩٦ : «دعنا نجعل مساعدة الفقراء مسألة حق وشرف... إن هذا سيجعل الأسرة الكبيرة نعمة وليس نقمة، ويضع خطاً صحيحاً للتمييز بين أولئك الذين يعولون أنفسهم عن طريق عملهم، وأولئك الذين يثرون بلدهم بعدد من الأطفال، يكون لهم بعد ذلك الحق فى الحصول على مساعدات ليعولوا أنفسهم»(٦) .

ولكن مالتس ـ حتى بعد تأييد بيت ـ ظل متشككاً بالنسبة للمستقبل، ذلك أن السيدات الجميلات والنبيذ يدفعان الرجال دون مقاومة إلى الانغماس فى الملذات الحسية، وكما يدرك جيدا بعض الوعاظ.. فإن الكلمات تكون فى كثير من الأحيان عقيمة، فى حين أن المستمعين ليسوا كذلك.

وبينما بدأت الأمة تردد بصوت عال تحذير مالتس، بدأ هو يشعر بعدم الارتياح تجاه المنهج العلمى العاصف الذى استخدمه. وبعد كل شئ، فقد استند فى نتائجه الكونية المهشمة على معلومات متناثرة من مستعمرة سابقة. وعلاوة على ذلك، فقد شعر بعدم الارتياح بسبب التشاؤم القدرى الذى تنطوى عليه مؤلفاته، وتبدو الطبعة التى راجعها من «بحث فى السكان» ملائمة. وقد بدأ مالتس بحثاً مكثفاً، حيث سافر إلى السويد والنرويج وفنلندا وروسيا، بل زار فرنسا وسويسرا خلال عام ١٨٠٢ إبان فترة السلام مع بريطانيا، وقد درس السجلات والقوانين المدنية، وعلم أن النمسا وبلغاريا كانتا لا تزالان تتمسكان بتعاليم القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، التى تحظر الزواج على الفقراء. وفى عام ١٨٠١، نشرت بريطانيا أول إحصاء شامل لسكانها، مما أثار دهشة مالتس، وقوى حجته. وتبعاً للدراسة.. فإن

السكان فى أواخر ١٧٠٠ ، قد زادوا زيادة كبيرة، فى حين أن معظم الدارسين كانوا يعتقدون ـ فيما سلف ـ أن النمو السكانى كـان بطيئاً جـداً. ذلـك أنه منذ حوالى مائة سنـة خلت ـ أى فى عام ١٦٩٦ ـ تنبأ الرائد الإحصائى جريجورى كنج Gregory King خطأ بأن السكان لن يتضاعف عددهم طوال ستمائة عام.

وفى عام ١٨٠٣ ، قدم مالتس طبعة جديدة من دراسته تحت عنوان جديد تماماً: «بحث فى مبدأ السكان أو فى تأثيراتها ـ فى الماضى والحاضر ـ على السعادة البشرية، مع بحث فى احتمالات التقدم فيما يتصل بالقضاء على الشرور الناجمة عنها أو الحد منها فى المستقبل». وهكذا خرج جودوين وكوندورسيه من الساحة. وتقلصت المناقشات عن النبوءة الطوباوية. لقد تناول مالتس كل شئ فى الكتاب بالتفصيل، إن لم يكن طبقاً لمتوالية هندسية، فعلى الأقل بمعايير الطول والعمق والوزن. فقد صور مالتس النقاط النظرية بالاستعانة بأمثلة وحكايات من أفريقيا وسيبيريا وتركيا وفارس والتبت والصين، ومرة أخرى من الولايات المتحدة بما فى ذلك الهنود الحمر هذه المرة. وليس فى وسع أحد شن هجوم عليه بأنه ليس تجريبيا. ومن حيث اللهجة.. فإن أصوات الطبعة الثانية تبدو أقل كآبة، وتقدم أملا فى أن الطبقة العاملة قد تغير عاداتها وتبدى انضباطاً أخلاقياً قبل التكاثر السكانى. وبالطبع.. فإن تغيير المواقف يستغرق زمناً، كما أثرت اللهجة التى تتسم بمزيد من الاعتدال فى مناقشة قوانين إعانات الفقراء. فبدلا من المطالبة بإلغاء هذه القوانين مرة واحدة، اقترح مالتس أن تلغى بالتدريج، وبالتدريج البطئ بحيث لا يلحق أى ضرر بأى شخص على قيد الحياة فى الوقت الحاضر، أو أى شخص يولد خلال عامين (تأكيدات فى الأصل)[٧] ، على أن تسحب المساعدات من الأشخاص ذوى البنية القوية. وحتى يتسنى توفير إمدادات المواد الغذائية.. فقد حث مالتس كذلك على استيراد وتصدير المواد الغذائية؛ ذلك أن القيود ستزيد من الأسعار فى إنجلترا، ومن ثم تشجع الإنتاج المحلى. وعلى الرغم من أن مالتس يعد ـ بصفة عامة ـ من

مؤيدى التجارة الحرة.. إلا أنه اقترح أن تكون المواد الغذائية استثناءً من القاعدة، وسوف نفحص حججه الخاصة بالتجارة عندما نناقش ديفيد ريكاردو.

ومع صدور الطبعة الجديدة.. فإن السياسيين والكتاب المشهورين اعترفوا بقوة منطق مالتس، وقد أشادت أبواب عرض الكتب فى الصحف والمجلات الكبرى بمالتس (الذى ظهر اسمه الآن على المؤلف السابق الذى كان موقعاً باسم مستعار) لبصيرته ولاجتهاده، وإن لم يكن لإيجازه فى الكتابة بعد أقل من عامين، ذكرت المجلة الشهرية Monthly Magazine أنه جار إعداد الطبعة الثالثة، والتى نشرت عام ١٨٠٦ ، وتبعها صدور الطبعة الرابعة فى العام التالى. وبالطبع، كان الجدل يثور مع صدور كل طبعة. فقد هاجم الخصوم الثقافيون ـ بمزيد من الشر والسوقية ـ الطبعة الثانية أكثر مما هاجموا الطبعة الأولى، نظرا لأنهم وجدوا هدفاً يوجهون إليه نقدهم (وليس مؤلفاً مجهولاً). وقد كتب الشاعر روبرت سوثى Robert Southey إلى صديق له يقول: «إن مالتس شخص مفضل بالنسبة للنقاد البريطانيين، وسوف تغمرنى السعادة فى أن أشارك فى الهجوم المنظم على هذا الغباء الشرير... وقد نقضى عليه خلال أمسيات قليلة»(٨). وقد كان الحقد والضغينة الذى نفثه سوثى فى قصيدته التى صاغها نثراً حراً، يفوق حقد كوليردج، الذى كان دافعه للهجوم على مالتس ينبع من وقائع كلية السيد المسيح، وذلك عندما صوت مالتس على طرد كوليردج من الكلية، بسبب تركه لها والانضمام إلى صفوف الجيش دون الحصول على تصريح. وعلى الرغم من هذا الهجوم اللاذع.. إلا أن مالتس كسب نقاطا لدى الاقتصاديين، وسرعان ماظهر باعتباره قائداً للمهنة. فقد قبل جيمس ميل وديفيد ريكاردو، ثم فيما بعد جون ستيوارت ميل، «بحث» مالتس وإن كانوا قد تجاهلوا فى بعض الأحيان الإشارة إليه فى كتاباتهم.

وما إن صدرت الطبعة الثانية، حتى نحا مالتس نفسه الانضباط الأخلاقى جانبا، وتزوج وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره من هاريت إيكرسال، Harriet Eckersal.

ولما كان الزواج يخرق مبادئ وتعاليم الزمالة فى كلية السيد المسيح، لذلك استقال مالتس. وقبل فى عام ١٨٠٥ وظيفة فى كلية هيلى بيرى، وهى مدرسة لتدريب العاملين فى شركة الهند الشرقية، التى كانت تتولى إدارة شئون الهند نيابة عن الحكومة البريطانية. وقد أطلقت عليه أسماء أستاذ التاريخ العام والسياسة والتجارة والمالية، ومن ثم أصبح مالتس أول أستاذ للاقتصاد السياسى فى إنجلترا. وهكذا.. يمكن اعتبار مالتس، بالرغم من رسامته الكهنوتية، أول اقتصادى محترف (ومصادفة، هاجم تلاميذ آدم سميث شركة الهند الشرقية باعتبارها شركة احتكارية ضارة، على حين أن اتباع فيلسوف مذهب المنفعة جيرمى بنتام Jermy Bentham دافعوا عن الشركة، وجادلوا الحجة القائلة بأن المتقدمين البريطانيين الجدد للعمل فى الهند سوف يستغلون أبناء البلاد الأصليين).

وفى كلية هيلى بيرى، أثبت مالتس مرة أخرى أن الرجل الذى وصف المجاعات البائسة والطاعون كان يحب أن يتمتع بالمرح. وقد وصف صديق مزاجه بأنه محب للمزاح ومعتاد عليه، فهو على استعداد للاشتراك فى المطاردات وأوجه المرح التى يمارسها الشباب حتى يمكنه أن يشجعهم على استذكار دروسهم. وخلال ثلاث سنوات أنجب مالتس ثلاثة أطفال ليلعب معهم، وكان يحلو للنقاد أن يسخروا من تكاثر ذريته. وعلى الرغم من أن مالتس لم يكن له سوى ثلاثة أبناء، إلا أن كل من أصدر طبعة من كتاب بحث فى السكان ـ على نحو ما فى عام ١٩٥٨، ١٩٦٧ـ أشار إلى أن له ثمانية أطفال آخرين كلهن بنات!

عراف طيب؟

لقد أفرخ مالتس آلاف التلاميذ، تدافع كثيرون منهم خلال عقد الستينيات وعقد السبعينيات من القرن العشرين للدفاع عن أهمية نبوءات أستاذهم بالنسبة لزمننا الحديث. غير أنه قبل دراسة الأدب الحديث فى علم السكان، علينا أن نقيم بعمق تكهنات مالتس. والواقع أن الحقيقة الجلية هى أن هذه التكهنات كانت

سيئة، ذلك أن السكان لم يزد عددهم تبعاً للمتوالية الهندسية، كما أن عرض المواد الغذائية لم ينخفض. وقد يكون البؤس قد طرق أبواب الفقراء، ولكن ليس لذات الأسباب التى توقعها مالتس. بل على العكس، ففى بريطانيا والقارة الأوروبية ـ حيث ركز مالتس اهتمامه ـ فإن الناس يتمتعون بوضع أفضل، ويعيشون سنوات أطول، ويبدون المزيد من الانضباط أكثر مما توقعه مالتس.

لقد أغفل مالتس بعض أهم الاتجاهات فى التاريخ، كما أغفل بعض النقاط الإحصائية المضيئة الواضحة. ومن حيث الجانب التافه، لقد نسى أن يسأل بنيامين فرانكلين عما إذا كانت أرقام زيادة السكان تميز المهاجرين عن الأمريكيين من حيث المولد أم لا. وبمعنى آخر.. فإن مالتس بجمعه معلومات فرانكلين معا، قد افترض فى الواقع أن الأمهات المنحدرات من أصل إنجليزى فى القرى النائية قد ولدن أطفالاً هولنديين وصلوا إلى نيويورك فى قارب. ذلك أنه عندما رأى أعداداً متزايدة، قال إن الأمهات الإنجليزيات يتمتعن بخصوبة فائقة، ومن المؤكد أن ثمة نظام إنجاب أطفال بلا ألم، حتى لو شاب المنهج الإحصائى الخطأ. وماهو أكثر أهمية من ذلك، أن مالتس قد أغفل تقدم الطب، والثورة الزراعية، وبدء الثورة الصناعية، وكل منها كان من شأنه لوى تكهناته مثل الحلوى، بحيث تأخذ أشكالاً هندسية جديدة، وليس الاتجاهات الهندسية المعتادة.

وعلى حين كان دانيال مالتس يمشى فى الغابات بصحبة جان جاك روسو، ويتأمل فى اكتمال الانسان.. فإن الفلاحين فى القرن التاسع عشر كانوا يستكملون مناهج قوية لزيادة نطاق إنتاجهم. ففى بداية القرن الثامن عشر، لم تتجاوز الإنتاجية الزراعية الأوروبية إنتاجية القرون السابقة. ولكن اعتباراً من عام ١٧٠٠ حتى عام ١٨٠٠ تضاعف إنتاج العامل فى انجلترا. أما فى فرنسا ـ وعلى الرغم من تأثيرات الثورة والحرب ـ فإن الإنتاج زاد بحوالى ٢٥ فى المائة تقريباً بين زمن مولد مالتس، حتى صدور الطبعة الأولى من بحثه فى السكان. وتعزى الزيادة إلى تجديدات

عديدة بما فى ذلك دورات المحصول واختيار البذور المنتقاة، واستخدام آلات أفضل، واستخدام الحصان بدلاً من الثور؛ مما أدى إلى خفض وقت حرث الأرض بحوالى ٥٠ فى المائة تقريباً. وبحلول عام ١٧٥٠ مكن التقدم السريع إنجلترا من توفير الطعام اللازم لمواطنيها، وتصدير ١٣ فى المائة إضافية من الغلال والدقيق. وإذا تقدمت بلد ما فى مجال الزراعة، فإن مزيداً من المواطنين يمكنهم أن يعملوا فى المناطق الحضرية أو غير الزراعية. وعلى حين أن ٧٥ فى المائة من الإنجليز كانوا يعملون فى الزراعة فى عام ١٦٩٠، فإنه بحلول عام ١٨٤٠ لم يكن يعمل بها سوى٢٥ فى المائة فقط[٩]. وفى الولايات المتحدة اليوم، فإن الأمر لا يحتاج سوى نسبة مئوية صغيرة من السكان للعمل فى الزراعة، من أجل توفير المواد الغذائية اللازمة لكل سكان أمريكا، وتصدير ملايين الأطنان من المواد الغذائية إلى الخارج. وبعيداً عن الحد من النمو السكانى.. فإن توسيع نطاق الإمدادات الغذائية سمح بتحقيق مزيد من الأبوة.

ومن الجدير بالملاحظة، أن مستوى المعيشة المرتفع لم يؤد إلى تزايد المواليد علي نحو ما تكهن مالتس. ذلك أن مالتس عندما نظر إلى إحصائيات السكان، لم يدرك أن الزيادة فى السكان قد تنشأ من انخفاض معدل الوفيات. والواقع أنه من عام ١٧٤٠ فصاعداً، انخفضت معدلات الوفيات فى أوروبا نتيجة لتحسين النظام الغذائى، وهو الأمر الذى أصبح ممكناً بفضل الثورة الزراعية والصحة الأفضل، والعلاج الطبى. والواقع أنه حتى القرن الثامن عشر كان من المرجح أن يقتل الأطباء مزيداً من المرضى أكثر مما يحققون لهم الشفاء، إذ كان من المرجح أن يكون إجراء عملية جراحية على دمية السحر والشعوذة على يد الطبيب الساحر أكثر فعالية من عملية جراحية يجريها طبيب بمشرطه. وفى العقد الأول من القرن الثامن عشر، كان متوسط العمر المتوقع يصل تقريباً إلى ثلاثين عاماً، ثم زاد إلى أربعين عاماً فى عام ١٨٥٠، وإلى خمسين عاماً فى ١٩٠٠، ويصل الآن إلى حوالى سبعين

عاما[١٠]. والواقع أنه تضاءلت التقلبات الكبيرة بالنسبة للحصاد، واختفت المجاعات من أوروبا الغربية بسبب الثورة الزراعية باستثناء أيرلندا خلال أربعينيات القرن التاسع عشر. وقد اجتاحت أخر مجاعة بريطانيا العظمى منذ حوالى قرنين، قبل ظهور بحث مالتس عن السكان.

ولكن لماذا لم يزد عدد السكان باضطراد؟ يشير الاقتصاديون إلى أربع مراحل فى التحول السكانى. ففى مجتمعات ما قبل الثورة الصناعية.. كانت معدلات الوفيات العالية، تتوازن مع معدلات المواليد العالية، وتضمن بذلك ثبات النمو السكانى. أما فى المرحلة الثانية، وهى فى البداية المبكرة للتنمية الصناعية.. فإن الصحة الجيدة خفضت معدلات الوفيات، ولذلك زادت معدلات المواليد، وزاد عدد السكان. ولما كان مالتس قد جمع مادته فى هذا العصر، فمن المرجح أنه لم ير، ولم يكن فى وسعه أن يرى ما حدث بعد ذلك؛ ففى المرحلة الثالثة، أقنع التمدن والتعليم الكثيرين بإنجاب أطفال أقل. وهكذا.. استمر انخفاض معدل الوفيات، وكذا معدل المواليد، الأمر الذى أدى إلى انبساط منحنى السكان. وأخيرا، ففى مجتمع ناضج النمو، وفى ظل تنظيم نسل ناجح، وزوجين يعملان فى معظم الأحيان، وتحدوهما رغبة فى إنجاب ما بين طفل إلى ثلاثة أطفال، حدث استقرار فى عدد السكان. لقد قال كارل ماركس ذات مرة: «حينما يسير قطار التاريخ حول منعطف.. فإن كل المثقفين ينزلون منه». والواقع أن مالتس لم يتكهن بالمرحلتين الثالثة والرابعة، ولذلك عندما سقطت الأرقام من خريطته المدبرة، نزل مالتس من القطار.

هل يمكن أن نلقى اللوم عليه؟ بعد كل شئ، لقد كانت لديه حقائق أكيدة قليلة اعتمد عليها. وفى الواقع.. فإن النتائج التى دفع بها كانت قوية وخيالية، بحيث أن جهوده بدت ـ بالمقارنة بغيرها ـ مليئة بالتفاصيل التى تتسم بالمثابرة والعناية. وإذا ما طبقنا معياره ـ الذى وضح فيما بعد فى مؤلفه «مبادئ الاقتصاد السياسى» ـ فإنه يكون مذنباً: «إن السبب الأساسى للخطأ، وللاختلافات التى تسود

فى الوقت الحاضر بين الكتاب العلميين حول الاقتصاد السياسى، تبدو لى على أنها محاولة متسرعة لتبسيط وتعميم.. .[وليس] لتجريب على نحو كاف لنظرياتهم بالرجوع إلى تجربة شاملة وموسعة، من شأنها ـ بالنسبة لموضوع معقد كهذا ـ أن تقر حقيقة هذه النظريات وجدواها»(١١) . وإذا أخذنا إغفاله للثورة الزراعية والتحليل السطحى جدا للأسباب التى تؤدى إلى زيادة السكان فى الاعتبار، فإنه يكون بذلك قد بسط وعمم على نحو كبير، لا يعفيه من الحكم عليه بأنه مذنب.

والواقع أن أهم خطأ أخلاقى ارتكبه مالتس هو الآتى: «إنه لا يصح بأى شكل من الأشكال النبوءة بالمستقبل لمجرد الاعتماد على بيانات الماضى ومدها إلى المستقبل دون محاولة لإعمال الفكر الواعى مع ضرورة إحاطة كل ذلك بقدر كبير من التواضع» .

لو أن أيسخيلوس Aeschylus كان يعيش فى زمننا، لكتب تراجيديا عن باحث نبيل تلحق به الآلهة ضرراً جسيماً، لأنه لم يكن متواضعا فى استنتاجاته. ولو أن أيسخيلوس أراد أن يكون له أعداء محدثين، لكان فى وسعه أن يتطلع إلى تلاميذ مالتس، الذين هم مثل كاساندرا Cassandra التى صاحت خوفا من قدوم يوم القيامة (والخلاف هو أن كاساندرا كانت على حق) .

تأجيل يوم القيامة

لقد حاولت بعض المجموعات خلال عقد السبعينيات رسم خريطة لمستقبل العالم، فى ضوء أوجه القلق الناجم من التلوث والسكان، وارتفاع أسعار الطاقة. ومرة أخرى ترددت نبوءات سيئة، فقد افترض أن الموارد الحالية سوف تنخفض، وأن الصناعة سوف تلوث الموارد الطبيعية الباقية، وسوف ينهار الإنتاج، وسوف يتجاوز عدد السكان إمدادات المواد الغذائية. من قال هذه النبوءات؟ إن إحدى أكثر الدراسات إثارة للفزع، أعدها نادى روما Club of Rome، وهو مجموعة من

الأكاديميين الأوروبيين، وصدر في كتاب من أكثر الكتب مبيعاً باسم «حدود النمو»[١٢]، The Limits of Growth. وباستخدام الأساليب الفنية المتقدمة للكمبيوتر، استنتج نادى روما من الاتجاهات السائدة، وتكهن بوقوع كارثة خلال مائة عام، مالم تتخذ إجراءات وقائية أكثر قسوة من تلك التي اقترحها مالتس. وتتمثل هذه الإجراءات الوقائية في: الوقف الفورى للنمو الاقتصادى، ووقف التوسع السكانى، وإعادة دورة الموارد. ولقد كانت هذه التكهنات مفزعة للغاية، حتى أن النادى أعاد تقييمها، وأصدر بعد وقت قصير دراسة أكثر سعادة. وقد وصف اقتصادى نادى روما بأنه مثل «كومبيوتر يصيح.. الذئب الذئب». ورغم ذلك، فإن التقرير الأصلى هو الذى حظى بالذيوع والانتشار وفي عام ١٩٧٣، قارن روبرت س. ماكنمارا Roberts S. McNamara، الذى كان آنذاك رئيساً للبنك الدولى «الانفجار السكانى» بتهديد الحرب النووية. وفي عام ١٩٧٤، نشر روبرت هيلبرونر، Robert Heilbroner، «بحث في المستقبل الانسانى»، أظهر فيه أنه لايوجد أى أمل على الإطلاق بالنسبة للبشرية في العالم الحديث. وقد استعرض الاتجاهات الصناعية، واستنتج أن الموارد لا يمكن أن تلبى الطلب الصناعى. وحتى إذا ما لبى هذا الطلب.. فإننا جميعا سوف نحترق في الجو الأكثر حرارة. واقترح أنه ربما يكون من الفطنة أن نتحول إلى نمط حياة رهبانية متقشفة. وحتى الآن استجاب معظم الناس إلى الاقتراح مقترناً بنصيحة إمبراطور السينما صامويل جولدوين: Samuel Goldwyn، «اخرجنى من هذه الزمرة».

وفي عام ١٩٨٠ ـ واستجابة لطلب مبكر من الرئيس جيمى كارتر ـ نشرت وزارة الخارجية ومجلس التوعية البيئية «تقرير العالم سنة ٢٠٠٠». وعلى الرغم من أن ما جاء فيه كان ودياً ومعقولاً، أكثر مما ورد في تقرير نادى روما، إلا أنه ذكر: «إذا استمرت الاتجاهات الحالية، فإن العالم في عام ٢٠٠٠ سيكون أكثر ازدحاماً بالسكان، وأكثر تلوثاً وأقل استقراراً من الناحية البيئية، وأكثر عرضة للقلاقل

والاضطراب، من العالم الذى نعيش فيه الآن... وإذا ما تعرض التقدم التكنولوجى لأى عائق، فإن الحياة بالنسبة لمعظم الأشخاص على الأرض ستكون أكثر خطراً فى عام ٢٠٠٠، عما هى عليه الآن... مالم تبادر أمم العالم للتصرف بحسم لتغيير الاتجاهات الراهنة»[١٣] ووافقت على ذلك صحيفة «واشنطن بوست» ، Washington Post ، وكتبت تقول: «إن توقعات التقرير أخطأت بوضوح فى الجانب الذى يتسم بالتفاؤل».

ولا تزال الشكوك تساور معظم الاقتصاديين حول هذه التقارير . ذلك أن أولئك الذين يبرمجون نماذج من نفس نوع الافتراضات الساكنة والمتشائمة التى استخدمها مالتس، والتى يطلق البعض عليها اسم نماذج «إدخال التشاؤم إلى الكمبيوتر، فإنه لا يخرج منه إلا التشاؤم». وقد انتهك أحد الافتراضات الأساسية المبدأ الرئيسى لعلم الاقتصاد، أى مؤشر الأسعار بالنسبة للعملاء الاقتصاديين عندما يجرى ادخار أو اقتصاد. وعلينا أن نتذكر المناقشة السابقة لآدم سميث، ومثال القصدير الذى عرضه «هايك». وذلك أنه إذا زاد الطلب على القصدير.. فإن السعر يرتفع، وعندئذ يحاول الناس أن يقللوا من استخداماتهم للقصدير، ويحفز ذلك أصحاب المشروعات إلى البحث عن مواد بديلة للقصدير، أو تقديم إمدادات إضافية منه. وطبقا للتقرير الأصلى لنادى روما، فإنه إذا زاد الطلب، فلن يحدث أى شئ باستثناء أن القصدير سينفد من العالم. أجل، ذلك أنه بالنسبة لبعض المنتجات قد يكون العرض ثابتاً، ولا توجد مواد بديلة لها. ومن ثم فإن تزايد الطلب لا يستجيب للأسعار الأكثر ارتفاعاً، ومن المؤكد أن هذه استثناءات. وليس أدل على ذلك، من أن فاسيلى ليونتيف، Wassily Leontief ، الحاصل على جائزة نوبل قد درس هذه المسألة بتكليف من الأمم المتحدة عام ١٩٧٧ ، وذكر فى تقرير له: «إن موارد العالم المعروفة من المعادن والوقود تكفى بصفة عامة لإمداد العالم باحتياجاته خلال العقود الباقية من القرن الحالى.. ولدعم التنمية الاقتصادية فى العالم بمعدلات عالية نسبياً، ولكن... من المرجح أن تصبح هذه الموارد باهظة الثمن»[١٤].

كما تفترض نماذج يوم القيامة أن التكنولوجيا لا يمكن أن تتجاوز الطلب على الموارد، فبينما أن التكنولوجيا قد لا تكون الآلة التى يعتمد عليها فى المسرح اليونانى أو سلاح فرسان أفلام رعاة البقر فى هوليود.. إلا أننا لا يمكن أن نقلل من شأنها كذلك. وعلى سبيل المثال.. فإن النماذج تدين السيارات بسبب التلوث، وتنذر بنهاية حفريات الوقود مثل البترول. وطبقاً للنماذج، فإن البترول والسيارات، بالرغم من أهميتهما الحاسمة للمجتمع الحديث إلا أنهما مدمران. ولكن ماذا يحل محلها خلال القرن الحالى؟ الحصان بالنسبة للنقل، والخشب بالنسبة للطاقة. ويوجد بالقرب من حديقة السنترال بارك فى نيويورك، عربات قليلة تجرها الجياد، وهى تعمل حتى اليوم. ومع ذلك، فالرائحة كريهة. تصور الرائحة الكريهة والمرض الذى انتشر منذ قرن مضى فى المدن، حيث كان الحصان هو الوسيلة السائدة للانتقال! وقد يكون الخشب أكثر تجدداً من البترول، غير أن حفريات الوقود، قد أثبتت أنها أرخص. وكانت الأسعار هى التى شجعت على التحول، وليس النموذج المنذر بالخطر. ذلك أن النقطة الأساسية هنا هى أن التوقعات على المدى الطويل فيما يتعلق بالموارد الاقتصادية والتكنولوجيا، تتطلب هبات سماوية، وليست درجات علمية فى علم الاقتصاد.

هل يعنى هذا أنه ينبغى على الاقتصاديين أن يرسموا على وجوههم ابتسامات بلهاء، ويدعوا اليد الخفية تعتنى بالتلوث والموت جوعاً فى الأمم الأقل تقدماً؟ لا. سوف نناقش التلوث بمزيد من التفصيل فيما بعد ، ولكن على الاقتصاديين أن يعترفوا الآن أن التلوث يشير ـ فى كثير من الأحيان ـ إلى فجوة فى النموذج البسيط لآدم سميث، لأنه فكر فى التلوث باعتباره تكلفة لأداء الأعمال. ولكن كيف يختلف الدخان عن تكلفة العمل أو تكلفة الآلة أو الأجر؟ هذا.. لأن الشركة تدفع ثمن هذه التكاليف الأخرى، فهى عناصر داخلية بالنسبة لعملياتها. غير أن الشركة لا تدفع من أجل التلوث ـ فهى عنصر خارجى يؤثر فى ذاك

المجتمع، الذى يدفع ثمن تنفسه هواءً قذراً. ما هى النتيجة؟ ينتج الصانع سلعاً أكثر مما ينبغى، نظراً لأن تكلفة الإنتاج تبدو أرخص مما عليه فى الواقع. وحتى يحصل الصانع على الكمية المثالية للإنتاج، يتعين عليه أن يضطر إلى استيعاب التكاليف العادية، بالإضافة إلى تكلفة تلوث المجتمع. وقد اقترح الاقتصاديون ـ مراراً وتكراراً ـ فرض ضرائب على التلوث لتحقيق هذا الهدف.

وتبدو مصيدة مالتس أكثر صلة بالموضوع في الأمم الأقل نمواً، حيث تؤدى الخدمات الصحية الأفضل إلى خفض معدلات الوفيات، واستمرار معدلات المواليد في الارتفاع. ولكن، بالرغم من التشاؤم، فإن أرقام الخصوبة ـ فى كثير من البلاد الفقيرة ـ قد تناقصت خلال العشرين عاماً الماضية نتيجة للحملات التعليمية، ودعم برامج تنظيم النسل، والانتقال «السكانى» الطبيعى، الذى يقترن بالتنمية الاقتصادية. ففى البرازيل.. أقر بعض علماء الاجتماع بفضل مواقف الطبقة المتوسطة، التى عرضت على شاشة التليفزيون بسبب الانخفاض المذهل فى معدل المواليد، مما أربك التوقعات الخاصة بالسبعينيات. ومن ناحية أخرى.. فإن الجهد الذى بذل لخفض معدلات المواليد مسألة تثير الجدل فى بعض المجتمعات. ففى الصين، يبدو أن سياسة الحكومة الخاصة بخفض معدل المواليد قاسية للغاية، فى حين أن سياسات تنظيم النسل فى بلاد أخرى، تتحدى التقاليد والمبادىء الدينية. وعلى الرغم من ذلك، فقد حدث انخفاض كبير فى معدل المواليد فى سرى لانكا والصين وأندونيسيا، وفى عدة ولايات هندية. وقد شهدت سنغافوره انخفاضاً سريعاً في معدل مواليد الأجناس الصينية مما أدى إلى قلقها من قلة عدد السكان، ولذلك فبعد عشرين عاماً من رفع شعار «يكفى طفلين»، أعلن مسئولون فى سنغافوره مؤخراً: «ليكن لديكم ثلاثة أطفال ـ فأكثر إذا كان فى وسعكم تحمل ذلك»!

وفى الوقت نفسه.. فإن البلاد الفقيرة تزيد من إنتاجها الزراعى. وليس أدل على ذلك من أن الصين والهند اللذين يضمان أكثر من ٤٠ فى المائة من سكان العالم،

ومعظم أفراده الفقراء، قد تمكنا خلال السنوات العشر الماضية من تحقيق الاكتفاء الذاتي في الزراعة تقريباً. وفى عام ١٩٧٨ .. بدأت الصين إعادة هيكلة القطاع الزراعى، وتحولت من وحدات الإنتاج التى تخضع إدارتها للنظام المركزى، إلى قوى السوق. وأخيراً، سمحت بالتعويم، وغدت الأسعار مؤشرات للأداء الاقتصادى فى الصين، وبذلك قفز الإنتاج إلى الأمام .

ومع ذلك.. فإنه بالنسبة للجانب الذى يتسم بقناعة قليلة.. فإن البلاد الأفريقية قد وجدت أن النجاح مراوغ بالنسبة لانخفاض السكان وزيادة الإنتاج. وعلى الرغم من انخفاض معدل المواليد عما كان عليه خلال الخمسينيات، إلا أن إجمالى معدل النمو السكانى يعتبر أعلى نظراً لارتفاع معدلات العمر المتوقع على نحو مذهل. ويبدو أن شبح مالتس قد قطب جبينه ولم يرض عن بلاد مثل أثيوبيا، حيث قام الجفاف والحرب فيها بدور الضوابط الإيجابية. ومع ذلك.. فإن لدى هذه البلاد التى تعرضت للدمار إمكانية توفير المواد الغذائية لسكانها. ويشير الاقتصاديون إلى مشكلتين أساسيتين، أولاهما: أن البلاد الفقيرة لا يسعها أن تدخر وأن تستثمر فى تكنولوجيا جديدة، لأن الدخول منخفضة، نتيجة عدم كفاية الأساليب الفنية اللازمة للإنتاج. وهكذا يقعون فى شرك دائرة خبيثة، تسعى المعونة الأجنبية لتحطيمها. وثانيتهما، وماهو أكثر أهمية.. فإن كثيراً من الحكومات التى لا تحظى بالاستقرار السياسى تهدئ المستهلكين فى المناطق الحضرية بجعل الأسعار منخفضة. غير أن الأسعار المنخفضة ـ على نحو مصطنع ـ من شأنها أن تؤدى إلى انخفاض الاستثمار من جانب الفلاحين، مما يصيب الإنتاج بصدمة أخرى. ونتيجة لهذا.. فإن المستهلكين يرون بسعادة الأسعار المنخفضة، ولكنهم يتطلعون بحزن إلى الرفوف الخاوية فى الحوانيت.

وتعقد بلاد العالم الثالث المشكلة ـ فى كثيرمن الأحيان ـ بالمغالاة فى تقييم عملتها، مما يؤدى إلى تشجيع الواردات، وخفض صادراتها. وخلال العقد الماضى،

أعاد عدد كبير من الدارسين دراسة القضية الأساسية حول ما إذا كان النمو السكانى يلحق ضرراً ببلاد العالم الثالث أم لا، وتوصلوا إلى نتيجة مفادها أنه فيما يتعلق ببعض البلاد؛ خاصة البلاد التى تحظى بوفرة فى الأراضى الصالحة للزراعة.. فإن النمو السكانى السريع قد لا ينطوى على آثار مدمرة، لأن عدد سكان أكثر كثافة قد يخفض تكاليف نقل السلع إلى المستهلكين، وينعش الطلب المحلى على السلع. ويقترح البنك الدولى أن فى وسع معظم الدول النامية أن تستوعب زيادة سكانية تصل إلى ٢ فى المائة، دون أن يؤدى ذلك إلى انخفاض فى مستوى المعيشة. وعلى حين أن متوسط الزيادة السكانية فى الدول الأفريقية يبلغ حوالى ٣ فى المائة سنوياً، فإن متوسط الزيادة في البلاد الآسيوية وأمريكا اللاتينية يبلغ حوالى ٢ فى المائة سنوياً. ومن المؤكد، أنه يوجد هناك مبرر للأمل. غير أن الأمل يستند ـ إلى حد كبير ـ على ما إذا كانت الحكومات سوف تنتهج سياسات اقتصادية إنتاجية من شأنها تشجيع التجارة بين الراشدين، والتعليم بين الأطفال أم لا.

الأيام الأخيرة لمالتس:

سوف يصاب مالتس بالدهشة، إذا علم أن العالم فى حالة طيبة بما يكفى لدحض بحثه على امتداد ١٥٠ عاماً بعد رحيله.

وقد أمضى مالتس الثلاثين عاماً الأخيرة من حياته فى هيلبورى ولندن يصادق العظماء وأشباه العظماء، وكان على حد تعبير صامويل جونسون، Samual Johnson، « اجتماعياً »، وأصبح عضواً في نوادى الملك وفى نادى الاقتصاد السياسى. وأعد عدة كتب وكتيبات، أكثرها شهرة كتابه «مبادىء الاقتصاد السياسى Principles of Political Economy». وماهو أكثر أهمية، أنه أجرى مناظرة اتسمت بالود، وإن كانت لهجتها قوية مع ديفيد ريكاردو حول السياسة التجارية، ومسألة الكساد الاقتصادى، وهو ما سوف نناقشه فيما بعد.

وحتى موته فى عام ١٨٣٤.. كان مالتس يشعر بأنه مضطر لإنكار أنه كان عدواً للإنسانية. ولا يزال المحاضرون والمؤلفون يصورونه فى أحسن حال على أنه قسيس صارم ومتزمت، ويصورونه فى أسوأ حال على أنه عفريت يصلح لاحتفالات الهالووين المعروفة فى أمريكا. ومع ذلك.. فإن نقاده ـ على نحو ما كان يعتقد ـ كانوا يرتدون أقنعة مرحة حجبت عنهم الرؤية، وحالت دون أن يروا أن الضوء الذى يوجد فى نهاية النفق ما هو إلا قطار يتجه نحوهم.

الفصل الرابع

ديفيد ريكاردو
والصيحة من أجل التجارة الحرة

لم يلتحق ديفيد ريكاردو قط بأى كلية. ولكنه تعمق فى النظرية الاقتصادية باقتدار وكفاءة أكثر مما تعمق فيها أى أكاديمى. وهو لم يدرس قط الأسواق المالية دراسة منظمة. ومع ذلك، فقد صنع ملايين الجنيهات فى سوق الأوراق المالية. لقد سيطر عقله القوى ومعرفته العملية على الخصوم المثقفين؛ بحيث كان فى وسعه أن يفوز فى المناظرات العنيفة، ثم يدحض حجة الخصم قائلاً: إن أى أستاذ جامعى سيكون أبله إذا أعتنق هذه الحجة.

وكان هناك أستاذ جامعى أبله بما يكفى، بحيث اختلف مع ريكاردو، وكان اسمه توماس روبرت مالتس. غير أن النقاد كانوا ينتقدون مالتس بخبث، حتى أنه استمتع فى الواقع بهجمات ريكاردو الحكيمة. ذلك أنه بعد شيللى، Shelly، وكوليردج، فإن هجمات ريكاردو كانت تبدو مثل الموسيقى، لأن ريكاردو كان على الأقل يوافق على نظريته السكانية.

وقد بدأت العلاقة بين ريكاردو ومالتس على صفحات الصحف، حيث كان كل منهما ينشر مقالات عن العملة والقضايا التجارية، ينتقد فيها الآخر. وأخيراً، بعث مالتس برسالة إلى ريكاردو فى عام ١٨١١، اقترح فيها أنه طالما أن كلا منها

يقف أساساً فى نفس الجانب من القضية، لذا يتعين عليهما أن يتجاوزا عن الجدل الطويل فوق صفحات الصحف، وأن تجرى مناقشات ودية خاصة فيما بينهما». وفى ذات الوقت تقريباً كان ريكاردو يكتب نفس الملاحظة، وقد التقيا بعد أيام قلائل، وكان ذلك بداية صداقة طويلة. وقد كتب ريكاردو، قبل موته فى عام ١٨٢٣، يقول إنه على الرغم من الخلافات العديدة فإننى لم أكن لأحبك أكثر مما أحبك إذا كنت تتفق معى فى الرأى». وقد شارك ثلاثة أشخاص فقط فى وضع وصية ريكاردو، وكان مالتس أحدهم. وأخيراً قال مالتس: «إننى لم أحب قط أى شخص من غير أفراد عائلتى، مثل هذا الحب الذى أكنه لريكاردو».

والواقع أن مالتس لم يعرف قط أحداً من غير أفراد عائلته سوى.. ريكاردو. وعلى حين أن مالتس ينحدر من عائلة انجليزية عريقة، ثم جرى ترسيمه كهنوتيا فى الكنيسة الانجليكانية.. فإن ريكاردو ولد عام ١٧٧٢، وكان ابناً لمهاجر يهودى. لقد كان إبراهام ريكاردو واحداً من «السماسرة اليهود» الاثنى عشر، الذين سمح لهم بممارسة السمسرة فى الأوراق المالية فى لندن. وعلى حين أن مالتس تلقى تعليماً دقيقاً ودرس فى جامعة كامبردج.. فإن ريكاردو قد عمل مع والده، عندما بلغ الرابعة عشر من عمره، وبدأ يتعلم النظم المالية المعقدة واستراتيجيات المهنة، إذا جاز لنا قول هذا، وقد تعلمها على نحو جيد. وعندما بلغ منتصف العشرينيات من عمره.. فإن الرجل الذى لديه قدرة خارقة على تحقيق النجاح الباهر لأى مشروع، كان قد كون أعماله الخاصة، وكدس ثروة من خلال الأوراق المالية والسندات والاستثمار فى العقارات. وكان الكسب الوحيد الذى حققه مالتس من استثمار الأموال قد حققه له ريكاردو. وقد حدث المثال الأساسى الذى يكشف عن فطنتهما المتباينة خلال حكم نابليون، فقد اشترى ريكاردو لنفسه ولمالتس بعض الأوراق المالية للحكومة البريطانية ولكن بعد إعلان الدستور الفرنسى الجديد، غدا مالتس عصبياً إذكان يخشى أن اتجاه الأحداث لصالح الزعيم الفرنسى قد يلحق ضرراً بالأوراق المالية. وفى صوت خفيض ـ يصلح أكثر لتولى طقوس الكنيسة أكثر

مما يصلح لسوق الأوراق المالية ـ طلب مالتس من ريكاردو: «بع الأسهم ما لم يكن ذلك خطأ أو غير ملائم بالنسبة لك، وأيا ما يحدث.. فسوف أكون دائماً مقدراً لعطفك، ولن أشعر بالندم». وقد باع ريكاردو أسهم مالتس، ولم يبع أسهمه لمدة أطول قليلاً، مما مكنه من أن يكسب ضعف ما كسبه مالتس تقريباً[1].

وعلى الرغم من أن الثروة كانت تحيط بريكاردو من كل جانب، إلا أنه لم يقرأ كتاب « ثروة الأمم » إلى أن بلغ السابعة والعشرين من عمره، وقد قرأه «بالصدفة». ففي خلال أجازة مملة في مصيف باث الانجليزى، عثر زعيم المستقبل لعلم الاقتصاد الكلاسيكى على الكتاب الأعظم لمؤسس علم الاقتصاد، وتذكر أن آدم سميث بدأ تأليف كتاب ثروة الأمم خلال إقامة كئيبة في فرنسا. ولما كان علم الاقتصاد يدين بالفضل، فيما يبدو للملل أكثر مما يدين لأى مبدأ آخر ، فإن على الطلاب ألا يشتكوا إذا ما رد أستاذتهم الجميل إليه ـ من حين إلى آخر ـ أو إذا ما احتفلوا بأصل علم الاقتصاد.

وفى عام ١٨٠٩ ، بدأ ريكاردو حياته ـ ككاتب اقتصادى ـ بنشر مقالات فى الصحف وكتيبات عن العملة والتضخم، ويهاجم بعنف عرض الكتب. وبإيعاز من جميس ميل James Mill ـ الاقتصادى السياسى، ووالد الفيلسوف جون ستيوارت ميل ـ انضم ريكاردو للنادى الثقافى فى لندن ، ثم أصبح فيما بعد عضواً فى نادى الاقتصاد السياسى لمالتس، وعضواً فى نوادى الملك (وهو نادى اجتماعى) . وكان ريكاردو بارعاً فى سرد القصص والأخبار، ومضيفاً رائعاً، وقد أثر بذلك بصفة خاصة على الروائية ماريا إدجوورث، Maria Edgeeworth ، التى قالت إنها حظت «بمناقشة ممتعة، سواء فيما يتصل بالموضوعات العميقة أو الضحلة. ذلك أن مستر ريكاردو الذى يتحلى بأسلوب مركب جداً، يتمتع بحياة عقلية مستمرة، ويبدأ باستمرار لعبة جديدة فى المناقشة، ولم يتسن لى قط أن تجادلت أو ناقشت قضية مع أى شخص، كان يجادل بنزاهة ليس من أجل النصر دائماً، وإنما من أجل الحقيقة» [2].

وسرعان ما أصبح ابن المهاجر نموذجاً للإنجليزى النبيل الكريم المحتد، وكان مدركاً للثورة الصناعية، وأنيقاً فى ملبسه، وهو فى غرفة «الصالون». وفى إطار مجادلة جيمس ميل، كتب ريكاردو أخيراً فى عام ١٨١٧ بحثاً عنوانه «عن مبادىء الاقتصاد السياسى والسياسة الضريبية» وقدم فيه تعقيباً إضافياً على آدم سميث وكذا القضايا المعاصرة. وبعد ذلك بعامين ـ ومرة أخرى، وبتشجيع من ميل ـ فاز ريكاردو بمقعد فى مجلس العموم، حيث دوى صوته الأجش مطالباً بإقرار الحريات السياسية، وتحقيق حرية التجارة.

نظرية مخادعة ولكنها بارعة:

لا تعرف كم عدد أعضاء البرلمان الذين فهموا ريكاردو بالفعل، وخاصة آرائه حول التجارة. ولا يرجع هذا إلى أن آراءه كانت غير واضحة، أو أنه لم يكن بليغاً فى عرضها، وإنما يعزى هذا إلى أن ريكاردو ربما حاول أن يناقش أكثر مبادىء علم الاقتصاد تعقيداً وتعارضاً مع ظاهر الأمور. وذات مرة، أدلى الرئيس جيرالد فورد Gerald Ford بحديث تليفزيونى عن عجز الموازنة الفيدرالية، واستخدم تقويماً بمساعد بصرى، وقد أعد بدقة كل شىء حتى لا يقدم على أى حركات يدوية تبعث على الحيرة والارتباك. والواقع أن أى رئيس حديث لن يحاول أن يفعل ما حاول ريكاردو أن يفعله. ومن سوء الحظ.. فإن المبدأ المحير هو أساس فهم علم الاقتصاد الحديث. لقد سأل ذات مرة عالم طبيعى، اقتصادياً مشهوراً أن يعين قاعدة اقتصادية ليست واضحة أو مهمة. وكانت الإجابة السريعة هى قانون ريكاردو عن الميزة النسبية. ومما يؤسف له أن عدداً قليلاً من السياسيين آنذاك، أو الآن، يمكنهم أن يتابعوا التحليل. ونتيجة لهذا.. فإن الحصص، والتعريفة الجمركية، والحروب التجارية تعكر صفو تاريخ الاقتصاد فى العالم.

وقبل أن ندرس هذا المبدأ، دعنا نرى لماذا ضاق ريكاردو ذرعاً بشرحه. فطبقاً لرؤية آدم سميث.. فإن رجال الأعمال يحبون أن يصيحوا مطالبين بحرية المشروع

فى اجتماعات نادى اللوتارى، غير أنهم يهمسون فى آذان السياسيين فى مقر الكونجرس بمطالب للحصول على امتيازات. وخلال زمن ريكاردو.. همس ملاك الأراضى، ولوحوا بثرواتهم فى البرلمان، وطالبوا بالحصول على الحماية إزاء استيراد الغلال بعد الحروب النابليونية. فقد ارتفع سعر الغلال خلال الحروب، وكان سبب ذلك جزئياً الحظر الذى فرضه نابليون، وكان ملاك الأراضى يخشون انخفاضاً مفاجئاً فى بداية إقرار السلام. وعلى الجانب الآخر من الممر.. كانت تجلس البرجوازية الصاعدة، ورجال الأعمال الجدد للثورة الصناعية. ولما كانت البرجوازية تستخدم العمال، لذلك كانت تفضل أسعار أقل للمواد الغذائية حتى لاتضطر إلى دفع أجور أعلى. وكسب ملاك الأراضى معركة النفوذ، وأقر البرلمان فى عام ١٨١٥ قانوناً بحظر استيراد الحبوب بأقل من سعر معين ، وهو أمر أعطى ـ فى الواقع ـ المزارعين وضعا احتكارياً. وتحدد القواميس البريطانية «الحبوب» على أنها الغلال، مثل: الشوفان والشعير والقمح والشيلم، وهكذا سميت القوانين باسم «قوانين الحبوب».

وكان ريكاردو يرى أن لبريطانيا مستقبلين: أولهما باعتبارها جزيرة معزولة تتمتع بالحماية الجمركية، ومحصنة ضد استيراد السلع الأجنبية، وثانيهما: باعتبارها تاجراً متفتحاً على الآخرين، يعمل باعتباره متجراً للعالم. وكان الخيار دقيقاً، فلو أن بريطانيا اختارت النمط الأول، فإن الاقتصاد المعتمد على الذات سرعان ما يتداعى، وسوف نعلم بداية لماذا فضل ريكاردو سياسة الباب المفتوح، ثم نبحث بعد ذلك المسألة المخادعة لريكاردو عن «حالة السكون».

تذكر نموذج التجارة الخاص بآدم سميث القائم على الميزة المطلقة، وتصوره وهو يؤلف نظريته، ويسب الفرنسيين بقوله: «نحن لا نحبهم. فهم يأكلون الضفادع. وقد واجهت وقتاً عصيباً فى تولوز، ولكن إذا ما كان فى وسعهم أن يصنعوا نبيذاً أرخص مما نصنعه، فإنه يتعين علينا أن نحييهم، ونشرب نبيذهم. أما إذا

لم يكن فى وسعهم أن ينتجوا نبيذاً أرخص، فدعنا نسخر منهم عبر القناة الإنجليزية» ، وهذا قول صحيح وفطرى ومنطقى.

وحتى نتفهم استجابة ريكاردو، عليك أن تتخيل المسلسل التليفزيونى القديم «جزيرة جيليجان» . كان جيليجان هو الآخر سيء الحظ، بلا أمل.. قد جرفته الأمواج إلى الشاطيء مع ربان السفينة الكفء المعتد بذاته.. وكان عليهما أن يقوما بعملين: الصيد وبناء مأوى لهما. وافترض أن ربان السفينة يمكنه أن يصطاد سمكة للعشاء كل عشر ساعات، وأن يبنى كوخاً من القش فى ٢٠ ساعة، فى حين أن جيليجان يستغرق ١٥ ساعة فى اصطياد سمكة، و ٤٥ ساعة فى بناء كوخ. وتبعاً لمنطق آدم سميث، فإن الربان يتعين عليه أن يبتعد بقدر ما يمكن عن جيليجان، وأن يبنى ويصطاد لصالحه هو نفسه، نظراً لأنه يتفوق فى الأداء على جيليجان فى كل شيء. غير أن الاقتصاديين ما يزالون يرتجفون وقاراً عندما بين ريكاردو أنه يتعين على الربان أن يقتسم الأعمال اليومية مع جيليجان!

دعنا أولاً نحسب كم عدد الأسماك اللازمة للعشاء، وعدد الأكواخ التى يمكن أن يبنيها كل منهما، منفقاً نصف وقته فى صيد السمك، والنصف الآخر فى البناء، وافترض أنه طوال عام، سوف يعمل الربان ٢٠٠٠ ساعة، وأن زميله الأصغر جيليجان مطالب بأن يعمل ٣٦٠٠ ساعة. فإذا ما أنفق الربان ألف ساعة فى الصيد، فإنه سيصيد ١٠٠ سمكة، سيؤدى عمله ألف ساعة إلى بناء ٥٠ كوخاً. أما إذا عمل جيليجان لمدة ١٨٠٠ ساعة فى صيد السمك.. فإنه سيحقق ١٢٠ وجبة، وسيسفر عمله لمدة ١٨٠٠ ساعة فى البناء عن٤٠ كوخاً. وهكذا.. فإن إجمالى عدد الوجبات على الجزيرة هو ٢٢٠ وجبة، تؤكل فى ارتياح فى ٩٠ كوخاً.

ماذا يحدث لو أنهما تخصصا فى العمل ؟ لو أن الربان أنفق كل وقته فى بناء الأكواخ، فإنه سيشيد ١٠٠ كوخاً، وإذا أنفق جيليجان كل وقته فى صيد

الأسماك، فإنه سوف يعود بـ ٢٤٠ وجبة من السمك. وهكذا، فإن الجزيرة سيزيد إنتاجها زيادة مثيرة بمجرد التخصص، حتى على الرغم من أن جيليجان كان أقل كفاءة، في أداء كل من العملين على السواء!

تصور استجابة ريكاردو لإهانة سميث المفترضة بقوله: «إننى لا أحب الفرنسيين بنفس القدر الذى كان سميث لا يحبهم به، ولكننى لن أسخر منهم لمجرد أنه لايمكنهم أن ينتجوا أى شيء رخيص مثلما فى وسعنا نحن ذلك. ولسوف أتبادل التجارة معهم على الرغم من وضعهم الأدنى».

والسؤال الأساسى التالى هو: كيف نعرف ما الذى نتخصص فيه؟ دعنا نعود إلى الجزيرة. ونظراً لأن الربان يستغرق فى بناء الكوخ، ضعف الوقت الذى يستغرقه فى توفير وجبة من الطعام.. فإنه سيتخلى عن وجبتين فى كل مرة يبنى فيهما كوخاً. غير أن جيليجان ـ الذى يستغرق فى بناء كوخ ثلاثة أضعاف الوقت الذى يستغرقه فى توفير وجبة من الطعام ـ سيتخلى عن ثلاثة وجبات، فى كل مرة يبنى فيها كوخاً. ولما كان بناء كوخ يعد تضحية أقل بالنسبة للربان، فإنه ينبغى أن يبنى الأكواخ. وقد بيَّن ريكاردو أنه ينبغى على الأشخاص والبلاد أن تتخصص، فيما يؤدى بهم إلى التخلى عن العمل، الذى يتطلب تضحية أقل، وهذه هى «ميزتهم النسبية»، وتعد التضحية التى يتحملونها عندما لا ينتجون سلعة هى «تكلفة الفرصة البديلة بالنسبة لهم. وهكذا.. فإن التخصص يحدد من يتمتع بالتكلفة الأقل للفرصة البديلة» (٣).

والنقطة الأساسية فى تحليل ريكاردو، هى: إن التجارة الحرة تجعل الأمر ممكناً بالنسبة للأسر فى أن تستهلك المزيد من السلع، بغض النظر عما إذا كان شركاؤهم التجاريون يعتبرون ـ من قريب أو بعيد ـ متقدمين اقتصادياً. ومن ثم.. فإن النقطة الأساسية فى افتراض قوانين الحبوب الخاص بريكاردو، هى: إذا كان الفلاحون الفرنسيون على استعداد لإمدادنا بالمواد الغذائية بتكلفة أقل مما لو قمنا بتوفير الطعام

لأنفسنا، فعندئذ دعنا نأكل المواد الغذائية الفرنسية، على أن ننفق وقتنا فى أداء عمل آخر.

المعركة ضد دعاة الحماية:

لو أن «بابا نويل» بدأ خط تموين جوى لتوزيع الشطائر والكحك والملابس بواسطة حيوان الرنة، هل يتعين علينا أن نطلق الرصاص على رودولف وهو فى السماء، نظراً لأننا نخبز خبزنا ونحيك ملابسنا بأنفسنا؟ تلك هى المشكلة التى واجهت ريكاردو، وكل «دعاة التجارة الحرة»، وهى أن الخبازين والخياطين سيفضلون أن تتدخل الحكومة وتدمر رودولف. وسوف يزعمون أن الوظائف تعتمد على إعداد الخبز لأنفسهم، ولكنهم ينسون الفوائد التى تخص المستهلكين فى جميع أنحاء البلاد ـ وخاصة الطبقات الأدنى ـ الذين يعنى الطعام الأرخص بالنسبة لهم توفير حياة أفضل بصفة أساسية. وفى الوقت الذى كتب فيه ريكاردو وتناقش أمام البرلمان، كان العمال ينفقون نصف أجورهم تقريباً على شراء الخبز المصنوع من الغلال، ومن ثم.. فإن منع استيراد الغلال الرخيصة يؤثر على نحو سيء على العمال وعلى أصحاب العمل. وعلاوة على ذلك، نسى دعاة الحماية أن الوظائف تتوفر عن طريق بيع السلع والخدمات للبلاد الأخرى، ولذلك.. لاعجب فى أن أصبح ريكاردو عدواً للطبقة العليا، ومن ثم قال: «إن مصلحة ملاك الأراضى تتعارض دائماً مع مصلحة أى طبقة أخرى فى المجتمع».

وعلى الرغم من قوة حجته وثقافته ، فإن ريكاردو لم يستطع إقناع البرلمان، بحيث يلين موقفه، فقد استمرت قوانين الحبوب سارية المفعول حتى عام ١٨٤٦ . ومع ذلك.. فإن ريكاردو قد استطاع أن يقنع الأجيال التالية من الاقتصاديين بأن الحماية، هى فى معظم الأحيان تقريباً سيئة بالنسبة للاقتصاد ككل، بالرغم من أنها أمر طيب بالنسبة لمجموعة خاصة. والواقع أن الناس ـ فى بعض الأحيان ـ يوجهون إهانات للاقتصاديين بسبب اختلافهم، مراراً وتكراراً، حول وضع قواعد

السياسات. وقد تكهن جورج برنارد شو، George Bernard Shaw، بقوله: «لو أن كل الاقتصاديين قد اجتمعوا معاً، فإنهم لن يتوصلوا إلى أى نتيجة». ومع ذلك، فقد حدث عدة مرات ـ خلال القرن العشرين ـ أن وقّع آلاف الاقتصاديين التماسات يرجون فيها حكومة الولايات المتحدة عدم منع الاستيراد، ففى كل مرة، يبدو فيها أن الاقتصاد المحلى راكد.. فإن بعض السياسيين يحاولون تهيئة الناخبين من خلال توجيه تهديدات للاقتصاديات الأجنبية. ولقد فرضت الولايات المتحدة أعلى تعريفة جمركية خلال القرن الحالى عندما كانت ـ وكذلك العالم ـ فى حاجة ماسة للتجارة الحرة، خلال فترة الكساد العظيم؛ لأنه عندما يتجه الاقتصاد إلى الداخل.. فإنه يتجه فى معظم الأحيان ـ تقريباً ـ إلى الركود فلا يوجد فى علم الاقتصاد شيء مثل الانغلاق والتقدم فى نفس الوقت.

وفى خلال عقد الثمانينيات ـ بدأ منتجو السيارات اليابانية فى فرض قيود «اختيارية» على صادراتهم إلى الولايات المتحدة، حتى يتجنبوا أن يتخذ الكونجرس إجراءات أكثر عنفاً ضدهم. ونظراً لأن عرض السيارات اليابانية كان محدوداً.. فإن أسعارها ارتفعت؛ فأصبح بإمكان صانعى السيارات الأمريكية أن يحصلوا على سعر أعلى لسياراتهم. وقد قدر الاقتصاديون أن المستهلكين الأمريكيين قد خسروا ٣٥٠ مليون دولار، نتيجة لهذا الأمر خلال العام الأول، وارتفعت أسعار السيارات حوالى ٣ آلاف دولار خلال السنوات الثلاث الأولى من سياسة التقييد. وحتى إذا كان قد تم «توفير ١٠ آلاف وظيفة على الأكثر.. فإن الاقتصاد الأمريكى كان فى وسعه أن يدفع لكل عامل ٣٥ ألف دولار فى السنة لمجرد البقاء فى المنزل. وبدلاً من هذا.. فإن عدداً أقل من المستهلكين فى وسعه أن يتحمل شراء السيارات، وأن أولئك الذين اشتروا سيارات، تبقت معهم دولارات أقل لشراء سلع أخرى؛ مما أدى إلى تخفيض الوظائف فى قطاعات أخرى. وقد أتهم روبرت كراندل، Robert Crandall، من معهد بروكينجز هذا الوضع بقوله: «إن فى وسع صانعى السيارات المحلية

أن يخفضوا الأسعار، ومن المرجح أنه ينبغي عليهم تخفيضها، غير أن الحكومة تسلم لهم المستهلك الأمريكي على طبق » (٤).

وخلال عام ١٩٨٩، التمس المؤيدون لصانعي السيارات (اللوبي) من وزارة الخزانة أن تصنف سيارات الميني فان والسيارات الرياضية على أنها شاحنات. ولو أن وزارة الخزانة استسلمت للضغط.. لكانت التعريفة الجمركية على مثل هذه المركبات، قد زادت عشرة أضعاف.

لقد طرح إبراهام لنكولن ببلاغة قوية إحدى حجج الحماية بقوله: «إننى لاأعرف كثيراً عن التعريفة الجمركية، ولكننى أعرف أننى إذا اشتريت معطفاً فى أمريكا، فإننى أحصل على المعطف بينما تحصل أمريكا على ثمنه من النقود. ولكننى إذا اشتريت معطفاً فى إنجلترا، فإننى أحصل على المعطف بينما تحصل إنجلترا على النقود». لقد كان على حق، فهو لم يعرف كثيراً عن التعريفة. وعلى غرار التجاريين.. فإن لنكولن لم يفهم أن بلداً يعد ثرياً إذا استهلك كثيراً من السلع والخدمات، لا أن يكدس المعادن أو الأوراق المالية التى يوجد عليها صور الرؤساء. ذلك أن لنكولن إذا اشترى المعطف الذى يفضله من لندن، فإنه يدفع بعض الدولارات لصالح الجنيهات البريطانية. ومن ثم، فإن شخصاً ما فى لندن يوجد معه الآن دولارات. ولن يتخلى أهالى لندن عن الجنيهات لاستخدامها كورق حائط فى شققهم، ذلك أن أهالى لندن إما أن: (١) يشتروا منتجات أمريكية أو (٢) يبادلون الدولارات بالجنيهات. وإذا ما اشترت الدولارات منتجاً أمريكياً، فإن لنكولن يشعر بالسعادة، لأنه كان يفضل معطف لندن، ويشعر أهالى لندن بالسعادة لأنهم يحبون السلعة الأمريكية. وإذا ما بخست سعر دولاراتها، فإنها ستغرقها بالنسبة لشخص ما يريد شراء سلع أمريكية (٥).

ماذا لو ملأنا مليون قارب صغير بالأموال الأمريكية لنتبادلها بسفينة الملكة إليزابيث الثانية المملوءة بالسلع البريطانية؟ عندئذ.. ستطيع وزارة الخزانة ملايين

الدولارات من فئة الخمسة دولارات. وطبقاً لمنطق لنكولن.. فسوف تحصل على سترات جميلة، وأباريق شاى، وبدل مصنوعة من التويد، فى حين يحصل البريطانيون على ورق! وعلى الرغم من أن لينكولن لم يدرك هذا، فإن هذا الأمر سيكون صفقة عجيبة! ولكننا سنكون موضع السخرية والرثاء لأن لنكولن لم يفهم أن البريطانيين قبلوا الدولارات؛ لأنه فى وسعهم أن يشتروا سلعاً أمريكية، وأن تكون لديهم أرصدة مالية . والواقع أن النقود قد لاتجعل العالم يدور ويتحرك. غير أن النقود تتحرك بالتأكيد حول العالم وحتى نوقف تحركها، علينا أن نمنع السلع من الانتقال من المكان، الذى تنتج فيه بسعر غير باهظ الثمن، إلى حيث تكون الحاجة ماسة إليها.

وهكذا.. فإن القضية ليست فيما إذا كانت المعاطف تنتج فى الولايات المتحدة أم لا. وإنما القضية هى فيما إذا كنا نستخدم ما لدينا من موارد قيمة، لإنتاج سلع بأسعار أعلى أو أقل من تكلفة الفرصة البديلة أم لا. ولذلك.. فإنه عندما نسمح بالتبادل التجارى.. فإن الأمم ترغم مواطنيها على تحويل الموارد من صناعات منخفضة الإنتاجية إلى صناعات مرتفعة الإنتاجية، وإذا أقدمت الأمم على هذا التحول.. فإن الأسر يمكنها أن تستمتع بمزيد من السلع وبتضحية أقل.

ومع ذلك.. فإن التحولات تسبب ألماً بالنسبة للعمال ولأصحاب المصانع فى صناعات منخفضة الإنتاجية. غير أن الحماية ـ فى معظم الأحيان ـ تكلف المستهلكين كثيراً جداً، وسوف تحسن الحكومات صنعاً إذا عوضت العمال المضارين تعويضاً مباشراً، إذا أعادت تدريبهم. وفى أوائل عقد الثمانينيات من القرن الحالى[٦]، كانت حماية وظيفة عامل الصلب تتكلف أكثر من ١٠٠ ألف دولار، بينما يتكلف توفير وظيفة صانع الأحذية ٧٧ ألف دولار. وعلاوة على ذلك.. فإن منطق الحماية يفضى إلى الركود الاقتصادى؛ لأن معظم الصناعات والاختراعات ـ التى رفعت من مستوى معيشتنا ـ قد أرغمت عمال آخرين على ترك وظائفهم.

ومنذ سنوات قليلة خلت ، أنتجت شركة زيروكس إعلاناً تليفزيونياً ،يصور راهباً يعمل كخطاط على واجهة دير، ينسخ بدقة صفحات وثائق وصلوات. وفي يوم ما أعطاه رئيسه كمية كبيرة من المخطوطات لينسخها. وعندئذ اتجه الراهب المتعجل إلى زاوية المكان؛ حيث توجد آلة نسخ جديدة، أنجزت العمل في ثوان. وتطلع الراهب بناظريه ممتناً إلى السماء وهو يقول: «معجزة». هل يمكنك أن تتصور كم عدد لجان الرهبان المنظمة تنظيماً سياسياً جيداً، وتطلب الحماية؟ تصور آلاف الرهبان يمشون في مسيرة في واشنطن، كم عدد الرهبان، الذين سيفقدون وظائفهم بسبب آلات النسخ الإلكترونية؟

إن السوق الحر ليس سوقاً متحررة من الألم، كما أن اليد الخفية لاتحمينا على النحو الذى تحمى به الأم طفلها . وإذا كان الناس يفضلون مزيداً من الاستقرار، فربما تعيَّن عليهم أن يختاروا الحماية. غير أن مزايا النمو الاقتصادى والتقدم لا تأتى إلى أولئك، الذين يعملون بإهمال، بينما تحمى حكومتهم الشواطيء من اليونانيين الذين يحملون الهدايا والسلع.

إن العالم لا يعجب بالاقتصاديين بسبب مالديهم من روح الدعابة، وإنما جاء نقد علم الاجتماع من جانب فردريك باستيا Frédéric Bastiat مؤلف الكتيبات الاقتصادية الفرنسى، خلال عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر ، عندما زادت فرنسا من الرسوم الجمركية على الواردات:

من صناع الشموع والفوانيس والشمعدانات ، ومصابيح الشوارع وأدوات إطفاء الشموع ومعدات الإطفاء، ومن منتجى البترول، والشحم الحيوانى والراتينج والكحول، وكل شيء متصل بصفة عامة بالإضاءة، إلى الأعضاء الموقرين لمجلس النواب.

أيها السادة

... إننا نعانى من منافسة مدمرة من منافس أجنبى يعمل ـ فيما يبدو ـ فى ظل ظروف أفضل من ظروفنا لإنتاج الإضاءة، ولذلك فهو يغرق السوق المحلى بإنتاجه

بسعر منخفض على نحو لا يصدق.. هذا المنافس.. هو لا شيء آخر سوى الشمس...

ونحن نناشدكم بأن تكونوا طيبين، بحيث تصدروا قانوناً يقضي بإغلاق كل النوافذ، وغرف النوم، والفتحات التي ينفذ منها الضوء داخل وخارج المنازل والستائر. وباختصار.. إغلاق كافة الفتحات، والثقوب. وإذا أغلقتم بقدر الإمكان كل منافذ الضوء الطبيعي، خلقتم الحاجة إلى ضوء صناعي، فأي صناعة في فرنسا لن تشجع في النهاية؟.

فإذا كانت فرنسا تستهلك مزيداً من الشحم الحيواني.. فإنه سيكون هناك مزيد من الماشية والأغنام، ونفس الأمر يصدق على صناعة السفن (٧).

وما هو أكثر خطورة بالنسبة لزمننا ، أن تحليل ريكاردو يعني أن فرض الحماية من جانب الأمم الثرية يحكم على البلاد الأقل تقدماً بالركود. ويبدو الأمر متناقضاً، عندما تقدم ملايين الدولارات في شكل معونة أجنبية وقروض، بينما توضع في ذات الوقت العقبات أمام البلاد المتلقية للمعونة. وعلى سبيل المثال.. فإن الكونجرس الأمريكي ـ تحت ضغط من جانب منتجي السكر المحليين ـ قد عرقل برامج التنمية لكثير من أمم الكاريبي، فقد انخفض استيراد الحصص من حوالي ٦ ملايين طن من السكر في عام ١٩٧٧ إلى أقل من ٨٠٠ ألف طن في عام ١٩٨٧، وهو أقل معدل خلال قرن. ولذلك.. هل نصاب بالدهشة إذا وجدنا أن فلاحين كثيرين جنوبي الحدود، وجدوا أن «الكوكا» محصول أكثر إغراءً، وأن صناعة المخدرات الأمريكية السرية شريك تجاري مستعد أكثر للتعامل معهم؟

وفي بعض الأحيان.. يساعد ذلك على تصور حجج دعاة الحماية على نطاق صغير ـ هل يضار رجل ثري من التجارة مع رجل فقير؟ هل يتعين على ج. بول جيتي، J. Paul Getty، أن يصنع أحذيته بدلاً من أن يشتريها؟ إذا لم يكن الأمر

كذلك، لماذا يلحق الضرر بالولايات المتحدة لشرائها أحذية من ماليزيا؟ هل تكون الأمة أكثر ثراء إذا كان كل أفراد شعبها محققين للاكتفاء الذاتى؟ إذا كان كل الجيران محققين الاكتفاء الذاتى؟ هل يقيم كل بلد بمفرده حدوداً تجارية؟ قليلون يجيبون بـ «نعم»، وبالطبع.. سيمنع الدستور ذلك. ولكن لماذا يتعين على أمة أن تصبح ثرية، عن طريق تحويل سلع منتجة بتكلفة أكثر رخصاً إلى الخارج؟

بعد الحرب العالمية الثانية.. انضمت أمم كثيرة إلى عضوية الاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة (الجات)، وهى منظمة تستهدف تشجيع التجارة الحرة. وقد جرت ـ فيما بعد ـ مفاوضات تجارية متعددة الأطراف، وخفضت حواجز التعريفة الجمركية العالمية. ومع ذلك.. فإن تهديد جهود الانعزالية الحادة استمر فى الوجود، ويبدو أن السنوات القلائل التالية محفوفة بالمخاطر فى هذا الشأن.

ولم يثبت بيان ريكاردو ومناقشاتنا أن التعريفة الجمركية هى دائماً خاطئة، فقد بيّنا ببساطة أن التعريفة تنزع إلى تقليص النمو الاقتصادى. ولذلك.. فإن معظم الحجج المؤيدة للحماية التى تصاغ فى عبارات تنم عن مساعدة المستهلك، أو زيادة عدد الوظائف، أو تشجيع الاقتصاد هى حجج مشكوك فيها. ومع ذلك فإن ثمة بلداً قد يستخدم بفطنة سياسة الحماية، من أجل تحقيق أهداف الدفاع الوطنى، أو ضمان تحقيق استقرار سياسى فى وقت عدم اليقين الحاد.

شوكة فى المستقبل:

لقد لاحظنا فيما سلف أن ريكاردو يرى مستقبلين لبريطانيا: أحدهما... مستقبل مشرق باعتبارها تاجراً منفتحاً على العالم، وثانيهما... مستقبل كئيب باعتبارها جزيرة منعزلة. ومن خلال الميزة النسبية، تكهن ريكاردو بأن بريطانيا ستغدو متجر العالم. وقد أعلن بابتهاج «هذه ستكون أسعد بلد فى العالم، وأن تقدمها فى مجال الرخاء سيفوق قوى الخيال على إدراكه، بشرط أن نتخلص من شيئين شريرين، هما: الدين العام، وقوانين الحبوب». وبعيداً عن التكهن بقدر مشئوم،

وجه ريكاردو المستمعين إليه نحو تحقيق التقدم الوطنى، حيث قال: «إن الإنسان ينمو من الشباب إلى الرجولة، ثم يدب فيه الوهن ويموت. ولكن ليس هذا هو تقدم الأمم. عندما تبلغ حالة النشاط الأعظم، فإن إحراز مزيد من التقدم قد يتوقف، بيد أن اتجاهها الطبيعى يتمثل فى الاستمرار لفترات طويلة، ودعم ثرواتها التى لاتنفذ، وكذا سكانها» [٨].

وعلى الرغم من مثل هذا التفاؤل المتفجر بشأن التجارة.. فإن بعض المؤلفين يصفون بإصرار ريكاردو بأنه محلل متشائم، وأنه كئيب مثل مالتس، ولكنه أكثر مهارة منه؛ إذ أنه ـ فى الواقع ـ أنفق وقتاً كثيراً فى تحليل المستقبل الانعزالى الكئيب. ولكننا لا يمكن أن ننسى كيفية استخدام مثل هذا المستقبل فى بادئ الأمر لإرهاب السياسيين، حتى يؤمنوا بسياسات حرية التجارة.

وماذا كان الأمر الثانى؟ دعنا نبدأ بتسلسل الخطوات قبل التحول إلى التحليل. فى ضوء قبوله لمبادئ مالتس فى السكان، رأى ريكاردو (١) أن زيادة السكان تؤدى إلى طلب أعلى على المواد الغذائية (٢)، الأمر الذى يؤدى إلى توسيع نطاق الفلاحة بحيث تشمل أراضى أقل خصوبة (٣)؛ مما يؤدى إلى ارتفاع تكلفة الفلاحة، (٤)، وارتفاع أسعار المواد الغذائية (٥)، ودفع أجور أعلى للعمال، (٦) فتنخفض مكاسب أصحاب المشروعات؛ مما (٧) يؤدى إلى دفع مبالغ أعلى لأولئك الذين لديهم أراضى أفضل.

وحتى نفهم خطة لعبة ريكاردو، علينا أن نبدأ البرنامج، وأن نتعرف اللاعبين. **أولهم**: وأكثرهم عطاءً هم العمال. وطبقا لمبادئ مالتس.. فإن عددهم يتكاثر عندما تزيد الأجور، ويؤدى التكاثر بدوره إلى خفض الأجور. وهكذا.. فطوال وقت اللعبة فإن الأجور ستظل عند المستوى الذى يكفى لإعالتهم، وذلك طبقاً للعادات وتوقعات العصر. والواقع أن تحليل ريكاردو لم يفرض عليهم مستوى من الوجود، يتحدد بالحد الأدنى للتواجد البيولوجى، بحيث يقتصرون على البحث عن فتات الطعام، ويتداعون فى أسمال بالية:

(I) لا يفهم أن السعر الطبيعي للعمل ـ مقدراً حتى بالطعام والضروريات ـ هو سعر ثابت على نحو مطلق، بل إنه يتباين فى أوقات مختلفة فى نفس البلد. ويختلف اختلافاً مادياً شديداً تبعا للبلاد المختلفة. وهو يعتمد بصفة أساسية على عادات وتقاليد الشعب؛ إذ يعتبر العامل البريطانى أجره أقل من المعدل الطبيعى، وأقل من أن يعول أسرة؛ فهذا الأجر لا يمكنه من شراء أى طعام آخر سوى البطاطس، أو أن يعيش فى سكن أفضل من كوخ مبنى من الطوب اللبن(٩).

ثانيهم، أن لدينا فلاحين مستأجرين. ولكنهم لا يملكون الأرض التى يفلحونها. ويصفهم ريكاردو على أنهم رأسماليون يؤجرون الأرض ويستأجرون العمال، ويكسبون أرباحاً. وبدلا من امتلاك آلات فى المصنع، يمتلك الفلاح المحاريث. ويتفق ريكاردو مع آدم سميث على أن الرأسماليين الفلاحين تحدوهم «رغبة لاتهدأ» فى اتباع مؤشرات السوق، وتحويل الموارد والاستثمارات إلى المشروعات الأكثر دراً للربح. وهكذا.. فهم يؤدون أعمالا مهمة جدا للمجتمع، ولكن ذلك ليس بالضرورة لأنهم يحبون المجتمع.

ثالثهم، وأكثرها قوة.. يصف ريكاردو ملاك الأراضى الأثرياء ـ الذين يؤجرون الأرض للفلاح ـ بأنهم يعيشون حياة تتسم بالدعة والفراغ، ومع ذلك يحققون فى النهاية ثروة أكبر مما يحققه اللاعبون الآخرون.

وقد نقح ريكاردو الاتفاقيات الاقتصادية وتعريف «الريع»، وأنت تذكر ـ بطبيعة الحال ـ المناقشة التى دارت حول قوانين الحبوب، فقد زعم البعض أن الحبوب تكلف أكثر؛ نظراً لأن أصحاب الأراضى يحصلون من الفلاحين على إيجار مرتفع. ولا يوافق ريكاردو على ذلك، ويجادل بأن السعر ارتفع بسبب أوجه النقص التي طرأت وقت الحرب، والتى أغرت أصحاب المشروعات بالدخول إلى صناعة الفلاحة. وعندما دخلوا هذه الصناعة، وجد ملاك الأراضى المزيد من الرأسماليين يطرقون أبوابهم ويرفعون ريع الأرض. وهكذا.. كانت ريع الأراضى مرتفعة لأن

ثمن الحبوب كان مرتفعا، وليس العكس. وعندما انهار الحصار، انهار كذلك سعر الحبوب، وكان على ملاك الأراضي أن يقبلوا ريعا أقل . وفي ضوء المصطلحات الاقتصادية الحديثة.. فإن الرغبة في تأجير الأرض تعد «طلباً يرد إلى أصل معين»، يحدده العرض والطلب على الحبوب.

وناقش ريكاردو ـ بعد ذلك ـ أن ملاك الأراضي يمكنهم فقط أن يتقاضوا ريعاً، إذا كان ثمة طلب على ممتلكاتهم. وستكون بعض ممتلكات ملاك الأراضي أكثر خصوبة من الأخرى، ومن ثم يتحدد مستوى الريع على أساس الاختلاف في الخصوبة. وإذا كان آل Al يمتلك قطعة أرض تنتج ألف طن من الغلال، وإذا كانت جوان Joan تمتلك قطعة أرض تنتج فقط ٥٠٠ طن.. فإن «آل» سيكون في وسعه أن يتقاضى ريعاً أعلى من فلاح رأسمالي.

ويرتفع الريع لأن كل الأراضي ليست متكافئة:

وفي مضمار تقدم المجتمع.. فإنه عندما تفلح أراضي الدرجة الثانية من حيث الخصوبة، فإن الريع يبدأ مباشرة على أساس الأرض ذات الدرجة الأولى في خصوبتها. ويعتمد مقدار الريع على التباين في نوعية هاتين القطعتين من الأرض. وعندما تفلح أراضي من الدرجة الثالثة من حيث خصوبتها، فإن الريع يرتفع بالنسبة لأراضي الدرجة الثانية، ويتحدد كما وضح ـ فيما سلف ـ طبقاً للاختلاف في قوتها الإنتاجية. وفي الوقت ذاته.. فإن بقية أراضي الدرجة الأولى في خصوبتها سوف يرتفع ريعها[١٠] .

وإذا كان ريكاردو على حق، فإن الريع يرتفع؛ لأنه النمو السكاني. لأنه عندما يحتاج عدد ضئيل من الأشخاص إلى طعام، فإنهم يحصلون على احتياجاتهم من فلاحة الأراضي الجيدة فقط. وعندما يتكاثر عدد الأفواه.. فإن الفلاحين يزرعون الأراضي ذات الدرجة الثانية من حيث خصوبتها. ولما كانت الأراضي ذات الدرجة

الثانية تنتج أقل، فإن ملاك الأراضى الأفضل يتقاضون الآن ريعاً. وتحدد الأجور والربح العادى لأراضى الدرجة الثانية سعر الغلال. ولما كانت التكاليف أقل بالنسبة للأراضى الجيدة، فإن الفائض ينشأ، ويستحوذ عليه مالك الأرض.

لماذا تثير رؤية ريكاردو العبوس والخوف؟ طبقا لهذه الرؤية.. فإن طريق النمو الاقتصادى انتهى إلى حفرة، بالمعنى الحرفى والمجازى. ذلك أنه لفترة من الزمن كان يمكن للرأسماليين أن يوسعوا نطاق الإنتاج الصناعى، بل وأن يدفعوا للعمال أجوراً أعلى . ولكن سرعان ما ينجب العمال السعداء مزيداً من العمال، مما يؤدى إلى انخفاض الأجور. كيف يمكن لبريطانيا أن توفر الطعام للجماهير الجائعة؟ عن طريق زراعة مزيد من الأراضى. ولكن عليك أن تتذكر، أن الأراضى الاضافية ستكون أقل إنتاجية، وأكثر تكلفة فى زراعتها لأن الفلاحين بدأوا باستغلال الأراضى الأكثر خصوبة.

وعندئذ، سوف يزيد سعر الغلال. ولكن الرأسمالى لن يحقق ربحا؛ لأنه يتعين عليه أن يدفع مزيداً للعمال حتى يمكنهم أن يعيشوا. وإذا جرى «تقسيم الموارد بين الفلاح والعامل.. فإن الأخير سيحصل على النصيب الأكبر، فى حين يحصل الفلاح على النصيب الأقل»[١١] .

وعلاوة على ذلك.. فإن ملاك الأراضى الذين يملكون أحسن الأراضى يحصلون علي أعلى معدلات الريع، عندما يبدأ الفلاحون فى زراعة الأراضى المنخفضة الخصوبة. من يكسب؟ ملاك الأراضى، ومن يخسر؟ الرأسماليون، ومن يبقى على ماهو عليه؟ العمال، على الرغم من أن المجاعة قد تجتاح الجميع فى النهاية، عندما ينهك الفلاحون الأراضى. ويصف ريكاردو المحنة المعتمة بأنها «حالة السكون». وفى الواقع.. فإن الجوع يرغم المجتمع على زراعة حتى الخنادق، ومن الناحية المجازية.. فإن الرأسماليين والعمال يلوحون بأيديهم ويصيحون من داخل الخنادق طلباً للمساعدة.

لماذا يختلف ريكاردو بقوة عن الأحلام السعيدة لآدم سميث؟ يفترض سميث بصفة عامة، أن الزراعة لن تتآكل إلى إنتاجية منخفضة، وأن الصناعة ستستمر فى تحقيق مزيد من الإنتاجية . وفى ضوء المصطلحات الحديثة.. يرى سميث أن الزراعة تحقق غلة ثابتة، وأن الصناعة تحقق غلة متزايدة، مما سيمكن كل الأطراف من أن تعيش فى رخاء. غير أن ريكاردو يؤمن بأن الصناعة تخضع لقانون الغلة الثابتة، فى حين أن الزراعة تخضع لقانون الغلة المتناقصة. ويعلق ريكاردو ـ بالطبع ـ بعض الأمل على أن التكنولوجيا سوف تنقذ الاقتصاد من حين إلى آخر. ولذلك فمما يدعو إلى السعادة أن الاتجاه إلى انخفاض الأرباح سوف توقفه فى ـ فترات متكررة ـ التحسينات التى تطرأ على الآلات، والتى ترتبط بإنتاج الضروريات، وكذا بالاكتشافات التى تحدث فى مجال علم الزراعة، التى تمكننا من تقليص جزء من الأيدى العاملة قبل أن يتطلب الأمر ذلك، ومن ثم تخفيض سعر الاحتياج الأساسى للعامل»[١٢] . ومع ذلك، لا يمكننا أن نعتمد دائماً على نحو يتسم بالثقة على التكنولوجيا لإنقاذنا .

ولكن لنتذكر «ترنيمة عيد الميلاد» لتشارلز ديكنز، والتى فيها يحكى الشبح حكاية عيد الميلاد القادم الكئيب، المترع بالجوع والخوف واليأس. ويتساءل سكروج بوجلٍ وخوف: هل هذا هو الحال الذى ينبغى أن يكون عليه عيد الميلاد؟ غير أن الشبح يرحل محدثاً جلبة برنين السلاسل الكئيب، وأزيزاً خشناً، تاركاً أمر الغد لسكروج.

والواقع أن ريكاردو ليس ذلك العفريت الذى يصوره البعض، وإنما هو أقرب ما يكون إلى شبح «ترنيمة عيد الميلاد».. يحذر إنجلترا من أن سياسات الجشع والعزلة سوف تتمخض عن أوقات أكثر صعوبة وجشعاً، بينما يبشر اتخاذ وضع تجارى يتسم بالانفتاح على الخارج بأيام أسعد. وكتب يقول: «إننى أؤيد التجارة الحرة فى الحبوب، على أساس أنه حين تكون التجارة حرة، والحبوب رخيصة.. فإن

الأرباح لن تنخفض، ومع ذلك سيكون تراكم رأس المال عظيما»، وهكذا.. فإن النمو الاقتصادى لايواجه أى عقبات. وعلى الرغم من أن العراقيل تنشأ من «الندرة، وما يترتب عليها من ارتفاع قيمة المواد الغذائية، وغيرها من المواد الأولية... دعنا نحصل على هذه المواد من الخارج فى مقابل السلع التامة الصنع، ومن الصعب القول أين تكون الحدود التى تتوقف عندها فى جمع الثروة»(١٣).

وأثبت تحليل ريكاردو أنه مجال خصب للنقد وللتأويل. وقد قلل ريكاردو ـ مثل مالتس ـ من «انضباط» العمال؛ لأن عددهم لم يتكاثر بذات السرعة التى كان يخشاها. وكما لاحظنا فيما سلف.. فإن ميلتون فريدمان يمسك بيده قلماً رصاص، باعتباره شعار الحرية الاقتصادية. وفى بعض الأحيان.. يبدو أن على الاقتصاديين الكلاسيكيين أن يمسكوا بقدم أرنب – ليس لجلب الحظ، وإنما للرمز إلى إدراكهم لميل الإنسان إلى الإنجاب. وعلى غرار مالتس.. انتقد ريكاردو بشدة قوانين إعانات الفقراء، لأنها تسفر فى النهاية عن الجوع، وأصر على أنه على كل صديق للفقراء أن يتمنى القضاء عليهم».

وقد جاءت انتقادات ريكاردو، لملاك الأراضى ووصف الريع، إلى الولايات المتحدة فى لغة حادة وفظة من خلال كتاب هنرى جورج Henry George «التقدم والفقر»، Progress and Poverty، الصادر فى عام ١٨٧٩ . وكان جورج صحفياً ذا رؤى دينية، وقد قاد أتباعه فى الدفاع عن حركة الضريبة الفردية. وقد استفزه حصول البعض على مكاسب لا يستحقونها ، فهاجم جورج ملاك الأراضى الذين يجمعون ببساطة الريع، فى حين أن آخرين يكافحون لخلق الثروة . وقد اقترح فرض ضريبة شاملة على الأراضى لامتصاص الريع، وكان جورج يتكهن بحماس أكثر من حماس أى نبى من أنبياء العهد القديم، بأنه سيتم القضاء على الفقر، وترويض عواطف الجشع الفظة، ونضوب ينابيع الرذيلة والشقاء، وأن ينير مصباح المعرفة الأماكن المظلمة، وأن تسبغ قوة جديدة على الاختراع، ونبضاً

جديداً للاكتشاف، وأن يحل الضعف السياسى محل القوة السياسية، وأن يصبح وجود الطغيان والفوضى(١٤) متعذراً.

غير أن هذا الاقتراح ينطوى على عدة مشكلات: أولها، يميز الاقتصاديون بين «الريع الاقتصادى» ، الذى ناقشه ريكاردو، وبين الريع البسيط الذى يدفعه الفلاحون لملاك الأراضى. وطبقا لآراء ريكاردو.. فإن الريع الاقتصادى يعد ريعاً يتجاوز ماهو ضرورى للحفاظ على الأرض أو العمل أو رأس المال، فى حالة استخدامه الراهن. ولما كانت الأرض تستخدم فقط لإنتاج الغلال تبعاً لتحليل ريكاردو.. فإنه لا ينبغى دفع أى شئ لتبقى كمزرعة. وليس أمام الملاك أى خيار سوى استخدامها لزراعة الغلال. ومن ثم.. فإن أى ريع يدفع لملاك الأراضى يعد ريعاً اقتصادياً. وقد اعتاد لاعب البيسبول العظيم ويلى مايز، Willie Mays ، أن يقول إنه سيلعب مجانا. وإذا ما فعل ذلك، فإن أى مال يحصل عليه سيكون ريعاً اقتصادياً، لأنه سيكون أبعد مما هو ضرورى لجعله يلعب.

ويتقاضى نجوم السينما ريعاً اقتصادياً كذلك، دعنا نقول إن سيلفستر ستالونى يختار دائماً بين التمثيل وبين العمل كترزى محترف، فإذا تقاضى أقل من ٣٠ ألف دولار لتمثيل فيلم سينمائى.. فسوف يتحول إلى خياطة حاشية الثوب وطرف الأكمام. وهكذا.. فإذا حصل من فيلم جديد «روكى يقابل رامبو الثانى فى الجولة الثالثة» على خمسة ملايين دولار.. فيمكننا القول أن ٣٠ ألف دولار كانت عبارة عن مكاسب أو إيرادات لتحويله إلى التمثيل»، وأن أربعة ملايين و ٩٧٠ ألف دولار كانت ريعاً اقتصادياً، وربما يكون هنرى جورج شجاعاً بما يكفى ليأخذ باقى الأجر.

والنقطة الأساسية هى أن جانبا من الأجر الذى يجعل الأرض أو العمل أو رأس المال فى حالة استخدام خاص، وليس ريعاً اقتصادياً، وإنما مكاسب نقدية؛ لأن أى إيراد أعلى من ذلك يعد ريعاً اقتصادياً. ومن ثم.. فإذا ما حول مالك عقار أرضه إلى

ساحة لخيام الكرنفال فى حالة عدم حصوله كل شهر على ألف دولار من الفلاحين.. فإن الألف دولار الأولى التى يحصل عليها ليست ريعاً اقتصادياً. وعليك أن تكون على حذر من غموض اللغة؛ لأن ما يطلق عليه عادة مستأجرى الشقق إيجارا، ليس بريع اقتصادى ما لم يتجاوز الأجر الضرورى. ولكن كيف يتسنى لهنرى جورج أن يعرف أى جزء من الأجر الكلى يعد ريعاً اقتصادياً ومن ثم يخضع للضريبة؟ وهنا نجد أنه سيكون فى حاجة إلى مساعدة سماوية لتعينه على ذلك أكثر مما كشف.

كما تواجه الضريبة البسيطة على تداول الأرض عراقيل معنوية. وإذا اقتضى العدل فرض ضريبة على الريع الاقتصادى.. فإن العدالة تقتضى فرض ضريبة على الريع الاقتصادى الناجمة من الأرض والعمل ورأس المال. كيف يمكن لجورج التمييز بين المكاسب النقدية لستالونى وبين الريع الاقتصادى؟ وماذا عن مرتبات أعضاء مجلس الشيوخ الاقتصاديين المشهورين؟ إن كل فرد ليس أمينا مثل ويلى مايز.

وعلى الرغم من أن جورج لم يكمل مهمته، إلا أنه أصبح مشهوراً فى جميع أنحاء الولايات المتحدة وإنجلترا، حيث أقام أنصاره المخلصون جمعيات الضريبة الواحدة، لنشر الكلمة الطيبة. وانتشر الكتاب الطيب «التقدم والفقر» بأسرع مما يتكاثر العمال. وبالرغم من أن الحركة انهارت فى النهاية، إلا أن ما أثاره جورج يمكن أن يشير بكبرياء إلى ضرائب العقارات؛ باعتبارها مصدراً لتمويل الدولة والهيئات المحلية، ولكنها لم تكن تشير بثقة إلى هذا المصدر منذ ٦٠ عاماً خلت. لقد بالغ جورج فى تقدير أهمية الريع وعائد الريع بالنسبة للمستقبل، كما زاد نمو الحكومات على كل مستوى نمواً هائلاً خلال القرن الماضى. وحتى إذا كان فى وسع الحكومات أن تحصل على كل الريع ـ دون أن يثير ذلك تمرداً، أو يؤدى إلى ركود عنيف ـ فإن الريع لن يقترب من تغطية النفقات. ففى عام ١٩٢٩ بلغت

حصيلة ايجارات العقارات حوالى ٦ فى المائة من الدخل القومى، وقد انخفضت النسبة باضطراد حتى وصلت إلى واحد فى المائة فى الوقت الحاضر. وعلى حين كانت ضريبة العقارات توفر لميزانية الدولة والمحليات ٦٥ فى المائة.. فإنها توفر الآن ١٧ فى المائة.

وإذا سيطر جورج على الخندق الريكاردى واندفع ليقتل كل من يقابله.. فإن مالتس المعاصر لريكاردو حاول أن يناقشه بالتفصيل ليعيده إلى أصله. وفيما يتعلق بمسألة قوانين الحبوب، قبل مالتس كثيراً من تحليل ريكاردو، فيما يتعلق بالإيجار والغلة المتناقصة من الزراعة، ولكنه افترض رداً من أربع أجزاء: **أولها:** أعتقد أن قوانين الحبوب تؤدى فى الواقع إلى مزيد من إنتاج الغلال المحلية؛ لأنها تزيد أسعار الغلال. **وثانيها:** أعتقد مالتس أن الغلال تعد مهمة جدا كسلعة أساسية بحيث لاينبغى تركها للمنتجين الأجانب. **وثالثها:** خلص إلى أن الأسعار الأعلى للغلال، زادت بالفعل من أجور العمال؛ لأن العمال يدفع لهم تبعاً لسعر الغلال. وهكذا.. فإن مالتس قد زعم أن الأجور الأعلى ستعوض أكثر عن ارتفاع أسعار المواد الغذائية، ولم يتفق ريكاردو معه. ففى ضوء المصطلحات الحديثة.. كان يعتقد أن الأجور «الاسمية» الأعلى لن تكون أجورا «فعلية» أعلى؛ أى إنها لن تسمح للعمال بشراء أكثر مما كانوا يشترون من قبل. وبالنسبة لريكاردو.. فإن حجة مالتس بدت مثل الديكتاتور الذى يتسم ويغمز بعينيه للجماهير، واعداً إياها بمضاعفة أجورهم، وعندئذ تهلل الجماهير ابتهاجا، ويحيون صورة الطاغية التى يصل ارتفاعها إلى خمسة طوابق، ويبتهجون. وفى اليوم التالى.. يذهبون إلى الحوانيت، ويكتشفون أن العاملين فيها قد أمضوا الليل بأسره، يزيدون الأسعار بنسبة ١٠٠ فى المائة.

ورابعها: لقد دافع مالتس على نحو يتسم بالضعف، ملاك الأراضى عن طريق الإشادة بريكاردو، الذى أصبح:

«بفضل مواهبه ومثابرته مالك أرض يعتد به، ورجلاً ممتازاً ومحترماً، وهو رجل بفضل مواهبه العقلية والقلبية قد استحق تماماً ما كسبه.. ولا يسعنى أن أشير فى الدائرة الكاملة للملاك إلى امرئ بعينه(١٥).

ولم يتمخض تملق مالتس عن أى شئ، سوى تلقى دعوة لزيارة ضيعة ريكاردو؛ لأن ريكاردو لم يقل قط إن ملاك الأرض يمصون عن عمد دم الحياة من الأمة. وإنما هم ـ مثل مصاصى الدماء ـ مرغمون على ذلك بسبب قوى خارج قوتهم. ومما يبعث على السخرية، أن ريكاردو مالك الأرض النهم قد أثار غضب ملاك الأراضى، بينما أثار مالتس المدرس المعتدل الجمهور المتواضع.

ريكاردو ضد مالتس حول التخمة والمنهج

ومع ذلك.. فإن عرض ريكاردو ـ مالتس قد صوّر ماهو أكثر من مناقشات ملاك الأراضى. فقد اختلف الاقتصاديان كذلك، حول أوجه الركود الاقتصادى، فقد كان مالتس يعتقد فى «التخمة العامة»، وهى عبارة قبيحة تعنى أن المشروعات توفر ـ فى بعض الأحيان ـ سلعاً وخدمات أكثر مما يريد الناس شراؤها. أما ريكاردو فقد اعتقد فى طوباوية جودوين أكثر مما أعتقد فى التخمة العامة. وقد أيد ريكاردو «قانون ساى» الذى تسمى باسم الفرنسى ج. ب ساى، j. B. Say، الذى أثبت ـ على نحو منطقى ـ أن الفائض العام ليس سوى وهم (يحب العلماء اكتشاف القوانين، والمنحنيات البيانية؛ لأن الجمارك تسمح بها ، وتسمى المنحنيات باسم مكتشفها. ففى علم الاقتصاد، نجد منحنيات لورنز، Lorenz، وقانون أوكن، Okun، ومثلثات هاربرجر، Harberger).

ماهو قانون ساى؟ يحصل العمال وملاك الأراضى ورأس المال أجوراً، وإيجارات وفوائد تضاف إلى سعر بيع المنتج. وتصير كل تكلفة فى التصنيع دخل شخص ما. ولذلك.. فإن المستهلكين الذين يعدون ببساطة عمالاً ورأسماليين وملاك أراضى

يمكنهم ـ بعد عودتهم إلى منازلهم من العمل ـ أن يتحملوا شراء كل ماتم إنتاجه، ويعرف قانون ساى بصفة عامة بالشعار «العرض يخلق الطلب عليه».

ولم يحظر ساى قط «التخمة الجزئية»، التى تحدث عندما يقرر المستهلكون شراء كمية أقل من منتج معين. وأخيراً.. سوف يتخلص البائع من التخمة الجزئية من خلال خفض السعر. ولكن بالنسبة لساى، وسميث، وهيوم، وريكاردو.. فإن التخمة العامة تبقى أمراً مستحيلاً؛ لأن المستهلكين لابد أن يفعلوا شيئا ما بما لديهم من نقود، كما أن لدى الأشخاص رغبات مطلقة فى الحصول على مزيد من السلع المادية.

وقد صاح مالتس رافضا هذا، فقبل كل شئ.. لاحظ أنه فى الفترة التى أعقبت كساد الحروب النابليونية عام ١٨١٨، بدا أن البطالة كانت مرتفعة. ولكن كيف يمكنه أن يغزو الدائرة المتماسكة التى رسمها ساى وعززها ريكاردو؟ لقد بدأ باقتفاء آثار الدائرة، واتفق على أن المستهلكين يمكنهم أن يشتروا كل السلع المعروضة، ولكن ماذا يحدث إذا لم يشعروا بالرغبة فى إنفاق كل مالديهم من نقود؟ ماذا لو فضلوا أن يدخروا أو يخزنوا؟.. لا يعد هذا تسربا من دائرة الشراء الخاصة بساى، بحيث يترك التجار يجلسون على قمة بضائعهم غير المباعة؟

وقد رد ريكاردو بسرعة على ذلك: لو أن المستهلكين ادخروا نقودهم، فإنهم يضعونها فى البنوك، التى تقرضها للذين يريدون إنفاقها على شراء سلع استهلاكية أو سلع استثمارية. وفى كلتا الحالتين.. فإن شخصاً ما ينفق النقود، بل إن آدم سميث كان يدرك ذلك: «إن ما يدخر سنوياً، يستهلك بانتظام، بما ينفق سنوياً، وفى ذات الوقت تقريباً، ولكن... من جانب مجموعة أشخاص مختلفين»[١٦] وعندئذ وبخ ريكاردو صديقه «مستر مالتس» الذى لم يتذكر ـ فيما بدا ـ على الإطلاق هذه النقطة البسيطة.

وعلى الرغم من أن مالتس أقنع قلة من الاقتصاديين، إلا أنه لايزال يشعر بوجود فجوة بين الادخار والاستثمار. وقد اقترح لعلاج التخمة العامة «تشغيل الفقراء فى

شق الطرق والأشغال العامة، وأن يتجه ملاك الأراضى وملاك العقارات للبناء... وأن يستخدموا عمالاً وخدماً تافهين»، باعتبارها السبل التى فى نطاق قدرتنا، والتى ترمى مباشرة إلى علاج الشرور(١٧).

ولكن ريكاردو رد قائلاً بأن كتاب «مبادئ الاقتصاد» لمالتس يخلو أن يندر من تقديم صفحة «دون بعض المغالطة».

ولكن حتى إذا فاز ريكاردو اليوم.. فإنه بعد قرن من الزمان، بعث ج. ماينارد كينز J. Maynard Keynes الروح الخاسر (مالتس)، ففى أنشودة شكر رائعة امتدح كينز مالتس باعتباره «الأول بين الاقتصاديين فى كامبردج» لنظريته عن الكساد، وندد فى الوقت ذاته بريكاردو: «لو أن مالتس فقط ـ بدلا من ريكاردو ـ كان الأساس الذى بنى عليه علم الاقتصاد فى القرن التاسع عشر، فكم كان العالم اليوم سيكون مكاناً أكثر حكمة وثراءً!» (١٨) ومن المؤكد أن كينز يبالغ هنا فيما يتعلق بمد سيطرة ريكاردو (فقد غزا إنجلترا تماماً، مثلما غزت محكمة التفتيش المقدسة إسبانيا)، وبأوجه التماثل بين تحليله وتحليل مالتس وعلى الرغم من أن كلا من كينز ومالتس قد رفضا قانون ساى.. إلا أن مالتس أحرز تقدماً ضئيلاً إلى الأمام، فيما يتعلق بالادخار من أجل الاستثمار وحث الأشغال العامة على التباطؤ فى الاستثمار، ليس بقصد تشجيع مبيعات السلع، كما فعل كينز. وأيا كان الأمر، فإذا قال كينز إن مالتس قد ألهمه، فمع من نختلف؟

فى الواقع.. فإن الخلاف الحقيقى بين مالتس وريكاردو لا يدور حول التخمة أو الريع أو الحماية، وإنما بالأحرى حول المنهج. فكلاهما كان يعيش فى عصر الاكتشاف العلمى، وكلاهما كان يبحث عن العلاقات بين العلة والمعلول، وكلاهما تكهن بما سيحدث بسبب هذه العلاقات. غير أن ريكاردو ركز تركيزاً كبيراً على التتابع المعقد للخطوات على امتداد الطريق، أما مالتس.. فبدا أنه قانع بالبحث عن المبدأ العام ثم تطبيقه على العالم. وتذكر سبيل ريكاردو الحذر الذى يتكون من سبع خطوات للوصول إلى حالة السكون. والواقع أن أيا من سميث أو

مالتس لم ينشأ مثل هذه النماذج النشطة. وفى ظل توجيه جيمس ميل.. حاول ريكاردو التوصل إلى سلاسل طويلة من الاستدلال للمنطق، فقد أراد أن يتوصل إلى افتراضات مؤكدة مثل الهندسة الإقليديسية أو ميكانيكا نيوتن، وفى بعض الأحيان.. كانت افتراضاته أو مقدماته الأولى خاطئة. ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار هذه المقدمات.. فإن نظريته كانت فوق النقد. فوق النقد، نعم، ولكن هل مفيدة، ربما لا. وقد اتهم كل من كينز وجوزيف شومبيتر Joseph Schumpeter ريكاردو باختياره افتراضات أو أمثلة تؤكد النتيجة التى يرغب فى التوصل إليها. وقد أطلق شومبيتر على ذلك «رذيلة ريكاردو»، ومن هو الشخص الآخر الذى اتهمه شومبيتر بأنه يعانى من رذيلة ريكاردو؟ إنه كينز.

وقد ناقش ريكاردو بروح ودودة اختلافاته المنهجية مع مالتس: «ربما نشأ خلافنا فى بعض النواحى، فيما أعتقد، من اعتبارك أن كتابى عملى أكثر مما كنت أعتزم أن يكون. لقد كان هدفى هو توضيح المبادئ، ولذلك فقد تصورت حالات قوية». كما كان ريكاردو يفضل التحليل البعيد المدى على الأوصاف قصيرة المدى، وقد قال لمالتس: «تتمثل دائماً فى عقلك الآثار المؤقتة والمباشرة لتغييرات معينة ـ بينما أنحيها أنا جانباً.. وأركز كل انتباهى على الحالة الدائمة للأشياء التى تنتج عنها»[19].

ولا عجب فى أن الرسائل المتبادلة بينهما، تبين أن ريكاردو رفض التسليم بملاحظات مالتس التجريبية، كما أنها لم تتلاءم مع قضية ريكاردو القوية، أو بدا أنها تتلاشى. ولكن نظرا لأن مالتس لم يضع نماذج تحليلية معقدة.. فقد اكتسب شهرته عن طريق التقلب، وكتب معاصره روبرت تورينز، Robert Torrens، «فيما يتعلق بالقضايا الرئيسية للعلم الاقتصادى، فإن مستر مالتس لم يؤيد مبدأ إلا وتخلى عنه بعد ذلك»[20]. وقد اكتسب كينز ـ فيما بعد ـ نفس الشهرة؛ مما سمح لنقاده أن يمتدحوه لمذهبه الانتقائى، فى اختيار الأسوأ من الأحسن.

وعلى الرغم من الهجمات التى شنها كل من كينز وشومبيتر.. فإن اقتصاديين بارزين بما فيهم ماركس ووالراس، Walras، ومارشال، وويكسيل، Wicksell، قد

أعلنوا تفوق ريكاردو. وقد أعلن مؤخرا أحد الطلاب البارزين للمنهج الاقتصادى: «إذا كان علم الاقتصاد هو أساسا آلة للتحليل، ومنهاجا للتفكير، أكثر مما هو أداة للتوصل إلى نتائج حقيقية.. فإن ريكاردو هو الذى ابتكر ـ حرفيا ـ أسلوب علم الاقتصاد[٢١]».

ويخامر المرء انطباعاً بأنه عندما مات مالتس، حضر البعض جنازته حزناً عليه، على حين حضر البعض الآخر ليتأكدوا من أنه مات بالفعل. أما ريكاردو فقد اجتذب مزيداً من المعجبين بذكائه بسبب مودته، وشخصيته. لقد كان رجلاً ثرياً، بحيث كان فى وسعه أن يقضى حياته مستمتعاً بوقت فراغه فى بلده، وأن يسافر إلى كل أنحاء العالم. ولكنه بدلا من ذلك.. استغل وقت فراغه فى دراسة قضايا محيرة ، وتوصل إلى أفكار تجريدية عميقة، وحلول صحيحة. ولأنه علم نفسه عن العالم.. فقد علم الآخرين من خلال الكتاب والصحيفة والخطب البرلمانية. ولايزال قانونه عن الميزة النسبية ونظرية الريع الاقتصادى يظهر فى الكتب الأساسية، باعتبارهما مقنعتين ومهمتين كما كانتا دائماً.

وعلى الرغم من أن نظريات ريكاردو تدرس فى جميع أنحاء العالم، إلا أن الأمم الأوروبية هى التى سوف تجرى أحسن اختبار لتراث ريكاردو خلال عقد التسعينيات، فإذا ما أنجزوا وعدهم فى عام ١٩٩٢ بإلغاء الحواجز التجارية الباقية فيما بينهم.. فإن ريكاردو سيحقق انتصاراً جزئياً. وحتى يتحقق الانتصار الكامل.. فإن على بلاد السوق المشتركة أن تفى بوعدها الثانى؛ أى ألا تقيم حصوناً على شواطئها من شأنها منع بلاد، مثل الولايات المتحدة واليابان من المشاركة فى برنامجها الحيوى لتحقيق الرخاء. وحتى الآن.. فإن النتائج تختلط ببعضها البعض؛ لأنه فى خلال النصف الأخير من عقد الثمانينيات، وعلى حين قفز معدل التبادل التجارى بين بلاد السوق المشتركة إلى ١٥ فى المائة.. فإن معدل التبادل التجارى بين البلاد غير الأعضاء فى السوق المشتركة قد هبط إلى ١٠ فى المائة. إن ريكاردو كان سيشعر بالإحباط، وإن كان لن يزايله الشعور بالأمل.

الفصل الخامس

العقل العاصف
لجون ستيوارت ميل

ارتبط كل الاقتصاديين البريطانيين المشهورين، تقريباً، منذ آدم سميث بعلاقات صداقة وثيقة مع بعضهم البعض. وتذكر أن ديفيد هيوم الصديق المخلص لسميث كان «الأب الروحى» لتوماس مالتس وكان مالتس صديقاً حميماً لديفيد ريكاردو، الذى شجع رفيقه جيمس ميل دراساته الاقتصادية. وقد أنجب جيمس جون ستيوارت ميل، كما حدث انقطاع طفيف في مضمار علاقات الصداقة هذه عندما لم يصادق ميل خليفته الفريد مارشال، بيد أن مارشال كان قد تعلم من مؤلفات ميل (ومن الاقتصادى ف. ى. إدجوورث، F. Y. Edgeworth ابن شقيق ماريا إدجوورث صديقة ريكاردو)، ثم علم مارشال كينز، الذى سيطر على علم الاقتصاد البريطانى حتى الحرب العالمية الثانية، وانتج عديداً من المريدين البارزين.

وتعرض حياة جون ستيوارت ميل تاريخاً شخصياً آخاذاً، تشكله قوة الأفكار. ذلك أننا نرى من خلاله الصراعات الفلسفية الكامنة وراء علم الاقتصاد الكلاسيكى. وعلى الرغم من أن الاقتصاديين يجادلون ـ فى بعض الأحيان ـ أصالة مساهماته للنظرية الاقتصادية، إلا أن الجميع يعترفون بأن ميل يوجه أسئلة مزعجة حول الأسس الأخلاقية لعلم الاقتصاد والرأسمالية.

ومن أشهر العبارات التى قالها الممثل الكوميدى جيمى ديورانت، Jimmy Durante: «كل فرد يريد أن يكون له دور»، والواقع أن كل مثقف تقريبا بعد إسحق

نيوتن أراد أن يكون له دور علمى، وأن يكتشف إجابات دقيقة لأسئلتهم. لقد أراد كل من سميث وريكاردو ومالتس أن يكون كل منهم إسحق نيوتن علم الاقتصاد، بواسطة اكتشاف قوانين الطبيعة. فلقد ظهر قانون الميزة النسبية، وقانون ساى، وقانون السكان... كلها فى تلك الفترة. وفى حوالى نفس الفترة تقريبا سعى جيرمى بنتام Jeremy Bentham لأن يكون نيوتن الكون الأخلاقى، أى عالم أخلاقى. ولقد وقع جيمس ميل تحت تأثير جرعات، أعدها علماء الأخلاق، وكذا علماء الاقتصاد، ولأن جيمس ميل أحب مذاق أفكار بنتام، فقد ارغم ابنه على أن ينهل منها.

ولد جون ستيوارت ميل فى لندن عام ١٨٠٦ ، وكان مذاق لبن أمه لا يزال فى فمه، عندما بدأ تعليمه الصارم. فقد علمه والده جيمس اليونانية، وهو فى الثالثة من عمره. وعندما بلغ الثامنة من عمره كان الغلام قد قرأ أفلاطون Plato، وزينوفون Xenophon، وديوجينيس Diogenes، باللغة اليونانية، ثم بدأ يتعلم اللاتينية. ولم تكن أمه تتحلى بدفء المشاعر. ومع معرفة الطفل جون ستيوارت قبل الأوان بآداب الإغريق والرومان، ونظرا لبرودها، فربما اعتبرها خطأ فينوس دى ميلو. وفيما بين الثامنة والحادية عشر من عمره، أتى ميل على مكتبات عامرة بالكتب، فقد قرأ أرسطو وأريستوفان، وأصبح بارعاً فى حساب التفاضل والتكامل وفى الهندسة. وخلال وقت فراغه، كان يرغم على تعليم اللغة اللاتينية لأشقائه وشقيقاته. فهل كان يمارس أى هوايات؟ لقد كان يقرأ التاريخ، وهل كان له أى أصدقاء؟ الجواب: لا.. لم يكن له أى صديق.

وفى الرابعة عشر من عمره ، بدأ والده فى التجول معه فى الغابات، بينما كان يلقى عليه محاضرات عن علم الاقتصاد عند ريكاردو: «كان يشرح لى كل يوم جزءاً من الموضوع، على أن أقدم له فى اليوم التالى تقريراً مكتوباً عنه. يجعلنى أعيد كتابته المرة تلو الأخرى، حتى يصبح واضحاً ودقيقاً وكاملاً بشكل محتمل»[1]. ولك أن تتصور الصبى المسكين، وهو يحاول أن يدون بغير عناية مذكرات حول نظريات ريكاردو المعقدة، بينما كان والده يقوده بين طرق مليئة بالأشجار.

ونظرا لمثل هذه الصرامة التى حولت ميل إلى مثقف ممتاز، وإلى هوس عاطفى، فإنه ظل متواضعاً، ينكر أنه يتمتع بعقل راجح على نحو غير معتاد، أو أن له ذاكرة دقيقة، أو أنه شخصية نشطة، وكان يقول: «فيما يتعلق بكل هذه المواهب الطبيعية.. فإننى أقل من المعتاد نوعا ما، ذلك أن ما يسعنى أن أقوم به من المؤكد أن يقوم به أى فتى أو فتاة يتمتع أى منهما بقدرات متوسطة»، بل إن ميل لم يكن متأكداً من أنه يعرف أكثر مما يعرفه الأطفال الآخرون، إلى أن اصطحبه والده للتمشية خلال حديقه هايد بارك، وأكد له تميزه على أقرانه. بيد أن جيمس حذره بقوله: «إياك أن تشعر بالفخر. إن فى وسع أى شخص أن يفعل ذلك ـ إذا كان لديه أب مثلى». والواقع أن جون ستيوارت كان المستفيد والضحية معاً لمثل هذا الأب. الذى أعطى ابنه ميزة ربع قرن بالنسبة لمعاصريه[٢].

غير أن هذه الميزة قد سلبت من قلبه ما أضافته لعقله. ولا يوجد ماهو أكثر إثارة للأسى من ملاحظته التى قال فيها: «إننى لم أكن صبياً قط»[٣]. لقد كانت له علاقات مع أصدقاء والده ، بيد أن أحدا منهم لم يكن يلعب «المساكة»، أو أى لعبة أخرى مما يلعبها الأطفال. ولهذا كان يبدو رزيناً مثل شخص خاسر فى يوم الانتخابات، وعندما حلّ ربيع عام ١٨٢٢ اتجهت أفكار الصبية الآخرين فى مثل سنه إلى الفتيات الصغيرات اللاتى يمشين فى المروج الخضراء، أما الأمر بالنسبة لميل كان مختلفاً، إذ أثار فحسب فكر ملكته، ذلك أنه كان آنذاك قد اكتشف مذهب النفعية لجيرمى بنتام، والذى جاء فى ثلاثة مجلدات تحت عنوان «بحث فى التشريع»، وكتب يقول:

عندما فرغت من قراءة المجلد الأخير... أصبحت كائنا مختلفا. ذلك أن «مبدأ المنفعة» على نحو ما فهمه بنتام ، والذى طبق على نحو ما طبقه... قد أصبح حجر الزاوية الذى جمع شتات المكونات المنفصلة والمؤلفة من شظايا لمعرفتى ومعتقداتى. لقد أسبغ وحدة على مفهومى للأشياء. لقد أصبح لى الآن آراء،

وعقيدة، ومذهب، وفلسفة، فى واحدة من بين أفضل المعانى فى العالم، والدين. وإن غرس هذه الآراء ونشرها يمكن أن يكون الغرض الأساسى الخارجى لحياة ما، وكان لدى مفهوماً عظيماً أضعه نصب اهتمامى بشأن إحداث تغييرات فى حالة الجنس البشرى من خلال هذا المبدأ»[٤].

وخلال السنوات القليلة التالية، انضم ميل لأصدقاء صباه وهما جيمس ميل وديفيد ريكاردو فى التبشير بإنجيل بنتام من خلال «مجلة وستمنستر».

تلك المجلة التى أثارت ضجة كبيرة فى العالم، ومنحت مكانة معترفاً بها، فى حلبة الرأى والمناقشة، إلى النوع البنتامى الرديكالى، ومما لا يتناسب مطلقا مع عدد أنصارها.. وجو الاقتناع القوى الذى كانوا يكتبون به، عندما كان من النادر أن يبدو أن أى شخص آخر لديه إيمان قوى مماثل فى عقيدة محددة كهذه... مما جعل ما يسمى مدرسة بنتام فى الفلسفة والسياسة، تتبوأ مكاناً فى عقل الجمهور أكبر مما كانت تشغله من قبل»[٥].

جيرمى بنتام: المتعة والألم وعلم الحساب

ماذا كان إنجيل بنتام الذى اجتذب مثل هذه المجموعة الكبيرة المقتنعة والمقنعة؟ لقد قال، تماما مثلما وضعت الطبيعة الأرض تحت قوة الجاذبية، «فقد وضعت الطبيعة الجنس البشرى تحت حكم سيدين هما الألم والمتعة»[٦] وقد اكتشف بنتام، من هذه القوانين، دينا تصويرياً وإرشادياً. ولما كان كل بنى البشر يحبون المتعة ويكرهون الألم (ومع ذلك فإن «الماسوشيين» بالرغم من أنهم يفضلون الألم، فلأن ذلك يعطيهم المتعة فقط)، فإنهم يختارون فعل ما يجلب لهم المتعة وفى فصولها التصويرية، يحث المذهب الكائنات البشرية على اختيارطريق المتعة ويبدو ذلك حتى الآن أشبه بمرح، مثل مذهب المتعة للفيلسوف اليونانى القديم اريستيبوس Aristippus. غير أن بنتام يضيف تحذيراً أخلاقيا: عندما تؤثر الخيارات

على الآخرين، فإن على الأفراد أن يختاروا البديل، الذى من شأنه أن يزيد المتعة الكلية للجميع إلى أقصى حد ممكن، ذلك أن صيحة الحركة النفعية هى «سعادة أعظم لأكبر عدد»، ويتعين على الحكومة المسئولة أن تنقش هذا المعنى فى عقول المشرعين.

وفى كلمات جعلت الديمقراطيين تغرورق عيونهم بالدموع، حاول بنتام أن يدلل على أن كل الناس سواسية عندما يقررون المتعة. فإذا ما بتر الملك إصبعاً من قدمه، فإن هذا يعتبر نصف ما تفعله خادمته جين وهى تبتر إصبعين من قدمها. وإذا ما كان إعطاء جين ضمادة أمر يساعدها أكثر مما يؤذى الملك، فإنها تحصل عليها . ولذلك، لا عجب فى أن الارستقراطيين قد ابتهللوا إلى الله من أجل أن يبتر بنتام لسانه، قبل أن يتمكن من نشر إنجيله.

ومع ذلك، فإن هذه الصياغة ليست دقيقة من الناحية الرياضية، بما يكفى بأن يخلع على بنتام لقب نيوتن الكون الأخلاقى . لقد ابتكر بنتام أسلوباً لتقدير كمية المتعة والألم، أطلق عليه حساب التفاضل والتكامل للسعادة. وكما نعلم جميعاً.. فإن بعض التجارب تكون أكثر إثارة للمتعة أو الألم من تجارب أخرى. لماذا؟ لأن أى تجربة واحدة يمكن قياسها من خلال عوامل أربعة، هى: (١) (الشدة)، (٢) الأمد و(٣) اليقين و(٤) القرب المكانى أو الزمانى. وليس أدل على ذلك من أن الناس يفضلون الأجازات الطويلة المعينة على مجرد احتمال إجازة نهاية الأسبوع. وكذلك بجلب الممثلين الهزليين المرحين فى صخب متعة أكثر من الممثلين الذين يقدمون تسلية بطريقة فاترة.

ومن الواضح أن بنتام قد حقق لنفسه كثيراً من المتعة بابتكار هذا الحساب، حتى أنه أطال أمد متعته بإضافة ثلاثة عوامل أخرى، هى: وفرة الإنتاج، والبذاءة، والتأثير على الآخرين. والواقع أن بعض المتع تؤدى إلى تحقيق مزيد من المتع.. فإذا أدى اشتراك مارك فى حفل سمر صيفى إلى أن يزيد من الفرص المتاحة لتعرف

أصدقاء جدد.. فإن حفل السمر يبين عامل السعادة الخامس، وفرة الإنتاج. وإذا أدى حفل السمر إلى أن يشعر مارك بالألم، فذلك لأن مارك صادق زوجة لاعب كرة القدم، وعندئذ يبين حفل السمر العامل السادس وهو البذاءة. (والفرصة سانحة لأن تنتج مشاعر عكسية). وأخيراً.. إذا ضحك عدد كبير من الأشخاص عندما يشوه لاعب كرة القدم وجه مارك، فعندئذ يتعين علينا أن نأخذ متعتهم بعين الاعتبار.

والواقع أن بنتام قد أضاف تعليمات معقدة باستخدام هذه الأدوات. وهى تذكر المرء للوهلة الأولى، بتوجيهات التجميع التى تقترن بأجهزة منزلية يابانية معينة، والتى قد تكون مكتوبة أيضاً باللغة الأصلية، وذلك لأن فك رموز اللغة اليابانية يعد أحسن على الأقل من اللغة الإنجليزية غير المفهومة. ومع ذلك فإن إلقاء نظرة أكثر قرباً تكشف عن أن بنتام كان معقولاً فعلاً:

ولنبدأ بأى شخص واحد... ونأخذ فى الاعتبار أموراً، منها:

١ ـ عن قيمة كل متعة متميزة، والتى يبدو أنها تنتج منها فى المرحلة الأولى.

٢ ـ عن قيمة كل ألم، والذى يبدو أنه ينتج منه فى المرحلة الأولى.

٣ ـ عن قيمة كل متعة، والتى يبدو أنها تنتج عنها بعد المرة الأولى، ويشكل هذا وفرة الإنتاج للمتعة الأولى ،وبذاءة الألم الأول.

٤ ـ عن قيمة كل ألم وما ينتج عنه فيما يبدو بعد المرة الأولى، ويشكل هذا متعة الألم الأول وبذاءة المتعة الأولى.

٥ ـ كون رأياً عن كل قيم المتع من جانب، وكل قيم الآلام من جانب آخر. إذا ما مال الميزان ـ وعندئذ ـ إلى جانب المتعة، فإنه يعطى اتجاهاً طيباً للفعل ، مع تقدير اهتمامات ذلك الشخص الفرد.

أما إذا مال الميزان إلى جانب الألم.. فذلك يعنى غلبة الاتجاه السيء على ما عداه.

٦ ـ كون رأياً عن عدد الأشخاص، الذين تعنينا اهتماماتهم وكرر العملية سالفة الذكر، بالنسبة لكل شخص، ولخص العدد الذى يعبر عن درجات الاتجاه الطيب... وافعل ذلك مرة أخرى بالنسبة لكل شخص على حدة، وبالنسبة لمن تكون اتجاهاتهم سيئة... كون رأياً، فإذا ما كان فى صالح المتعة، فإنه يسبغ اتجاهاً عاماً طيباً على الفعل... أما إذا كان فى صالح الألم، فمعنى ذلك غلبة اتجاه الشر العام، بالنسبة لنفس المجموعة[٧].

ولابد أن بنتام قد أخذ الخطوة (رقم ٣) الخاصة بالمتع طويلة الأمد مأخذ الجد، فقد أوصى بجسده لجامعة لندن، بحيث يعرض خلال الاجتماعات الإدارية الكبرى. ولا يزال جسده المحنط، موجوداً هناك. ولكن من سوء الحظ، أن بعض الطلبة الرياضيين الباحثين عن المتعة، قد سرقوا رأسه ـ والتى تبين صعوبة قياس المتعة والنقاء.

وقد أشبعت قراءة بنتام الرغبات الملحة لدى جون ستيوارت ميل للتحديد العلمـى، وأعطته أسلوباً جديداً للنظر إلى العلاقات الاجتماعية. ولذلك.. سرعان ما انضم إلى الكفاح من أجل بنتام وأشياعه من الفلاسفة الراديكاليين، الذين كان من بينهم بعض أعضاء البرلمان البارزين وكذا بعض الكتاب. ومما يبعث على السخرية أن أبطال المتعة هؤلاء كانوا مرحين مثل كافكا Kafka.

وفى ميدان السياسة.. ناضل الراديكاليون ـ من أنصار بنتام ـ بشجاعة من أجل الديمقراطية وحرية القول. فقد أعلنوا أن الحقيقة تأتى من حرية القول، فقد كافحوا ضد قانون طابع البريد، الذى يقضى بفرض ضرائب على الدوريات، واعترضوا على القيود المتعددة المفروضة على الاجتماع (وفيما بعد، وفى غضون حياته رفع جون ستيوارت ميل لواء منح المرأة حق الاقتراع). وانطلاقاً من أفكار

ريكاردو.. هاجموا قوانين القمح، وقد استنكر جيرمى بنتام نظام السجن الإنجليزى البربرى، وجادل بأن العقوبة ينبغى أن تستخدم كأداة للردع، وليس للانتقام المتنكر بقناع العدالة. ويعترف بنتام، بأن المجرم ـ فوق كل شيء ـ هو شخص يقرر أن الجريمة تعود عليه بفائدة، والإجابة الفعلية هو أن تواءم بالتكاليف. وعلى الرغم من أن بنتام قد اقترح ذات مرة شعار أن الحكومة «ينبغى أن تكون هادئة» فإن الراديكاليين كانوا على استعداد للتخلى عن مبدأ «دعه يعمل»، حيثما تتفوق المنافع على التكاليف: «إنه لم يخالجنى قط، ولن يخالجنى أبداً أى رعب عاطفى أو فوضى ليد الحكومة، لقد تركت هذا الأمر لآدم سميث... أن يتحدث عن غزوات الحرية الطبيعية[8]». ذلك أن إلههم كان المنفعة، وليس اليد الخفية حتى لو أن إلههم كان يعمل عادة من خلال اليد الخفية.

ومن قبيل الأحداث العارضة، فإن إلههم لم يكن مرتبطاً بأى كنائس أو معابد أو مساجد، ذلك أن جيمس ميل لم يكن يمكنه عقد مصالحة بين عالم شرير وخالق طيب. وقد استعاد جون ستيوارت حيوية أحاديث والده الملحدة الصاخبة والمتبجحة:

«لقد سمعته مئات المرات، يقول إن كل العصور وكل الأمم قد قدمت إلهها على أنه شرير، وكلما توالت الوقائع والأحداث كانت البشرية تضيف صفة تلو الأخرى حتى توصلوا إلى أكثر المفاهيم اكتمالاً عن الشر، الذى يمكن للعقل الإنسانى أن يخترعه، وأطلقوا على ذلك اسم الإله، وسجدوا أمامه [9]».

وفى غضون عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر ، فاز الراديكاليون بكثير من الحروب السياسية والمعارك، وهو فوز فاق توقعات أى فرد بما فيهم جون ستيوارت ميل. وحتى يتسنى لميل أن يعول نفسه، التحق بوالده للعمل فى شركة الهند الشرقية عام ١٨٢٣ . ومثلما فعل مالتس وكينز، اللذان عملا ـ فيما بعد ـ فى مكتب الهند التابع للحكومة.. فإن ميل لم يذهب قط إلى الهند، والواقع أنه خلال ذات العام الذى التحق فيه ميل بالشركة، أسس الجمعية النفعية، حيث ناقش فيها

هو وشبان آخرون من أنصار بنتام، ودرسا كذلك على نحو منتظم ولفترات طويلة من الزمن بكثافة وإطار القرب المكانى والزمانى. وكان خصومهم الأساسيون رومانسيين وطوباويين واشتراكيين، ممن كانوا جميعاً ـ فيما يبدو ـ يحلقون عالياً بأفكارهم فى سحب أشعار كوليردج حتى يفوزوا بالمناظرات الأرضية.

آلة التفكير تتعطل:

وخلال هذه الفترة، ربما اهتم ميل اهتماماً كبيراً بتحديد بنتام، وتناسى تماماً الهدف النهائى ألا وهو السعادة: «إن الوصف الذى يخلع أحياناً على بنتام بأنه مجرد آلة للتفكير، على الرغم من أنه لا ينطبق على الكثيرين... كان.. لا يصدق كلية بالنسبة لى» (١٠).

وقد واجه ميل أزمة منتصف حياته وهو فى العشرين من عمره. لقد انكسرت آلة التفكير، وتطايرت أسلاكها، كما كان لديه طوال سنوات خلت «ما يمكن أن يطلق عليه فى الواقع هدف فى الحياة، أن يكون مصلحاً». ومع ذلك، ففى يوم شتوى من عام ١٨٢٦، انتابته حالة عصبية كئيبة... حالة من تلك الحالات المزاجية التى يصبح فيها ما هو سعادة فى أوقات أخرى، بلا مذاق أو مبعث للامبالاة. وقد طرح على نفسه سؤالاً مصيرياً، وتلقى إجابة مدمرة.

افترض أن كل أهدافك فى الحياة قد حققت، وأن كل التغييرات التى تتطلع إلى أن تطرأ على المؤسسات والآراء قد تحققت كلية فى هذه اللحظة: هل يسبب لك هذا فرحاً وسعادة عظيمة؟ وقد أجاب ضمير ذاتى لا يقاوم إجابة واضحة، هى: «لا»! وقد أدى هذا إلى أن أشعر بحزن عميق. لقد انهار الأساس الذى أقمت عليه حياتى. لقد كانت كل سعادتى تتركز فى السعى المستمر لتحقيق هذه الغاية؛ لأن النهاية لاتبعث على البهجة، وكيف يمكن أن يكون هناك أى اهتمام مرة أخرى فى الوسائل؟ وبدا أنه لم يعد لى أى شيء أعيش من أجله (١١).

لقد استولى عليه اليأس طوال ستة شهور، وكان فى كثير من الأحيان يفكر فى الانتحار، فهو ببساطة لم تخالجه قط أية مشاعر إنسانية؛ إذ لم يكن يرى فى الأزهار سوى الشوك. وعلى حين أن الرومانسيين كانوا يرتدون نظارات وردية ، فقد كانت عينيه تنتزعان من العالم كل الألوان والأصباغ مثل التربنتينا، وكان فى وسع نيتشه Nietzsche أن يعلن بعد ذلك بسنوات أن «الله مات». أما بالنسبة لميل الذى سلبه أب جامد الحب، ولم يبق له سوى التفكير، فقد كان هذا يعنى له أن الإنسان مات. وقد كتب ميل عن والده يقول: «لقد كان يعبر عن أقصى درجات الازدراء للعواطف الحميمة من كل نوع ولكل ما يقال أو يكتب عن إعلاء شأنها. لقد كان يعتبرها نوعاً من الجنون»[١٢] .

لقد كان الشوق إلى العاطفة يجتاح ميل، فى عصر العقل، ولم يكن ميل ساذجاً إلى حد كبير بالنسبة للفلاسفة العقليين، وإنما كان ضحية لتلاميذهم المتحمسين غير الأكفاء. وكان هيوم يصر على أن العقل هو دائماً «عبد العواطف»، بل إن بنتام قدم العقل على أنه منهاج لمقارنة العواطف، وليس لأن يحل محلها.

وقد وجد المحللون النفسيون أمامهم حالة تستحق الدراسة. ومن المرجح أن ميل قد تعذب من جزء شعور بالذنب، ينبع من قمع رغبة الموت الموجهة نحو والده المستبد، والذى لا مهرب منه. غير أن ميل كان أسوأ حالاً من البطل الأغريقى، ذلك أن أوديب كان لديه على الأقل أم تحبه. وليس أدل على ذلك من أن «ميل» فى سيرته الذاتية ـ التى تتألف من ثلاثمائة صفحة ـ لم يذكر أمه على الإطلاق! وتشير مسودة أولية إلى سبب ذلك:

إن أماً لها قلب عامر بالدفء كان يمكنها فى المقام الأول أن تجعل أبى شخصاً مختلفاً تماماً، وكان يمكنها فى المقام الثانى أن تنشىء الأطفال على أن يُحِبوا ويُحَبوا. غير أن أمى ـ على أحسن النوايا ـ كانت تعرف كيف تقضى حياتها

فى الكدح من أجلهم... وهكذا نشأت فى ظل غياب الحب، وفى ظل وجود الخوف(١٣).

ولم تترك أمه سيرة ذاتية، ولم يعرف أحد ما إذا كان زواجها من جيمس ميل قد أدى إلى نضوب قدرتها على الحب أم لا؟ ويكفى القول أن بيت ميل لم يكن مكاناً يتوافر فيه حساء الدجاج الساخن والصحبة الدافئة.

يولد من جديد كرومانسى:

بمجرد أن تعثر ميل فى المد الثقافى الذى يطلق عليه مصطلح العقلانية، حتى أنقذه تيار قوى تحت سطح المياه، مندفعاً فى اتجاه مضاد، هو تيار الرومانسية. وقد وصف نيتشه فى مؤلفه «مولد التراجيديا» قوتين عارمتين تتصارعان فى النفس البشرية، هما: قوة الشعر والموسيقى والجمال (نسبة إلى أبوللو)، وقوة الشهوة والعربدة (نسبة إلى ديونيسوس)؛ لأن أبوللو (إله الشعر عن الإغريق) هو روح المنطق، والنظام وسيمفونيات موزار. أما ديونيسوس (إله الخمر عن الإغريق) فهو روح الشهوة والعاطفة وأوبرات بوتشينى، Puccini. والواقع أنه عندما دفعت عقلانية القرن الثامن عشر ميل إلى اليأس، أتجه إلى شعر ووردث وورث Wordsworth، وكذا شعر كوليردج. لقد ألهمت الصور المترعة بالجمال التى أبدعها ووردث وورث للجمال الطبيعى مشاعر الفرح واكتشاف الخيال، وقد بدا العالم أخيراً عالماً حسياً. وباحتضان الجمال.. كان فى وسع ميل أن يناضل للخروج من الحدود الضيقة لعقله، ومن نطاق السيطرة المستبدة لوالده.

ومثلما فعل الملاح القديم لكولريدج، شرع ميل فى خوض غمار أوديسا ثقافية، حيث زار كل من كارليل والفيلسوف الفرنسى أوجست كومت، Auguste Comte، الذى أثرت تأكيداته التجريبية على ميل. وفى بعض الأحيان.. بدا أن الملاح قد تجاوز حدود الحماسة فى امتداح آبائه الروحيين الجدد، ورفض الآباء القدامى. وبعد صداقته لميل.. طلب كومت المتكبر مساعدة مالية، فرضخ ميل

لطلبه، بل إنه طلب من الأصدقاء أن يمدوا كومت بالمال. وبعد حوالى عام توقف الإحسان، وبدلاً من تقديم الشكر لمن أحسنوا إليه.. فقد بعث كومت خطاباً كريهاً بالبريد إلى ميل، تضمن محاضرة موجهه إلى ميل عن واجب مساعدة الحكماء المفلسين. وعلى الرغم من أن ميل كان يعرف ـ فى بعض الأحيان ـ بأنه «قديس العقلانية».. فإن هذه المرحلة من حياته يجب أن تصنف تحت عنوان «القديس باعتباره شخصاً ساذجاً».

وبعد موت والد ميل عام ١٨٣٦، بدأ جون ستيوارت ميل فى نشر مقالات كشفت إلى أى حد أبحر بعيداً عن الراديكاليين فى الفلسفة، فقد هاجم فى مقال نشره عام ١٨٣٠ بعنوان بنتام الفلسفة البنتامية لافتقارها إلى الروح؛ لأن الكمال الروحى ينبغى أن يكون هدفاً فى حد ذاته، بغض النظر عن الألم والمتعة. وأضاف بنتام بكياسة وتلطف.. لقد كان بنتام أفضل وهو يتمسك بمعالجة القضايا التشريعية عن معالجة القضايا الأخلاقية الشخصية. وبعد ذلك بعامين، مجد ميل الشاعر كوليردج على نحو تجاوز حدود المنطق(١٥).

ومن المرجح أن موت والده كان مبعثاً للتحرر والمتاعب بالنسبة لميل. وتقول جيرترود هيملفارب، Gertrude Himmelfarb، أنه عند موت جيمس، عانى جون ستيوارت من «حمى فى الدماغ»، أسفرت عن إصابته بارتعاشة فى عينه، وإذا ما وضعنا الابن مرة أخرى على سرير محلل نفسى فهل يتبين أن الارتعاشة نتجت عن محاولات لقمع الشعور بالارتياح لموت سيده؟(١٦)

إن سلسلة الأسفار والتجوال لم تكن ثقافية وجمالية فقط، ذلك أن جون ستيوارت ميل وقع فى الحب لأول مرة. ومن سوء الحظ، أن هاريت تيلور، Harriet Taylor، كانت متزوجة وأماً لأطفال. ولكن ذلك لم يجعل ميل يتراجع، فقد كان لا يزال متأثرا ببنتام بما يكفى لأن يبحث عن المتعة. وقد اتخذت علاقتهما شكل علاقة ثلاثية غير جنسية، فقد كانت هاريت تعيش مع زوجها، غير أن ميل كان

يزورها عندما يكون زوجها تيلور خارج المنزل. وكانت هاريت تقضى إجازات نهاية الأسبوع فى الصيف مع ميل. وقد استمر هذا الترتيب من عام ١٨٣٠ حتى ١٨٥١ ، عندما تزوج ميل وهاريت، وكان جون تيلور قد توفى قبل ذلك بعامين. غير أن ميل أعتقد أن ارتباطاً طويلاً من شأنه تطهير العلاقة الفاضحة، وقد عزا ميل كل مؤلفاته الشهيرة لحكمة هاريت، لقد كانت إلهة بالنسبة له. لقد وجد فى زوجته المحبة، كل الدفء والقوة اللذين كان يتوق إليهما فى أمه الرخامية المشاعر.

كان عقلها أداة مكتملة، يسبر غور الأشياء، ويفهم الفكرة أو المبدأ الجوهرى فهماً دقيقاً. وقد أهلتها قدرتها على ممارسة ذات الدقة وسرعة الفعالية، واللتين تتجليان فيما تمارسه من قدرات شعورية وكذا من قدرات عقلية، فضلاً عما لديها من مشاعر وخيال، لأن تكون فنانة مكتملة، كما أن روحها الملتهبة والرقيقة وكذا بلاغتها التى تتسم بالحماسة يجعلان منها بالتأكيد متحدثة عظيمة. كما أن معرفتها العميقة بالطبيعة البشرية وتحليها بالفطنة، ورجاحة العقل فى الحياة العملية سوف يؤهلانها فى الأزمنة التى تتاح فيها الفرصة أمام النساء ممن يتحلين بهذه الصفات، أو تتبوأ مكانة بارزة بين حكام البشرية؛ لأن مواهبها الثقافية تثرى شخصيتها المعنوية مما جعلها أكثر الشخصيات، التى قابلتها فى الحياة نبلاً وتوازناً (١٧).

وقد اعتقد الكثيرون من أصدقاء ميل أنه كلن يهذى، ولا يزال المؤرخون يتجادلون فيما بينهم بشأن تقييم مساهمات هاريت. غير أن شيئاً واحداً مؤكداً، هو أن ميل شعر بأنه متميز؛ لأن مثل هذه المرأة الجميلة قد آثرت أن تحبه، وقد انتهت بالتأثير عليه على نحو لايمكن قياسه.

وبوجود هاريت إلى جانبه، والخيال فى رأسه.. ففى وسعنا أن نتوقع أن ميل قد عاش حياته، يؤلف قصائد غنائية فى القوارير الأغريقية الجميلة. غير أن بطلنا الرومانسى الذى قام برحلات حول العالم مجازياً وفعلياً يعود إلى الوطن، وقد أصبح

رجلاً أكثر من ذى قبل. لقد كان الوطن هو البنتامية، بيد أن ميل غيرها وحسنها. ولأن بقية كتاباته وحياته السياسية تعكس بنتامية مستنيرة، فقد أصر ميل على أن السعادة العظمى تعتمد على ماهو أكثر من السعادة . وليس أدل على ذلك من أن متعة الاحساس بسيمفونية بتهوفن، أو رائعة مايكل أنجلو هى أكثر من مجرد الشعور بالمتعة؛ لأن الأعمال والمؤلفات العظيمة تجلب السعادة عن طريق إعلاء الروح. لقد ذهب بنتام إلى أن لعب البوكر أمر طيب مثل الشعر، إذا كانت المتعة الناجمة عن ممارستهما متكافئة، غير أن ميل لم يوافق على ذلك. وبتغيير الاستعارات.. رد ميل بأنه يفضل أن يكون سقراط غير راض، عن أن يكون خنزيراً يطعم طعاماً جيداً. وزاد ميل من شأن النفعية بإثارة الفضائل الأفلاطونية عن الشرف والكرامة والارتقاء الذاتى، ولهذا السبب أصبح ميل مدافعاً متحمساً عن التعليم العام. وبالنسبة له، فإن فن الحكم ينبغى أن يكون فن الروح.

وفى عام ١٨٤٨ ، نشر ميل مؤلفه الرئيسى عن علم الاقتصاد، وهو «مبادئ الاقتصاد السياسى» Principles of Political Economy. وطوال عقود من الزمان.. سيطر الكتاب على السوق مثل الاحتكارات التى ناقشها ميل فى صفحاته. وقد اعتمدت جامعة أكسفورد على «المبادئ» حتى عام ١٩١٩ ، ويرجع ذلك على الأرجح إلى أن خلفية هذا الكتاب قد كتبها مارشال Marshal، وهو رجل من جامعة كمبردج. وفى الواقع.. فإن مؤلفات كل الاقتصاديين العظام تنير الدروب الطويلة، ففى الفترة من عام ١٧٧٦ حتى ١٩٧٦ .. سيطرت خمس كتب على علم الاقتصاد فى تتابع لم ينكر تقريباً وهى: كتاب سميث عن «ثروة الأمم»، وكتاب ريكاردو عن «المبادئ» ، وكتاب ميل عن «المبادئ» ، وكتاب مارشال عن «المبادئ» ، وكتاب صامويلسون عن «علم الاقتصاد» ، وكان ما افتقروا إليه فى الخيال عند وضع عناوين كتبهم، قد عوضوه فى دوام هذه الكتب.

منهج ميل

شق نضال ميل مع العقلانية والرومانسية سبيله فى «المبادئ» ، عندما ناقش المناهج الاقتصادية. وكان جيمس ميل ــ الذى اتبع فلسفة هوبز Hobbes ــ يفكر

فى علم الاجتماع بنفس الدقة التى ينجز بها المرء البراهين الهندسية. واستنتج جيمس ميل من المقدمات المنطقية العامة سياسات ونتائج محددة، والتى كانت متركزة عادة على «قوانين» الطبيعة البشرية مثل المصلحة الذاتية. ومن ثم.. لايمكن أن تثور أى شكوك حول الاستدلالات، فلا يسع أحد إنكار أن المثلث له ثلاث زوايا وثلاثة أضلاع. وقد تعلم ميل من والده علم الاقتصاد، باعتباره نتائج قياسية منطقية أو عقلانية.

وقد تعلم ميل خلال أزمنة وسنوات إعادة التعليم منهجا أقل دقة، وهو الاستقراء. وفى حالات كثيرة.. يمكن لعلماء الاجتماع أن يفحصوا بدقة فقط موضوعاتهم، وأن يضعوا افتراضات لنماذج واتجاهات، دون أن يعلنوا بالأحرى عن قوانين لاجدال فيها؛ لأن الاستقراء يحقق هدفين متواضعين، هما: كشف الأنماط السلوكية والتوصل إلى توقعات تستند إلى هذه الأنماط التجريبية. والواقع أن كون الاستقراء أقل تحديداً لا يعنى أنه بالضرورة أقل شأنا بالنسبة للاستدلال. ولا يمكن لعلماء الاجتماع أن يكونوا استدلاليين ومحددين؛ لأن الناس لا يتسم سلوكهم دائماً بالصرامة والاتساق؛ لأن الاستدلال قد يكون أكثر ملاءمة للتكهن بسلوك الموتى. وفى سخرية مستترة من والده المتوفى، حذر ميل من أن ممارساً حكيماً لا يمكنه أن يستنتج خط السلوك، إلا فيما يتعلق بحالات معينة، من مبادئ أخلاقية عملية كونية مفترضة، بغض النظر عن ضرورة الإشارة على نحو مستمر لمبادئ العلم التأملى»[١٨].

وعندما قبل ميل الاستقراء كأداة علمية ملائمة.. فإنه لم ينبذ الاستدلال. بحكمة سليمانية فيما بدا، اقتطع ميل دوراً لكل منهما، فكل منهج يمكنه أن يوازن الآخر. فإذا استنتج بعض الاقتصاديين ـ من ملاحظات شابها الخطأ ـ مبادئ أولية، فإن فى إمكان التجريبيين أن يقذفوا فى وجوههم بأمثلة مضادة جربت ملاحظتها . وعلى سبيل المثال.. فإن قانون السكان لمالتس قد قدم فى البداية على أنه حقيقة استدلالية، ويمكننا أن نفند قانون مالتس عن طريق ملاحظة أرفف

محلات «السوبر ماركت» المكتظة بالسلع. ومن ناحية أخرى.. فإن النظريين الاستدلاليين يمكنهم فحص عمل التجريبيين، من أجل التوصل إلى تماسك منطقى. وعلى سبيل المثال.. فإن تجريبياً أبله يمكنه أن يجادل بأنه نظرا لأن هجرة طيور اللقلق ترتبط ارتباطا كبيرا بمعدل المواليد لدى البشر فى نيويورك.. فإن السياسة الحكيمة من أجل ضبط السكان تقتضى إطلاق الرصاص على طيور اللقلق. ويمكن للعقلانى ـ من خلال المنطق ـ أن يبين أن الملاحظات التى يشوبها الخطأ لا تنطوى على أى معنى. (وبالطبع، فإن تجريبياً متحجر الفؤاد سيكتشف استقلال هذه الحوادث، عندما يبدأ فى إطلاق النار على طيور اللقلق وإحصاء عدد المواليد).

إن ميل لم يخلط دائما هذين المنهجين. وفى الواقع.. تقترح «المبادئ» منهجاً مزدوجاً للإنتاج والتوزيع؛ لأن ثمة قوانين ثابتة وكونية تسيطر على الإنتاج: «ليس هناك شئ اختيارى أو تحكمى فيها». ولذلك.. ينطبق الاستدلال. «ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة لتوزيع الثروة، فهذا أمر يتعلق بالعرف الإنسانى وحده، فإذا توافرت الأشياء.. فإن البشرية ـ فردياً أو جماعياً ـ يمكن أن تتعامل معها كيفما تحب»(١٩).

وعلى حين أن ريكاردو أرسى تحليلات إنتاجه وتوزيعه على السواء على أدوار متطابقة بعناية يقوم بها ملاك الأراضى والعمال والرأسماليون.. فإن ميل رفض مثل هذه التقسيمات الداخلية فى عملية التوزيع. ومن الصحيح أن مالك الأراضى يحصل على الريع طبقاً لتحليل ريكاردو، ولكن ميل يصر على أن المجتمع قد يقرر ألا يدعه يفعل ذلك.

إن مشروع ميل المقسم إلى شعبتين يبدو خاطئاً لسببين، أولهما: أن قوانين الإنتاج قد لا يمكن تثبيتها، وعلى سبيل المثال.. لا يمكن التكهن أو التأكد بالتقدم التكنولوجى، ويلمح ميل إلى هذا الاعتراض. وثانيهما.. أنه لا يمكن أن نفصل التوزيع فصلاً كاملاً عن الإنتاج.

ولا يمكن للمرء أن يكون مغاليا فيما يتعلق بخفض شكه فى أن معدلات الضرائب الباهظة (أشبه بالمصادرة) قد تغير نشاط الفرد؛ لأن بوريس بيكر، Boris Becker، وهو لاعب كرة تنس ألمانى غنى، وألمانيا (الغربية) تفرض ضرائب طائلة على الأغنياء . كم دفع بيكر لبون، Bonn، كضرائب على المليون دولار التى فى حوزته؟ لا شئ.. لقد انتقل إلى موناكو. لقد غير موقع إنتاجه بسبب إجراءات توزيعية. وبالطبع.. فإن الضرائب لا تفسر كل شئ، فالأحمق فقط هو الذى يستنتج من قصة بيكر أن ميخائيل بريشينكوف، Mikhail Baryshinkov، غادر «الاتحاد السوفيتى» بسبب معدلات الضرائب.

والواقع أن ميل يلين فى دعواه بشأن تمييز منهجى واضح بين الإنتاج والتوزيع، فى الطبعات والفصول اللاحقة من «المبادئ».

إن تلخيص كل النماذج المهمة الواردة فى «المبادئ»، قد يتطلب مساحة أكبر من المؤلف الأصلى؛ لأن ميل حاول تقديم عرض شامل للمبدأ الاقتصادى، مضيفاً تحسينات عديدة، فقد كتب باقتدار عن إدارة الشركة، وعن العرض والطلب، باعتباره معادلة وليس معدلاً، وعن قانون ساى، وعن الطلب، كعامل أساسى فى قانون الميزة النسبية لريكاردو. وكما لاحظ جورج ستيجلر ـ الفائز بجائزة نوبل ـ إن أوجه التقدم التى أحرزها ميل تشكل قائمة غريبة، فهى ترتبط بعضها البعض على نحو غامض؛ فبدلاً من بناء أساس جديد، استبدل ميل كثيراً من الحجارة الضعيفة فى مستويات كثيرة مختلفة.

ولأن ألفريد مارشال يقوم بإصلاحات مماثلة فى عمل ميل، فقد يكون من الأفضل أن نقضى هذا الفصل فى دراسة ميل للاقتصاديات السياسية الاجتماعية. وباستثناء ماركس، فإن ميل قد يكون أخر «الاقتصاديين السياسيين» باعتباره حظى بشهرة بسبب مؤلفاته السياسية «عن الحرية» والنفعية، وكذا بالنسبة لمؤلفاته الاقتصادية. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر.. فإن الاقتصاديات ـ باعتبارها علماً ـ

أصبحت متخصصة للغاية، حتى أن قليلين فقط كان فى وسعهم أن يسيطروا على الاقتصاد والفلسفة على السواء. وبحلول منتصف القرن العشرين.. فإن قليلين كان فى إمكانهم أن يسيطروا على أكثر من موضوعين من موضوعات علم الاقتصاد وحده. أما فى الوقت الحاضر.. فإن روبرت صولو Robert Solo ـ الفائز بجائزة نوبل ـ يقول إن علينا أن نختار بين قول الكثير، والكثير عن القليل والقليل، أو قول القليل والقليل عن الكثير والكثير.

وقد طرح ميل فى كتابه المبكر «عن المنطق» On Logic تفرقة حاسمة بين المؤلفات الوضعية والتقديرية أو التقويمية؛ فعلم الاقتصاد الوضعى يصف ويتنبأ بما وقع بالفعل فى العالم . أما علم الاقتصاد التقديرى.. فيدافع عما يتعين أن يحدث مستنداً فى ذلك على فلسفة أخلاقية، وأن ميل باعتباره مصلحاً.. يضطلع بدور تقويمى. فمن بين الكتب الخمسة للمبادئ.. تتجه الثلاثة الأولى منها لأن تكون وصفية، بينما يبين الكتابان الأخيران ميل فى دوره التقويمى.. فقد كرس جهده بحماس؛ لإعلاء الأحوال الإنسانية من خلال تحقيق مساواة أكبر فى الثروة، وحقوق المرأة والتعليم.

فى وسع أى فرد أن يحمل لافتات، وأن يهتف بشعارات تطالب بالمساواة أو السعادة، أن يحضر فريق NFL إلى بلتيمور، بيد أن النتائج لا تأتى من اللافتات وحدها، فلا أى شئ يحقق الهدف سوى أن تحظى مدن سيبيريا بطقس جميل، بحيث يمكنها أن تعيد تسمية نفسها بـ «الفردوس». لذلك.. فإن عظمة ميل تتمثل فى أنه ربط أهدافه المعيارية بتحليلاته الواقعية.

الضريبة والتعليم

لقد وازن ميل بدقة ما بين الوضعى والتقويمى فى الفصول التى كتبها عن الضريبة. وفى الواقع أن موقفه تجاه ضريبة الدخل، يعكس روح قانون الإصلاح الضريبى الأمريكى لعام ١٩٨٦ ، والذى حاول «تخفيض» الضريبة التصاعدية على

الدخل. ومثل آدم سميث.. دعا ميل إلى فرض ضريبة نسبية على الدخل، وهى تقتضى أخذ ذات النسبة المئوية من الدخل من أصحاب الدخول؛ بغض النظر عن مستوى دخلهم. ويتباين هذا مع الضريبة التصاعدية على الدخل، التى تقتضى أخذ نسبة مئوية متزايدة كلما ارتفع الدخل. وفى الواقع.. فإن تحليل ميل هنا يعكس المثل السابق الذى أوردناه عن بوريس بيكر، وذلك أن ميل يخشى من أن الضريبة التصاعدية على الدخل قد لا تشجع على العمل:

إن فرض ضريبة على الدخول الأكبر بنسبة مئوية، أعلى مما تفرض على الدخول الأصغر، أمر يعنى فرض ضريبة على الصناعة والاقتصاد، وفرض عقوبة على الأشخاص لأنهم عملوا بجدية أكبر، وادخروا أكثر من جيرانهم[٢١].

وعلى الرغم من أن الضريبة النسبية تطبق على معظم السكان، إلا أن ميل يعفى الفقراء من دفع الضرائب.

وطوال معظم هذا القرن.. عارضت الولايات المتحدة نصيحة ميل، وأخذت بالضريبة التصاعدية على الدخل. ويقع دافعو الضرائب في واحدة من أربعة عشر شريحة، تتراوح من ١١ إلى ٥٠ فى المائة. وإذا حصل شخص على زيادة فى دخله.. فإنه يتحرك إلى الشريحة الأعلى. غير أن الكونجرس قبل أخيراً نصيحة ميل، وأقرّ قانون الإصلاح الضريبى لعام ١٩٨٦، وما لم أو حتى يغيره الكونجرس.. فإن القانون يقضى بوجود شريحتين هى ١٥ و ٢٨ فى المائة. وعلى الرغم من أنه ليس نظاماً ضريبياً «موحداً»، فالقانون يبدو كهضبتين، وليس بالأحرى كجبل منحدر باضطراد . كما أنه يتفق على تفكير ميل، فالقانون يعفى مزيداً من الفقراء من دفع أى ضرائب على الدخل.

لماذا كرم الكونجرس ميل فى النهاية، حتى وإن كان على نحو غير متعمد؟ تشرح مجموعة من الأسباب السيئة والطيبة كيفية تصرف أى لجنة. وكما قال شخص ما ذات مرة، أن الفوضى السائدة فى العالم تبرهن ـ بحسم ـ على أن الله

لا يعدو أن يكون لجنة، ويجادل المدافعون عن الضرائب النسبية بأن الضرائب التصاعدية تشوه الحافز لزيادة الدخل. وعلاوة على ذلك.. فإن مجموعة القوانين الخاصة بالضريبة التصاعدية، تشجع الناس على التهرب من دفع الضريبة كلما زاد دخلهم. وقد يفعلوا ذلك على نحو قانونى، من خلال الإعفاءات الضريبية والحسابات المختلفة أو بأسلوب غير قانونى. وحتى إذا كانت مجموعة القوانين الضريبية المنشورة تصاعدية، وإذا تهرب الناس من دفع الضرائب على نحو كاف.. فإن النتائج قد لا تكون كذلك. وفى الواقع، وفيما قبل قانون ١٩٨٦ ، فإن العائدات الضريبية الفعلية المسجلة فى ملفات خدمة الدخل الداخلى تصور ضريبة نسبية أى على نحو نسبى؛ لأن الناس استخدموا الثغرات القانونية لعرقلة نظام الضريبة التصاعدية وتحويله بعيداً عن هدفه. وقد سد قانون ١٩٨٦ ـ الذى أيده الديمقراطيون والجمهوريون ـ كثيراً من هذه الثغرات، وجعل التهرب أقل إغراء. ومع ذلك.. فإن بعض الثغرات الملتوية قد وجدت طريقها على نحو ما فى هذا القانون الأكثر إحكاماً، بما فى ذلك الثغرة التي أغرت الإسكيمو على بيع مشروعاتهم الخاسرة إلى شركات؛ مما يتيح لهذه الشركات أن تخصم خسائر الإسكيمو من ضرائبها.

والواقع أن النقاد الذين يرفضون هذه الحجج التى تثار ضد الضريبة التصاعدية، يصرون على أن الضريبة النسبية هى ببساطة ليست عادلة، مثلها فى ذلك مثل الضريبة التصاعدية. وعلي الرغم من هذا الهجوم، فإنه يبدو أن شبح ميل قد فاز طوال السنوات القليلة القادمة على الأقل.

وإذا كان ميل قد يسّر الأمر بالنسبة للأغنياء، فيما يتصل بالضريبة على الدخل.. فقد شدد بالنسبة للضريبة على الميراث؛ لأنه يدعو فى مؤلفاته الاقتصادية والفلسفية إلى «تكافؤ الفرص»، وليس «تكافؤ النتائج». فإذا ورث بعض الأطفال مبالغ نقدية طائلة من أبويهما، فإنهم يمتلكون بذلك ميزة غير عادلة بالنسبة للآخرين. وأن

أولئك الذين يولدون وفى أفواههم ملاعق من فضة، قد يعتمدون على ثروة أبويهما ولا ينتجون المزيد. لماذا يتسم ميل بالحذر تجاه الضرائب على الدخل؟ ولكنه يتحول ليصبح مصادراً للممتلكات تجاه الضرائب على الميراث؟ إن بصيرته الثاقبة هنا تدرك أن فرض ضرائب مرتفعة على الميراث لا تحبط الرغبة فى العمل، مثلما تفعل فرض الضرائب التصاعدية. وكتب فى هذا الصدد: «إنها ليست الثروات التى تكسب، وإنما أولئك الذين لا يكسبون، ولذلك فمن الصالح العام تحديدها»[٢٢].

ومع ذلك.. فإن تحليله يمكن دحضه؛ إذ أنه حتى الضرائب على الميراث والتركات تتسم بالاضطراب والفوضى عند التطبيق. وليس أدل على ذلك من أنه فى وسع الآباء ببساطة أن يحولوا مالديهم من ثروة قبل موتهم. وهكذا.. فإن فرض ضرائب على الهدايا يصبح أمراً لازماً، مع وجود مفتشين على الهدايا. وعلاوة على ذلك.. فإن فرض ضرائب مرتفعة على الميراث والتركات من شأنه عدم تشجيع كبار السن على العمل، أو يشجعهم على إنفاق ثروتهم فى أوجه تتسم بالتبذير والإسراف، وليس ادخارها أو استثمارها فى مشروعات إنتاجية. وخلاصة القول.. فإنه حتى الضرائب على الميراث والتركات ليست مضمونة.

والواقع أن إمعان نظر ميل فى وضع الأغنياء لم ينته إلى فرض ضريبة الميراث؛ فعلى الرغم من قصة حبه وتربيته البنتامية.. فإنه كان فيكتورى النزعة، بما يكفى لأن يعترض على نزعة الميوعة والرخاوة المحضة من جانب الأغنياء. فقد اقترح - بحماس - فرض ضرائب على الحفلات الصاخبة والكماليات، التى تتسم بالبذخ وتنم عن المباهاة . وقد أعلن ميل - منذ وقت طويل قبل ثورستاين فبلن - أن الشئ الذى ينفق عليه المال.. بعيداً بدءاً من التبجيل حتى الرأى، هو «موضوع ضريبى مرغوب فيه جداً». وقد بدا ميل - فى بعض الأحيان - كما لو كان يشعر بسعادة كبيرة من جراء فرض الضرائب على الأغنياء، بقدر مايشعر الأغنياء بالسعادة لكونهم أغنياء . وإذا وضعنا فى الاعتبار بعض الأشخاص الموسرين الذين عرفهم

ميل، والفقراء الذين كان يهتم بهم ويرعاهم.. فإنه لا يمكننا أن ننحى باللائمة على ميل؛ لأنه كان يقدر دائما كيف تساعد الظروف الاجتماعية على تشكيل الآراء.

وتعجب ميل كذلك من الطريقة التى يمكن للمجتمع بها أن يعطى مساعدات للفقراء، دون أن يثنيهم ذلك عن السعى للحصول على وظائف، ولا توجد إجابة واضحة على ذلك، ويميز ميل ـ فى ذلك ـ بين الأقوياء الأصحاء وبين العاجزين وبين المسنين وبين الشباب. ومن المؤكد أن ميل قد فكر فى أن المجتمع لا يتعين عليه أن يقلق بشأن عدول العاجزين عن العمل، وأنه ينبغى عدم قطع المعونات التى تقدم لهم. وقد تقبل ميل الحقائق التى قدمتها لجنة ملكية عن إصلاح قانون مساعدة الفقراء، واعترض على قطع المساعدات عن المعوقين. ومع ذلك.. فقد شعر ميل بتساهل أقل تجاه اللياقة الجسدية، واقترح أن يتبادل الذين يتلقون المساعدات العمل بموضوعات الرفاه الاجتماعى. والواقع أنه بعد تجاهل دعوة ميل طوال عقود عدة، فإن الحكومة الفيدرالية وولايات عديدة، انتهجت برامج «العمل» والتى تقضى بأن من يتلقوا مساعدات الرفاه الاجتماعى عليهم إما: أن يقبلوا العمل، أو يتلقوا تدريباً للعمل فى وظائف جديدة. وقد عمل السيناتور باتريك موينهان، Patrick Moynihan ، أبو التشريع الفيدرالى، طوال سنوات عديدة لإعادة تعريف الرفاه الاجتماعى بأنه مرحلة انتقالية للعمالة النهائية. ولما كانت هذه المتطلبات ستقسم إلى مراحل اعتباراً من عام ١٩٩٤ .. فإن مزايا أجر العمل لن تتضح إلا فى القرن القادم.

ومع ذلك.. فإن خطة ميل كانت أكثر قسوة، ذلك أنه فكر فى أن الوظائف ينبغى أن تكون بالضرورة شاقة، وكذلك تلك الوظائف التى يضطلع بها أقل العمال المستقلين حظاً. وقد وجدت الآراء الحديثة بحق أنه لا يوجد أى مبرر لمنع المستفيدين من المساعدات من التدريب للحصول على وظائف أفضل. ورغم ذلك.. فإن ميل يبدى بصيرة فائقة مرة أخرى.

لقد كان ميل يخشى من أنه إذا كانت مساعدات الرفاه الاجتماعى تمنح بسهولة.. فإن أجيالاً من الفقراء سيولدون لعائلات لا تعى قيم العمل. وماهو أكثر ضرراً من ذلك.. أنه كان يفكر فى أن المساعدات المرتفعة للرفاه الاجتماعى، من شأنها أن تشجع فقط على زيادة معدلات المواليد. وهكذا.. فإن ميل رفض المقترحات الاشتراكية والرومانسية لزيادة فوائد المساعدات أو الأجور. وقد تجاهلت مثل هذه الجهود التقويمية المعلومات الإيجابية عن الميول الإنسانية، وكان ميل فى حاجة إلى أن يقدم مبرراً لسياساته المعيارية فى نماذج منطقية وناضجة.

وتذكر ميل ـ عندما استعان بذكرياته الأولى ـ قوة التعليم؛ فقد أيد التعليم العام للفقراء؛ لأن ميل كان يرى أنه لاخطأ فى إدراج التذوق للقيم الرأسمالية؛ لأنه من واجب المجتمعات الرأسمالية أن تعلم كل مواطنيها كيف ينجحون فى مجتمع تجارى . وأن ما أطلق عليه ماكس فيبر Max Weber فيما بعد مبادئ أخلاقية العمل البروتستانتى «ليس خاصية بيولوجية». وإذا افترضنا أنها تحرم الفقراء من أملهم الوحيد للنهوض من ملاجئ إعالة الفقراء: «يبدو لى أنه من المتعذر تحقيق ذلك، بيد أن زيادة المعلومات والتعليم وحب الاستقلال بين الطبقات العاملة لابد وأن يقترن بالاهتمام بالنمو المتوازى، مع الإدراك السليم الذى يتضح فى العادات الحصيفة للسلوك»(٢٤) لقد أراد ميل أن يجمع بين التعليم الأخلاقى والحوافز الاقتصادية، واقترح ـ على سبيل المثال ـ أن تزود الحكومة الفقراء بما نطلق عليه الآن قروض تحسين المنزل.

والواقع أنه من الممكن أن تكتب مجلدات عن موقف ميل تجاه سياسات «دعه يعمل» ضد التدخل الحكومى. وفى إيجاز.. لقد وقف ميل ـ فى منتصف الطريق ـ ولم يتجاوز عادة موقعه هذا، فقد كان يرفض الموقف المذهبى لسياسات «دعه يعمل»، ويؤمن فحسب بافتراض «دعه يعمل». وهذا يعنى أن العبء يقع على كاهل الاقتراح المؤيد للحكومة، بأن تبين أن تحقيق قدر أكبر من السعادة

يقتضى التدخل: «إن كل ابتعاد عن (دعه يعمل) ما لم يقتضه خير عظيم، فهو شر مؤكد»[٢٥]. فمن الواضح.. أنه يتعين على الحكومة أن تفرض الضرائب، وأن تسك النقود، وأن تتولى الدفاع ضد الأعداء، وأن تقيم المحاكم، إلى آخره. بيد أن الوظائف «الاختيارية»، مثل: حماية المستهلك، والتعليم، ولوائح العمل، يتعين معالجتها على أساس منهج قضية تلو الأخرى. وعلى سبيل المثال.. كان ميل يفضل الإحسان الخاص على مساعدات الرفاه الاجتماعى للدولة، غير أنه كان يدرك أن الإحسان قد يحالفه النجاح جزئيا فقط، لأن الفقراء يقبلون بسعادة أى نقود، بيد أن الأغنياء لن يعطوهم إياها. (ويرجع ذلك جزئيا إلى أن الناس يفترضون أن الآخرين سيتحملون عنهم هذا العبء) وهكذا.. فإنه يتعين على الحكومة أن تستخدم سلطتها فى فرض الضرائب لإعالة الفقراء.

ومرة أخرى.. يبدو منهج ميل حديثاً جدا، لأنه كان سيوافق، بل إنه فى الواقع كان يتوقع، ظهور عديد من المؤسسات الحكومية الحالية. ورغم ذلك.. فقد تأكد من أن كل المقترحات تجاوزت الاختبار الافتراضى الحاسم بالنسبة «للمصلحين نافدى الصبر، الذين يفكرون بأنه من الأسهل والأسرع السيطرة على الحكومة، بدلاً من السيطرة على أفكار وميول الجماهير، الذين يخضعون لإغراء مستمر لتوسيع نطاق وظيفة الحكومة؛ بحيث تتجاوز الحدود المناسبة[٢٦]». لقد علمته قراءاته للكتاب الكلاسيكى لأليكسيس دى توكفيل، Alexis de Tocqueville، فى «الديمقراطية فى أمريكا» فضيلة الخطط المحلية بالمقابلة إلى الخطط المركزية.

وفى كثير من النواحى.. تعكس مواقف ميل مواقف حكومته فى ذاك الوقت. لقد اتجهت إنجلترا صوب اقتصاديات السوق الحر، ولكنها وضعت ضمانات ضد الاستغلال، وقاد ويليام جلادستون، William Gladstone، البرلمان، بحيث تخلى فى النهاية عن قوانين القمح فى عام ١٨٤٦، وخفّض الضرائب على الدخل. بل إنه عندما هز تحذير التجارة الحرة فى النهاية أوروبا، وضع البرلمان فى عام ١٨٠٢،

١٨١٩ و ١٨٣٣ قيوداً على عمل الأطفال من خلال قوانين المصانع، موفراً بذلك أوجه حماية بارزة. والواقع أن ميل كان سيوافق على كلا الإجراءين، ليس بدافع الأيديولوجية، وإنما بدافع التفكير الواعى.

التطلع إلى الأمام

إن معظم الاقتصاديين لا يقاومون التنبؤ بالمستقبل على المدى الطويل. ومثلما فعل سميث ومالتس وريكاردو وماركس وكينز.. فإن ميل رسم رؤية انطباعية للمستقبل، رؤية تضم أجواءً من ريكاردو واشتراكية السان سيمونيين، والحركة الطوباوية التى تمجد العمال الصناعيين. فمن ريكاردو.. رسم ميل احتمال الدولة الساكنة. ومن سان سيمون، Saint Semon، مسّ برفق على الألوان المتألقة، لأن الدولة الساكنة ستكون سعيدة. وعلى حين أن ريكاردو وضع نموذجاً نظرياً لتتبع نتائج الغلة المتناقصة، والأسواق المغلقة، والأرباح الهابطة.. فإن ميل صور نموذجاً لاصوتياً تقريباً للفردوس على الأرض. ففى بعض الأزمنة البعيدة سيتوقف التكالب على النقود، ويسمو الجنس البشرى بنفسه، بدلاً من السعى وراء الثروة. وقدم كينز رؤية مماثلة خلال الكساد العظيم.

وتذكر أن النفعية المستنيرة عند ميل تفسح مكاناً للمثل العليا الأفلاطونية فى تفاضلها وتكاملها. وقد تطلع ميل ـ بشوق ـ إلى زمن يعنى فيه البشر بالكرامة والأصالة والعدل، أكثر مما يهتمون بأجر الوقت الإضافى وسحب الأموال من البنوك:

«لا يمكننى.. النظر للحالة الساكنة لرأس المال والثروة بذلك النفور الطبيعى، الذى يعرب عنه عامة الاقتصاديون السياسيون، ممن ينتمون للمدرسة القديمة. وذلك لأننى أميل إلى الاعتقاد بأن الأمر سيكون، بصفة عامة، تحسناً معقولاً جداً بالنسبة لوضعنا الحالى. وأعترف أننى لا أشعر بأى إعجاب للمثل الأعلى

للحياة الذى يعتنقه أولئك، الذين يعتقدون أن الحالة العادية للكائنات البشرية تتمثل فى الصراع للتقدم فى مضمار الحياة، وأن التطاحن والانسحاق، والتدافع، ووطء الآخرين بأقدامنا، وكل ما يشكل نمط الحياة الاجتماعية القائم، هو أكثر أقدار الجنس البشرى المرغوب فيها، أو أى شئ إلا الظواهر السيئة لواحدة من مراحل التقدم الصناعى(٢٧).

وعلى غرار ماركس.. كان ميل يعتقد أن البشر سوف يتجاوزون فى النهاية «مملكة الضرورة» ، ويبلغون زمناً يمكنهم فيه أن يختاروا ألا يناضلوا من أجل الحصول على موارد الرزق، وإنما يناضلون من أجل إعلاء شأن إنسانيتهم. وكان ميل يعتقد أن «بلاد العالم المتخلفة» فقط هى التى تحتاج - فى الواقع - إلى تحقيق المزيد من النمو الاقتصادى. أما البلاد المتقدمة.. فهى تحتاج - فحسب - إلى تحقيق توزيع أفضل، أو على الأقل إلى روح شعبية جماعية أفضل. وقد انتقد بشدة الولايات المتحدة، حيث أعتقد أن الفقر قد جرى القضاء عليه، ولكن «حياة جنس واحد قد كرست للبحث عن الدولار، بينما كرست حياة جنس آخر لتربية صائدى الدولار»(٢٨). إن المرء ليتساءل عما إذا كان ميل سيعجب بعالمنا الجديد، الذى يتساوى فيه الجمع فى حرية البحث عن الدولار.

ماذا نحن فاعلون بالنسبة لصورة ميل؟ إنه لأمر انطباعى جداً أن نستنتج - أو حتى نستقرىء - أى نتائج مؤكدة، فعندما صدرت الطبعات الجديدة من «المبادئ».. فإنها كانت تبدو كما لو كانت تتسم بمزيد من التعاطف مع الاشتراكية. ومع ذلك.. فإن ميل لم يبد قط أى ميل عاطفى نحوها، لقد كان فى وسعه أن يتعاطف مع دعاة الطوباوية ولكنه لم يوقع قط على التماسات أو سار يوماً إلى جانبهم. وكما قال اللورد بايرون «لقد وقفت بينهم، ولكننى لست منهم». والواقع أن ميل لم يتخلى قط عن إيمانه بالمنافسة، وبالخوف الذى أشاعه توكفيل من القوة المركزية: «إننى أرفض تماماً معظم الجانب البارز والحاد للتعاليم

[الاشتراكية] وخطبهم ضد المنافسة . لقد نسوا أنه حيثما تختفى المنافسة يوجد الاحتكار»[٢٩] .

إن القليلين منا يتخلون عن الأشواق لبلوغ الفردوس. وقد يتطلع إليها الأغنياء فى جزيرة استوائية . أما المتدينين من الرجال والنساء.. ففى وسعهم أن يعتمدوا على الحياة الآخرة . أما المتفائلون فيعتمدون على الغد. لقد ناضل جون ستيورات ميل من أجل اليوم ، وهو يأمل فى يوم تسوده الرضا والطمأنينة بعد غد.

لقد ناضل ميل من أجل مبادئه فى كتابه «المبادئ» ، وفى البرلمان خلال عقد ستينيات القرن الثامن عشر. لقد كان صوتا يطالب بتحقيق حقوق الانسان، ويدعو لحق الاقتراع للنساء، وحقوق الانتخاب للفقراء، ويؤيد الشمال خلال الحرب الأهلية الأمريكية. وطبقا لما قاله اللورد بلفور: «لقد كانت لميل سلطة فى الجامعات الإنجليزية.. تقارن بتلك التى كانت لأرسطو خلال العصور الوسطى»[٣٠] .

وتصور «سيرته الذاتية» رجلاً بعيداً كل البعد عن السياسى التقليدى. وعندما طلب منه لأول مرة أن يتولى وظيفة.. «كان مقتنعا» بأنه لا يوجد أى أحد «يتمنى فى الواقع أن يمثله شخص له مثل آرائى». وكان يرفض علناً القيام بحملات أو إنفاق الأموال. وقد قطع على نفسه وعداً واحداً: «إذا جرى انتخابه، فلن يكرس أى وقت للمصالح المحلية. وقد صرح كاتب بارز آنذالك: «أن الإله نفسه لن يجد أى فرصة لانتخابه، وهو يؤيد مثل هذا البرنامج». وقرب نهاية «الحملة الانتخابية» حضر ميل اجتماعاً عاماً للعمال، وحمل أحد الخصوم لافتة، مكتوبة عليها عبارة اقتبسها من ميل، يصف فيها بفظاظة الطبقة العاملة الإنجليزية بأنها طبقة من الكذابين. وعلى الرغم من أنها أحسن حالاً من الطبقات العاملة الأجنبية، إلا أن الاقتباس استمر، لأنهم يشعرون بالذنب. والواقع أن أى سياسى آخر كان من شأنه أن يتعرض للتنكيل به عند هذه النقطة. غير أن ميل قال: «لقد سئلت عما إذا كنت قد كتبت ونشرت ذلك وأجبت على الفور: «لقد فعلت». وعندئذ شعر

أنصاره بالذعر وخشوا على حياتهم . ولكن ما كادت تخرج هاتين الكلمتين من فمي حتى دوى تصفيق حاد فى كل أرجاء الاجتماع». لقد وجد العمال أخيرا شخص يمكنهم أن يثقوا به[٣١].

ومات ميــل عام ١٨٧٣ . وعلى الرغم من أنه لم يقاتل فى أى حروب، ونادراً ما رفع صوته أو تحدى أحدا، إلا أنه عاش حياة مناضلة. لقد ناضل المتعصبين للرأى والعقيدة، والنخبة والعقلانيين والاشتراكيين، وتحدى الأفكار التى غرست فى عقله إبان سنوات عمره الأولى. لقد أعرب إدموند بيرك، Edmund Burke ذات يوم عن أسفه لأن «عصر الفروسية قد ولى وانقضى زمنه. وقد حل محلة السوفطائيون والاقتصاديون والحاسبون، لقد خمد مجد أوروبا إلى الأبد»[٣٢]. غير أن الفروسية لاتزال تلهم ميل، ولقد كانت أبرز غزواته ومبارزاته الجسورة لطواحين هواء عقله.

الفصل السادس

الكاهن الغاضب
يسمى كارل ماركس

عندما كان آدم سميث طفلا اختطفه ذات يوم بعض الغجر القساة . وبعد ساعات قليلة من احتجازه كأسير، تركه الغجر على جانب إحدى الطرق، وأعيد إلى عائلته. وقد لاحظ أحد كتاب التراجم الشخصية أن الاقتصادى الشارد الذهن، والساذج لم يكن ليصبح غجرياً جيداً. وقد يمكن للمرء أيضاً أن يقول إنه لأمر طيب أن الرأسماليين لم يختطفوا كارل ماركس، فهو لم يكن ليصبح رأسمالياً جيداً. كما أنه لم يكن استهلاكياً طيباً؛ لأن ماركس كان دائماً يعانى من الديون.

ولقد تنبأ ماركس بانهيار الرأسمالية، مستخدماً فى ذلك كلمات قوية وأسلوباً عنيفاً. ولكنه لم يقدم على ذلك قبل قيامه ببحث عميق فى قوانين الرأسمالية، وفى مجموعة المبادىء، والقوانين الكامنة التى تتحكم فى تطور الحضارة.

والواقع أنه من الصعب تحديد مكانة ماركس فى تاريخ الفكر الاقتصادى. ويقصر الاقتصاديون الذين يعبرون عن الفكر السائد الآن الحديث عن ماركس فى حفلات الكوكتيل البرجوازية. ورغم ذلك.. فإن ملايين الأشخاص قد ناضلوا ليبقوا على قيد الحياة، فى ظل نظم ادعت أنها نظم ماركسية. وإلى جانب فرويد وداروين، Darwin، فإن ماركس كان له تأثير هائل على عقل القرن العشرين. غير

أن ماركس لم يحظ فى حياته سوى بقليل من الشهرة، وقليل من الأتباع. وليس أدل على ذلك من أن جون ستيوارت ميل أكثر الرجال علماً فى عصر ماركس، لم يسمع عنه قط.

وقد تمتع ماركس ببداية برجوازية فى مدينة ترير الألمانية فى راين لاند. وقد ولد عام ١٨١٨ ، واختلط بالطبقات المتوسطة والعليا فى ترير. وأعرب ماركس ـ فيما بعد ـ عن شعوره بالفخر بوالده هنريتش، Heinrich، وكان محامياً بارزاً ويمتلك أيضاً حقلا للعنب. وكانت جينى صديقة طفولة ماركس وزوجته فى المستقبل تعيش على مقربة منه، وقد أصبح والدها البارون فون فستفالين، von Westphalen ، بمثابة عم للشاب ماركس.

وبعد أن مات شقيقه الأكبر وهو فى الرابعة من عمره، ورث ماركس دور الابن الأكبر، وبدأ فى إرهاب شقيقاته الصغيرات والأقل ذكاء، وكانت لعبة مفضلة تتضمن «قيادة» شقيقاته مثل الجياد وبأقصى سرعة خلال شوارع ترير.. وفضلاً عن أحداث لعبة الجياد، فقد أرغم ماركس شقيقاته على دخول مسابقات لتذوق الكعك، والتى يأكلن خلالها الكعك الذى يخبزه من عجينة قذرة وبأيد لم يغسلها. ورغم ذلك.. فإن شقيقات ماركس كن مفتونات به نظراً لذكائه، ولما يقصه عليهن من قصص مسلية. كما كان أقران ماركس فى المدرسة يحبون الفتى ويخشونه فى آن واحد، فقد كان يثير البسمات بمزاحه والخوف بكلماته الساخرة.

وطوال حياته.. كان ماركس يتمتع بالبراعة والميل للنقد القارص، وإساءة استغلال المشاعر والأهواء، وقد ادخر بعضاً من أقسى هجماته الشريرة لليهود. وقد انحدر والدى ماركس من أصول بارزة للحاخامات، وقد عمل عمه كحاخام أكبر لترير. ومع ذلك.. فإن القوانين المعادية للسامية قد أقنعت والد ماركس بالتحول لاعتناق المسيحية، حتى وإن كان يتحدث عن اليهود باعتبارهم «الرفاق فى العقيدة» . ورغم ذلك.. فإن ابنه رفض أسلافه اليهود بأقصى سعادة مشاكسة. وقد

يتناقش الدارسون عما إذا كان معادياً للسامية بالفعل أم لا، ولكن مما لاشك فيه أن كارل ماركس قد تفوه بإهانات حادة [1].

ومثلما فعل جون ستيوارت ميل.. مزج ماركس جرعات الشراب السحرى للعقلانية والرومانسية. وقد قدم والده العقلانية الفرنسية للقرن الثامن عشر، وقد أنضجتها التجريبية البريطانية، ونصح ابنه أن «يخضع» لإيمان نيوتن ولوك، Locke وليبنتز Leibnitz»[2]. وفى الوقت ذاته خلد البارون فون فستفالين الرفيع الثقافة الشاب ماركس عندما كانا يتجولان معاً فى الغابات ويقص عليه قصص شكسبير، Shakespeare، وهومر، Homer، والرومانسيين. ومما يبعث على السخرية، أن البارون الارستقراطى هو الذى قدم ماركس - لأول مرة - إلى الاشتراكية الطوباوية اللاطبقية. والواقع أنه بدون تأثير العقل الحصيف و الحاد لوالده.. فقد كان من الممكن أن يؤمن ماركس بأفكار الطوباويين الحزينة والغامضة، ولكن حيثما كانوا يرون كان يرى النضال.

وفى جامعة بون، كان النضال الأعظم الذى واجهه ماركس، يتمثل فى رغبته فى احتساء الخمر وإنفاق أموال والده. وقد خسر النضال، وخسر والده قدراً كبيراً من المال. وقد درس ماركس القانون، واكتسب خبرة قانونية عملية عندما سجن بسبب سكره البين. ولما كان لدى الجامعة مستودع للخمر.. فإن السجن لم يكن قاسياً؛ فرواده يمكنهم أن يلعبوا أوراق الحظ «الكوتشينة»، وأن يستمروا فى احتساء الخمر مع الرجل المدان، وقد أثبتت المغامرة الطائشة جدواها. فقد أدى الانتصار السياسى الأول لماركس إلى أن يصبح رئيساً لجمعية حانة ترير.

و بعد عام من حفلات بون.. نقل هنريتش ابنه إلى جامعة برلين، وهى مكان أكثر رصانة على نحو ما كان يأمل. غير أن هنريتش سرعان ما فقد الأمل، فقد كان يقول عن ابنه: «كما لو أننا كنا مصنوعين من ذهب، ذلك أن ابنى الشاب ينفق ٧٠٠ قطعة فضية من النقد فى العام الواحد، منتهكاً بذلك كل اتفاق، وكل

استخدام، في حين أن الشخص الأغنى لا ينفق أكثر من ٥٠٠ قطعة فضية»[٣]. ولذلك رفع الدائنون دعاوى قضائية ضد كارل عدة مرات، واضطروه إلى تغيير محل إقامته عشر مرات، على الأقل خلال السنوات الخمس التي قضاها في برلين.

لقد كان هنريتش يشتكي مما هو أكثر من التبذير والإسراف؛ إذ كان كارل جلفا، وراعياً للرعاع، وطالباً جامعياً أشعث ورث الثياب. وقد أكسبته بشرته ذات اللون الداكن لقب «المغربي»، وهو لقب استخدمه فيما بعد أطفاله وأصدقائه بود وحب. وكان يبدو بلون جلده الداكن وشعره الطويل كأنه اعتذار فظ عن الطالب.

وقد اعترض هنريتش كذلك على التواء الدراسة الأكاديمية لكارل من خلال الفلسفة والقانون. وإذا كان كارل يتساءل.. فمن المؤكد أنه كان يفعل ذاك خارج قاعة الدراسة ـ وخلال سنواته القليلة الأخيرة تلقى مناهج دراسية قليلة فقط، وأصبح طالباً «بوهيمياً»، ينظر إلى الجامعة باعتبارها أساساً لنشاطه. وتعلم ماركس الفلسفة بطريقته الخاصة، وانضم إلى الهيجليين الشبان، وهم النقاد الراديكاليون للدين من اتباع ج. و. ف هيجل، G.W.F Hegel، الفليسوف الألماني الذى مات قبل سنوات قليلة من بدء التحاق ماركس بالجامعة. وتبنى ماركس ببراعة المنهاج الهيجلي، وأثبت للعالم أن ترك الفصول الدراسية يفيد في بعض الأحيان (وإن كان لا يفيد ماليا).

ومن سوء الحظ، أنه لم يكن في وسع ماركس قط أن يثبت ذلك لوالده، الذى مات عام ١٨٣٨. وكان ماركس يكن حباً قوياً له، وكان يحمل دائماً صورته معه. وبهذه المناسبة.. فإن ماركس لم يظهر مثل هذا الحب لوالدته، فقد كان يرى أنها مجرد مصدر شحيح للمال، ولم يحضر جنازتها، ولم يذرف دمعة عليها عندما ماتت.

وبعد موت والده، فكر ماركس في أنه من الفطنة أن ينهى دراساته، فقد تملكته رغبة مفاجئة في ترك الأكاديمية، ورفض أن يخضع بحثه عن الفلسفة

اليونانية لإجراءات برلين الصارمة. وبدلاً من ذلك، أرسله إلى جامعة جيينا Jena، حيث تمنح دبلوماً متميزاً بالمراسلة، حيث كان منهج الدراسة بالمراسلة يستغرق ستة أسابيع. غير أن جيينا فى غضون أيام قلائل منحت ماركس درجة الدكتوراه.

الصحفى الشاب:

ومسلحاً بشهادة جامعية فى يده.. عرج ماركس للعمل فى الصحافة ، حيث كتب ثم حرر صحيفة Rheinische Zeitung، وهى صحيفة ليبرالية تعبر عن الطبقة المتوسطة. ومن دواعى السخرية ، أنه كان يشمخ بأنفه على كتابها الأكثر راديكالية، الذين كانوا ينزعون نحو الشيوعية. وقد فرضت حكومة بروسيا القمعية الرقابة بجدية على النقد، وكان ماركس يتعامل - فى كثير من الأحيان - مع موظفين أغبياء تقريباً. وقد منع أحد الرقباء نشر إعلان عن ترجمة الكوميديا الإلهية لدانتى. لماذا؟ لأنه فى بروسيا لا ينبغى السخرية من الموضوعات الإلهية من خلال الكوميديا.

وقد ترك لنا أحد المراقبين لسلوك ماركس فى الجريدة، صورة للمحرر الشاب على هذا النحو:

كان كارل ماركس القادم من تريير رجلاً قوياً فى الرابعة والعشرين من عمره، وكان شعره الأسود يظهر من وجنتيه وذراعيه وأنفه وأذنيه. وكان مسيطراً، ومندفعاً وجياشاً بالعاطفة، وتحدوه ثقة بالنفس لا حدود لها. بيد أنه كان فى ذات الوقت جاد كل الجد وواسع الاطلاع، وجدلياً يتسم بالقلق، يدفع بذهنه الثاقب اليهودى القلق، كل افتراض للعقيدة الهيجلية الشابة إلى نتيجته النهائية. وكان يستعد بفضل تركيزه على دراسة علم الاقتصاد للتحول إلى الشيوعية، وفى ظل قيادة ماركس.. بدأت الصحيفة الشابة تتحدث على نحو متهور جداً[٥].

وردت الحكومة على تهور ماركس بطرح خيارين أمامه: إما أن تغلق الصحيفة أبوابها، وإما أن يخرج منها ماركس، ولذلك استقال ماركس.

لقد خسر وظيفة، ولكنه فى ذات الوقت كسب زوجة هى جينى فون فستفالين، Jenny von Westphalen. لقد ظن أقاربها أن ابنة الرجل النبيل قد تزوجت ممن هو دونها، ولكن لم يخطر ببالهم إلى أى مدى ستنحدر.

وفى عام ١٨٤٣ انتقل ماركس إلى باريس؛ حيث اشترك فى تحرير مجلة سياسية جديدة. وبدأ يغازل الشيوعية، ويختلط بشبان راديكاليين متغطرسين، وصفهم هنرييتش هين،Heinrich Heine، بأنهم حشد من الملحدين ممن نصبوا أنفسهم آلهة»(٦). وصدر من المجلة عدد واحد، اختلف بعده ماركس وأصدقاؤه الجدد من الشيوعيين مع أحد رؤساء التحرير، وهو أرنولد روجيه، Arnold Ruge. وقد كان روجيه يحتقر هؤلاء الملحدين: «إنهم يرغبون فى تحرير الشعب... ولكنهم يبدون فى الوقت الحاضر أقصى اهتمام للممتلكات وخاصة للمال... ولتحرير البروليتاريا ثقافياً ومادياً من وطأة تعاستها.. فإنهم يحلمون بإقامة تنظيم لتعميم هذه التعاسة، وأن يتحمل كل الناس وطأتها»(٧).

والواقع أن واحداً من هذا الحشد وهو فريدريك إنجلز،Friedrich Engels، سيشكل جانباً مهماً من حياة ماركس ومعيشته، وكان إنجلز ـ وهو ابن صاحب مصنع ثرى ـ يعيش حياة مزدوجة. فهو يعمل خلال النهار فى مشروعات والده، ويحقق دخلاً طائلاً باعتباره رأسمالياً. أما خلال الليل، فكان يقرأ مؤلفات هيجل والأدبيات الشيوعية. وعلى الرغم من أن إنجلز ألمانى الجنسية، إلا أنه عاش فى إنجلترا لعدة سنوات، يدير مصنع نسيج عائلته. وبعد أن عاش بعض الوقت فى مانشستر، كتب عرضاً لاذعاً للفقر فى بريطانيا، هو كتابه «أحوال الطبقة العاملة فى إنجلترا فى عام ١٨٤٤» غير أن إنجلز هذا لم يتطوع بمنح مكاسبه الرأسمالية للفقراء، أو أن يتخلى عن عاداته البرجوازية. وفى الواقع.. لم يكن فيما يبدو ممزقاً

نفسياً من جراء حياته المزدوجة، لقد كان بالأحرى يشعر بالارتياح، وهو يمارس رياضة صيد الثعالب، ويحتسى شراب الشيرى، ويمارس لعبة المبارزة. لقد كان بوسعه أن يرفع قدحاً به أجود أنواع الشمبانيا ويشرب برشاقة نخب البروليتاريا. وعندما كان لا يطارد الثعالب، كان يطارد النساء، وكان يعلن عن ذلك بقوله: «لدى دخل يبلغ ٥ آلاف فرنك، لن أفعل شيئاً سوى أن أكمل وأمتع نفسى مع النساء حتى انتهى. فإذا لم تكن توجد نساء فرنسيات.. فإن الحياة لا تستحق أن نحياها». [٨]، وهى تمثل نقلة بعيدة تماماً عن سقراط Socrates، «إن الحياة التى لم تختبر لا تستحق أن نحياها».

وفى الأربعينيات من القرن التاسع عشر بدأ ماركس صياغة المذاهب، التى من شأنها أن تغير العالم. وبالطبع لم يوافق عليها كل شخص، فقد سجلت الحكومة البروسية رأيها فى كتابات ماركس بالإعلان عن أنه مذنب بالخيانة. وعندما رحلته فرنسا من أراضيها بعد عام هرب إلى بروكسل.

ما هى هذه الكتابات الخائنة التى أرغمت ماركس وأسرته على الانتقال من بلد أوروبى إلى آخر؟ خلال الأربعينيات من القرن التاسع عشر، وضع ماركس الأسس الفلسفية والتاريخية لدراسة الماركسية. وماذا أثبتت هذه النظريات؟ أثبتت أن أسس الرأسمالية ستنهار بسرعة، وأن الجماهير سرعان ما تنفجر فى ثورة، ويهزون الملاك حتى يسقطون من عليائهم.

المؤرخ المادى

استخدمت فلسفة ماركس ووجهة نظره تجاه التاريخ مصطلحات هيجل، بيد أنه لم يكن يرددها مثل الببغاء، ذلك أن ماركس ربما يكون قد استخدم ذات الكلمات، ولكنه غيَّر نسقها. وحتى يتسنى فهم كيف فعل ذلك.. دعنا أولاً ندرس المفهوم الأساسى لأستاذه.

لقد علم هيجل أن الفلسفة تهدف إلى معرفة توضيح الأفكار، ويرى أن الأفكار والروح الإنسانية تقـود التاريخ. ذلك أن العالم المادى ـ تلك المادة التى نراها ونلمسها ـ والمؤسسات الموجودة فى المجتمع تتبع طريق الأفكار. وقد وظف عالم الاجتماع الألمانى ماكس فيبر هذا الوضع فى كتابه الشهير «البروتستانت والعمل الأخلاقى وروح الرأسمالية» وقد أدعى فيبر ـ ببساطة ـ أن نشوء البروتستانتية أدى إلى الرأسمالية، وهى عقيدة عن الله تحولت إلى مؤسسات اقتصادية.

وطبقاً لما يرى هيجل.. يمكننا أن نقتفى درب التاريخ عن طريق القوميات السائدة: عصر مصر واليونان وروما.. وهكذا. ونظراً لأن هيجل كان وطنياً.. فقد كان يعتقد أن بروسيا كانت زعيمة عصرها.

وقد رفض ماركس مثالية هيجل. ولأنه اتبع الفليسوف الألمانى لودفيج فيورباخ، Ludwig Feuerbach، فقد نظر ماركس إلى العوامل المادية فـى التاريخ. ذلك أن الله ـ تبعاً لما ورد فى كتاب فيورباخ «جوهر المسيحية» ـ هو ببساطة تصور تمليه الاحتياجات والرغبات والسمات الإنسانية؛ لقد خلق الإنسان الله ولم يخلق الله الإنسان. ذلك أن المادة الحقيقية ـ وهى الإنسان ـ أدت إلى فكرة الألوهية (لقد أدت كتابات فيورباخ بماركس إلى أن يندد فيما بعد بالدين باعتباره «أفيون الشعوب»[٩]. وطالما كان فى وسع الناس أن يسقطوا تطلعاتهم فى الله، فمن الممكن أن يتقبلوا ـ على نحو سلبى ـ الأحوال المادية والمظالم فى العالم الحقيقى).

وهكذا.. يبدو ماركس إلى حد بعيد، كما لو كان من الراسبين من مدرسة التفكير الهيجلى. بيد أن ماركس احتفظ بمفتاح المنهاج الهيجلـى، ألا وهو الجدل «الديالكتيك»؛ لأن هيجل كان يصر على أن التاريخ مثل الواقع، لا يتبع نمطاً متدرجاً سلساً. فالتاريخ يتألف من الصراع بين قوى متعارضة، فكل فكرة تنطوى على نقيضها. ويلخص الفلاسفة عادة ديالكتيك هيجل بقولهم إن كل موضوع أو فكرة تواجهها نقيضها. وتنتج المعركة بين هذه الأفكار الفكرة المركبة ـ

وهى موضوع جديد ـ وتواجه الفكرة الجديدة نقيضها. ومن ثم.. فإن العالم فى تغير دائم، فالتاريخ لا يكرر نفسه، على الرغم من أن المؤرخين غير الجادين قد يكررون أنفسهم.

وعليك أن تقارن بين المنهج الديالكتيكى وبين المنهج النيوتونى، نسبة إلى نيوتن فى الاقتصاد، الذى يرى عدم تغير العلاقات بين العلة والمعلول. والشىء الوحيد الثابت فى رؤية هيجل هو التغير.

ويدمج ماركس المنهاج الديالكتيلى فى المادية. وقد أطلق إنجلز ـ فيما بعد على هذا التحالف ـ مصطلح «المادية الجدلية» أو المادية التاريخية، فإذا كانت رأس هيجل فى السحب.. فإن ماركس يريد أن تحك أنوفنا الأرض. وعليك أن تنسى دراسة الدين أو الأخلاق أو القومية... عليك ببساطة أن تنظر من النافذة، وأن ترى كيف يصارع الإنسان للحصول على المقتضيات الضرورية للحياة؛ لأنه لا يوجد تاريخ دون رجال، ولا يوجد رجال دون مواد غذائية... وهكذا.. فإن الفعل التاريخى الأول هو.. إنتاج الوسائل اللازمة لإشباع هذه الاحتياجات[١٠] . أما المؤرخون المثاليون فقد يكتبون تاريخاً.

ويحدد ماركس مجرى التاريخ من العبودية إلى الإقطاعية إلى الرأسمالية إلى الاشتراكية. والطريق لا يوجد فى النجوم أو القوانين، وإنما فى الإنتاج، وعلى نحو أكثر تحديداً، فى علاقة الناس بالإنتاج؛ لأن كل نظام إنتاج يخلق طبقات حاكمة وأخرى محكومة. وتتميز كل حقبة بأسلوب خاص لاستخراج الدخل اللازم للحكام؛ ففى الأزمنة الرومانية.. كان كل من يمتلك عبداً، يمتلك الحق فى المنتج. وفى الأزمنة الاقطاعية.. كان ملاك الأراضى يمتلكون ما ينتجه العبيد. وفى ظل الرأسمالية.. فإن أصحاب المصانع والأراضى يمتلكون ما ينتجه العمال الأجراء؛ لأن بقاء طبقة السادة يعتمد على عمل طبقة الخدم. هل يعطى هذا للعمال قوة كبيرة للمساومة؟ لا.. وإنما يتعين على العمال أن يتعاونوا مع الطبقة الحاكمة

فليس في وسع العمال أن يأخذوا آلاتهم، ويذهبوا إلى منازلهم؛ فهم لا يملكون هذه الأدوات.

وهكذا.. ينشأ الاعتماد المتبادل. ورغم ذلك.. فإن المالكين يحاولون أن يظهروا على أنهم لايحتاجون العمال بقدر احتياج العمال لهم، وإذا نجحوا في ذلك، فإنهم يمدون نطاق سيطرتهم.

كيف يحاول الملاك ضمان أوضاعهم؟ هاهنا يبدو اهتمام هيجل بالأخلاق والقومية والأفكار؛ لأن الطبقة الحاكمة تطور العقائد والقوانين والثقافة والدين والفضيلة والوطنية، بما يدعم العملية الإنتاجية، فالعامل الوطني يشعر بالابتهاج، وهو يعمل ولا يحتال على مالك أدوات الإنتاج بأخذ فترات توقف عن العمل لتناول القهوة. ويفضل أصحاب مصانع السيارات والجعة في الوقت الراهن، الربط بين «أمريكا» «ويوم العمل الجيد الصادق»؛ فقد تفجر «الحلم الامريكي» في غابة من الأشياء المختلطة، مثل: لعبة البيسبول، والسجق، وفطائر التفاح، والسيارات الشيفروليه. لقد حلت الأخيرة بالفعل محل الأم (هل يتضمن حلم أوديب الأمريكي، تلهفاً إلى سيارة الأب؟).

تعلمنا أخلاقياتنا ونظامنا القانوني، الشعور بالذنب، إذا تهربنا من أداء عملنا. فلماذا يحق لأصحاب الملكية الحصول على الأرباح الناجمة عن عرقنا؟ وتكون إجابتنا لأنهم يملكون حق الملكية، ولكن ماركس يتساءل لماذا يتحين علينا أن نقبل النظام القانوني؟

وطبقاً لماركس، فإن الحكام الذين يملكون حصة في نظام الملكية الخاصة، يسوقون الجماهير مغناطيسياً بقوة الإيحاء والإقناع، دفعت بالأمريكيين إلى حلم الأسهم والسندات، وكذلك سيارة بي إم دبليو. ويعتقد الأفراد ـ وبالطبع ـ أن هذه أحلامهم، ويضفون الذاتية على الإيحاءات، وقد أطلق ماركس مصطلح البناء الفوقي على الأفكار والقوانين والثقافة.

وقد اتضح الفكر الأساسى لماركس فى التمهيد لبحثه حول «نقد الاقتصاد السياسى» ؛ لأن أسلوب الإنتاج للحياة المادية، هو الذى يحدد الحياة الاجتماعية، والسياسية والفكرية... فليست ضمائر الرجال هى التى تحدد حياتهم، ولكن على النقيض من ذلك.. فإن حياتهم الاجتماعية هى التى تحدد ضمائرهم »(١١).

فالعبد ينحنى ويظهر ولاءه للسيد، ويخدم الحرفى صاحب الحرفة بافتخار، والعامل بالأجر يكافح ببذل مجهود أكبر من أجل الترقى. كل هؤلاء يكدحون تطلعاً إلى حياة أفضل فى ظل النظام المتحكم.

ولم يبرهن ماركس على أن الطبقة الحاكمة تآمرت عن وعى؛ من أجل إقامة البناء الفوقى؛ فقد يكون الملاك مؤمنين حقيقة بديانتهم، ولاينظرون إليها باعتبارها ذريعة. وقد انبثق البناء الفوقى لانحراف العملية الإنتاجية وصياغتها عن إدراك الأفراد. وطبقاً لما قاله ماركس «إن الرجال يصنعون تاريخهم، ولكنهم لا يصنعونه على نحو مايحبون، إنهم لا يصنعونه فى ظل ظروف من واقع اختيارهم، ولكن فى ظل ظروف ذات طبيعة تصادمية بصورة مباشرة، فهى ظروف معطاة ومنقولة من الماضى، حيث تكمن الأعراف الخاصة بالأجيال الماضية مثل الكابوس فى عقل الأجيال الحالية (١٢)» . (وقد سلم إنجلز بعد ذلك ، بأنه قد بالغ هو وماركس ـ فى بعض الأحيان ـ فى التركيز على السببية بين الإنتاج والبناء الفوقى، فالأفكار تكون لها أحياناً نتائج حقيقية) .

إذا كانت روح الجماعة والثقافة تنشأ تلقائياً لدعم النظام الطبقى بصورة تلقائية ، فلماذا أعلن ماركس فى الديباجة الهجومية «للبيان الشيوعى» أن «تاريخ كافة المجتمعات القائمة حتى الآن، هو تاريخ الصراع الطبقى؟»(١٣) . لماذا يتعين على فرد ما أن يناضل؟ وكيف يعرف أى فرد ـ بالدرجة الأولى ـ أن عليه أن يناضل؟ إن الملاك يعتصرون العمال ببساطة، والعمال يقبلون ذلك برضا يشابه Moonie المنومة مغناطيسياً التى تتخلى عن امتيازاتها فى مطار جوى. فطالما يحصل Moonie أو

العامل على أرباح رمزية.. فإن عجلة الاقتصاد تدور، وتتدفق الأرباح إلى الحسابات المصرفية للملاك.

ويقع العصيان عندما تتغير تكنولوجيا العملية الإنتاجية باستخدام تكنولوجيا أو منهج جديد، يؤديان إلى تغير كمية ونوعية عناصر الإنتاج من أرض أو عمل ، أو رأس مال، من خلال الاكتشاف والاختراع والتعليم والزيادة السكانية، حيث إن القوى المادية للإنتاج ذات طبيعة ديناميكية. وتصبح العملية الإنتاجية القديمة عديمة القيمة فى ظل المزج الجديد للقوى المادية. فعلى سبيل المثال.. قد يكون نظام العبودية مربحاً، عندما يكون معامل الأرض إلى العامل، مرتفعاً. ولكن إذا عملت الجرارات وآلات الحصاد بكفاءة تتجاوز العبيد، أو إذا تزايد عدد السكان من العمال، فإن نظام العبودية يكون أقل ربحية، ويكون المستقبل لصالح العملية الإنتاجية الجديدة.

ومع ذلك.. علينا ألا ننسى أن كافة أوجه النظام السياسى والأخلاقي، والقانونى تستند إلى المنهج القديم. فالكهنة يبشرون بأن عبودية الأرض «القنانة» ترجع إلى مملكة الرب، وهذه حقيقة أبدية فى العقل، وعلى أحجار كاتدرائية القرون الوسطى. وبذلك يظهر «البناء الفوقى» ذو طبيعة استاتيكية.

ويقع الصدام عندما تحجز الطبقة الحاكمة القديمة نفسها عن المسار الديناميكى للتاريخ من خلال التشبث بالأفكار القديمة، وإعاقة التطورات الاقتصادية الجديدة. وقد كتب ماركس موضحاً أن المطحنة اليدوية هى التى أنجبت السيد الإقطاعى. بينما المطحنة التى تعمل بالبخار هى التى أعلنت الرأسمالية الصناعية. ولكن السيد الإقطاعى قاتل خليفته الصناعى، وتشاجر بعد ذلك رئيس النقابة مع مالك المصنع. عليك أن تنسى حكايات سير لانسلو وجالاهاد Lancelot and Galahad، فقد كان الصراع الحقيقى والتصادم الحاد بين السادة الاقطاعيين والقوى التجارية، وليس بين الفرسان.

وقد كانت الطبقة المسيطرة تواجه الخطر ـ دائماً ـ عندما يحدث تحول فى عوامل الإنتاج من أرض أو عمل أو رأسمال أو تكنولوجيا. وقد تهوى هذه الطبقة من سقف البيت الواهى، وهى تصرخ بالحقائق الأبدية لفلسفتهم، إلا أن التاريخ يعيد خلط الأوراق، فيضرب عنق ذلك الذى يمسك بتلابيب المالك.

وثمة قصة قد تفيد فى هذا المجال، حدث فى سالف الزمان أن تلقى أحد السادة الإقطاعيين الأتقياء، تحذيراً من وقوع فيضان، فاندفع السيد إلى كاتدرائيته يصلى لربه طالباً النجاة. وعندما وصلت المياه إلى درجات المبنى المقدس، جدف أحد «العبيد» بقارب صغير تجاه الدرجات، وطلب من السيد الركوب. إلا أن الأخير رفض شاكراً، وهو يردد: «أنا أؤمن بالرب والعدالة. إن الرب سينقذنى». ومع ارتفاع المياه، صعد السيد إلى منبر الوعظ. وإزاء ارتطام المياه بالمقاعد الخشبية اندفع تجاهه ـ هذه المرة ـ زورق المحرك، وصاح سائقه «سوف أنقذك. أقفز معى» إلا أن السيد النبيل رفض مرة أخرى، طالباً من السائق ألا يقلق بشأنه فهو يؤمن بالرب، وهو سينقذه، كما أنه ليس بحاجة إلى الماكينات ذات الضجيج. وأخيراً غمرت المياه الكاتدرائية. وبينما كان السيد متشبثاً بالقمة الأخيرة لأعلى ذروة فى المبنى، وجسده تتلاطمه الأمواج. حلقت فوقه طائرة هليكوبتر، وصرخ فيه قائدها: «من فضلك أمسك هذا السلم»، ومرة أخرى أجاب السيد: «لا تقلق، أنا أؤمن بالرب وسوف ينقذنى» وبعد دقائق ارتفعت المياه أكثر وغرق السيد..

وعندما صعد إلى السماء وواجه الرب ـ فهو سيد طيب ـ تساءل قائلاً: «أيها الرب.. لقد آمنت بك طيلة حياتى، واتبعت كل القصص الأخلاقية التى كان يرويها القسيس، وعندما شك الآخرون وتحولوا إلى الآلات، كنت أؤمن بأنك سوف تنقذنى، ولكنك تركتنى أغرق».

إلا أن الرب قاطعه متسائلاً عمن يظن من أرسل إليه القارب، الزروق والطائرة الهليكوبتر؟ إذاً.. من لا يساير تدفق المادية التاريخية، يغرق فيها، وقد وصف ماركس الوضع كما يلى:

«فى مرحلة معينة من التطور تتصادم القوى المادية للإنتاج، مع العلاقات القائمة فى مجتمع ما... وتتحول هذه العلاقات إلى قيود عليها. وهنا تأتى فترة الثورة الاجتماعية، فمع تغير المؤسسة الاقتصادية، يتحول البناء الفوقى الهائل بأكمله، بسرعة تتجاوزها أو تقل عنها. وإذا أخذنا فى الاعتبار هذه التحولات.. يتعين أن نميز دائماً بين التحول المادى للظروف الاقتصادية للإنتاج التى يمكن أن تحدد بدقة العلوم الطبيعية، وبين التحولات القانونية، والسياسية، والعقائدية، والجمالية والفلسفية. وباختصار.. الأشكال الأيدولوجية التى يدرك من خلالها الرجال بأبعاد هذا الصدام والقتال من أجله» (١٤).

وحيث إن الرأسمالية تستند إلى النظام الطبقى.. فإن الثورة وتحقيق النصر للطبقة العاملة يعد أمراً حتمياً. وقد جاءت رائعة ماركس «رأس المال»، Capital، تبين أن هناك اتجاهات تعمل بضرورة ملحة تجاه نتائج حتمية؛ فوجود مجتمع دون طبقات، هو الذى يمكنه ـ فقط ـ من تجنب حدوث الثورة. وطبقاً لمنظور ماركس.. فإن مجتمعاً دون طبقات هو الذى سينجح فى النهاية، وأخيراً.. يمكن أن يباد الرأسماليون الفاسدون، وأن يتحرر العمال بعد قرون من السرقة.

إذا كان من الضرورى انهيار الرأسمالية نتيجة «لضرورة حتمية» وتحولها إلى الاشتراكية. ألم ينهار الاقطاع لصالح الرأسمالية؟ ألم تكن الرأسمالية، وقفة ضرورية فى الطريق إلى الشيوعية؟ إذا كان الوضع كذلك.. فإن الأمر لا يعد مذبحة بلا مبرر، أو ضربة سيئة الحظ جداً، توجه إلى الجنس البشرى، كما تصور ذلك عديد من الاشتراكيين الطوباويين. لقد رفض ماركس من جانب أصحاب النزعة الرومانسية غير العلميين، الذين صوروا الرأسمالية باعتبارها حادثاً شريراً خطط له رجال أشرار. فالحقيقة تشير إلى أن ماركس نظم بعض الأشعار الأكثر بلاغة فى الرأسمالية، حيث إن وجهة النظر هذه تنصرف إلى أن الرأسمالية حررت المرء من أوضاع أكثر سوءاً. فلم يكن لدى البيان الشيوعى وقت لإهداره مع تجار العقول المشوشة التى تحن إلى الماضى:

«لقد جذبت البرجوازية ـ من خلال التحسن السريع لجميع أدوات الإنتاج والتسهيلات الهائلة لوسائل الاتصال ـ جميع الأمم إلى التمدن، حتى تلك الأمم الأكثر همجية. فقد كانت الأسعار الرخيصة لسلعها، هى المدفعية الثقيلة التى استطاعت أن تسقط بها جميع أسوار الصين، وأن تجبر الأمم غير المتحضرة ـ التى تحمل مشاعر الكراهية العنيفة والعنيدة تجاه الأجانب ـ على الاستسلام... لقد خلقت البرجوازية ـ خلال حكمها الذى دام مائة عام نادرة ـ قوى إنتاجية أكثر انتشاراً أو ضخامة، مما أوجدته كل الأجيال السابقة لها مجتمعة [١٦]».

قد يكون ماركس قد انتقد البرجوازية، إلا أنه أدخر أكثر هجماته خطورة ضد رفاقه الاشتراكيين الذين انحرفوا عن رؤيته. فلم يكن ضمن صداقاته بناء فى مجال التحالف، بل كان ثعباناً ملتوياً، وقد كره ماركس الحزب الأخضر. وكان يحلم بأن يختنق أعضاءه فى كروم العنب التى فتنوا بها، وقد كتب يقول: «إن الرأسمالية أنقذت جزءاً يعتد به من السكان من بلاهة الحياة الريفية»[١٧]. وكان له أن يحيل أنصار «العودة إلى الطبيعة» إلى كتبهم فى التاريخ ليتعلموا كيف كانت الأوضاع رهيبة، فى فترة ما قبل الحياة الصناعى. وقد رد ماركس بصورة لاذعة على كتاب بيير برودون Pierre Proudhon، «فلسفة الفقر» The Philosophy of Poverty، بكتابه «فقر الفلسفة» The Poverty of Philosophy، مشيراً إلى أن الأذكياء لا يحاولون «محو» أو «استدعاء» مراحل التاريخ ويعيدونها إلى الرب لإصلاحها فى مصنعه الصغير.

تعد الرأسمالية شرطاً ضرورياً سابقاً لقيام الاشتراكية؛ فحيث إن الرأسمالية تتميز بالإنتاج الضخم، فإنها تسمح بقيام نظام أقل اندفاعاً وهو الاشتراكية. والأمم التى تعيش مرحلة ما قبل الرأسمالية، لا يوجد بها من الأعمال ما تتطلع إلى قيام ثورة شيوعية للإطاحة بسادة الإقطاع والقياصرة. لم يكن ماركس يتطلع إلى روسيا، ولم يكن يتوقع أن تتحقق الشيوعية بسرعة، حتى فى ألمانيا. وطالما أن نسبة لا تتجاوز

أربعة فى المائة فقط من القوة العاملة من الذكور، كانت تعمل فى المصانع فى ذلك الوقت.. ستتفجر الأغلال تحطماً فى إنجلترا وفرنسا بداية، فهما معقل الرأسمالية المتقدمة، وسوف تعطى فرنسا الإشارة، بأن ألمانيا قد أينعت لقيام الشيوعية «عندما تتحقق كل الظروف الداخلية.. فإن الإعلان عن البعث الألمانى سيكون بمثابة صيحة يطلقها ديك فرنسى»(١٨).

رأس المال وانهيار الرأسمالية

لم يكتف ماركس بعدم انتظاره لصيحة الديك، وبدلاً من ذلك كتب بغطرسة تحليله النهائى للرأسمالية «رأس مال». لقد دفن ماركس نفسه خلال عام ١٨٥٠، وسط أطنان من كتب الاقتصاد فى المتحف البريطانى بلندن. وقد كانت عائلته تموت جوعاً، بينما يحلل المعاناة المطلقة للبروليتاريا. لقد عاشت عائلة ماركس فى شقة قذرة فى أحد الأحياء الفقيرة بلندن، وقدم مخبر سرى متتبع لماركس صورة حية أكثر من عادية، للقذارة التى تحملتها أسرته:

عندما يدخل المرء إلى حجرة ماركس، فإن عينيه تغشيان من دخان الفحم والتبغ، ويتحسس طريقه فى اللحظة الأولى كأنه فى كهف... كل شىء ينضح بالقذارة، والتراب يغطى كل شىء، كما أن عملية الجلوس تعد مخاطرة حقيقية. فهنا مقعد بثلاثة أرجل، وهناك يلعب الأطفال ويعدون الطعام على مقعد، تصادف أنه لازال مكتمل الأجزاء.

وفيما يتعلق بماركس نفسه، فقد وصفه بأنه، «شخص فوضوى ذو طبيعة ساخرة، وغير مضياف ويعيش الحياة الحقيقية للغجر. ونادراً ما كان يستحم أو يقوم بتغيير ملابسه الداخلية وكثيراً ما يفقد وعيه نتيجة الخمر بسرعة، وغالباً ما كان يتسكع طيلة اليوم. ولكن إذا كان لديه عمل يؤديه.. فإنه يعمل ليل نهار دون كلل. وكانت زوجته جينى ـ وعلى الرغم من نشأتها نشأة ارستقراطية ـ تشعر برضاء فى منزل يتصف بهذا البؤس».(١٩)

وقد فقدت أسرة ماركس ثلاثة أبناء خلال خمسة أعوام بائسة فى لندن، نتيجة إصابتهم بالالتهاب الشعبى والدرن، ومرض الصدر. والأمر الأكثر ترويعاً أن رجال دفن الموتى كانوا يرفضون دفنهم مع سداد التكاليف آجلا؛ مما دفع «جينى» ـ مع شعور بالإكتئاب ـ إلى أن تقترض جنيهين إسترلينيين لتدفع تكاليف دفن طفلها. وعلى الرغم من أن ماركس كان يبدو كريها للغرباء، إلا أن أطفاله أظهروا الجانب الإنسانى فى شخصيته فقد انسحق حزناً لموتهم».

«يقول بيكون، إن لدى الأفراد المهمين ـ فى الحقيقة ـ عديداً من العلاقات بالطبيعة والعالم، ومن ثم عديداً من الأهداف والمصالح، التى تمكنهم من تجاوز أية خسارة بسهولة. أنا لا أنتمى إلى هؤلاء الأفراد المهمين، فموت طفلى أدى إلى تحطيم قلبى وعقلى بشدة. وأشعر بفقدانه بذات القوة التى كنت أشعر بها فى اليوم الأول لفقدانه»[٢٠] .

وبالطبع.. فقد ألقى ماركس على البرجوازية تبعة حالته، وتعمد بأن يجعلها تدفع ثمن الفواجع التى تعرضت لها أسرته، واعتلال صحته، بما فى ذلك تقيحاته الجلدية.

وعلى الرغم من أنه كان يجب عليه أن يلوم نفسه، إلا أنه نادرا مافعل ذلك. لقد كان يتسم بشعور طفولى فيما يتعلق باقتصاديات المنزل. وقد وصف الطفل ـ من قبل شخصاً ما ـ بأنه عبارة عن قناة تملك صوتاً مرتفعاً فى أحد الأطراف، وعدم تحمل المسئولية فى الطرف الآخر. وإذا أمكن لأحد أن يحصى الهدايا التى حصلت عليها أسرة ماركس: من عائلة زوجته جينى، ومن إنجلز، وكذلك عائد مقالاته التى نشرت فى صحيفة نيويورك ديلى تريبيون، لوجد أنهم تحصلوا على مبلغ ملائم من المال، بالنسبة لأسرة محدودة الدخل من الطبقة الوسطى. كما أنهم استمتعوا خلال سنوات حياتهم الأشد فقراً، بمستوى دخل يعادل ثلاثة أمثال دخل عامل غير ماهر . وقد سوى أحد الشعراء الألمان الراديكاليين ـ والذى أبعد

بدوره عن وطنه ـ أن «دخله المماثل لدخل ماركس، كان يتيح له دائما، شراء شريحة من اللحم البقرى الشهى»(٢١).

وبدلا من إطعام أسرته بانتظام.. كان ماركس يستهلك أمواله فى الصحف السياسية، وإعطاء أطفاله دروساً فى الموسيقى والبيانو والرقص! كما أن «جينى» ـ وعلى الرغم من كونها زوجة لثائر ـ إلا أنها استمرت فى طبع أوراق الكتابة الأنيقة، مطلقة على نفسها اسم «البارونة فون فستفالين».

وحتى تتعقد مشاكله، فقد أقام ماركس علاقة غير شرعية مع الخادمة التى قدمها إليهم فون فستفالين، إلا أنه نفى مسئوليته مرة أخرى، وأخبر جينى بأن إنجلز هو والد الجنين. وقد غادرتهم الخادمة لفترة، وعادت تحمل طفلاً داكن البشرة، وتبنته أسرته، فيما بعد.

وفى ظل هذه الحياة المنزلية، فإنه ليس من قبيل المفاجأة أن يقضى ماركس وقتاً فى المتحف البريطانى، يتجاوز الوقت الذى قضاه فى منزله، خلال عامى ١٨٥٠ و١٨٥١ . وقد قرأ تقريباً كل ما وقعت عليه يداه فى الاقتصاد، وأمضى الشهور وهو يملأ المذكرات من كتابات أكثر من ثمانين كاتب. وقد حاول إنجلز حثه على الإسراع، إلا أن ماركس ظل على بطئه المؤلم وإيقاعه الرتيب، كما واجهت ماركس أياماً عصيبة فى البحث عن ناشر، قادر على الموافقة على «حجم القطع»، الذى اقترحه لكتاب رأس المال. وقد وجه إنجلز لومه إلى الشيوعى العنيد، مطالباً إياه «بإظهار قليل من الحس التجارى هذه المرة»(٢٢).

ولوصف كتاب رأس المال «فإنه يعين على المرء، كما يحدث بالنسبة لموسوعة روجيه اختيار صفحة، وقراءة الأهداف العشوائية بصوت مرتفع، حيث إن الكتاب يتضمن ٢٥٠٠ صفحة، ويستشهد بأكثر من ١٥٠٠ مرجع. وتعد بعض صفحاته روائع أدبية والبعض يومض بالمنطق المشوق، والبعض الآخر مغرق فى التقنية وتافه ومضجر، مما يعيد إلى الأذهان هجوم ترومان كابوت، Truman Capote، على

الكاتب، جاك كيرواك، Jack Kerouac: «هذه ليست بكتابة، إنها مجرد حروف مطبعية».

دعنا نتناول «رأس المال» على ثلاث خطوات، أولا: سنكتشف المفتاح إلى الرأسمالية وفكرة ماركس عن استغلال العمال. وثانيا: البحث في قوانين حركة رأس المال، والتي تؤدى إلى انهياره الحتمى. وثالثا: البحث في التكاليف النفسية للرأسمالية.

لم يأخذ ماركس المسار السهل في تناوله لهذه الخطوات، ولم يشر ببساطة إلى الأنشطة المسيطرة، والإعلان بأن عصر المقاولات والمثالية. وكذلك.. فإن تنافسية آدم سميث، قد انتهت ولابد أن نتذكر أنه من المدرسة الهيجيلية، وأنه يريد أن يبين أنه حتى الشكل المثالى للرأسمالية، لابد وأن يسقط من تلقاء ذاته، وقد بدأ بأدوات كلاسيكية.

ويبرهن ماركس ـ على غرار سميث وريكاردو، ولا سيما الأخير ـ على أن قيمة المنتج تتحدد بقيمة العمل اللازم لإنتاجه، وأن الآلات مجرد عمل سابق تم اختزانه في صورة معدنية؛ فقيمة «الستريو»، الذى يستغرق إنتاجه عشر ساعات، تعادل ضعف الذى يستغرق إنتاجه خمس ساعات.

وإذا كان ذلك حقيقيا، فلن تكون هناك أرباح، إلا إذا تم استغلال العمل. ويمكن القول بأنه يمكن الاتفاق على المنطق التالى:

(١) تتحدد قيمة المنتج (السعر) بواسطة كمية العمل المبذول فيه.

(٢) يحصل العمال على القيمة الكاملة لمساهمتهم فى المنتج.

(٣) وترتيباً على ذلك.. فإن قيمة المنتج تعادل التي يحصل عليها العامل.

ولكن ثمن البيع لا يوزع فقط على العاملين، فالمالك يحتفظ لنفسه بجزء من العائد، فى شكل أرباح. والآن علينا أن ننسى اليد الخفية، فهناك فقط اليد الظاهرة

للرأسمالى، التـى تقتطـع جزءاً من العائـد. فمن أين تأتى أربـاح المالـك؟ لابد أن النقطة الثانية التى أشرنا إليها سابقاً لم تكن صحيحة، فالعامل يحصل ـ فى الحقيقة ـ على أقل من القيمة الكاملة لمساهمته، وهناك نوع من استغلال العمال. (وإن كان منتقدو أفكار ماركس يرون أن الخطأ ليس فى المقدمة الثانية، وإنما بالعكس فى المقدمة الأولى لفروض ماركس الثلاثة المشار إليها، فالقيمة لاتتوقف فقط على العمل).

وباستخدام مصطلحات ماركس.. فقد صور الرأسماليون على أنهم يقدمون المصانع والمعدات، التى يطلق عليها رأس المال الثابت. كما أنهم يدفعون مقابل العمل، والذى يطلق عليه رأس المال المتغير. وعندما تتم العملية الإنتاجية.. لابد أن يتأكد الرأسمالى، من أن قيمة المنتج النهائى تتجاوز مجموع رأس المال الثابت، والمتغير. وتأتى القيمة الإضافية (الربح) نتيجة إعطاء العمال أجوراً تقل عن قيمة إنتاجهم. وبعبارة أخرى.. فإن القيمة التى أضافها العمال إلى المنتج، تتجاوز رأس المال المتغير، الذى حصلوا عليه، ويسمى ماركس هذه الغنيمة المغتصبة من العمال، بأنها «فائض القيمة».

فعلى سبيل المثال.. تعمل ياسمين فى وظيفة حياكة (خياطة) فى أحد العروض الموسيقية، وحيث إن المشاهدين لا يحبون عادة الأزياء المهترأة.. فقد أدت حياكتها إلى زيادة قيمة العمل، بمقدار عشرة دولارات، إلا أنها لم تحصل إلا على ستة دولارات. وهذا يعنى أن رؤساءها استقطعوا أربعة دولارات من ياسمين، عن كل يوم عرض. ومن ثم يكون معامل فائض القيمة إلى الأجر (٤ إلى ٦)، هو معامل الاستغلال.

ولكن لماذا لم تطالب ياسمين بعشرة دولارات وتحصل على قيمتها المستحقة كاملة؟ الإجابة تكمن فى أن الرأسمالية تؤدى إلى البطالة، وهذا يعنى وجود «جيش احتياطى» على استعداد لأخذ مكان ياسمين، إذا طلبت مزيداً من النقود،

فهى لا تملك ماكينة الحياكة أو الأزياء، أوالمسرح، ولكن رؤساءها يملكون، ومن ثم.. فإنهم يتحكمون فى سوق العمل، بسيطرتهم على وسائل الإنتاج.

كيف حدد الرؤساء أجر ياسمين بستة دولارات؟ يحتاج الرؤساء إلى إعطاء العمال، ما يكفى لإبقائهم علي قيد الحياة، وقد تم حصول ياسمين على مبلغ الستة دولارات، لأنه المبلغ الكافى لإبقائها حية، فهى تحصل على «أجر الكفاف». فإذا حصلت على دولار مقابل كل ساعة عمل.. فإن العمل لمدة ست ساعات، يوفر لها البقاء. إلا أن الرؤساء لن يدعوها تتوقف بعد ست ساعات، بل سيجبروها على العمل ساعات أطول، وإصلاح المزيـد من الأزياء الممزقة. ثم توزيع قيمة أجرها ـ أى الستة دولارات ـ على عشر ساعات، على سبيل المثال. ومن ثم.. فإن ياسمين تعمل لمدة ست ساعات للبقاء على قيد الحياة، وأربع ساعات أخرى، لصالح الرؤساء. وهذا الفائض فى قيمة العمل، يذهب إلى جيوب الرؤساء مباشرة.

ولكن لماذا يحصل العمال على أجر الكفاف فقط؟ لقد أوضحنا مسبقا، أن قيمة السلعة، تتحدد بكمية العمل المبذول فيها، وعرض «العمل» يعد سلعة، أيضا. وعلى ذلك.. فإن سعر «العمل» يتحدد بكمية المال المطلوبة للإنتاج والمحافظة على بقاء الإنسان: وهو حد الكفاف.

وبصفة عامة.. لا يعطى الرؤساء أجورا للعمال، تكفيهم لشراء ما أنتجوه، فالعمال يناضلون من أجل شريحة لا غير. وفى مثالنا هذا.. سنجد أن ياسمين، لاتستطيع دفع عشرة دولارات ثمناً لتذكرة العرض، حتى إذا كانت ستضيف قيمة تعادل عشرة دولارات. وقد يسمح لها رؤساؤها بشراء تذكرة للعرض مقابل خمسة دولارات، ولكن فى حالة تعهدها، بمتابعة العارضين من خلال تشابكهم فى الخناصر.

إذا كانت الأرباح تأتى من استغلال العمال.. فإنه يمكننا تحديد معدل الربح، بأنه معامل الفائض إلى مجموع رأس المال المتغير والثابت. {(s/(v+c)}] الفائض

(رأس المال الثابت + رأس المال المتغير)]. ويمكن للرأسمالى أن يعظم الأرباح، إذا اعتصر يوم عمل أطول من العاملين لديه. أو أن يزيد أرباحه عن طريق استغلال العمالة من النساء والأطفال، بالإضافة إلى الرجال. فقد شهدت فترة كتابة ماركس لهذا الكتاب، زيادة عدد ساعات العمل، ودخول مزيد من النساء والأطفال إلى قوة العمل الصناعية.

والآن.. وقد عرفنا أن الأرباح ترتكز على الاستغلال، فلماذا لم تسر الأمور على هذا المنوال؟ وما القوانين الرأسمالية التى أدت ـ أخيرا ـ إلى تحويل العمال عن اليأس، ودفع الرأسماليين إلى الجثو على ركبهم؟ لم يكتف ماركس بالإعلان عن أن الثورة الاجتماعية، سوف تندلع أولاً، وإنما رسم بدقة التناقضات الاقتصادية للرأسمالية. وسوف نتناول خمسة قوانين أو نزعات تشير إلى الغليان الاقتصادى. وبدلا من أن تصفق اليد الخفية للرأسمالية.. فإنها سوف تؤدى إلى سحقها.

١ ـ انخفاض معدلات الأرباح وتراكم رأس المال:

يرى ماركس ـ على غرار آدم سميث ـ أن الرأسمالى يواجه بالمنافسة. فإذا قامت شركة ما، بتوسيع نطاق إنتاجها، فقد تنتج بكفاءة أعلى. وتجبر الشركة المبتكرة، منافسيها على التوسع، عن طريق تشغيل مزيد من العمال. إلا أن ذلك يؤدى إلى رفع الأجور، لتتجاوز حد الكفاف. فماذا يفعل الرؤساء، إزاء ذلك؟ تقوم هذه الطبقة بإحلال الماكينات بدلا من العمال؛ حيث إن عدم لجؤهم إلى ذلك، يعنى انهيار أرباحهم، لأن الأجر المرتفع يؤدى إلى وقف استغلالهم، فتجبرهم المنافسة على عملية الإحلال.

إلا أن هذا التطور ينزلق بهم إلى ورطة، فالفوائض لايمكن اعتصارها إلا من البشر. أما بالنسبة للرأسماليين من بائعى الآلة.. فإنه يمكنهم المطالبة بالقيمة العادلة والكاملة لمنتجاتهم. (فإذا أدى استخدام أسلوب لتحميض الأفلام شديدة الحساسية، إلى زيادة دخل الشركة نتيجة زيادة عدد الصور التى يتم تحميضها فى الساعة) فإن

الجهة المصنعة لهذا التجهيز ستطالب بسعر ملائم. وبإعادة النظر فى صياغة ماركس، لمعدل الربح (الفائض/ رأس المال الثابت + رأس المال المتغير) سنجد أن أرباح الرأسماليين ستنخفض، نتيجة إضافة عنصر الآلات (رأس المال الثابت) (c). والجانب الآخر لورطتهم، يكمن فى حالة رفضهم إدخال الآلات، حيث يعنى كساد منتجاتهم غير التنافسية.

وتطور الإنتاج الرأسمالى، يجعل من الضرورى ـ وبصفة دائمة ـ زيادة كمية رأس المال المستثمر فى مشروع صناعى محدد. كما أن عنصر المنافسة، يؤدى إلى إحساس الرأسمالى الفرد، بالقوانين الجوهرية للإنتاج الرأسمالى، باعتبارها قوانين خارجية إجبارية.

فهى تجبره على الاستمرار فى زيادة رأسماله، من أجل الإبقاء عليه.. التراكم، التراكم؛ هو موسى والأنبياء! ومن ثم.. فإن الادخار، الادخار ـ يعيد تحويل أكبر شريحة ممكنة من فائض القيمة، أو فائض الإنتاج إلى رأس مال[٢٣].

وتتحقق نفس النتيجة، إذا قام رأسمالى بتحسين آلة، فالمالك الذى يبتكر ماكينة حياكة أفضل، يمكنه أن يطالب بسعر أقل مقابل الحصول عليها. وطالما أنه يجب على رؤساء الأعمال الرأسماليين البقاء فى مستوى واحد، مع بعضهم البعض.. فلابد أن يدخر المتنافسون الفوائض المغتصبة من العمل، ويقوموا باستثمارها فى ماكينات الحياكة الجديدة.

ويؤدى جشع الرأسماليين اللانهائى إلى انهيارهم، فالرغبة فى تأجيل الخسارة فى الأرباح، قد تدفع برؤساء الأعمال إلى محاولة استغلال العمال بصورة أكثر حدة. فكيف يحدث ذلك؟ سوف يحاولون الإسراع بخطوات العمل، وإطالة يوم العمل بصورة أكبر، وسوف تؤدى هذه التكتيكات ـ بالطبع ـ إلى مجرد إطالة أمد صبر العمال بصورة أكثر خطورة.

٢ - زيادة تركيز القوة الاقتصادية:

مع تدافع الرأسماليين إلى التوسع والتطوير.. تندلع معركة، يكون النصر فيها للشركات الأكبر، التي تنتج بأسعار أرخص. وتنتهى المعركة الدموية دائماً بإفلاس عديد من صغار الرأسماليين، الذين يذهب جزء من أموالهم إلى أيدى الذين انتصروا عليهم، وجزء آخر تلاشى، «وسرعان ما يقوم الذين نجوا بتقزيم الذين هزموا»(٢٤).

٣ - تعميق الأزمات والكساد:

« ثرثرة طفولية.. هراء.. خداع» تلك هى الكلمات التى استخدمها ماركس، لوصف «قانون ساي» الخاص باستقرار الرأسمالى. فمع لجوء الرأسماليين إلى عملية الإحلال بدلاً من العمل.. ترتفع البطالة. فمن يقوم بشراء السلع عندما يلجأ أصحاب رؤوس الأموال إلى التوسع فى الانتاج؟ لا أحد. ومن ثم تركد السلع وتقفز الإفلاسات، ويتفجر الذعر، ويقوم أصحاب المعاملات المالية بالتخلص من حيازتهم، ويتهاوى الاستثمار ويسقط المستثمرون من عليائهم.

وبعد انخفاض الأسعار.. تعاود الدورة الارتفاع مرة أخرى، ويقوم الذين صمدوا خلال الأزمة السابقة بجمع بقايا الأعمال التى تناثرت من قبل، ويستأجرون العمال الذين سقطوا فى دوامة اليأس، وتعود الفوائض والأرباح للظهور، ولكن لتنهار بصورة أسرع وأبعد مدى فى المرة التالية.

٤ - جيش الاحتياطى الصناعى:

ومن خلال سياسة الإحلال والكساد، يقذف الرأسماليون بمزيد ومزيد من العمال خارج المصانع إلى الطرقات. وبدايةً لا يعد « الجيش» أكثر نضالاً من جيش الخلاص، ويظل مصدراً جيداً للعمالة رخيصة التكلفة، طالما ظل مسالماً، كما أنه يساعد بدايةً على استمرار تحكم الرأسماليين.

٥ - تزايد بؤس البروليتاريا:

مع «التناقص الثابت فى أعداد أقطاب رأس المال، الذين يغتصبون ويحتكرون كل المزايا.. يتزايد حجم البؤس، والقمع، والعبودية، والاستغلال، والتجريد من الممتلكات»[٢٥]. وقد أدت أيام العمل الأطول مع انخفاض العطلات، إلى إلحاق مزيد من البؤس بالعمال المضطهدين. وقد أوضح ماركس فى كتاباته الأولى، أن المستويات المطلقة لمعيشة العمال تنخفض، ولكن ماركس اضطر فى كتابه «رأس المال» إلى التراجع عن آرائه، إزاء الدليل الحاسم بأن أوضاع العمال، أفضل حالاً عما كانت عليه. وأدعى أن العمال يحصلون على نصيب أقل من الثروة مقارناً بذى قبل.

وسوف تسعى البروليتاريا - فى النهاية - إلى إبعاد ورطتها، بعد تعاظم البطالة، وانهيار الأرباح، والبؤس واليأس الذى يتجاوز قدرات البشر، وتمزق قناع البناء الفوقى. وينكشف للعيان المسخ القبيح المسمى بالرأسمالية، ويتمرد المضطهدون، «ويعلن موت الملكية الخاصة الرأسمالية، ويتحول الذين جردوا الآخرين من ملكيتهم إلى مجردين من ملكيتهم»[٢٦].

وسوف تفوز البروليتاريا، بشئ أكثر من المصانع.. سوف تستعيد إنسانيتها... لقد سطا الرأسماليون على ما يتجاوز أموال البروليتاريا؛ إذ استولوا على قلوبهم وعقولهم.

ويلعب عنصر العمل، دوراً أساسياً فى الحياة الإنسانية، من وجهة نظر ماركس؛ فالبشرية مدفوعة للخلق وتعزيز حياتها من خلال الطبيعة والعلاقات مع الأفراد الآخرين؛ لأن الشخصية الإنسانية لا يمكنها أن تتطور دون «العمل الخلاق». وفى ظل الرأسمالية.. يتحول العمل إلى مجرد سلعة، فيجبر الأفراد على قبول الروتين، والوظائف المتبلدة، ويصبحون أدوات حية. إنهم يشعرون بالتباعد عن أنفسهم، وعن العالم المحيط بهم، وعن بعضهم البعض. وتصبح الانعزالية موضوعاً أساسياً فى الماركسية، وفى المقالات الوجودية النقدية للمجتمع الحديث.

وقد حث إنجلز وماركس البروليتاريا على الاستيلاء على الاقتصاد، وتحرير أنفسهم، وذلك فى البيان الشيوعى:

لقد ترفع الشيوعيون عن حجب وجهات نظرهم وأهدافهم، فأعلنوا صراحة إن غاياتهم لايمكن أن تتحقق إلا باستخدام القوة للإطاحة بكل الظروف الاجتماعية الراهنة. دع الطبقات الحاكمة ترتعد بقيام الثورة الشيوعية، فليس هناك ما تفقده البروليتاريا.. سوى قيودهم، فعالم بأكمله أمامهم: «يا عمال كل العالم اتحدوا![٢٧]» .

ومع صدور كتاب رأس المال ـ بعد ذلك بحوالى عشرين عاما ـ أصبح بإمكان البرولتياريا دعم الشعارات البليغة جنباً إلى جنب، مع التحليل اللاذع.

ولكن ماذا حدث بعد الثورة؟ هل عاش كل فرد حياة اليسر والترف فى إطار الإنسانية المعاد اكتشافها؟ وهل جلس كل فرد فى دائرة أمام حلقة النار، عاقداً يديه، وهو يترنم بالأغنيات؟ إن بعض المعاصرين للماركسية قد يدفعون المرء، إلى الاعتقاد بذلك.

والأمر المؤكد، هو ازدراء ماركس للاشتراكية الطوباوية وسخريته من بساطتها الساذجة ؛حيث إنه لم يكن عاطفيا. لقد ترفع عن التشوق الكئيب للتوزيع «العادل» للدخل، أو إعادة التوزيع الشاملة للثروة.. فلن يحصل العمال على «القيمة الكاملة» لعملهم، حتى فى ظل الاشتراكية. ومع ذلك.. فإن الفائض سوف يذهب إلى «الشعب» فى صورة خدمات جماعية.

ولكن ماذا تعنى الشيوعية فى حقيقتها؟ نحن لا نعرف الرد على هذا التساؤل. لقد تجنب ماركس، ترك أية وصفات لمطاعم المستقبل الصغيرة[٢٨]. ودون هذه الوصفة.. تصبح الماركسية ـ باعتبارها النظام السائد ـ المرادف السياسى «لوجبة السجق»، فهى تقدم الطريق السهل لضغط أهداف الجماعة، فى شكل يمكن أن يغذى الآخرين.

وقد اقترح ماركس، أن تذوى الدولة في النهاية. وفى ذات الوقت.. فإن ديكتاتورية البروليتاريا، هى التى ستحكم. وقد تضمن البيان الشيوعى خطة من عشر نقاط، تمثل «اعتداءً طاغياً على حقوق الملكية»:

١ ـ إلغاء ملكية الأرض.

٢ ـ فرض ضريبة تصاعدية عالية على الدخل، أو ضريبة تدرجية.

٣ ـ إلغاء كافة حقوق الميراث.

٤ ـ مصادرة ملكية كافة المهاجرين والمتمردين.

٥ ـ تركيز عملية منح الائتمان فى أيدى الدولة، من خلال البنك الوطنى، بواسطة رأس مال الدولة، وفى ظل احتكار تام لها.

٦ ـ تركيز كافة وسائل النقل والاتصال فى أيدى الدولة.

٧ ـ وضع خطة عامة لتوسيع نطاق ملكية الدولة للمصانع ووسائل الإنتاج، واستزراع الأرض المهملة وتحسين التربة الزراعية.

٨ ـ التزام الجميع بالعمل على حد سواء، وإنشاء جيوش صناعية؛ خاصة فى مجال الزراعة.

٩ ـ الجمع بين الزراعة والصناعات التحويلية، والإلغاء التدريجى للتقسيم بين المدينة والريف، من خلال توزيع متكافئ للسكان فى أنحاء البلد.

١٠ ـ حرية التعليم لجميع الأطفال فى المدارس العامة، وإلغاء تشغيل الأطفال فى المصانع بشكلها الراهن، والربط بين التعليم والإنتاج الصناعى... إلخ[٢٩].

ويتعين على ماركسيى المستقبل، تصوير كيفية تنفيذ هذه الخطة. وقد أعلن ماركس فى ذات مرة، أنه لم يعد ماركسياً، وذلك لشعوره المطلق بعدم التفاؤل، إزاء انقسام الحركات الاشتراكية فى أوروبا.

لقد منع الرب دخول موسى إلى أرض الميعاد ـ كما ذكرت التوراة، إلا أن الماركسين ـ وعلى النقيض من الإسرائيليين ـ لم يكن لديهم «يهوذا» ليأخذ بأيديهم، عندما مات ماركس فى عام ١٨٨٣ .

النظر إلى ماركس

كيف يمكننا أن ننتقد ـ بصورة شاملة ـ التحليل الماهر الذى قدمه ماركس؟ تبدو هذه المهمة رهيبة، فعلى مدى القرن الماضى.. انهمك المفكرون فى ملء ملايين الصفحات بعبارات المديح أو السب والثرثرة. وفيما يلى برنامج عمل لتقييم ماركس: (١) كيف أدت نظرية المادية التاريخية إلى تشويه فكرة فائض العمل؟ (٢) ماذا عن تنبؤات البؤس، والبطالة، وسقوط الرأسمالية؟ (٣) ماذا قدم ماركس للاقتصاد الحديث؟(٤) ماذا قدم لعلم السياسة الجديث؟

أولا: كيف أدت نظرية ماركس فى المادية التاريخية إلى تشويه فكرة فائض العمل؟

فى رواية البؤساء لفيكتور هوجو، Victor Hugo ، ظل جان فالجان يواجه نفس الخصم، ألا وهو المفتش جافيرت، وظلت عجلة الحياة تدفع الأخير إلى العودة إلى فالجان. وقد أدت الجدلية الأدبية إلى خلق الصراع الدرامى لكل منهما؛ فدون الشخصية الأخرى، تصبح الحياة بسيطة جدا لكليهما.

وتبدو المشكلة بالنسبة للتاريخ الماركسى فى تجاهله أكثر العلاقات الديالكتيكية درامية، والمتولدة عند العلاقة بين الأسباب المثالية والأسباب المادية. وقد صور ماركس ـ فى معظم الوقت ـ العوامل المادية باعتبارها «السببية»، فهى تنشأ وتطور الأفكار، أو البناء الفوقى للمجتمع. ولكن بافتراضه هذه العلاقة، كثيراً ما لجأ ماركس إلى تسطيح القوى المثالية، وقد أدى هذا ـ بدوره ـ إلى حدوث خلل فى تحليله الاقتصادى.

فنجد أن فكرته الخاصة بفائض العمل تدعم النظرية الماركسية الخاصة بالرأسمالية. وباستدعاء القياس المنطقى البسيط.. يكون التساؤل هو لماذا يتحتم استغلال العمال؟، إن الاجابة تكمن فى اعتناق ماركس «لنظرية العمل فى القيمة» ، والتى تنصرف إلى أنه «لاتتولد ذرة واحدة» من القيمة عن أصحاب رؤوس الأموال[٣٠]. وترتيباً على ذلك.. كانت سهولة تصور ماركس، لنموذج ياسمين الحائكة، أو الحداد الذى يهوى بمطرقته على السندان، وكلاهما يخلق القيمة.

ولكن ما الذى أغفله ماركس؟ لقد تجاهل دور الخيال والمنظم (أو رب العمل) . فلكى تتولد الثروة.. لابد من توافر مدخلات تتجاوز العوامل المادية. ولم يتطلب تطوير الفيديو أنواعاً جديدة من المواد الأولية أو أساليب أكثر قسوة لاستغلال العمال؛ فصناعة «الفيديو» تتطلب أمرين: الاختراع والمنظِّم الملتزم بالتنفيذ، والاستعداد لتحمل المخاطرة وخوض عملية الاستثمارات. فلماذا يستجدى الروس البنطلونات الجينز الأمريكية الصنع؟ إن السبب فى ذلك لا يعود إلى افتقار الاتحاد السوفيتى «للقطن» ، أو «للعمال» من أجل إنتاج ملابس على درجة عالية من الجودة. ولكنه يعود إلى افتقارهم لعنصر الخيال، والباعث المحفز، والنظام. فهذه العوامل غير الملموسة هى التى تميز بين الشركات الناجحة، وتميز الدول عن بعضها البعض.

وقد أدت مادية ماركس ـ لسوء الحظ ـ إلى احتقاره كافة أنواع «رأس المال» . بما فى ذلك رأس المال الإنسانى، والمعرفة، والموهبة، أو المهارة الادارية، وكلها عوامل حاسمة لتحقيق الربح. وكيف يمكن لنظرية العمل فى القيمة أن ينسب لها توهج الذكاء ونفاذ البصيرة، كما هو موضح فى المثال التالى؟

منذ سنوات مضت، تمزق الجورب الصوفى الذى كان يرتديه أحد الرجال، خلال تجواله فى الغابة. وقد أصبح لذات الرجل أموال متراكمة فى حسابه

المصرفى؛ نتيجة لاختراعه لاصق Velcro فهل كل أرباحه المحققة تم الاستيلاء عليها من العمال؟

سوف نرى فى الفصل التالى كيف هاجم ألفريد مارشال ماركس، نتيجة لتجاهله قيمة عنصر «القيام بالمخاطرة» و «الانتظار»، بالنسبة للمجتمع. فعندما يتخذ الرأسمالى قراره بالاستثمار.. فهذا يعنى التخلى عن الإشباع الحالى المترتب على شرائه للسلع، ومن ثم.. فإن عائده على الاستثمار يكون مقابل انتظاره، وتأجيله لمتعته. وإذا افترضنا قيام كل فرد باستهلاك كل ما يعنى له بصورة فورية.. فإن المجتمع لن ينتج أى شئ جديد. وبذلك تلعب الأرباح «دوراً» حاسماً وشرعياً بصورة كاملة. (وقد توافق ذلك مع ثورة الحديين، التى ساعد ألفريد مارشال فى تزعمها، والتى أوضحت أن القيمة تتولد عن الطلب، شأنه شأن الإنتاج أو العرض. ومع صدور الجزء الثانى من كتاب رأس المال.. شن أنصار النظرية الحدية هجوماً عنيفاً على تركيز ماركس والكلاسيكيين، على جانب العرض).

وقد أدى افتراض ماركس لنظرية العمل فى القيمة، إلى إهماله عديداً من العوامل المثالية الديناميكية. وقد استطاع ريكاردو تجنب هذه المشكلة، من خلال رؤيته لنظرية العمل فى القيمة، على أنها مجرد أداة تقريبية للقيمة. وليس باعتباره السبب الأساسى للقيمة، وعندما حاول ماركس إثبات النظرية حسابياً.. سقط فى عديد من الأخطاء الشائكة. ومن المثير للدهشة، أنه لم يكتشف، ڤيلكرو، Velcro فى القرن التاسع عشر.

ثانيا: ماذا عن التنبؤات الخاصة بالبؤس، والبطالة، وسقوط الرأسمالية؟

لم يقصد ماركس التنبؤ، ولكنه هدف إلى الاستناد إلى العلم فى تصويره لمسار التاريخ المستند إلى اتجاهات محددة، إلا أن مسار التاريخ انحرف عن تصوراته. كما أن أتباعه الذين اعتنقوا آراءه، خلقوا «دين زائف» من أعماله. وبذلك الأسلوب.. طبقت قوانينه على التاريخ. ومع صياغة القوانين فى صورة نماذج.. يكون لإتباعه

الحق فى إعلان صحة تنبؤاته. وعلى الرغم من أن الماركسية بدأت كعلم إلحادى.. إلا أنها أصبحت ـ فى القرن العشرين ـ أشبه «بزجاج نافذة» ملطخ بالبقع، يسمح بنفاذ أشعة الشمس، ونادراً ما يسمح بنفاذ أى خطأ، وطالما اعتبرت قوانين الماركسية بمثابة كتاب مقدس، وضاع هباءً جهد اختبار الماركسية بصورة علمية.

ولقد امتد العمر بماركس، ليشاهد بعض أنصاره يمجدون ويرفعون من شأن قوانينه، والبعض الآخر يحط من قدرها، فهناك مبشرون يشيدون ويقدمون القرابين. ولقد حذر الثائر برودهون، Proudhon، ماركس من مغبة صياغة أو وضع القوانين فى صورة أسئلة وأجوبة:

«من أجل الرب، وبعد أن قضينا على الآراء العقائدية غير الممحصة السابقة، يتعين علينا ألا نحاول من جانبنا، غرس نوع آخر من العقيدة لدى الناس.. فلتكن لدينا المجادلات المهذبة الصادقة... ويعود هذا ـ ببساطة ـ إلى كوننا نقود الحركة، لاتدعنا نصنع من أنفسنا زعماء لتعصب جديد. لا تدعنا كمن يدعو إلى دين جديد. وإذا كنا كذلك.. فليكن هذا الدين، دين المنطق، دين الحجة»[٣١].

حتى إذا لم يمكننا دحض تنبؤات ماركس، إلا أنه يمكننا ملاحظة عدة تطورات فى الاقتصاد الرأسمالى منذ عصره، أولا: ارتفاع مستوى معيشة العمال خلال هذا القرن، بصورة مفاجئة. وطبقاً للتعريف الحالى للفقر.. فإن البرجوازية الصاعدة فى عصر ماركس، يعوزها القوة والجشع لكى تستخدم مصطلح ماركس. وباستخدام التعريفات التقليدية التى سادت فى عصر ماركس.. سنجد أن عمال العصر الحالى يتفاخرون بثرائهم، ومن ثم فلا أحد ينكر الارتفاع فى مستوى المعيشة المطلق للعمال.

ومع أن البيان الشيوعى حذر العمال بقوله: «إن العامل العصرى بدلاً من ارتفاع مستواه مع تقدم الصناعة.. سيواجه بتدهور وضعه من الأسوأ إلى الأسوأ، مقارنة

بالظروف المعيشية لطبقته، ليصبح عالة على الآخرين. إلا أن ماركس سرعان ما لاحظ أن دخول العمال قد تزايدت، حتى أنه اعترف بأن الأجور الزراعية ارتفعت بنسبة ٤٠ فى المائة، خلال العشر أعوام التالية لصدور البيان الشيوعى»(٣٢).

ولهذا السبب غيّر ماركس من تعريفاته، وحذر من أن العمال سوف يصبحون أكثر فقراً مقارنة بالرأسماليين، وخبت الرؤية الخاصة بمأزق العامل، فالثرى يزداد ثراءً والفقير يصبح ثرياً، ولكن الاختلاف يكمن فى أن الثرى أسرع في تحقيق الثراء(٣٣).

وقد قلّص ماركس فى تعريفه الجديد «لرأس المال» باستخدامه لفظ «الثروة»، وهو مصطلح نسبى يعتمد على أنماط الحياة المعاصرة. ومن المسلم به فى القرن العشرين أن يملك المرء جهاز تلفزيون ملون، وإن كان لا يملك ثروة، طالما أن متوسط أجر العامل فى الصناعة يمكنه من ذلك. وبتراجع ماركس إلى الحجة النسبية.. يكون قد تخلى عن الانفعال والشعور باليأس فى المأزق العمالى، طالما أن الفقير آخذ ومستمر فى الثراء. ويتجاوز هذا السيناريو النتائج التى أسفرت عنها تجربة الفيلسوف جون راولز، John Rawls، فى العدالة الاجتماعية (والتى تسمح للأغنياء بأن يحققوا مكاسب، إذا استفاد الفقراء أيضاً)(٣٤).

على ذلك.. عمد الماركسيون المعاصرون إلى التأكيد على العزلة والبؤس النفسى، وقد يكونوا على حق. فقد يعترى العمال ـ غالباً ـ شعوراً بالضجر والاشمئزاز. إلا أن ماركس لم يوضح لنا كيف يمكن للاشتراكية أن تجعل جمع النفايات «مثيراً للاستمتاع» على سبيل المثال؟ وإذا أنجز العمال السعداء أعمالهم بصورة أفضل.. فإن الحد الأدنى من الافتراض فى ظل الرأسمالية، يعنى وجود حوافز قوية لدى أصحاب الأعمال لإرضاء العاملين لديهم.

يضاف إلى ذلك.. كيف يمكننا تحديد سعادة العمال؟ إذا كانت الأجور نسبية فلماذا لا يكون سعيداً؟ وهل يتعين علينا أن نطرح السؤال المطلق: هل العمال فى

الوقت الراهن، أكثر سعادة مقارنة بمائة عام مضت؟ أو أنه يتعين علينا أن نطرح السؤال النسبي: هل ازدادت سعادتهم بنفس معدل سعادة الرأسماليين؟ إذا أخذنا ذلك في الاعتبار.. فإن الأغنياء والفقراء يزدادون سعادة، إلا أن سعادة الأغنياء تتزايد بصورة أسرع . وطالما نبدأ فى تقييد السعادة.. فإننا لا نستطيع اختبار الماركسية «العلمية» ، ويعد ذلك يوما كئيبا للماركسيين وغير الماركسيين، على حد سواء.

كما تنبأ ماركس بانهيار الرأسمالية باعتبارها نظاماً يحمل فى داخله «بذور فنائه» ، ولاتبدو الرأسمالية أنها ستفنى بعد. فمعول البطالة الراهن، أعلى بصورة طفيفة من المعدل الذي كان عليه فى بداية القرن الحالى. ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار النسبة المئوية من السكان التى تعمل ـ خاصة انضمام المـرأة إلى القوة العاملة ـ سنجد أن حجم التوظف أعلى.

وأكثر من ذلك.. فإنه غالبا ما تفرز الرأسمالية طبقة متوسطة، تتملك وسائل الإنتاج بصورة غير مباشرة، من خلال أسواق الأوراق المالية. وفى نهاية الثمانينيات، قام الملايين من أفراد الشريحة الدنيا فى الطبقة المتوسطة البريطانية، بشراء أسهم الشركات التى تم تحويلها إلى الملكية الخاصة، مثل: شركة الصلب البريطانية، والخطوط الجوية البريطانية، والشركة البريطانية للاتصالات اللاسلكية. كما تستثمر صناديق المعاشات فى الولايات المتحدة، بصورة ضخمة فى أسهم الشركات.

ويشير بعض المدافعين عن ماركس إلى نمو الحكومة فى الدول الرأسمالية، باعتبارها المنقذ المدهش للرأسمالية، فقد أدى الإنفاق فى مجال الرفاه الاجتماعى إلى حماية الرأسماليين من السقوط فى براثن الركود الأعظم، وكذلك الثورة. وقد يكون المدافعون عن ماركس على حق، ولكن علينا أن نتذكر أن ماركس قد أعلن بقاء النظام السياسى والبناء الفوقى، فى حالة استاتيكية مقاومة للتغير، وأن الجمود سيؤدى إلى انهياره. وإذا استعدنا الأحداث سنجد أن البناء الفوقى انحنى لإنقاذ الرأسمالية، وبذلك.. فإن ماركس قد أخطأ مرتين.

وأخيراً، فسّر الماركسيون النجاح المدهش للرأسمالية، بالإشارة إلى الأمم الأجنبية. حيث قالوا بأن الرأسماليين بدأوا فى استغلال العمال الأجانب فى الدول الأقل تقدماً، وبذلك أدى استغلال العمال فى الخارج إلى دعم الاقتصاديات المحلية. ومرة أخرى، وبافتراض أنه لهذه الحجة حسناتها.. فإنها تنحرف بنا بعيداً عن تحليل ماركس حول الانهيار الداخلى والديالكتيكى للرأسمالية.

وخلاصة القول.. لقد ابتكر ماركس نظاماً علمياً فى «رأس المال»، وأعلن بثقة مسار الرأسمالية. وفى ظل التفسيرات الغامضة والسمحة.. قد يكون ماركس على صواب أحيانا، ولكن هناك شيئاً وحيداً مؤكداً، وهو المبالغة فى ازدرائه للنزعات الدينية، وقد رفض بغضب كسب صحته باستخدام النزعات الخيرية.

٣. ماذا قدم ماركس للاقتصاد الحديث؟

اعتاد الاقتصادى جوان روبنسون فى مجال سخريته من نظرية ماركس ، ضرب المثال التالى «تخيل كلباً يعدو فى المروج الخضراء، مطاردا لثعلب، متعقباً مساره. إن نظرية زميلى بمثابة برغوث على ظهر الكلب».

وبالنسبة إلى الاتجاه السائد بين معظم الاقتصاديين فى الولايات المتحدة وبريطانيا.. فإن النظريات الاقتصادية لماركس، لا تعدو إلا أن تكون هذا البرغوث. وفى إطار هذا الاتجاه الغالب.. فإن المناهضين لماركس يقعون على يسار الوسط أو على يمين الوسط. وقد وصف بول صامويلسون Paul Samuelson نظرية العمل فى القيمة، بأنها إما خدعة لفظية أو ميتافيزيقية .

وقد حاول «برنارد شو» خلال الكساد العظيم، حث جون ماينارد كينز على فضائل ماركس، إلا أن كينز قاوم. وأفاد أنه يشعر تجاه كتاب «رأس المال» بنفس الشعور أمام القرآن، والخلاصة أنه لا يفهم كيف يدين به عدد كبير؟

وقد أعقب رفض كينز، أن تخلى معظم الاقتصاديين المحدثين عن القتال، وتوقفوا عن دراسة ماركس. وطبقا لفرانك هان Frank Hahn، وهو ناقد متميز

لرأسمالية عدم التدخل، فإن معظم الماركسيين لم يقرأوا، حتى ماركس، ومن الطبيعي ألا يوجه إليهم اللوم».

ومازال ماركس يكمن خلف حجج عدة آلاف من الاقتصاديين الراديكاليين، الذين أصدروا المجلة الدورية للاقتصاد الراديكالي السياسي، ولهم حضور قوى في جامعة ماساتشوسيتس. والأصل اللغوى، أو الايتمولوجي لكلمة «راديكالي» هو كلمة "radic" بمعنى الجذر كما في كلمة "radish"، ويعتقد الاقتصاديون الراديكاليون ـ كشأن ماركس ـ في أن الأصل الحقيقي للنظرية الاقتصادية الحديثة، يكمن في تحليلها للرأسمالية. ومع ذلك.. فإن الراديكاليين لا يريدون تحمل مسئولية كل جملة تفوه بها ماركس، أو أية تنبؤات أعلنها.

ولا زالت قلة من الراديكاليين يعتنقون نظرية ماركس في القيمة. ومع ذلك.. فإن كل الراديكاليين يؤكدون على قضية «السيطرة» في ظل الرأسمالية، حيث يعمد الرؤساء إلى صيغة «فرّق تسد»، والإبقاء على سيطرتهم في أماكن العمل ومقار الانتخاب. وخلال الأربعينيات.. قال مايكل كالسكي Michal Kalecki اليساري البولندي، إن الحكومات تعمدت إشعال نيران التضخم والركود لكبح الطلب على العمال. بينما أدعى الراديكالي المعاصر، ستيفن مارجلن، Stephen Marglin أن رجال الأعمال غالباً ما يرحبون بالركود. فإذا كان مارجلن على حق.. فإن أعداداً ضخمة من الأفراد عملوا في ظل «الوعي الزائف» الماركسي. وإذا تناولنا تفسير مارجلن للانتخابات الرئاسية في عام ١٩٨٠: وعد رونالد ريجان بتضخم أقل دون ركود، وهذا يعني حماقة تصوره عدم رغبة رجال الأعمال في الركود. وعلى أية حال.. فقد صوّت رجال الأعمال لصالح ريجان لماذا؟ لأنهم علموا أنه سيفشل، وهذا يؤدي بصورة غير متعمدة إلى تحريض الركود. إلا أنه نجح، وطبقا للفرضية التي طرحها مارجلن..، فإنهم شعروا بالسعادة، لرؤية أسعار أسهمهم تنخفض[٣٦].

ولقد خاض الراديكاليون الجدد عديداً من المعارك، ضد النماذج التى طرحها أقرانهم الاقتصاديين، وضد الحكومة، وضد الرأسماليين، وأحيانا ضد ذكرى معلمهم الناصح، «كارل ماركس»، ومن ثم فإنه من الصعوبة بمكان حصر انتصاراتهم. .

٤ . ماذا قدم ماركس للسياسة الحديثة؟

إن أعلى صرخة فى مجال الجدل حول الشيوعية ـ فى الوقت الراهن ـ تصدر من جانب الماركسيين الذين يشجبون سياسات الاتحاد السوفيتى، والدول التى تدور فى فلكه، إنهم يصيحون هذه ليست شيوعية ماركس. ومن الطبيعى أن يكونوا على حق ـ كبداية ـ فقد قصر الشيوعية على الدول التى صنعت «وإن كان قد أخذ فى اعتباره بصورة حذرة ـ خلال سنواته الأخيرة ـ قيام ثورة نهائية فى روسيا». ولقد واجه ستالين تحدياً صعباً فى الإسراع بتحول روسيا الزراعية إلى مرحلة التصنيع. وتمشيا مع المقترحات رقم (١)، (٩) التى وردت فى البيان الشيوعى.. أجبر ستالين المزارعين على الالتحاق بالمزارع الجماعية ومزارع الدولة. وقد تعمد ترك الملايين منهم يموتون جوعاً؛ خاصة فى أوكرانيا لتحطيم مقاومتهم[٣٧].

وقد واجه لينين ـ قبل ستالين ـ متاعب سياسية مشابهة، فى محاولته إعادة صياغة العقلية الروسية. وقد انبثقت فى فترة حكمه «ديكتاتورية البروليتاريا»، باعتبارها ديكتاتورية الحزب، وهى ديكتاتورية لا يمكن أن تذوى سريعاً.

وخلال كتابة هذا الكتاب.. يحاول ميخائيل جورباتشوف، Mikhail Gorba-chev، علاج الاقتصاد المتصلب، الذى عانى سبعين عاماً من المناخ السيئ، على حد قول المدافعين عنه. ويبدو جورباتشوف أحياناً على استعداد للتخلى عن ماركس، والقبول ببعض آليات السوق الحر، بما فى ذلك تأجير الأرض الزراعية لفترة طويلة، وكذلك المتاجر الصناعية للباحثين عن الأرباح والتعاونيات الخاصة. إلا أن التساؤل حول إلى أى مدى يمكن لجورباتشوف القذف «بماركس» يتوقف

على مدى مقاومة اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعى والمنظمات السياسية الشبابية، لعملية التخلى عن السلطة.

وقد ألّه الصينيون ماركس فى أعقاب ثورتهم فى عام ١٩٤٩ ، ولكنهم سرعان ما أصبحوا مشركين حيث وصفوا «ماوتس تونغ» على نفس المرتبة». ولكن مع نهاية السبعينيات، وفى ظل حكم «دينج هيساوبنج»، Deng Xiaoping، بدأ الصينيون فى التحرك بسرعة تجاه «المشروع الحر» فى عديد من القطاعات، موبخين «ماركس» ومؤنبين «ماو» فماذا أطلقوا على هذه الحركة؟ لقد قاموا بترجمة مصطلح «السوق الحر» ، ولذا يظن الملايين من الصينيين أن «السوق الحرة» مصطلح صينى. ومع ذلك ـ وبعد مرور عشرة أعوام من التحرر ـ قامت القوى المحافظة بإعادة تأكيد نفسها فى عام ١٩٨٧ . (على الرغم من عدم تصفيتهم لمطعم كنتاكى فرايد تشيكن الواقع فى الجبهة المقابلة لمقبرة ماو فى بكين. ولكن مرة أخرى.. فإن المستقبل خارج نطاق التنبؤ)

ومن المسلم به أن الاتحاد السوفيتى والصين فقط، هما أكبر الدول الشيوعية، التى لا زالت تدعى كونها ماركسية. ومع تلاشى الستار الحديدى على طول حدود بولندا، وألمانيا الشرقية، وتشيكوسلوفاكيا، والمجر، ورومانيا.. فإن العمال قد حققوا المزيد من حريتهم فى الاتحاد، مما قد يخالف أفكار ماركس.

إلى هذا الحد لم تطابق أية دولة التصور الذى أعجبت به الماركسية، وحتى نظام الكمبيوتر فى إسرائيل يبدو أنه يتطور إلى مشروعات رأسمالية، بدلاً من كونه مشروعات اشتراكية. وربما لن تستطيع أية دولة تحقيق الحلم الماركسى، الذى وعد بما يتجاوز قدرات العالم الواقعى، المتميز بالندرة، والأنانية والشر.

إنه حلم ينسج عالماً يشبه نوعاً من الفردوس أو النعيم المفقود، وهو أكثر ملاءمة للملائكة، منه للبروليتاريا. وللأسف.. فإن حدة التشوق كانت من القوة، بحيث دفعت بأناس صالحين منومين مغناطيسيا، إلى تأييد أنظمة فاسدة تلقى الوعظ،

إلا أنها لا تطبق الماركسية الحقيقية، أما جورج برناردشو الذى صافح ستالين، فقد عاصر سنوات من القمع السوفيتى قبل أن يومئ برأسه أسفاً.

ويذكر ماركس بالنسبة لعديد من الناس فى العصر الراهن، بأن التغيير الاقتصادى يمكن أن يكون معذبا، وأن السلطة يمكن أن تتحول إلى قمع، وأن القطاع الضعيف من السكان، لابد من حمايته من الاستغلال. إلا أن هذه التحذيرات طبقت بصورة أكثر قسوة فى الأنظمة الشيوعية. وقام المعجبين بماركس بتمجيد ماركس الأقل علمانية والأكثر شباباً، أكثر من كونه صاحب نظرية اقتصادية أو باعتباره زعيماً سياسياً فذاً. لقد أصبح ماركس بمثابة الصوت الداعى إلى العدالة الاجتماعية الإنسانية. لقد أصبح مثل توم جود فى رواية جون شتاينبك John Steinbeck «عناقيد الغضب» Grapes of Wrath[٣٨]:

«سأكون هناك دائما ـ فى أى مكان تنظر إليه.. فى أى مكان يستعد فيه للقتال حتى يتسنى للناس الجوعى أن تأكل، سأكون هناك حيث يوجد شرطى يوسع شاباً ضرباً مبرحاً.. سأكون هناك.. سأكون فى ذات الطريق الذى يصرخ فيه الناس، عندما يصيبهم الجنون، وحيث يأكل الناس الطعام الذى حصلوا عليه، وأعيش فى المنازل التى يشيدونها ـ لماذا سأكون هناك. انظر؟»[٣٨]

وفى ضوء الانتهاكات، وسوء استخدام السلطة والمظالم التى تكبدها الناس باسم ماركس.. فمن المرجح أن هذا هو أفضل مكان بالنسبة له.

الفصل السابع

ألفريد مارشال والعقلية الحدية

قد تساعدنا المقتطفات الثلاث التالية ـ والتى جمعت من عالمى الأدب والفن ـ على فهم تطور مهم فى علم الاقتصاد (الكلاسيكى الجديد)

ففى رواية «السبق الصحفى» للكاتبة إيفلين ووف«Evelyn Waugh»، يواجه مالك صحيفة بريطانية رئيساً للتحرير الذى لا يستخدم من اللغة سوى إجابتين اثنتين: إذا قال مالك الصحيفة شيئاً صحيحاً.. فإن رئيس التحرير يرد قائلاً: «دون شك» أما إذا قال شيئاً غير صحيح، فإن رئيس التحرير يرد قائلا «إلى حد ما».

فإذا كان السؤال مثلاً: «دعنى أرى، ما اسم المكان الذى أعنيه؟ عاصمة اليابان؟ يوكوها ما أليس كذلك؟

«فإن الإجابة تصبح: إلى حد ما يالورد كوبر»

أما إذا كان السؤال: «وهونج كونج مملوكة لنا، أليس كذلك؟»

فإن الرد سيكون: «دون شك يالورد كوبر»

وقد ابتدع الممثل الاستعراضى الكوميدى هينى يانجمان«Henny Youngman»، الذى انتزعت فكاهاته من الأنين أكثر من حالات التسمم بمادة الثيومين، عديداً من المقولات الكلاسيكية التى تستحق مقالة فلسفية، ومن ضمنها: «كيف حال زوجتك؟»

: «بالمقارنة مع من؟»

وفى فيلم عن الطائفة الدينية الغريبة، اسمه «مغامرات بـوكارو بانزاى»، يُذَكِّر البطل أصدقاءه بالقول الغيبى المكرر:

«حيثما ذهبت ـ فأنت موجود هناك».

هذه التعبيرات من أمثال: «إلى حد ما» و«بالمقارنة مع من» و«حيثما ذهبت...» يمكن القول بأنها ترمز إلى التغير القوى فى الفكر الاقتصادى فى نهاية القرن التاسع عشر، والذى يسمى «النظرية الحدية». وقبل أن نبحث تأثير ألفريد مارشال، أبرز علماء النظرية الحدية، هيا بنا نستعرض كيف يمكن لهذه المقتطفات أن تشرح لنا هذا النهج الجديد.

تخيل أنك مسافر عبر أوروبا، ولذا سوف تبدأ من اليونان وتقضى وقتاً رائعاً. وفى طريقك إلى إيطاليا تتوقـف فـى كورفو، حيث تستأجر دراجة وتطوف أنحاء الجزيرة الساحرة. وفى إيطاليا، سوف تستمتع بمدينة فلورنسا أكثر من أى مكان رأيته من قبل. لقد تكلفت زيارتك لإيطاليا ٨٠٠ دولار، ولكنها أعطتك متعة تساوى آلاف الدولارات. عندما تصل إلى فينيسيا، سوف تفكر فى عبور الحدود إلى النمسا، ولكنك تخشى أن تخيب النمسا أملك، بالمقارنة مع إيطاليا، فأنت تفضل الكلامارى الإيطالى على شرائح اللحم النمساوى، فكيف تقرر ما إذا كنت تمضى قدما، أو العودة إلى بلادك؟

أولا: فكر فى نصيحة بوكارو بانزاى: «حيثما ذهبت فأنت موجود هناك.» وأنت الآن على حدود النمسا فانس أين كنت من قبل، فالمتعة التى نلتها فى إيطاليا غير ذات موضوع! فالنظرية الحدية تقرر أن الماضى وراءك، والقضية الآن هى ما إذا كنت ستأخذ خطوة للأمام، ونقطة البداية هى المكان الذى تقف فيه الآن.

ثانيا: فكر فى فكاهة هينى يانجمان. ما الذى سوف تقارن بينه عند اختيار ما إذا كنت تذهب إلى النمسا أم لا؟ تجاهل المتعة السابقة التى حصلت عليها فى إيطاليا

واسأل نفسك: هل فوائد الذهاب إلى النمسا تفوق تكاليف الذهاب إليها؟ إذا كان قضاء يوم بالنمسا يكلف ٥٠ دولار، ويعطيك متعة قيمتها ٧٥ دولار، فاذهب، وماذا لو كانت الفوائد فى إيطاليا تفوق عشرة أمثال التكلفة؟ القضية هنا هى هل تمضى إلى الأمام؟ ويجب عليك أن تمضى إلى الأمام، إذا كانت الفوائد تزيد عن التكلفة، حتى لو زادت بحد أقل مما سبق[١].

ثالثا: تذكر رئيس التحرير فى رواية السبق الصحفى، إلى أى حد يمكنك مواصلة التحرك إلى الأمام؟ إنك ستستمر طالما كانت فائدة خطوة واحدة تفوق تكلفة خطوة واحدة، إلى أن تتساوى الفائدة الحدية مع التكلفة الحدية. فإذا كانت تكلفة اليوم ٥٠ دولار تعطيك متعة قيمتها ٥٠ دولار، فسوف تبقى. فإذا واصلت ستصبح مثل الصبى مضرب الأمثال الذى يقول إنه يعرف كيف يتهجى كلمة موز (Banana) ولكنه لا يعرف متى يتوقف. ويجب ألا ينساق المرء بعيداً وراء الحركة للأمام، فعديد من المشروعات التجارية فشلت؛ لأنها لم تعرف متى تتوقف عن التوسع. وعندما حالف النجاح الخطوط الجوية «بيبول إكسبريس» فى أوائل الثمانينات، قامت بسرعة بالتوسع فى عدد الخطوط والطائرات التى تملكها، وتجاهلت تحذيرات عديد من مستشاريها، وفى خلال بضعة سنوات.. أفلست شركة الطيران ذات الطموح الزائد.

وجوهر النظرية الحدية هو الإصرار على التحركات التدريجية المتزايدة باعتبارها مركزاً للاستعلام. كيف تقرر الشركات عدد السيارات التى سوف تنتجها؟ إنها تستمر فى الإنتاج إلى أن يتساوى العائد الذى يحصلون عليه من إنتاج سيارة إضافية، مع تكلفة إنتاج هذه السيارة. إن هذه القاعدة ـ الدخل الحدى / التكلفة الحدية ـ لها تطبيقات عديدة داخل وخارج علم الاقتصاد. إن بعض الطلاب يدرسون طوال الليل استعداداً للامتحانات، ولكن عند منتصف الليل إذا كانت تكلفة الاستمرار لمدة ساعة إضافية (فيما يتعلق بالإرهاق فى اليوم التالى) تفوق فائدة

«حشو الرأس» أكثر قليلاً، فمن الأفضل أن يكون بين أغطية السرير عن أن يكون بين أغلفة الكتب.

وألفريد مارشال لم يخترع أو يكتشف النظرية الحدية، فالفرنسى أوجستين كورنو، Augustine Cournot، مع الألمانيين ى.هـ فون ثونين، J.H.von Thünen، و هـ. هـ. جوسين، H.H. Gossen، بدأوا استكشاف التحليل الحدى قبل مارشال بعقد أو اثنين من الزمان. كما أسهم الإنجليزى ويليام ستانلى جيفونز، William Stanely Jevons، بعديد من الأفكار المهمة التى طورها مارشال فيما بعد. ولكن مارشال سوف يحظى بالاهتمام الرئيسى فى هذا المجال لأربعة أسباب مترابطة: **الأول**.. أنه طبق التحليل الحدى بصورة أكثر وضوحاً وشمولاً. **الثانى**.. أنه أسس العرف الحدى الذى يسيطر على الاقتصاديات الصغيرة فى الوقت الحالى. **الثالث** .. أنه علّم بعضاً من أبرز علماء الاقتصاد فى القرن العشرين، ومن بينهم جون ماينارد كينز (وكذلك والد كينز) و أ. س . بيجو، A.C. Pigou، وجوان روبنسون. **الرابع**.. أن حياته كانت تتعارض تماماً مع حياة ميل، وتعكس الحركات الثقافية لعصره، أيضاً روح النظرية الحدية.

السنوات الأولى فى حياة مارشال:

ولد ألفريد مارشال فى بيرموندزى، بإنجلترا عام ١٨٤٢، وكان والده الموظف فى بنك إنجلترا، لا يمكن اعتباره شخصاً ضعيفاً إلا إذا قارناه مع جيمس ميل أوكاليجولا، Caligula. كان ويليام مارشال طاغية متهجماً وكريهاً. ذو فك بارز وعقيدة بروتستانتية متزمتة، تتناسب مع هذا الفك، وكان ويليام مارشال يدرب ألفريد على أداء واجباته المدرسية، خاصة اللغة العبرية غالبا، حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً. وكانت هناك عمّة عطوف أنقذت سلامة عقل ألفريد؛ حيث كان يقضى عطلة الصيف الطويلة معها، ولم تكن تهتم كثيراً باللغة العبرية، ولكنها اشترت له قارباً وبندقية ومهراً.

وسرعان ما ترك ألفريد البندقية والمهر، وترك شخصية ألفريد راعى البقر إلى شخصية ألفريد طالب جامعة كامبردج. وكان هذا العمل من قبيل التحدى.

وكان ويليام مارشال يريد من ألفريد أن يقبل منحة دراسية من جامعة أوكسفورد، حيث يستطيع دراسة اللغة اللاتينية، والاستعداد لدخول الكهنوت. ولكن ألفريد كان به مس من الشيطان، إذ بينما كان الوالد يعتقد أن ألفريد يدرس الدين فى غرفته، كان الابن المتمرد يدرس الرياضيات، التى كان والده لا يفهمها، وبالتالى يحتقرها. كانت الرياضيات بالنسبة لألفريد رمزاً للتحرر (وربما قادته عقدة الذنب فى عقله الباطن، فى مرحلة متقدمة من حياته إلى إخفاء اقتصاده عن الرياضيات داخل التذييلات والهوامش). وقد وضح كينز ذلك فى مقالته المهيبة عن مارشال حيث قال: «كلا! لم يكن ليقبل المنحة كى يُدْفن فى أوكسفورد تحت ركام اللغات الميتة، ولكنه هرب ليكون خادم سفينة فى كامبردج، حيث يمكن أن يتسلق «حبال» وصوارى الهندسة وأن «يستكشف» السموات.

وفى كلية سان جون بكامبردج، حصل مارشال على مرتبة الشرف الأكاديمية فى الرياضيات، ثم بدأ يأخذ أجراً مقابل تعليم طلبته الرياضيات. ولدى تخرجه فى ١٨٦٥ ، كان مارشال ينوى دراسة فيزياء الجزيئات، ولكن علم ما وراء الطبيعة وقف فى طريقه. وفى عام ١٨٦٨ شق طريقه ببطء وصعوبة إلى ألمانيا لدراسة الفيلسوف «كانط» ، Kant، بلغته الأصلية، وسرعان ما تبع زميله فى كامبردج هنرى سيدجويك، Henry Sidgwick، إلى مذهب «اللاأدرية» ؛ إذ كان سيدجويك قد كتب أحياناً فى الاقتصاد السياسى، الذى تقره الأخلاق والمثل العليا المسيحية، والذى يظهر كل الفضائل المسيحية، ما عدا الإيمان. وقد قال أحد معجبيه إنه من بين كافة أشكال الشر فإن سيدجويك كان الأقل شراً. وطبقاً لما قاله كينز، قضى سيدجويك نصف عمره لإثبات أن الله غير موجود، ثم قضى بقية حياته يأمل أن يكون مخطئاً. وفى حين أن مارشال لم يشارك سيدجويك فى الصراع الداخلى

الذى كان يعذبه، إلا أنه أظهر فعلاً شخصية أخلاقية نبيلة مماثلة لشخصية سيدجويك.

ولخيبة أمل والده، لم يستمع مارشال إلى صوت الله يناديه إلى المنبر، ولكنه سمع فعلاً صرخات الفقراء تحثه على دراسة علم الاقتصاد..وقال:

«من علوم ما وراء الطبيعة ذهبت إلى علم الأخلاق، واعتقدت أن تبرير الحالة القائمة فى المجتمع لم يكن أمراً سهلاً.وكان أحد الأصدقاء،ممن قرأوا كثيراً فيما يسمى الآن علوم الأخلاق، يقول لى دائماً: «آه! لوكنت تفهم الاقتصاد السياسى لماكنت لتقول ذلك» لذلك قرأت كتاب الاقتصاد السياسى لميل، وتأثرت به بشدة.كانت لدى شكوك بشأن موافقة حالات فكرة عدم تساوى الفرص أكثر من فكرة الرفاهية المادية. وبعدئذ زرت أثناء إجازاتى أفقر الأحياء فى مختلف المدن، وسرت فى شارع بعد الآخر[٣]، أنظر إلى وجوه أفقر الناس، وبعد ذلك عزمت على القيام بأشمل دراسة استطيعها عن الاقتصاد السياسى.»

وبمجرد أن وقع اختيار مارشال على الاقتصاد كمهنة، أبدى تفانياً كهنوتياً له. ففى العصور الوسطى سادت ثلاثة فروع معرفة عظيمة: اللاهوت، ويهدف إلى الكمال الروحى، والقانون ويهدف إلى العدالة، والطب ويهدف إلى سلامة الجسم. وقدم مارشال فرعاً رابعاً عظيماً، هو: الاقتصاد ويهدف إلى تحقيق الرفاه المادى للجميع. وبالرغم من أن عديداً من الاقتصاديين حاربوا بعضهم البعض، إلاّ أن مارشال لم يتردد قط فى احترامه مهنته وتفانيه لتحسين الظروف الإنسانية.

وقد ناضل مارشال طوال حياته من أجل اعتبار الاقتصاد ميداناً منفصلاً عن التاريخ و«العلوم الأخلاقية» وحاول كسب مكان فى المناهج الدراسية لعلم الاقتصاد، كما حاول أيضاً توحيد أرباب المهن. وقد كان الاقتصاد بالنسبة لمارشال بمثابة مهنة جماعية. كان قليل الصبر بالنسبة للمنافسة الهدامة (كان حساساً خاصة عندما ينتقد الآخرون عمله). وقال إن كل شىء تقريباً تعلمناه من الاقتصاد الكلاسيكى

كان صحيحاً، وذلك إذا تم تفسيره بشكل مناسب، وباستثناء انتقاد الاقتصاديين لبعضهم البعض.. فيجب أن يكون الاقتصاديون حراساً على المنطق والحقيقة، وفوق الولاءات النفعية السياسية:

«يجب أن يخشى دارسو العلوم الاجتماعية من التأييد الشعبى.. إذا كانت هناك أية مجموعة من الآراء ـ التى لو أيدتها أية صحيفة لزادت مبيعاتها ـ فإنه على الدارس الذى يرغب فى أن يترك العالم عامة (وبلاده خاصة) فى حالة أفضل مما كانت عليه قبل ولادته ـ أن يدرس بإسهاب نواحى القصور والعيوب والأخطاء ـ إن وجدت ـ فى تلك الآراء، وألا يقدم أبداً على تأييدها بدون قيد أو شرط»(٤).

لكن جمود جامعة كامبردج كان قوياً، فلم يستطع مارشال إقناع الجامعة بتأسيس منهج اقتصاد مستقل إلا فى عام ١٩٠٣.

ومنذ أول اتصال لمارشال مع الاقتصاد فى عام ١٨٦٠، بدأ فى تطوير نظام للاقتصاد؛ فقد حوّل علوم ما وراء الطبيعة إلى قراءات الإجازات الخفيفة، وكان يقضى إجازاته فى جبال الألب. وكان فى كل صيف يأخذ معه:

«حقيبة ظهر، ويقضى معظم الوقت سائراً فوق جبال الألب... كان يترك جامعة كامبردج فى أوائل شهر يونيو منهكاً ومرهقاً من العمل، ويعود فى أوائل أكتوبر أسمر البشرة وقوياً ومنتصب القامة... وأثناء فترات السير فى جبال الألب كانت عادته أن يستيقظ فى السادسة صباحاً... ويسير مرتدياً حقيبة ظهره لمدة ساعتين أو ثلاث، ثم يجلس ويطالع لفترة طويلة كتاباً ما ـ جوته Goethe !!، أو هيجل أو كانط أو هربرت سبنسر Herbert Spencer... تلك كانت المرحلة الفلسفية. وفيما بعد، وضع نظرياته عن التجارة المحلية والخارجية أثناء تلك المسيرات. ومن رحلة لأخرى.. كان يتم إرسال صندوق كبير من الكتب... إلخ، ولكنه كان يقضى أحياناً أسبوعاً أو أكثر مع حقيبة ظهره فقط. كان يغسل قميصه بأن

يمسكه داخل مجرى جدول سريع، ويجففه عن طريق حمله فوق عصا تسلق الجبال على كتفه. لقد قام بأغلب التفكير العميق أثناء هذه المسيرات المنفردة فى جبال الألب »(٥).

بعد أن قام مارشال بالتدريس لمدة تسع سنوات فى كلية سان جون تزوج، وبالتالى فقد عضويته بالجامعة، مثل مالتس، وكانت زوجته مارى بيلى، Mary Paley، حفيدة رئيس الشمامسة ويليام بيلى، المفكر والعدو الرئيسى لمالتس. وكانت مارى طالبة سابقة عند مارشال، ومحاضرة فى الاقتصاد السياسى. انتقل مارشال وزوجته إلى كلية الجامعة فى بريستول، ثم أكسفورد قبل أن يعود إلى كامبردج عام ١٨٨٥، عندما قبل كرسى الأستاذية فى الاقتصاد السياسى.

كان مارشال رجلاً جذاباً عند إلقاء النكات، ذا عيون زرقاء مرحة. ويحكى طلابه عن عدد لا يحصى من المناقشات، أثناء تناول الشاى فى منزله كمدرس، كان يركز على الأمثلة والأحداث الجارية أكثر من أى كتاب منهجىّ. كان مارشال يجد الأمثلة الاقتصادية فى كل مكان تقريباً، أحياناً فى التاريخ القديم، وأحياناً أخرى فى المسرحيات المعاصرة التى تعرض فى كامبردج. كان يقرن كلامه بالضحك الخافت، وعادة ما ينهى كلامه بصوت رنان مرح، وأحياناً كان يبدو سخيفاً إلى حد ما. ومن إحدى أشهر قصصه التى يرويها طالب دراسات عليا، كان قد زار مارشال فى منزله للبحث عن موضوع لأطروحته:

« ادخل ـ ادخل» قال مارشال، قادماً من ممر صغير، وذهبت معه إلى الطابق العلوى: وسألنى «هل عندك أى فكرة عما تنوى أن تفعله؟» ، فأجبته « كلا» ، قال: «حسناً، استمع إلىّ» ، وأخرج كتاباً أسود صغيراً. وبدأ فى قراءة قائمة الموضوعات وكان قد أمرنى أن أرفع يدى عندما يصل إلى الموضوع الذى يعجبنى. وبسبب توترى حاولت أن أقبل أول موضوع، ولكن مارشال لم يلتفت إلىّ واستمر فى القراءة.

وتجاهل مارشال الإشارة الثانية ثم الثالثة للطالب. واستمر فى قراءة المواضيع لمدة خمس دقائق أخرى، وأخيراً توقف مارشال، وسأل: «هل وجدت موضوعاً يعجبك؟» أجبت: «لا أعلم» قال: «لا أحد يعلم أبداً، ولكن هذه هى طريقتى»(٦).

وبالرغم من مثل هذه السخافات.. فإن مارشال يستطيع أن يكون ذكياً بدرجة مذهلة. وطبقاً للأساطير المروية فى كامبردج، كلما صدر بحث صعب فى الرياضيات، كان مارشال يكتفى بقراءة الفصل الأول والفصل الأخير، ثم يقف أمام المدفأة ويستنبط ما بينهما.

المدخل التدريجى:

ربما لا يوجد أحد من الاقتصاديين المشهورين يتباين أكثر من مارشال مع عقل جون ستيوارت ميل العاصف، ومع رؤى كارل ماركس الملتهبة. ولم يكن فى حياة مارشال وفكره من الجنون إلا بقدر جنون كلب «الباسيت» العجوز فى عصر يوم الأحد. ومما يثير الاهتمام أن هدوءه الداخلى والخارجى عكسا وجهة نظره فى الاقتصاد وكذلك فى العالم. لقد قرأ فى الفلسفة الألمانية ما يكفى ليعرف أنه لديه فلسفة الحياة. وحيث إن مارشال لم يكن مؤيداً للخداع.. فإنه يخبرنا على الفور بمجرد فتح كتابه «مبادىء الاقتصاد» "The Principles of Economy" المنشور عام ١٨٩٠ بأن: «الطبيعة لا تقفز قفزات مفاجئة».

وفى حين كانت قوى أبولو وديونسيس تتصارع فى عقل ميل، والثورات تتفجر فى عقل ماركس.. كان مارشال ثابتاً مثل جبال الألب، وكان مثل سابقيه تنتابه رؤى مثالية لعالم أفضل، ولكنه لم ينخدع أبداً، ولم يترك التحليل الدقيق.

«فى كل مرحلة من مراحل الحضارة.. كان الشعراء فى شعرهم ونثرهم يسعدون برسم صورة للماضى، الذى كان «عصراً ذهبياً» حقيقياً، وذلك قبل

أن يشعروا بضغوط الذهب المادى المجرد. كانت الصور الشعرية التى نظموها جميلة، وكانت تحفز التخيلات الجميلة والعزائم، ولكن كان نصيبها من الحقيقة التاريخية قليلاً... ولكن إذا أردنا معالجة الأمور بشكل موثوق به.. فإن تجاهل العيوب العالقة بالطبيعة الإنسانية يعتبر أمراً أسوأ من الحماقة»[٧].

وبالرغم من ذلك.. كان مارشال يعتقد أن العالم يمكنه أن يتحسن، ولكن بالتدريج. ففى حين اتبع الاقتصاديون الكلاسيون مدخلاً علمياً مبنياً على نظريات نيوتن، بحثاً عن قوانين الطبيعة.. تحول مارشال إلى مدخل أكثر تطوراً. فقد حل تشارلز داروين وعلم الأحياء محل إسحق نيوتن والفيزياء؛ إذ سادت العلوم الفيزيائية / الرياضية القرن الثامن عشر ـ التى كانت تبحث فى الظواهر الطبيعية غير المتغيرة ـ واتبعها علماء الاقتصاد. ومع انقضاء القرن التاسع عشر.. صعدت علوم الأحياء التى تركز على الظواهر العضوية المتطورة إلى الصدارة، واتبع الاقتصاديون بقيادة جون ستيوارت ميل، هذه العلوم. أما مارشال.. فقد ذهب بهم أبعد من ذلك.

وتعتبر النظرية الحدية لألفريد مارشال تطبيقاً لنظرية التطور على الاقتصاد. فرجل الأعمال والمستهلك لا يقفزان قفزات كبيرة، ولكنهما يحاولان تحسين موقفيهما خطوة بخطوة. ويتكيف جميع الأفراد والشركات والحكومات مع تغيرات الأسعار، وبذلك.. فإن البقاء هو للمؤسسات الأفضل، وتقوم الأسعار المنخفضة بطرد المؤسسة الأضعف. وتجبر ضغوط المنافسة المؤسسات على تخفيض النفقات. وبالرغم من أن النتائج النهائية تتشابه بالفعل مع اقتصاديات آدم سميث المعتمدة على نظريات نيوتن، إلا أن مارشال يعلمنا كيف نفحص بدقة القرارات الفردية طوال الوقت. فالنظرية الحدية تمهد الطريق لتطور اقتصاد الوحدات الوحدوى، وهذا الاقتصاد يقنعنا بأن اللاعبين سوف يعيدون النظر فى مواقفهم، ويقررون اتخاذ خطوات جديدة، إذا كان العائد يفوق التكلفة. وفى حالة ركود العائد والتكلفة فقط يمكننا افتراض سلوكاً نيوتونياً ثابتاً (نسبة إلى نيوتن).

«فمحور الاهتمام الرئيسى للاقتصاد هو الإنسان المكره ـ شاء أو لم يشأ ـ على التغيير والتقدم». وتستخدم الفروض الجزئية الثابتة كعناصر مساعدة مؤقتة للمفاهيم الديناميكية ـ أو البيولوجية بمعنى أصح. ولكن الفكرة المحورية للاقتصاد تستند إلى القوة الحيوية والحركة، إذا كان محور المناقشة هو أسس العلم(٨).

عاش مارشال حياته بعقيدة التدرج، وكانت لديه الجرأة لأن يكون حذراً، بطيئاً جداً أحياناً. وفى حين توصل مارشال إلى عديد من أفكاره فى أوائل السبعينيات من القرن التاسع عشر.. فإن كتاب المبادىء نشر بعد ذلك بسنوات عديدة، لدرجة أن النقاد استخفوا بادعاء حداثة أفكاره، بالرغم من أن العلم الحديث أظهر أن عديداً من مبادئه ظهر فى محاضرات، قبل عشرات السنين من ظهورها مطبوعة.

ولحسن الحظ.. فإن كتاب المبادىء ظل فى الأذهان لفترة طويلة، إذ ظهر لأول مرة فى ١٨٩٠، وازدادت المبيعات سنة بعد أخرى، إلى أن بلغت القمة عام ١٩٢٠ . وقد صدرت ثمان طبعات أثناء حياة مارشال، ولا تزال كتب الاقتصاد الجزئى الحديثة تعتمد على هذا الكتاب، ويختلف كتاب المبادىء عن الأعمال المعاصرة من عدة نواحٍ، هى: **أولاً**: لم يستطع مقاومة التفاهات الأخلاقية. فمن الحين للحين.. كان مارشال ينزلق إلى إعطاء نصيحة مثل نصائح الأطفال. وفى حين آخر كان يبدو عليه أنه الشخص المناسب لحل خلاف بين الأطفال، وأنه الشخص غير المناسب لحل خلاف بين الأطفال، وأنه الشخص غير المناسب لحل الخلافات التجارية الصعبة. ولحسن الحظ.. لم يكن مارشال يظهر دائماً وكأنه يخاطب مؤتمراً لمديرات المدارس من العصر الفيكتورى. **ثانياً**: بالمقارنة مع الكتب المنهجية الحديثة الموجهة غالباً إلى الطلاب، والمتخصصين.. فإن كتاب المبادىء عادة ما يتحدث مباشرة إلى الأفراد العاديين. فعلماء الاقتصاد لايستطيعون الاختباء داخل النظريات البحتة، ولكن عليهم أن ينظروا إلى العالم ويحاولوا تطويره بالوسائل التى

يبتكرونها. ومارشال يضع نماذج معقدة، ولكنه يدخر التعقيد إلى التذييلات (الهوامش) والملاحق. أما فى النص الرئيسى.. فإنه يستخدم لغة إنجليزية سهلة فى متناول الجميع . وقد حذر مارشال من أن النماذج الأنيقة ذات البراهين البارعة ذات خطوات الاستنتاج المطولة» قد تصبح لعباً علمية، بدلاً من أن تكون أداة عمل عملية» . فإذا كان مارشال يريد لعباً.. فقد كان بإمكانه أن يظل مع عمته، ويلعب لعبة رعاة البقرة والهنود، ولكنه بدلاً من حث عن مهنة نبيلة، وحث الآخرين على اتباع خطواته. وقد اتبعه الآخرون فعلاً. ومع صدور أول طبعة من كتاب المبادىء، كان تلامذته يشغلون أكثر من نصف كراسى الأستاذية فى علم الاقتصاد فى المملكة المتحدة. ومع زيادة عدد هذه الكراسى، زاد عدد أتباع مارشال الذين يشغلونها.

وبالرغم من أن مارشال بدأ كعالم رياضيات.. فإنه كان يخشى أن يشغل الاقتصاديون أنفسهم بالحسابات لدرجة فقدان العلاقة بالاقتصاد. وظل ريكاردو دائماً بطلاً بالنسبة لمارشال؛ لأن ريكاردو كان يفكر كعالم رياضيات دون اللجوء إلى الرموز الغامضة والصيغ السرية. وقام مارشال بترجمة أفكار ريكاردو وميل إلى معادلات تفاضل وتكامل، ولكنه لم يدع أبداً مجادلاته الاقتصادية تعتمد ـ بصورة مطلقة ـ على براهين رياضية، وقد أوضح مارشال نظامه فى خطاب جذاب:

١ ـ استخدم الرياضيات كلغة الاختزال، بدلاً من استخدامها كمحرك للبحث. ٢ ـ التزم بها حتى النهاية. ٣ ـ ترجمها إلى اللغة الانجليزية. ٤ ـ صورها فى أمثلة مهمة من الحياة الحقيقية. ٥ ـ أحرق الرياضيـات. ٦ـ إذا لم تنجح الخطوة ٤ ، أحرق ٣. وهذا ما كنت أفعله عادة.

لا غرابة إذن فيما أورده بيجو من أن مارشال كان يقرأ الأبحاث الرياضية أمام المدفأة. وربما خففت مناورات مارشال من ذنبه، وهو إخفاء المنحنيات الرياضية أسفل مهده، بنفس طريقة إخفاء الأطفال للرسومات ذات الأشكال المتعرجة.

كان مارشال أقل أناقة بالنسبة للأسلوب الاقتصادى مما يوحى به الخطاب السابق. ومثلما فعل ميل.. تجنب مارشال الفخ الكلاسيكى، وهو إعلان قوانين اقتصادية جامدة . فالتاريخ له مكان فى الاقتصاد مع النظرية الاستنباطية: «لم يكن الخطأ الرئيسى للاقتصاديين الإنجليز فى بداية القرن هو تجاهلهم للتاريخ والإحصاء، بقدر ما كانت نظرتهم للإنسان كما لو كان كمية ثابتة... فأنا لا ألحق بالتعاليم الاقتصادية أى شمولية أو عالمية، فهى ليست الحقيقة الصلبة، بقدر ما هى وسيلة لاكتشاف هذه الحقيقة الصلبة». وطبقاً لما قال جون نيفيل كينز، John Neville Keynes، استخدم مارشال «الاقتصاد السياسى الاستنباطى الموجه بالملاحظة». وباكتشافه الحل الوسط الذهبى بين البرج العاجى والبيت الشعبى، بين النظرية البحتة والحقيقة الأرضية.. دافع مارشال عن الاقتصاد ضد الهجوم الشرس من علماء الاجتماع وعلماء الأخلاق.

وبدلاً من أن يأخذ مارشال دور نيوتن الاقتصاد، فضل دور داروين، وكان ينظر إلى المؤسسات ويطالع ماهية رد فعلها للتغيرات البيئية: «فوجهة الاقتصادى يجب أن تكون البيولوجيا الاقتصادية»(١٣).

الزمن الاقتصادى - المدى القصير والمدى الطويل:

لم تُبن روما فى يوم واحد، ولم يتطور الإنسان من طور القرد فى أسبوع. يقول داروين إن ألف سنة قد تكون من الناحية البيولوجية غير ذات أهمية، إلا أن الحياة القصيرة للكائن المتحول يمكن أن تقرر مستقبل النوع. وقد تحقق مارشال من أن الزمن الاقتصادى ــ مثل الزمن البيولوجى ــ ليس متزامناً مع ساعة بج بن فى لندن؛ ففترة عشر سنوات لا تتيح للمؤسسة أن تفعل عشر مرات قدر ما تفعله فى سنة واحدة. وبالنسبة لبعض المعاملات.. فإن سنة واحدة هى فترة طويلة جدا، وبالنسبة للبعض الآخر.. فإنها لا تكاد تكفى للاستعداد.

ففى خلال كل خطوة من خطوات التحليل الاقتصادى يمر الوقت. ففى أثناء حظر البترول الأول الذى فرضته منظمة الأوبك عام ١٩٧٣ .. أمسك السياسيون

بخناق الاقتصاديين، مع التضييق عليهم، لكى يجيبوا عن الأسئلة الحيوية التالية: متى يستجيب المستهلكون لارتفاع الأسعار ويرشّدون الاستهلاك؟ متى تستجيب شركات السيارات، جنرال موتورز وفورد وكرايزلى، وينتجون سيارات أصغر؟ متى تستجيب شركات البترول، وتبحث عن البترول فى أماكن أخرى؟ كل ذلك حدث فى نهاية الأمر، ولكن ليس فى نفس الوقت.

حاول مارشال أن يعزل اتجاهات معينة، وكذلك الفترات الزمنية التى تعمل هذه الاتجاهات خلالها، فالزمن هو «السبب الرئيسى لهذه الصعوبات.. مما يحتم على الإنسان وإمكاناته المحدودة أن يتقدم خطوة بخطوة. ثم يجيب عن سؤال معقد، مع دراسة كل قسم على حدة، ويجمع حلوله الجزئية فى حل شامل ـ تقريباً ـ للمعضلة كلها». وقد ابتكر مارشال نظاماً بارعاً للتحليل أثناء بحث أحد العناصر، حيث كان يلقى بقية العناصر، فى «السجن» وبذلك تبقى فى الانتظار لحين معالجة العنصر المنفرد، وهذا السجن «مع فرض بقاء الأشياء الأخرى على حالها» لم ينكر وجود الأمور الأخرى، ولكنه يهمل تأثيرها المزعج لفترة ما. وكلما حددت القضية، أمكن تناولها بدقة أكبر»[١٤].

كان الاقتصاديون الأوائل قد نصحوا «بفرض تساوى باقى العوامل»، ولكن مارشال استنبط أسلوباً واضحاً، وبنى نظريات دقيقة تعتمد عليه. وما تزال الكتب المنهجية حتى اليوم تعتمد على أسلوب مارشال.

لقد تعارض أسلوب مارشال تعارضاً شديداً مع تحليل التوازن العام النظرى والرياضى، الذى وضعه الفرنسى ليون والراس، Léon Walras فى القرن التاسع عشر. وفى حين يلقى أسلوب ولاراس التجريدى اهتماماً بسيطاً فى كتب طلاب الجامعة.. فإن بعض واضعى النظريات البالغى الذكاء واصلوا عمل ولاراس، ومنهم عدد من الحاصلين على جائزة نوبل فى الاقتصاد مثل كينيث أرو، Kenneth Arrow، وجيرارد ديبرو، Gerard Debreu، وفرانك هان، Frank Hahn، من

كامبردج. (ملاحظة طريفة: بالرغم من الرياضيات المرهقة التي يتضمنها تحليل ولاراس، فقد فشل مرتين في اختبار الرياضيات اللازم لدخول الجامعة).

ويساعدنا المثال التالي على فهم نظام مارشال.. لنفترض أننا بصدد إخراج منتج جديد يسمى «زبادى يوبى»، وهذا المنتج يستجيب لسوق معينة، والسبب أنه منتج فى «وول ستيريت» وأفضل من ذلك.. يقوم عمال التجميع بإسقاط قطع من الشيوكولاته داخل الزبادى أثناء التخمير. مع إطلاق شعار «كل أثناء صعودك للقمة دون زيادة وزن»؛ مما يدفع الناس لشراء الزبادى. وفى هذه الحالة.. فإن المعروض من الزبادى يظل ثابتاً فى أى يوم من الأيام. تعطلت أجهزة الكمبيوتر، وخرج عدد أكبر من المعتاد من الناس فى استراحة الغداء، ومن الطبيعى أن يظل بعضهم جائعاً. وعندما تصل هذه المعلومات إلى سمع المنتج بوجود طلب زائد.. فإنه سوف يعبىء مزيداً من الزبادى، ويخرجها من المصنع. وللأسف.. يكون اليوم قد انتهى عند ظهور المعروض الجديد، ولذلك ففى إطار اليوم الواحد.. يمكن أن يتذبذب الطلب وحده.

فإذا زاد الوقت المتاح.. فإنه بإمكان المنتجين زيادة العرض خلال الفترة الزمنية الثانية، والتى يسميها مارشال «المدى القصير»، فهى الفترة التى تستمر مدة كافية بما يسمح للمنتجين بتغيير الكميات المعروضة. ولزيادة العرض.. يجب أن يستخدموا عمالة أكثر، ويشتروا مواد خام أكثر، ولكنهم لا يستطيعون التوسع أكثر من اللازم، فالمدى القصير لدى مارشال لا يستمر فترة طويلة بما يكفى لبناء مصانع أكثر. ماذا يحدث لو قام منتجو الزبادى بالإعلان فى التلفزيون، مما يرفع الطلب بشكل كبير؟ على المدى القصير.. فإنهم يستطيعون شراء مزيد من اللبن، واستئجار عمال أكثر لإضافة الشيوكولاته. أما إذا انخفض الطلب.. فإنه بإمكانهم فصل العمال، وتقليل مشترواتهم من اللبن.

وحيث إن سعة المصنع محدودة على المدى القصير.. فإن المنتجين يواجهون قانون تناقص الغلة؛ أى إن حشر عدد أكثر من اللازم من العمال فى غرفة واحدة،

لابد وأن يقلل من إنتاجيتهم. وبالطبع.. سيظل المنتجون يستخدمون القاعدة الحدية وينتجون الزبادى إلى أن يتعادل الثمن الذى يتلقونه مع تكلفة أخر وحدة منتجة.

فى المرحلة الثالثة، «المدى الطويل».. يتوفر الوقت الكافى للمنتجين لبناء مصانع جديدة، مع تنويع العمالة والخامات. وإذا استمر الطلب على الزبادى فى الارتفاع.. فإنه بإمكانهم توسعة المصنع من «وول ستريت» حتى «ميناء نيويورك»، أو إقامة مصنع فى الجانب الآخر من الميناء، بل أنه بإمكانهم إحلال رجال آليين (روبوت) محل العمالة.

على المدى الطويل.. قد يدخل منتجون جدد فى الصناعة، وقد يخرج منتجون قدامى خاسرين. أما الباقون.. فهم يحصلون على الأرباح الاعتيادية. وهكذا... يصبح الإنتاج مستقراً على المدى الطويل.

ما طول الفترة الزمنية فى المدى الطويل، و«المدى القصير» ؟ إن ذلك يعتمد على كل صناعة على حدة؛ إذ تتحدد هذه الفترات بالفترة المستغرقة لتغيير رأس المال والطاقة الإنتاجية. ومن الواضح أن مارشال لم يناقش الزبادى، ولكنه ناقش السمك فى صناعة السمك؛ إذ افترض مارشال أن الأمر يتطلب عاماً أو اثنين لاستخدام سفن جديدة، ومع تقدم التكنولوجيا.... فقد تتقلص فترة المدى الطويل «فترة رد الفعل».

ولا يزال لدى مارشال كثير مما يقدمه عن حجم المؤسسات، فقد كان الكلاسيكيون يقررون عادة ـ أنه مع زيادة حجم المؤسسة ـ يظل متوسط التكلفة ثابتا؛ فزيادة الحجم عامل محايد، لا يؤدى إلى مساعدة أو إيذاء المؤسسة. وبحلول زمن مارشال.. تحدث معظم الاقتصاديين عن تناقص الغلة. فعند نقطة معينة.. أدى التوسع فى حجم المؤسسة إلى عدم كفاءة عملياتها، ولاحظ مارشال فى أمثلته عن السمك أن الصيد الزائد عن الحد قد يستنفذ الموارد، وبالتالى يجبر الصيادين على الإبحار لمسافة أبعد عن الشاطىء، بحثاً عن الصيد. ومع ذلك تساءل مارشال: ماذا لو أدى كبر بعض الصناعات إلى زيادة كفاءتها؟ فالشركات الأكبر عادة ما يتوفر

لها ائتمان أرخص وآلات أكثر كفاءة. وحالياً.. تستطيع شركة جنرال موتورز أن تحصل على قرض بسعر فائدة أرخص، مما يمكن أن تحصل عليه أنت. وأكثر من ذلك تستطيع هذه الشركة شراء خط تجميع أفضل مما تستطيع أنت.

وقد بيّن مارشال مصدرين مختلفين لزيادة العائد بالنسبة إلى حجم النشاط، من ناحية الوفورات الداخلية الناتجة عن تقسيم العمل، وشراء المواد بالجملة، واستخدام الآلات الضخمة المتخصصة التى لا يستطيع صغار المنتجين شراءها. تخيل وجود شركة «تشاك للعبور»، وهى شركة صغيرة تنقل الأرستقراطيين عبر الأطلنطى، على متن سفن صغيرة فاخرة، وتبلغ تكلفة الشخص على الشركة ثلاثة آلاف دولار. إذا استطاعت الشركة أن تجذب ألف راكب، فبإمكانها استخدام الباخرة الضخمة كوين اليزابيث الثانية، بدلاً من السفن الصغيرة. وبوجود الألف راكب فوق سطح الباخرة، تصبح تكلفة الراكب فقط «ألفى» دولار. وإذا استطاع «تشاك» بذلك زيادة حجم مبيعاته.. فبإمكانه الاستغناء عن القوارب الصغيرة، والإبحار بطريقة أرخص (بالتالى إذا استمر «تشاك» فى التوسع.. فقد ترتفع التكلفة بسبب عدم كفاءة الإدارة ومشاكل التسويق).

ومن ناحية أخرى.. هناك الوفورات الخارجية، التى تنبع من عوامل خارج المؤسسة المعنية. فإذا كانت الصناعة تميل إلى التمركز فى منطقة معينة.. فإن المجتمع قد يمدها بسوق ثابت منظم للعمالة الماهرة، ثم تأخذ المؤسسات دفعة إضافية؛ لأن التجارة فى المواد الثانوية تنشأ مقدمة للصناعة مواد رخيصة التكاليف:

«يتم تقدير العمل الجيد بشكل سليم فالاختراعات والتحسينات التى تطرأ على الآلات والتنظيم العام للعمل، كلها ذات مزايا، تتم مناقشتها على الفور. وإذا توصل رجل ما إلى فكرة جديدة، يتبناها الآخرون ويرفقون معها اقتراحاتهم.. فإنها بذلك تصبح مصدراً لمزيد من الأفكار الجديدة. وفى نفس الوقت، تنمو تجارة المواد الثانوية بجوار الصناعة، وتمدها بالأدوات والمواد، وتنظم تدفقها، وتؤدى من عدة نواح إلى الاقتصاد فى موادها»(١٥).

ولإدراك العلاقة بين الصناعة وموردبها.. فإننا لا نحتاج سوى أن نفكر فى العلاقة غير المشروعة نوعاً بين معهد ماساشوسيتش للتكنولوجيا، ومجموعة المؤسسات العالية التقنية الموجودة فى طريق ١٢٨ قرب بوسطن. وهذا مثال قديم: يستخرج عمال المناجم فى بنسلفانيا الفحم الذى يتم تحويله إلى فحم الكوك، الذى يغذى الأفران القريبة المستخدمة فى صناعة الصلب.

إذا كان مارشال مصيباً فيما يتعلق بتزايد الغلة.. فإن المشروع الكبير يعتبر جيداً، وبالتالى لن تستمر المنافسة طويلاً؛ لأن المؤسسات الكبيرة سوف تهزم دائماً المؤسسات الصغيرة؛ أى إن مؤسسة مثل «تشاك للعبور» سوف تسحقها شركة «كونارد» ويسود الاحتكار كل صناعة. والسؤال: الآن كيف استطاع مارشال ـ وهو مؤيد رئيسى للمنافسة ـ أن يتعايش مع هذا المفهوم الضمنى النظرى؟

استطاع مارشال أن يتعايش معه؛ لأنه اعتقد أن المؤسسات لن تستمر إلى الأبد. فقد لجأ ثانية إلى علم الأحياء واستعار تشبيهاً عضوياً: بإمكان رجال الأعمال تمويل وإنشاء مؤسسة صغيرة حيوية، وبإمكانهم تغذيتها ورعايتها إلى أن تصل إلى مرحلة النضج. ولكن سرعان ما يموت رجال الأعمال، ويخلفهم مدراء أقل موهبة، وتزدهر شركات جديدة ينشئها رجال أعمال آخرون:

«لا تزال الطبيعة تضغط على العمل الخاص، عن طريق تحديد طول عمر المؤسسين الأصليين وتحديد أضيق لذلك القسم من حياتهم، الذى تكون فيه قدراتهم فى كامل حيويتها. وبذلك ـ وبعد فترة ـ تقع قيادة العمل فى أيدى أشخاص أقل حيوية وعبقرية خلاقة، بل أقل اهتماماً فى ازدهار العمل. وإذا تحولت إلى شركة مساهمة.. فقد تحتفظ بميزة تقسيم العمل والمهارات والآلات المتخصصة، بل قد تزيد من هذه الميزات عن طريق زيادة رأس المال، وفى ظل ظروف مواتية قد تؤمن لنفسها مكانة دائمة وعظيمة فى عملية الإنتاج. ولكن من المحتمل أن تفقد كثيراً من مرونتها وقوتها الدافعة، لدرجة أن المزايا لا تصبح فى صالحها تماماً، فى سباقها مع الشركات المنافسة الأصغر والأحدث» (١٦).

فى رأى مارشال أن النحيف والجائع سوف يأكلان من أرباح السمين والكسول. وفى حين بدت نظرية مارشال قديمة بالنسبة لأمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، وذلك مع نشأة الشركات العالمية العملاقة.. فإن نفس النظرية تبدو الآن معاصرة إلى حد ما، فحتى مؤسسة ضخمة مثل، آى بى إم، IBM بدأت تلعق جراحها مؤخراً. فرجال الأعمال الجدد قد يكونون راغبين فى تحمل قدر من المخاطر، أكثر من الشركات القائمة المسئولة، أمام حملة الأسهم. حتى إذا كانت مغامرات البداية عادة ما تفشل (ربما نتيجة تحمل مخاطر حمقاء).. فإن قصة نجاح واحدة خرجت من جراج، تستطيع أن تضيع مستقبل عشرات من نواب الرؤساء المختصين بالتخطيط طويل المدى، والذين يعملون داخل ناطحات السحاب الزجاجية اللامعة. وفى أثناء السبعينيات والثمانينيات، جاءت أغلبية فرص العمل الجديدة فى الولايات المتحدة من شركات، تعداد موظفيها أقل من ٥٠٠ موظف.

فى السنوات الحالية، وفى محاولة لخلق مشروعات «أقل حجماً وعمالة».. قام عديد من المؤسسات بتخفيض حجمها عن طريق بيع أقسامها، فلم تعد شركة التقطير الوطنية تنتج الخمور، وغيرت اسمها إلى شركة «كوانتم للكيماويات». وفى مارس ١٩٨٩ خصصت مجلة «بيزنيس ويك» قصة الغلاف للسؤال التالى: «هل شركتك أكبر من اللازم؟»[١٧]. وفى نفس الوقت، اندمجت عديد من الشركات مع بعضها، مثل شركة تايم وشركة وارنر للاتصالات؛ أملاً فى الحصول على مشاركة فعالة فى الخبرة والأصول. ومنذ نشر كتاب مارشال «المبادىء» ـ قبل مائة عام ـ ورجال الأعمال يكافحون باستمرار من أجل توازن المرونة واقتصاديات الحجم الكبير للمشروع: لاكتشاف الحجم الأقل لمشاريعهم.

المستهلك الحدى:

حتى الآن ناقشنا المشروع دون دراسة المستهلك. وهذه الدراسة وحيدة الجانب لم تكن لتسعد مارشال، لأنه كان متمرداً على الادعاء الكلاسيكى، الذى ردده

ريكاردو وميل بأن قيمة المنتج تعكس الساعات المبذولة فى إنتاجه. وقد صرح مارشال ـ فى استعارة شهيرة ـ بأن العرض والطلب متساويان فى القوة: «يمكننا أن نجادل ما إذا كانت القيمة تحكمها المنفعة أو تكلفة الإنتاج، بنفس المنطق الذى نجادل فيه ما إذا كان الحد الأعلى أو الأسفل للمقص هو الذى يقص الورق»[١٨]. والآن.. وبتشجيع من مارشال، دعونا نضم الطلب والعرض معاً باستخدام الأدوات الحدية.

آخر مرة تركنا فيها أصدقاءنا فى «وول ستريت»، كانوا متشوقين لأكل الزبادى. طلب «ديبى» للزبادى مبنى على الإشباع الإضافى الذى تحصل عليه من كل علبة زبادى. ويسمى مارشال هذا «المنفعة الحدية»، ولكن جيفونز أصر على تسميته «المنفعة الأخيرة»، ولحسن الحظ لم يقوما بإلقاء المحاضرات معاً، وإلا كانت ستقوم مناظرات مملة.

أكد مارشال وجيفونز أن منفعة «ديبى» الحدية سوف تتناقص مع كل علبة زبادى؛ أى إن العلبة الأولى سوف تعطيها متعة قيمتها دولار واحد، والثانية ٠,٩٠ دولار فقط، والثالثة قد تعطيها ٠,٧٠دولار، والرابعة ٠,٦٤دولار، وهكذا. وفى النهاية فإن فكرة أكل ملعقة واحدة أزيد سوف يفقدها شهيتها.

وعند اتخاذ القرار بشراء الزبادى.. سوف تقارن «ديبى» سعر البيع بمنفعتها الحدية، فإذا كان سعر بيع الوحدة دولار واحداً.. فإنها سوف تشترى علبة واحدة فقط (لأن الثانية تكلف دولار، وتعطى متعة قيمتها ٠,٩٠ دولار). وإذا كان السعر ٠,٦٥ دولار.. فإنها سوف تشترى ثلاثة، حيث إن العلبة الثالثة تكلف ٠,٦٥، دولار وتعطى منفعة ٠,٧٠ دولار. ولكن إذا استمرت واشترت الرابعة.. فسوف تحصل على منفعة ٠,٦٤ دولار فقط. ويرسم الاقتصاديون منحنيات طلب منحدرة لأسفل، متبعة المنفعة الحدية المتناقصة، فى كل حالة قارنت «ديبى» المنفعة الحدية (الربح) للزبادى بتكلفته الحدية (السعر).

ثم أعلن مارشال «قانون الطلب»: كلما أردنا زيادة المبيعات، يجب تخفيض السعر أكثر.. إذ تزيد كمية الطلب مع انخفاض السعر، وتتناقص مع ارتفاعه»[١٩].

وبالطبع كان مارشال يعلم أن السعر وحده لا يحدد الطلب، وذكر عدة عوامل أخرى، ووضعها في سجن «مع فرض بقاء الأشياء الأخرى على حالها»، وأهم العوامل التي ناقشها هي: (١) أذواق وعادات وأفضليات المستهلك. (٢) دخل المستهلك، (٣) سعر السلع المنافسة. فإذا قرأت «ديبي» في جريدة «وول ستريت» أن أكل الزبادي يساعد الإنسان في لعبة الراكيت.. فإن لعابها يسيل فوراً، وتتغير أذواقها. وحتى إذا ظل السعر على حاله.. فإنها سوف تشتري مزيداً. ولكن في طرح مثال قانون الطلب.. فإن مارشال طلب منا أن افتراض أن الذوق والدخل والأسعار الأخرى ظلت على حالها. وإذا كان هذا هو الوضع، فإن قانون الطلب عادة ما يصمد (أيّ تغيير في أحد العوامل المفترض ثباتها يحرك منحنى الطلب).

ثم ذكر مارشال مبدأ الحدية ثانية، وسأل نفس السؤال الذي سأله العالم الحدي هنري يانجمان: ما خطوة «ديبي» التالية؟ إن المستهلك العاقل ينظر باستمرار للأمام، ويقارن الإشباع الإضافي الذي توفره له سلعة ما، مع الإشباع الناتج من سلع أخرى. فإذا كان إنفاق دولار على الزبادي يعطي متعة قيمتها دولار واحد، ولكن إنفاق دولار على شراب السوشي يعطي متعة ١,٢٠ دولار.. فإن «ديبي» يجب أن تشتري السوشي. إلى متى سوف تستمر في شراء السوشي؟ تذكر أنه طبقاً لقانون تناقص المنفعة الحدية، كلما اشترت أكثر، تناقصت قيمة السوشي لديها، ولذلك يجب أن تستمر في الشراء إلى أن تتعادل متعتها من السوشي مع متعتها من الزبادي. في مبدأ التوازن.. الدولار المنفق على جميع السلع يحقق نفس المقدار من المتعة، فإذا أعطى الدولار المنفق على سلعة «أ»، متعة أكبر من الدولار المنفق على سلعة «ب».. فإنه يجب على المستهلك أن يستهلك كمية أكبر من «أ» وكمية أقل من «ب» إلى أن تتساوى المنافع الحدية. يقول مارشال إن المستهلك «يراقب

السوق باستمرار لمعرفة ما إذا كان هناك شيء ما ينفق عليه قدر كبير من النقود، لدرجة أن يربح إذا ما استقطع قدراً قليلاً من خط الإنفاق هذا، وحوله إلى خط آخر»[٢٠].

ثم وضع مارشال إطار عمل مشابهاً للمنتجين مع زيادة الإنتاج؛ إذ إن التكلفة تميل للارتفاع، فقانون العرض عكس قانون الطلب؛ لأن العرض يرتفع فقط فى حالة زيادة السعر الذى يدفعه المستهلك. ويقارن المنتج التكلفة الحدية لإنتاج وحدة واحدة إضافية، مع المنفعة الحدية، وهى السعر (منحنى العرض يرتفع لأعلى، بينما ينزل منحنى الطلب لأسفل).

وبنفس الطريقة التى يقارن بها المستهلك دائماً المنفعة الحدية وراء إنفاق دولار واحد على عدة سلع، يقارن المنتج دائما المنفعة الحدية لإنفاق دولار واحد على رأس المال (الآلات)، مع المنفعة الحدية لإنفاق هذا الدولار على العمالة. فإذا كان الدولار المنفق على آلة جديدة يدرّ أكثر من ذلك المنفق على عامل جديد.. فإن المدير سوف يستثمر فى الآلات ويقلل من القوى العاملة. وفى مبدأ التوازن.. يعادل العائد الحدى من رأس المال العائد الحدى من العمالة.

افترض أن المشروع فى حالة توازن، ثم حدث أن حصل اتحاد عمال خط التجميع على زيادة فى الأجور. ماذا يحدث؟ ينخفض العائد الحدى من العمل (الناتج الحدى مقسوماً على الأجر) بالمقارنة مع العائد الحدى لرأس المال، ويقوم المدير بإحلال رجل آلى بدلاً من التجميع اليدوى، إلى أن تتعادل العوائد الحدية مرة أخرى. ولهذا السبب.. هاجم مارشال الاتحادات المؤيدة للمشاريع التى تجبر العامل على العمل، أو التى تجبر رب العمل على توظيف العمال، لأن ما تفعله هو إيذاء أعضائها فقط.

أحياناً تشجع الأسعار المدير على الاستغناء عن الإنسان الآلى، واستئجار عمال تجميع إذا ارتفعت أسعار الكهرباء أو انخفضت الأجور على سبيل المثال. ولا يوجد

عنصر التوازن هذا فقط بين رأس المال والعمل، بل يوجد بين الأرض والآلات الجديدة والآلات المستعملة والعمالة الماهرة، والعمالة غير الماهرة وغيرها. وإذا ارتفعت أسعار الأرض.. فقد يبنى المدير طابقاً آخر فوق المصنع، بدلاً من التوسع الأفقى.

ولا يجادل كتاب مبادئ مارشال فى أن كافة المنتجين يتصرفون حدياً أو بتعقل. ولكن إذا لم يفعل أحدهم ذلك.. فإن المنافسين سيحالفهم قدر أكبر من النجاح، وسيكون التطور الاقتصادى فى صفهم، وبالتالى.. سوف تخفق الشركة غير الرشيدة.

وسواء كانت العناصر الاقتصادية منتجين أو مستهلكين.. فإن أغلبهم يطبقون كلام هينى ياتجمان وإيفلين واف، Evelyn Waugh، وبـوكـارو بانزاى، ويغرقون في مقارنة لا تنتهى بين الخطوات الحدية.

من الذى يقرر السعر.. المنتج أم المستهلك؟ كلاهما؛ لأن تقاطع الطلب، مع العرض (مثل حدى المقص) يعطينا الثمن. وفى حين يركز الاقتصاديون الكلاسيكيون على العرض أكثر، فإن جيفونز يؤكد أكثر على الطلب. ولكن فكرة مارشال المقنعة، وهى «إن نقطة توازن العرض والطلب، اتسعت بحيث كشفت عن نظام كوبرنيكى شامل، تنتظم بموجبه كافة عناصر الكون الاقتصادية ـ كل فى مكانه ـ بواسطة تقابل وتفاعل متبادلين»[٢١].

لقد تمهل مارشال فى الرد على نظرية القيمة المتعلقة بالعمل، التى وضعها ماركس. إذ يبدأ مارشال بإقراره أن الإنسان لا يستطيع خلق أشياء مادية، بل يستطيع إعادة ترتيب الأمور لجعلها أكثر إرضاءً للآخرين. فالرأسماليون يساهمون فى إرضاء الآخرين بالمساهمة بنفوذهم، والعائد هو مكافآتهم مقابل الانتظار، ومقابل عدم الإنفاق ـ اليوم ـ على السلع الاستهلاكية. ويتكلم مارشال بقوة تجيز النقل المباشر هنا: ماركس والآخرون.

جادلوا فى أن العمل يخلق دائماً فائضاً أعلى من أجوره، وأعلى من استهلاك رأس المال الذى يساعده. وأن الضرر الذى لحق بالعمل، نابع من استغلال هذا الفائض بواسطة الآخرين. ولكن افتراض أن كل هذا الفائض هو ناتج العمل؛ يأخذ مايقومون فى النهاية باستخدامه كدليل إثبات كقضية مسلم بها، فهم لايحاولون إثباته، وهو ليس صحيحاً. أى ليس صحيحاً أن غزل الخيوط فى المصنع، بعد أخذ استهلاك الآلات فى الاعتبار، هو ناتج عمل العمال وحده، بل هو نتاج عملهم بالإضافة إلى رأس المال المستخدم. وأن رأس المال نفسه هو ناتج العمل والانتظار: وبذلك تكون عملية الغزل هى ناتج عدة أنواع من العمل والانتظار؛ فإذا اعترفنا بأنها ناتج العمل وحده وليس العمل والانتظار.. فإننا ـ بلاشك ـ نضطر للاعتراف بالمنطق القاسى الذى لايرحم، بأنه لايوجد مبرر للفائدة التى هى مكافأة الانتظار، لأن النتيجة متضمنة فى (الفرض الخاطىء)..... وإذا كان صحيحاً أن تأجيل (الاستهلاك) يتضمن عموماً تضحية من جانب من يقوم بالتأجيل (وهو أيضا وضع العمل الإضافى بالنسبة لمن يعمل)، وإذا كان صحيحاً أن التأجيل يمكّن الإنسان من استخدام أساليب إنتاج تكلفتها الأولية (ولكن بواسطة هذه الأساليب تزداد مجموع (المنافع)، تماماً كما يحدث بالنسبة لزيادة العمل، إذن لا يمكن أن يكون صحيحاً أن قيمة أى شىء تعتمد فقط على مقدار العمل المبذول فيه..... وكل محاولة لبناء هذه المقدمة المنطقية افترضت ضمنياً أن الخدمة التى يقدمها رأس المال هى هبة من الطبيعة، تقدم دون تضحية. وأنها بالتالى لا تحتاج إلى فوائد كمكافأة لها وحافز على الاستمرار، وهذه هى نفس النتيجة التى تحاول المقدمة الخاطئة إثباتها. إن هذا التعاطف القوى والمعاناة الشديدة من جانب رودبيرتوس، Rodbertus!! وماركس يحظيان دائماً باحترامنا، ولكن ما يعتبرانه الأساس العلمى لاقتراحاتهم العملية، لا يبدو أكثر من مجرد سلسلة دائرية من المجادلات؛ بهدف إثبات أنه لا يوجد مبرر اقتصادى للفوائد، فى حين أن هذه النتيجة

كانت طوال الوقت كامنـة فى الفرض الخاطئ، الذى بـدأ به بالرغم من أنها كانت ـ لدى ماركس ـ مغطاة بعبارات هيجلية غامضة كان يتباهى بها، كما قال بنفسه فى «المقدمة»(٢٢).

الاقتصاد المرن

أثناء تطوير نظرية الطلب.. قام مارشال بصقل واحدة من أهم الأدوات الاقتصادية، وهى المرونة. وحالياً.. تواجه أغلب المناقشات الاقتصادية ـ سواء كانت «إجمالية» أم «جزئية» ـ قضية المرونة. ويجب أن تعالج كل سياسة حكومية مشكلة المرونة سواء ضمناً أو صراحة، أى ما هذا الشبح الذى لا يمكن تجنبه، إن المرونة هى اسم آخر لمدى الاستجابة. ما مدى استجابة الناس لتغيرات الأسعار؟ هل يكيف الناس مشترواتهم عند ارتفاع أو انخفاض الأسعار؟ أم يستمرون فى شراء نفس المقدار؟ إن الإجابة بالطبع تعتمد على السلعة.

إذا ارتفع سعر سلعة ما، وخفض الناس مشترواتهم، نقول إن الطلب مرن . وإذا استمروا فى شراء نفس المقدار، يكون الطلب غير مرن. وبتحديد أكثر.. فإن المرونة هى النسبة المئوية للتغير فى الطلب، مقسومة على النسبة المئوية للتغير فى السعر. وإذا أدى تغير ١٠ ٪ فى السعر إلى تغير ١١ ٪ فى المشتروات، فالطلب عندئذ يكون مرناً، أما إذا أدى إلى تغير أقل من ١٠ ٪، فالطلب «غير مرن بالنسبة للوحدة» . (وإذا كان الطلب عالى المرونة، يلاحظ أن منحنى الطلب يكون أفقياً تقريباً، مشيراً إلى أن الناس تستطيع تكييف مشترواتها بسهولة . وإذا كان الطلب غير مرن بدرجة عالية، نلاحظ أن منحنى الطلب يكون رأسياً تقريباً، مشيراً إلى أن الناس سوف تشترى نفس الكمية، بغض النظر عن السعر).

لماذا تعتبر المرونة مهمة؟ دعونا نطالع بعض الأمثلة البسيطة. فى جميع أفلام جيمس بوند تقريباً.. يظهر نفس السطر، يقول بوند: «فودكا مارتينى، مع الخض وليس التقليب». إذا شرب بوند كأسا واحدة ـ واحدة فقط ـ «فودكا مارتينى،

وبحيث لا يبدلها بكأس «جين مارتينى» أو كأساً من اللبن.. فإن طلبه غير مرن. وبغض النظر عن السعر، فإنه سوف يشرب كأساً واحداً فودكا مارتينى، وهذا يجعل عامل البار فى وضع أفضل؛ إذ يستطيع أن يطلب مليون دولار نظير الشراب. ولحسن الحظ بالنسبة لبوند.. فإن هناك بارات أخرى سوف تنافس هذا البار.

ومع ذلك.. تنشأ المشاكل عندما يقابل المستهلك غير المرن احتكاراً؛ فإذا كانت هناك شركة واحدة موردة للأنسولين مثلاً، فإنها تتقاضى سعراً باهظاً. لذلك عندما يواجه المحتكر مستهلكين غير مرنين.. فإن التشريعات الحكومية تتدخل عادة، وبذلك تكون العلاقة بين شركات الأدوية والحكومة غير مستقرة. فالحكومة تريد من الشركات إجراء الأبحاث لعلاج المرضى، ولكن الشركات تريد تأكيداً بأن الحكومة لن تستولى على اكتشافاتها العبقرية، وتتركها مفلسة. ومن الناحية الأخرى.. يجب أن تضمن الحكومة أنه لن يتم ابتزاز المرضى المحتاجين اليائسين.

لهذا السبب.. يتبع معظم الاقتصاديين نصيحة مارشال، بوجوب تنظيم عديد من الاحتكارات، مثل: مرافق الماء والكهرباء. وحيث إنها احتكارات طبيعية (فليس من الكفاءة ترك عدة شركات مياه تمد الأنابيب فى شارع واحد).. فإن مارشال يقترح أن تشجعهم الحكومة على التوسع فى الإنتاج من خلال الشركات التابعة، أو على الأقل تضمن لهم استمرار الربحية.

وعادة ما يكون الطلب على السلع عالى المرونة، فإذا ارتفع سعر خس آيسبرج، سوف يتحول الناس إلى خس بوسطن أو خس رومين، أو حتى إلى الأعشاب الموجودة فى الحديقة الأمامية لمنزلهم.

ما الذى يحدد درجة المرونة؟ إن أدل وأوضح عامل هو عدد البدائل المتاحة. وكلما كثرت البدائل، زادت سهولة تحول المستهلك. فالطلب على الممثل روبرت دى نيرو قد يكون غير مرن، فالبديل الوحيد هو آل باتشينو، بالرغم من أن البعض قد يقول بديل مثالى تقريباً. ولقد عرضت هوليود دور ريك فى فيلم كازا بلانكا

على رونالد ريجان أولاً، وليس همفرى بوجارت، وهما ليس بديلين، ولكن مارشال يقول إن الجميع ليسوا راشدين.

ثانيا.. كلما زاد الوقت المتاح لإيجاد البدائل، كان الطلب أكثر مرونة. وابتداءً من خريف ١٩٧٣ إلى صيف ١٩٧٤، ارتفع سعر وقود السيارات ٤٥ ٪ . وخلال هذه السنة انخفض الطلب حوالى ٨ ٪ فقط، وبعد عدة سنوات أظهر المستهلكون مرونة أكبر؛ إذ اشتروا سيارات أصغر، وركبوا النقل العام، ووضعوا العوازل فى منازلهم، وخفضت شركات الطيران وزنها بتخفيض عدد المخدات والبطاطين والمجلات، كذلك خفضت مقدار الطعام والوقود المحمول، وخففت كذلك الطلاء الخارجى للطائرة.

ثالثا.. ناقش مارشال كذلك السلع غير المهمة فى ميزانية المنزل، وقال إنها قد تكون غير مرنة.. إذا ارتفع سعر أعواد تنظيف الأسنان بحدة، فالقليل قد يخفضون الاستهلاك لأنها تشكل نسبة صغيرة جداً من الميزانية، بحيث لا يقلق الناس بشأنها.

كيف يتسلل موضوع المرونة فى كل سياسة حكومية؟ نوضح ذلك بمزيد من الأمثلة:

١ ـ كل عدة أعوام، ترفع شركة MTA فى مدينة نيويورك سعر تذاكر مترو الأنفاق، محتجة بأن الأسعار الأعلى تعنى دخلاً أكبر لموازنة الميزانية، وتفترض المناقشة أن الطلب غير مرن نسبياً، فإذا كان رد فعل عدد كبير من الناس هو استعمال الحافلة أو التاكسى أو عربات تجرها الخيل.. فإن الدخل الكلى سوف ينخفض.

٢ ـ تحت اسم اقتصاد ريجان.. قامت الحكومة الفيدرالية بخفض الضريبة على الدخل من الفوائد عام ١٩٨١، وقد ناقش المؤيدون بأن مدفوعات الفوائد العالية

بعد الضريبة تؤدى إلى زيادة الادخار وخفض الاستهلاك. وتفترض المناقشة أن عرض المدخرات كان مرناً فى استجابته لمعدلات الفائدة، وهو وضع مثير للجدل لم تتم برهنته.

٣ ـ منذ أوائل الثمانينات وحتى الآن.. عانت الولايات المتحدة من عجز فى ميزان التجارة الخارجية. وفى عام ١٩٨٥ وجه عديد من الاقتصاديين اللوم إلى ارتفاع سعر الدولار؛ أى إن السلع الأمريكية كانت مرتفعة الثمن بالنسبة للأجانب، بينما كانت سلعهم أرخص بالنسبة للأمريكيين. واقترح هؤلاء الاقتصاديون خفض الدولار عن طريق شراء عملات أجنبية، وبذلك تبدو السلع الأمريكية أرخص، ومن ثم تشجع الأجانب على شراء مزيد منها (وجعل السلع الأجنبية أغلى بالنسبة للأمريكيين). وتفترض المناقشة هنا أن الطلب المحلى على السلع الأجنبية مرن. ومن ربيع عام ١٩٨٥ حتى خريف ١٩٨٧.. انخفضت قيمة الدولار ٤٠٪ أمام عملات الدول الصناعية الأخرى، ولكن لم يبدأ العجز التجارى فى الانخفاض إلا عند نهاية ١٩٨٧. ويشير هذا التأخير الطويل فى خفض العجز إلى ضعف المرونة عما هو متوقع. كذلك لم يحسن الاقتصاديون تقييم رغبة الشركات الأجنبية فى الحفاظ على سوق أسهمها، بأن سمحوا للأرباح بالانخفاض؛ لأن أسعار السلع المستوردة إلى الولايات المتحدة، لم ترتفع بما يكفى لعكس آثار انخفاض الدولار بالكامل[٢٣].

المرونة هى سمة كل نزاع اقتصادى عملى تقريباً. وقد حذر مارشال دائماً من أنه على الاقتصاديين مواجهة العالم الحقيقى، فالنموذج النظرى المتقن قد يكون مغرياً على الورق، ولكن تثبت عدم فائدته عندما يتضمن بعض المرونات. ولتوضيح المفهوم.. أظهر مارشال للاقتصاديين أنهم يجب أن يوحدوا بين النظرية والممارسة.

الصورة الكبيرة

فى القضايا المتعلقة بالاقتصاد الكلى أو الإجمالى.. لم يغامر مارشال كثيراً، فقد التزم بقانون «ساى» والنظرية الكمية للنقود، وعلم كينز

كلاهما، والتزم بهما لسنوات، قبل أن ينقلب على مارشال ويتخلى عنهما، كما سنناقش لاحقاً.

وبالرغم من أن مارشال أعتقد أن الاقتصاد يعمل وحده بسلاسة.. فقد اعترف بأن الدورات الاقتصادية تأتى بالرواج والركود. فالتفاؤل والتشاؤم الاقتصادى يسرعان ويضخمان مراحل الانتعاش والكساد الاقتصادية. وفى مرحلة الانتعاش.. منحت البنوك الائتمان بجرأة، حتى بالنسبة لرجال الأعمال المبتدئين. ولكن عندما بدأ الاقتصاد فى الإبطاء فى النهاية.. سحب المستثمرون أموالهم، مما سارع فى هبوط الاقتصاد: «عادة ما يسبب سقوط عود ثقاب مشتعل.. ذعراً مدمراً فى مسرح مزدحم»، ذلك هو تشبيه مارشال للوضع. ولحسن الحظ.. فإن الزمن ـ صديق مارشال القديم ـ يداوى كافة الجروح، إذ نهض الاقتصاد من جديد. وبالرغم من أن كينز يوافق على أن التقلبات تساعد على تنشيط الاقتصاد، فإنه ـ يذكر ـ فى مرحلة لاحقة أنه بعد انطفاء النار يظل المسرح خرباً لمدة طويلة؛ فمفعول الركود قد يكون طويل المدى.

هناك وجه اختلاف واحد وضحه مارشال وإيرفينج فيشر، الأستاذ بجامعة ييل، ولم يقبله حتى الآن السياسيون المعاصرون؛ فالاقتصاديون يفرقون بين معدلات الفائدة الحقيقية ومعدلات الفائدة الاسمية؛ فمعدلات الفائدة الاسمية هى معدلات الإقراض والاقتراض، كما توضع عادة على نوافذ البنوك. أما معدلات الفائدة الحقيقية.. فهى تخصم معدل التضخم من المعدلات الاسمية: إذا كانت السندات تعطى ١٠٪ ، بينما يصل التضخم إلى ٧٪، فالمعدل الحقيقى هو ٣٪. ومن المعروف عن السياسيين أنهم يعرّفون معدل الفائدة الحقيقى، بأنه المعدل الذى سوف تدفعه «فى الواقع»، عندما تقترض من البنك. وبالرغم من المجال النظرى العريض لكتاب المبادئ.. فقد أصر مارشال على أن الاقتصاد يجب أن يكون عملياً فكثيراً، ما خدم فى مهام رسمية للتاج البريطانى، وأدلى بشهادته أمام البرلمان، لقد

درس الاقتصاد ليساعد الفقراء وبعد عدة سنوات، قال للمندوب الملكى لرعاية المسنين الفقراء: «لقد كرست نفسى فى الربع قرن الماضى لمشكلة الفقر، والقليل جداً من عملى خصصته للأبحاث غير المتعلقة بهذه المشكلة». لقد ساند التعليم العام وإعادة التوزيع المعقولة للثروة، لأن ذلك يزيد الإنتاجية والسعادة الاجتماعية.

وقف مارشال بعيداً دون الاشتراكية، وفى مرحلة ما.. أسماها «أكبر خطر معاصر». ومثله مثل الفلاسفة والاقتصاديين منذ عهد أرسطو.. خشى مارشال من أن تقوم الملكية الجماعية «بقتل طاقات البشر، ووقف التقدم الاقتصادى، مالم يتعلم كل الناس الإخلاص غير المتسم بالأنانية، قبل تقديم الاشتراكية إليهم. ومرة أخرى.. كشف مارشال عن فلسفة حياته التدريجية الثورية، فقد لاحظ أن «طلاب الاقتصاد الصبورين يتوقعون بشكل عام الخير القليل والشر الكثير من خطط إعادة تنظيم ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بشكل مفاجئ وعنيف»[٢٦].

وبالنسبة لمارشال.. كان وصف «غير صبور» يعتبر إهانة مدمرة، تقرب من وصف «غير شريف».

لقد اعتقد مارشال أن كلاً من المتشائمين الكلاسيكيين، والماركسيين الآملين، كان خاطئاً. فمرحلة الركود لم تأت بعد، وتعداد السكان لم يتفوق على الطعام، وملاك الأراضى لم يسودوا. وبالرغم من أن الفقر ما زال يحط من قدر قسم من المواطنين، فإن:

«الأمل بأن الفقر والجهل قد يتلاشيان تدريجياً، يأخذ سنداً قوياً من التقدم المضطرد للطبقات العاملة فى القرن التاسع عشر. فالقاطرة البخارية جردتهم من كثير من العمل المرهق المهين، وارتفعت الأجور، وتحسن التعليم وأصبح أكثر شمولا. كما أن السكك الحديدية والمطابع مكنت أفراد نفس المهنة ـ فى

مختلف أنحاء ـ البلاد من الاتصال ببعضهم البعض، واتخاذ وتنفيذ خطوط سياسية بعيدة النظر. كما أدى الطلب المتزايد على العمالة الماهرة إلى تزايد الطبقات الحرفية بسرعة، لدرجة أن عددهم حالياً يفوق عدد العمالة غير الماهرة كلية. ولم يعد القدر الأكبر من الحرفيين الآن ينتمى إلى «الطبقات الدنيا» بالمعنى المستخدم قديماً، بل إن بعضهم يعيش حالياً حياة مرفهة كريمة، أكثر من غالبية الطبقات العليا، حتى منذ قرن مضى»

فقط ماركس هو الذى كتب أنشودة شكر أكثر تألقاً من هذه الأنشودة.

ولكن مارشال لم يكن مخادعاً.. بل كان يعلم أن العمل يجب أن يتم ، وقد طلب من طلابه المساعدة على جعل الاقتصاد أداة لزيادة رفاه الإنسان، وكان مشمئزا من بقية الفقر الذى رآه، ولكنه رفض أن يقود الاشمئزاز منطق اقتصاده، فالطبيعة لا تقفز قفزات مفاجئة لإزالة الفقر.

عاش مارشال حتى سن الثامنة والثمانين، وظل الأستاذ العجوز العظيم فى جامعة كامبردج. يمدح كينز مارشال لامتلاكه مجموعة من المواهب، إذ إن سيد الاقتصاديين كان عالم رياضيات وعالم تاريخ ورجل دولة، وفيلسوفاً إلى حد ما: «يجب أن يدرس الحاضر على ضوء الماضى لغرض المستقبل»(٢٨).

هناك رجل يشارك كارل ماركس فى اسمه الأخير، ولكن لديه روح دعابة أفضل، ولقد عنفه أحدهم قائلاً: «سيدى إنك تستنفذ صبرى»، فرد جروشو ماركس قائلاً: «لا مانع لدى ياسيدى. يجب عليك أن تأتى وتجرب صبرى يوماً ما». (يرجع أمر الدعابة فى أن الكلمة الإنجليزية Try تعنى فى نفس الوقت أن «تستنفذ» أو «تجرب»)

ويحسن الاقتصاديون صنعاً بأن يجربوا نوع الصبر الذى مارسه مارشال، فهو لم يكن ينتظر الإجابات، بل كان يبحث عنها. ولم يكن ينتظر إقرارها، بل كان يثير

الحملات لذلك. وهو لم يعتنق أياً من أفكاره دون تفكير حذر، كما لم يرفض أفكار الآخرين أنه دون تفكير حريص. كان يريد توحيد الاقتصاد الكلاسيكى والحدى، وكان يريد أن يفهم المزالق والمرتفعات، والتغيير والتوازن، والتطور والثبات. وفى النهاية.. فقد حقق مارشال كثيراً من ذلك، مع التوفيق بين قلب من الذهب الصافى، وعقل فى حدة وصفاء الماس.

الفصل الثامن

المدرسة المؤسسية القديمة والجديدة

إن فكرة «عجوز» و «شاب» فى الاقتصاد لا تعنى سوى القليل. فكما علمنا مارشال .. فإن الاقتصاد له نوع آخر من الزمن. فالمؤسسة التى عمرها ٨٥ سنة قد تفشل لأنها تتبنى أساليب فنية جديدة دون اختبارها جيداً: هل تعتبر مؤسسة قديمة أم جديدة.

ماذا نعنى بالمدرسة المؤسسية «القديمة» و «الجديدة» ؟ إن التعريفات والفروقات الواضحة أشياء مستحيلة. وعموماً.. فإن المؤسسيين يتوجهون ببصرهم بعيدا عن الكميات الاقتصادية الاعتيادية، مثل: الريع، والأرباح، والدخل، ورأس المال، وتكلفة العمالة، وغيرها. وبدلا من ذلك.. فإنهم يركزون من قبيل التبصير على قوانين المجتمع، وروح الجماعة، والمؤسسات.

والمؤسسيون القدامى ـ الذين نشأوا فى بداية القرن ـ انتقدوا تلامذة مارشال المتحمسين لجلوسهم فى مكاتبهم، وإسدال الستائر، يتلاعبون بمنحنيات رياضية لاعلاقة لها بالحياة، بدلاً من دراسة العالم الحقيقى كما تلمسه أستاذهم. فقد اتهم المؤسسيون القدامى أتباع مارشال بأنهم أدوا ـ بأسلوبهم ـ إلى أن تجاهلت نظرية مارشال المجردة كثيراً من الأمور. وفى حين كان أنصار مارشال يتزلقون بسذاجة ومرح على منحنياتهم، كانت المؤسسات ترتقى، كما أن النظرية الاقتصادية كانت تتجه لكى تصبح عديمة الجدوى.

أما المؤسسيون الجدد.. فهم مختلفون عن المدرسة القديمة إلى حد مذهل، فهم مثل القدامى يتوجهون نحو مؤسسات المجتمع، ولكنهم يستخدمون نفس أدوات مارشال التى هاجمها قدامى المؤسسيين.

فبلن والمؤسسيون القدامى

فلننظر أولاً إلى المدرسة القديمة عن طريق دراسة عضوها البارز ثورستاين فبلن. وقد كان الاقتصاديون الذين ناقشناهم حتى الآن ـ ماعدا كارل ماركس ـ معتدلين إلى حد ما فى سلوكهم، ومن المحتمل أن يكونوا أيضا جيراناً طيبين. ويمكن أن تتخيل آدم سميث أو ألفريد مارشال على هيئة قادة كشافة مرحين. ولكن فبلن يعد استثناء شيطانياً مثيراً. فإلى جانب شخصيته الكريهة، يقدم فبلن نقداً لاذعاً إلى تاريخ الفكر الاقتصادى.

والمدخل المؤسسى لفبلن يهدم اثنين من أعمدة الاقتصاد الكلاسيكى الحديث: (١) قانون الطلب لمارشال الذى يقول إن الناس تشترى سلعاً أكثر عند انخفاض الأسعار. (٢) والفرض القائل بأن العمال يعملون فقط من أجل الأجور، ولايعملون من أجل العمل فى حد ذاته.

كذلك يهاجم فبلن الحديين لأنهم يفترضون وجود طريق ممهد تدريجى، يقود إلى نقطة التوازن، فالتوازنات غير موجودة عند قدامى المؤسسيون، والاقتصاد دائم التغير . والتوازن هو حلم يقظة، يحلمه اقتصاديون لايعيشون الواقع.

ربما كان فبلن ناقداً أكثر منه نظرياً بناء، ولم يكن متأكداً من كيفية إعادة بناء الاقتصاد، ولكنه كان واثقاً أن مارشال وأتباعه خلقوا حالة من الفوضى. وكذلك كان يعتقد أنه يجب على الاقتصاديين أن يكونوا أقل حذراً، وأكثر رغبة فى الالتقاء فكرياً مع الاجتماعيين، وعلماء الأجناس (الأنثروبولوجيين)، وعلماء النفس، إذا أرادوا تطوير نظريات أفضل(١).

من هو ثورستاين فبلن، ذلك الناقد الثاقب للاقتصاد الكلاسيكى الحديث؟ ولد فى مزرعة فى ويسكونسين عام ١٨٥٧ . كان أبواه مهاجرين نرويجيين. وعندما بلغ الثامنة، رحلت الأسرة إلى مينيسوتا، حيث كان الجبن أقل جودة، ولكن المحاصيل أكثر وفرة.

كانت أسرة فبلن ـ مثل بقية المهاجرين ـ أسرة فقيرة، ولكن الأطفال لم يعرفوا ذلك، فقد كانت لديهم كفايتهم من الطعام، وكان جيرانهم يعيشون حياة متواضعة ريفية مماثلة.

ربط المعلقون دائماً موقف فبلن الناقد بالوضع الفقير لأسرته المهاجرة؛ فقد حللوا نفسيته، مصورين إياه كشخص منبوذ فى الولايات المتحدة. ففى مجتمعات المهاجرين المترابطة فى مينيسوتا وويسكونسين، كانت الإنجليزية لغة ثانية. وتقول نظرية المنبوذ هذه أن وضع فبلن اللامنتمى أعطاه نظرة فريدة، غير متحيزة للحياة الاقتصادية الأمريكية؛ إذ استطاع أن يرى الشروخ فى أساس الرأسمالية، لأن عينيه اخترقتا الواجهة. واستخدم فبلن فروضاً مماثلة فى مقالته «التفوق الفكرى لليهود فى أوروبا الحديثة».

ولا شك أن هناك شيئاً من الحقيقة فى وضع فبلن، ولكن هذه التفسيرات المرتبطة بالبيئة قد يكون مبالغًا فيها، فإخوانه وأخواته الأحد عشرة، وكلهم نرويجيون لم يظهروا أبداً مثل هذه البصيرة المذهلة: وفى الواقع كان فبلن مخبولاً إلى حد ما، ولو أنه كان داهية. وربما كان سيصبح بنفس الخبل والحدة لو نشأ فى النرويج، وبما أنه كان طفلاً ذا عقلية ناضجة مبكراً.. فإنه تلاعب بوالديه بحيث تضمنت واجباته المنزلية قراءة الكتب فى السقيفة، بينما عمل إخوته الأكثر بلادة فى الحقول. وفى سن السابعة عشر دخل فبلن أكاديمية كارلتون كوليج، وحيث إن كارلتون لم تكن مؤسسة لوثرية (لتهتم بالثقافة النرويجية لفبلن).. فإن السلوك الاجتماعى الخشن لفبلن سبب له المشاكل، وكان يظهر فى المناسبات الرسمية

مرتدياً قبعة من جلد الراكون. وأثناء تدريب داخل الصف، ألقى فبلن خطبة واعية تدعو إلى السكر البيّن، ولم يعجب ذلك الكلية الطائفية، وكذلك لم يعجبها تلك الخطبة الجادة التى تدعو إلى أكل لحوم البشر. ولا عجب إذن فى أن تشجع الكلية ذلك الهمجى لإنهاء دراسته قبل أى فرد آخر.

ولكن فبلن تخرج بامتياز.

لم ينجح فبلن فى تحويل طلاب الكلية للإدمان أو لأكل لحوم البشر. وأثناء إقامته بالكلية.. أقنعه جون بيتس كلارك John Bates Clark, (الذى أصبح فيما بعد أبرز الاقتصاديين الحديين فى أمريكا) بقراءة الاقتصاد. ووجد فبلن الاقتصاد مثيراً للاهتمام، ولكنه فضل متابعة مستقبله الأكاديمى فى مادة الفلسفة فى جامعة ييل، وكان يجب عليه أن يبدأ بأسطورة سيزيف. وبعد إنهاء رسالة الدكتوراه، أمضى عدة سنوات مخيبة للآمال، متجولاً يتسكع حول مزرعة العائلة، بينما يعمل إخوته، وهو يبحث عن عمل وينتظر الرفض.

وأخيراً.. سهلت له الدكتوراه من ييل وظيفة فى كورنيل لتدريس الاقتصاد. وكان ج . لورانس لافلين J.Laurence Laughlin, ـ صديقه المخلص فيما بعد ـ جالساً، عندما دخل شخص هزيل يرتدى قبعة من جلد الراكون، وبنطلونا من المخمل، وأعلن بصوت منخفض «أنا ثورستاين فبلن».[٢] وبعد عامين، انتقل لافلين إلى جامعة شيكاجو، مع صديقه وفى حمايته .

والآن.. وبعد أن بلغ فبلن منتصف الثلاثينات وتزوج منذ سنوات من ابنة شقيق رئيس كلية كارلتون، انشغل بكتاباته وتدريسه ومغازلاته، وقد نجح فى اثنين منهما بسهولة.

فلنبدأ بالكتابة ـ التى تضمنت عديداً من المقالات ومقالات النقد حول موضوعات غريبة، مثل: «النظرية الاقتصادية لأزياء السيدات»، و «الوضع الهمجى

للسيدات». أما بالنسبة للتدريس.. فقد تضمن الغمغمة ومضايقة الطلاب والسخرية منهم، وتحديهم لترك الدراسة، وكان سعيدا لأن أغلبهم فعل ذلك. كان ذلك الرجل السادى غير الوقور يبدأ الفصل الدراسى بملء لوح الكتابة بعناوين الكتب، ثم يعلن أن امتحان الأسبوع القادم سيشمل كافة هذه الكتب. وكان غالبا ما يمنح الطلاب درجة «ج ٢٠» لتثبيط همة أعضاء الجماعة الطلابية فاى ـ بيتا ـ كابا الطموحين (جمعية للطلاب المتفوقين) أما بالنسبة لمسألة المغازلات، فمن الغالب أن التفاصيل المثيرة لمغامراته الجنسية سوف تظل سراً.

السخرية من الطبقات المترفة

بغض النظر عن سلوكه ونشاطاته اللامنهجية.. فهناك شئ واحد مؤكد، ذلك أن كتابه الأول «نظرية الطبقة المترفة (١٨٩٩)»، The Theory of the Leisure Class، كشف لنا أن الرجل الذى يتكلم غمغمة، كان يكتب نثراً نقياً. وكان العنوان الفرعى للكتاب «دراسة اقتصادية للمؤسسات». وهاجم الكتاب نموذج الطلب الكلاسيكى المحدث. فيقول فبلن إن الكلاسيين المحدثين افترضوا أن كل مستهلك ـ على حدة ـ وازن التكاليف مع المنفعة، الناتجين عن شراء السلعة. وفى مقالة سابقة، صاغ فبلن نفس الكلام فى لغة أكثر إثارة، ومليئة بالاستعارات المختلطة: «إن مفهوم المتعة لدى الإنسان، هو مفهوم الآلة الحاسبة الذكية للمتع والآلام، يدور مثل كرة صغيرة متجانسة من الرغبة فى السعادة، بتأثير من الحوافز، التى تنقله من مكان لآخر حول المنطقة، ولكنها تتركه سليماً» (٣).

ما الخطأ البارز فى هذا النموذج؟ إن الإنسان ليس كرة حرة؛ إذ إن كل كرة تنظر إلى الكرات الأخرى قبل أن تقرر مكان ذهابها. ويريد معظم الناس ـ ماعدا قلة من المضطربين اجتماعيا ومبتكرى الصراعات ـ إما مجاراة عائلة جونز ، أو على الأقل اختلاس النظر خلال السور لمعرفة ماذا يفعلون . فتقييم الفرد للمنفعة يعتمد جزئياً على رأى الجيران فى مشترواته، وإذا قدم صاحب المنزل المرفه الكافيار فى

حفلته.. فإن الضيف غير الواثق من نفسه يعلن عن روعة بيض السمك المملح. ولكن كم ضيف يحب ـ فعلاً ـ الكافيار أكثر من الآيس كريم أو فطائر الشيوكولاته؟

تنطبق ملاحظات فبلن اللاذعة على الأزياء أيضاً؛ فهو يشفق على الرجل الذى يذرع شارع وول ستريت ـ جيئة وذهاباً ـ فى سترة من البوليستر الفاخر. ويقول على سبيل الإغاظة: «كم بوليستر تم قتله من أجل هذه السترة؟ ولكن السترة البوليستر كانت زياً شائعا فى ذلك الحين. هل تغيرت السترة البوليستر؟ لا... لكن «الموضة» تغيرت.

وضع فبلن دراسة أنثروبولوجية مطولة فى نظريته، مشيراً إلى أفراد قبيلة الإيزو فى اليابان، وأفراد قبيلة التودس فى تلال نيلجيرى فى الهند، ورجال الأحراش فى أستراليا. ويكتشف فبلن ـ معتمداً قليلاً على أبحاث لويس مورجان، Lewis Morgan، وفرانز بواس، Franz Boas (معلم مارجريت ميد Margret Mead)، «غريزة المحاكاة». يقول فبلن إنه من المؤكد أن الحشائش أكثر اخضراراً على الجانب الآخر من الشجيرة، وأن كل فرد من التودس يحاول أن يجارى بقية زملائه.

تعتبر غريزة حفظ النوع ـ بالطبع ـ الغريزة الأساسية، ولكن بمجرد ما أن فصلت عملية الارتقاء بين القرود والانسان، بدأ الناس يحكمون على وضعهم الاجتماعى على أساس ملكية العقارات، فالإنسان الذى ينهب، يجمع بين التقدير الاجتماعى والثروة.

وفى النهاية.. كيف أصبح الإنسان الذى يمتلك عقاراً شخصاً مهماً؟ وإذا جمع الإنسان أملاكاً بالعمل والعرق، فإنه لا يحظى بالاحترام. فحسب قول فبلن.. فإن العائلة التى اكتسبت العقارات سلبياً ـ دون قطرة عرق ـ تكسب الإعجاب وتحض على المنافسة فى المجتمع، وهذا هو مولد الطبقة المترفة .

فى عصرنا هذا.. تم تخليد فبلن بواسطة شركة منتجة لمزيل العرق، تستخدم فى إعلانها القاعدة الذهبية التالية المعبرة عن التسلق الاجتماعى: «لاتدعهم يشاهدونك

تعرق أبداً» فالرجل الذى يعرق يفضح مستواه العامّى، والهدف هو الرشاقة دون مجهود؛ فالأرستقراطيون يرتجفون عند ذكر العرق، مثلما يرتعد طباخ السوفليه عند صفق الباب.

ويقدم لنا فبلن مثالين مؤثرين عن الطبقة المترفة، التى تكدح للحفاظ على مركزها دون عمل. أولاً.. «سمعنا عن زعماء القبائل البلوينيزية الذين فضلوا ـ تحت ضغط المظهر النبيل ـ الموت جوعاً على أن ينقلوا الطعام بأيديهم إلى أفواههم». ثانيا.. «هناك صورة أفضل، أو على الأقل لا يمكن تجاهلها ، يقدمها لنا أحد ملوك فرنسا، حيث يقال إنه فقد حياته بسبب قوة احتماله المعنوية الزائدة، مراعاة للمظهر النبيل. ففى غياب الموظف الذى كان عمله نقل كرسى الملك، جلس الملك ـ دون شكوى ـ أمام المدفأة، وقاسى عملية احتراق شخصه الملكى حتى الموت»[٤] .

إلى جانب «الترف الظاهرى»، يسخر فبلن أيضاً من الاستهلاك الظاهرى، وتزخر ثقافتنا الحديثة بعديد من الأمثلة. كانت الملابس قديماً تحمل علامات تجارية من الداخل، غير مرئية للأبصار. أما اليوم.. فإن العلامات التجارية لبيوت الأزياء تتصدر القمصان والربطات والسترات وحتى مؤخرة البنطلونات. وهذه بالطبع هى حرية الدعاية التى يملكها بيت الأزياء، وأهم من ذلك الإعلان الذى يدفعه المستهلك. إن اسم رالف لورين على الثياب يخبر العالم، أن من يرتدى هذا الثوب بإمكانه شراء الملابس الباهظة الثمن (قد تتساءل كيف يبدو الاسم الأصلى لمصمم الأزياء رالف ليفشيتز على السويتر الباهظ) . فى فيلم العودة للمستقبل.. تفترض التلميذة عام ١٩٥٠ أن اسم صديقها القادم من المستقبل هو «كالفين»، لأنه يرتدى بنطلون جينز يحمل هذا الاسم.

من الواضح أن السيارات تعطينا أكثر من مجرد وسيلة انتقال، فيقول الممثل الكوميدى جاكى ماسون، Jackie Mason إن سيارة الكاديلاك تعتبر فى جميع

أنحاء الولايات المتحدة أفخر سيارة ماعدا فى أحياء بيفرلى هيلز وسيدار هيرست فى لونج إيلاند. ففى هاتين القريتين، يمتلك السكان المحترمون سيارة مرسيدس بنز، أما الكاديلاك فهى سيارة كريهة. ولا أحد يقبل أن يلام بسبب وجود سيارة كاديلاك أمام منزله: «إنها ليست ملكى... لا أعلم ملك من... قد يكون جاراً حقيراً.... لابد أن أحدهم تركها هناك ليلة أمس ... سوف استدعى رجال الجراج لأخذها، لماذا يحبون المرسيدس؟ يقولون: «بسبب المحرك»، ولكن عشاق المحرك هؤلاء، قد لايعرفون كيف يعمل جهاز تحميص الخبز ، فضلاً عن سيارة ثمنها ٥٠,٠٠٠ دولار. وحسبما تقول أسطورة واشنطن.. كان سناتور إيفـريت ديـركسين، Everett Dirksen، أول من ركب تليفون سيارة فى واشنطن، وكان يستمتع بالاتصال بمنافسيه ليذكرهم بذلك. وقد اغتاظ أحد هؤلاء المنافسين ـ وهو سيناتور ليندون جونسون ,Lyndon Johnson ـ فقام بتركيب نظام أفضل. وفور وصول هذا النظام اتصل جونسون بديركسين، وتحدثا معاً لمدة دقيقـة، ثـم صـاح جونسـون «آسف يا إيفريت، سأضع خطك فى الانتظار ، لدى مكالمة على الخط الآخر!».

فى البداية.. انتشرت ملاحظات فبلن اللاذعة فى المجتمع بسهولة أكثر من آرائه الاقتصادية. إلا أنه فى عام ١٩٥٠ ، نشر الأستاذ هارفى ليبنشتاين،Harvey Leiben-stein، مقالة عنوانها «عربة الموسيقى والمتكبر وآثار فبلن على نظرية طلب المستهلك»، وهذه المقالة طبقت نظرية فبلن على الاقتصاد، يقول فيها إن قانون طلب مارشال(٥) يسود عادة، فالسعر المنخفض يؤدى لزيادة الطلب. ولكن بالنسبة لبعض السلع، «سلع فبلن»، يتحدد طلب المستهلك حسب استخدام السلعة، وحسب السعر الذى يظن المستهلك أن الآخرين سوف يظنون أنه دفعه، أى السعر الظاهر المتوقع. وإذا انخفض سعر السوق لحقائب نوع جوتشى، بحيث أصبحت متوفرة فى أى متجر، فسرعان ما سترى انخفاض مبيعات الحقائب. سوف تفقد الحقائب الجاذبية التى يعنيها فبلن، فالناس لن تحترمك فى النادى إذا لبست ملابس من نوع «مارتك»، تماماً مثل دخولك ساحة انتظار السيارات فى بيفرلى هيلز، وأنت تقود سيارة كاديلاك.

الحافز الخلاق للمهندسين

يعلم المنتجون أن الحسد ومجاراة الآخرين يجبران المستهلك على الشراء. وطبقاً لفبلن واتباعه، يقضى رجال الأعمال وقتاً فى زيادة السعر الظاهرى المتوقع للسلعة، أزيد من الذى يقضونه فى تطوير منفعتها . وذلك ما يعتبره المؤسسيون عاراً ومضيعة للوقت والموهبة، وينتج عنه إعلانات أكثر ابتذالاً لسلع أكثر رداءة.

وهو يرى أن ذلك إفساداً للدوافع الطبيعية؛ إذ اعتقد فبلن ـ مثل ماركس ـ فى الحافز الخلاق، وهو غريزة العمل. ولسوء الحظ، مع وجود المتع الظاهرية والاستهلاك الظاهرى اللذين يفسران المجتمع.. فإن الرغبة الخلاقة هى الضحية.

ويتفادى فبلن[٦] تحليل صراع الطبقات الذى وضعه ماركس، فالأعداء عند فبلن ليسوا الرأسماليين، والأبطال ليسوا العمال، بل هو يصور مجموعة مختلفة من الشخصيات: الأشرار هم رجال الأعمال (سواء امتلكوا أو لم يمتلكوا الشركات)، والأبطال هم المهندسون ففى العصر الحديث، المهندسون فقط هم الذين يقبلون الحفز للإبداع، والتحسين، والإنتاج. أما رجال الأعمال الذين يرأسون العمل.. فهم يخنقون الإبداعية، ويثيرهم الاستهلاك الظاهرى، فهم ينتجون من أجل سبب واحد فقط: كسب المال. فإذا استطاعوا كسب النقود دون إنتاج قطعة واحدة.. فإنهم سيكونون أسعد حالا. قارن بين أحلام المهندسين ورجال الأعمال: المهندس يذهب للنوم كل ليلة والدبابيس فى جيبه والآلة الحاسبة فى الجيب الخلفى، ويحلم بإنتاج المحرك المثالى تام الكفاءة. ويذهب رجل الأعمال للنوم فى بيجاما مخططة، ويحلم بأن الجمهور اكتشف فجأة أن المنتج «القديم» هو أحدث طراز، وبذلك يكسب ملايين الدولارات، دون أن يستثمر سنتاً واحداً فى التقنية الحديثة أو الفكر المبدع.

اعتقد فبلن أن ارتفاع شأن المهندسين العلميين فى القرن العشرين، سوف يسبب انهيار الأسس الفلسفية للرأسمالية، وتوقع أن تقوم الآلات بضبط العقول

الحديثة وإثارة الشكوك حول خرافة الرأسمالية وتعاليمها. وحيث إن المهندسين ـ وحتى عمال تشغيل الآلات المتواضعين ـ يفهمون العلاقات العلمية، لذا اعتقد فبلن أنهم سوف يتمردون على الرمزية والشعائر والمعتقدات الجماعية المجردة فى وجود الله، وفى الوطن والملكية الخاصة.

«إن ما تغرسه صناعة الآلات من انضباط فى عادات حياة وتفكير العامل، هو انتظام السياق والدقة الميكانيكية. والناتج الثقافى هو الرجوع الاعتيادى إلى علاقات السبب والنتيجة، القابلة للقياس، مع إهمال نسبى واستخفاف بممارسة القدرات الثقافية، التى لاتتمشى مع مثل هذا الاتجاه»(٧).

وتنبأ فبلن بأن الصراع بين المهندسين والمديرين سوف يخرب أكثر من مجرد الأسس الفلسفية؛ فالاقتصاد أيضاً سوف يضيع وينهار؛ إذ يسعى قادة الصناعة للحصول على أقصى أرباح. وهناك طريقان يؤديان لتحقيق هذا الهدف: الأول، يتضمن حصر الناتج داخل الأسلوب الاحتكارى، والثانى يتضمن تخفيض تكاليف الإنتاج. وحيث إن رجال الأعمال لا يعلمون إلا القليل عن الآلات.. فهم يهملون الكفاءة. ثم أعلن فبلن عن «تراجع الكفاءة الناتج عن الضمير». وبعد أن يستثمر المدير الأموال فى تقنيات قديمة.. فإنه يفضل إعاقة الإنتاج وإعاقة التقدم. وفى المقابل.. يتوق المهندس للمضى قدماً، ويفضل المدير أن يكتفى بامتيازات سطحية رخيصة، ويريد المهندس إشباع الحاجات، وتصنيع مصيدة فئران أفضل، بينما يريد المدير اصطياد المستهلك. وبضغط من الرغبة فى الحصول على الربح المالى قصير المدى.. يخرب رجال الأعمال والممولون النمو الاقتصادى الطويل المدى.

ويرى فبلن أملاً ضعيفا فى أن تقوم الحكومة بكبح جماح كبار الأعمال اللصوص. وفى الواقع.. لقد فات الأوان لأن رجال الأعمال قاموا بالفعل باصطياد وتطويق المسؤولين الحكوميين: «الحكومة النيابية (التمثيلية) تعنى ـ بشكل

رئيسى ـ بتمثيل مصالح رجال الأعمال».[8] وبالرغم من قيام فبلن بانتقاد الاقتصاديين الكلاسيكيين المحدثين، فإن فبلن أحياناً يردد كلام آدم سميث، خاصة فى موضوع القيود التجارية:

«حيث إن الحكومة الوطنية مكلفة بالرعاية العامة لمصالح قطاع الأعمال بالبلاد، كما هو الوضع الثابت بين البلاد المتحضرة.. فإن طبيعة الحالة تستدعى أن يشارك واضعو القوانين والإدارة فى تصفية ذلك القدر اليسير اللازم من التخريب، الذى يحدث أثناء العمل اليومى للصناعة المستمرة، والناتج عن أساليب العمل. ولأغراض العمل فالحكومة فى وضع يمكنها من إعاقة التدفق الزائد» [9].

نظر فبلن إلى اتحادات العمال ورؤسائها بنفس الاحتقار الذى كان يوجهه للحكومة. فالاتحادات ـ مثلها فى ذلك مثل رجال الأعمال ـ تعوق الكفاءة وتخرب الاقتصاد، فبدلاً من مساعدة العمال العاديين فإنها ترفع الأجور عن طريق وطء العمال غير النقابيين بالأقدام:

«يقف جمهور العمال موقف المدافع، حفاظاً على المصالح المكتسبة ضمن امتيازات ومنح تنظيمهم. ومن الواضح أنهم يتحركون وهم يشعرون أنه طالما ظلت الترتيبات المقررة لهم على حالها، فسوف يحصلون على شئ أعلى مما يحصل عليه الفرد العادى»[10].

وفى كتاب «المهندسون ونظام الأسعار»، Engineers and the Price System، تنبأ فبلن بأن المهندسين سوف يصابون بالاشمئزاز من الإهدار والتخريب المتعمد، إلى درجة خلع رؤسائهم والاستيلاء على المصنع ومقر الإدارة. وعلى أية حال.. فإن الإداريين يحتاجونهم أكثر مما يحتاجون هم الإداريين، ويمثل الإخصائيون الفنيون ١٪ من السكان، ويمكنهم أن يصبحوا «ملوك الفلسفة» فى جمهورية فبلن، دون أن يحصلوا على أية درجة فى العلوم السياسية فى الكلية «... لن يصبح ترك السلطة فى أيدى رجال الأعمال أمراً عملياً، فهم يعملون فى أغراض متعارضة تحقيقاً

لمكاسب شخصية لهم، أو أن يؤتمنوا على مواصلة إدارتهم للآخرين، بدلاً من الخبراء الفنيين المدربين المناسبين، وهم مهندسو الإنتاج الذين ليست لديهم مصالح تجارية[١١]».

كان فبلن ـ مثل ماركس ـ لديه فكرة بسيطة عما سيفعله الحكام الجدد، ولكنه كان واثقاً أنهم لن يفعلوا ماهو أسوأ من الوضع السابق.

كتب فبلن عن المهندسين ورجال الأعمال، كما لو كانوا يمثلون نوعين مختلفين من البشر، ولكن هذا يبدو ـ مع مر السنين ـ أمراً بعيد الاحتمال: فحسب ما نشرته مجلة فورتشين فى تقرير حديث، هناك نسبة عالية من مديرى التنفيذ الرئيسيين فى المؤسسات بدأوا من معامل الهندسة[١٢]، ويشكل المهندسون نسبة كبيرة من طلاب درجة الماجستير فى إدارة الأعمال فى الوقت الحالى. كذلك يفترض فبلن أن المهندسين الذين سوف يتسلمون السلطة، لن يستسلموا للمصالح الخاصة. ولكن لماذا لا يتصرفون بنفس بشاعة المحتكرين الذين حلوا محلهم؟ هل المهندسون حقا أكثر فائدة وملتزمون دائماً بالحافز الخلاق؟.

لم يقم فبلن بتجميع نموذج مفصل للاقتصاد، ولم يكن يعتقد أن بإمكانه أو بإمكان أى شخص آخر أن يفعل ذلك، ولذلك أمضى غالبية وقته فى هدم النظريات السليمة للاقتصاديين السابقين. لقد وضع مارشال العوامل غير النقدية فى «سجن» اسمه: مع فرض تساوى العوامل الأخرى. وأبدى فبلن الشجاعة لدخول السجن، وفحص القوى التى يفترض مارشال بقاءها ثابتة، مثل الأذواق. وسخر فبلن من الاقتصاديين الذين تجاهلوا الجانب الإنسانى غير القابل للتنبؤ للاقتصاد. ويذكر هوارد هيوز، Howard Hughes، أنه شاهد جون روكفلر، John D. Rockfeller، مرة واحدة فقط، «لكن عندما رأيت وجهه، عرفت كيف تم بناء شركة ستاندرد أويل». لا يستطيع الإنسان تحديد صفات الوجه أو التنبؤ: كيف يؤدى عبوس الرئيس إلى تغيير الإنتاجية فى المتجر.

لا يزال فبلن كاتباً مسلياً، سواء قرأت له أو قرأت عنه. وقد وصفه أحد أبرز تلاميذه وهو يكتب «واضعاً عيناً على الميزات العلمية لتحليله، وعينه الأخرى على القارئ المتضايق». ويعتبر التعلم من فبلن مثل إجراء تشريح دون مخدر، وهذا ليس بمقدور الجميع[١٣]، ولكن لم يستطع أحد نسيانه. ولا يزال شبحه يطاردنا. ففى كل مرة ينتقل أحد كبار المديرين بشكل واضح فى سيارة ضخمة ذات نوافذ ملونة، بينما ننتظر نحن الفقراء حافلة الركاب تحت المطر، فإن فبلن يطلق ضحكة شريرة.

جالبرث وشرك الإعلانات

ألهم فبلن عديداً من الطلاب البارزين، بما فيهم ويزلى ميتشل، Wesley Mitch-ell، وجون كومونز وعالم الاجتماع س. رايت ميلز، C. Wright Mills. ولكن أشهر أتباعه بالنسبة للجمهور ـ لأنه أحيا نكات وسخرية فبلن ـ كان جون كينيث جالبرث. وقد اتخذ جالبرث أثناء حياته العملية الطويلة مواقف اقتصادية مثيرة للجدل. ويعترف له زملاؤه بالسيادة المطلقة التى لا تقبل الجدال فى مجالين: الطول والفكاهة. ولد جالبرث فى ريف كندا، وذلك يطابق ـ بشكل مضحك ـ الخلفية الريفية لفبلن، ولقد كتب أن الفلاح الجيد يحتاج إلى ظهر قوى وعقل ضعيف. وفى مذكراته.. يستعيد جالبرث أحد أيام الصيف التى تنشط هورمونات المراهقين. فبينما كان يمشى فى بستان مع صديقته الجميلة التى ملأت أحلامه الجنسية، أشار إلى الحقل الأخضر حيث ترعى أبقار العائلة، وأثناء تحديقهما بابتهاج، لاحظا ثوراً أبيض يجامع بقرة صغيرة فى موسم التزاوج، وحيث إن الفتاة كانت تنظر باهتمام، جمع جالبرث شجاعته وقال: «أعتقد أن ذلك فعل ممتع».

لم تطرق عينا الفتاة للاقتراح الماكر، وردت قائلة : «حسنا، إنها بقرتك»[١٤].

أمضى جالبرث أغلب حياته العملية فى الولايات المتحدة، واشتغل مدرساً فى جامعة هارفارد، ومستشاراً للرئيس، وروائياً، ومعلقاً اجتماعياً. وقد شغل أكثر من

منصب فى نفس الوقت، وهذا ما جعل عديداً من الاقتصاديين يسخرون منه، ويصفون أفكاره الاقتصادية بأنها أفكار هواة سطحية. وقالوا إنه لكى يلبس الإنسان عدة قبعات.. فلابد له من رأس كبير وعقل راجح، وأن العبقرى كينز فقط هو الذى استطاع أن يفعل ذلك.

لم يكن جالبرث يتفاخر بامتلاكه مواهب فوق طاقة البشر. فعندما اتصل به الرئيس ترومان هاتفيا، طالباً مساعدته فى تنظيم الأجور والأسعار.. تراجع جالبرث الشاب قائلا: «سيدى الرئيس.. بالتأكيد هناك على الأقل عشرة اقتصاديون أفضل منى».

فأجاب الرئيس «معك حق! ولكن لن يأخذ أيا منهم الوظيفة».

قبل جالبرث المهمة وطور فلسفة سياسية واقتصادية مناسبة للحكومات الكبيرة. هاجم جالبرث الرأسمالية الحديثة ودعاتها الرئيسيين من الاقتصاديين الكلاسيكيين المحدثين بعنف، وذلك فى أعماله الثلاثة الرئيسية؛ مجتمع الوفرة، The Affluent Society، (١٩٥٨) والدولة الصناعية الحديثة، The New Industrial State، (١٩٦٧)، والاقتصاد والهدف العام Economics and the Public Purpose (١٩٧٣). وقد سخرت كتابات جالبرث من نفس الموضوعات التى سخر منها فبلن. كيف يستطيع أحد أن يؤمن بأفكار سميث عن المنافسة، وذلك فى مواجهة المؤسسات الضخمة الشرسة؟ وبالنسبة له، لأن فكرة مارشال عن المنافسة لا تعدو أن تكون فكرة خيالية، مثل قصص تينكر بيل وسانتا كلوز (بابا نويل) وسنو وايت (الأميرة والأقزام السبعة). وأصر جالبرث على أنه لا يستطيع أحد أن ينكر القوة المرعبة لشركة جنرال موتورز، إلاّ الأقزام الذين لا يستطيعون رؤية ماهو أعلى من حافة النافذة.

كيف يستطيع أى إنسان أن يظل مصدقاً للخرافة المسماة «سيادة المستهلك»، وأن المستهلك يحدد ما سوف تنتجه الشركات الذليلة؟ يقول جالبرث إن مبدأ

السببية يعمل فى الاتجاه المعاكس، فالمؤسسات تشكل المستهلك بحيث يخدم احتياجات مبيعاتها.

تخيل السيناريو التالى : أنت تمشى فى السوق.. باحثاً عن علبة حبوب نوع «كاكاو بفس». وكما يصرخ الإعلان فى وجهك.. سوف «تجن من أجل الحصول على كاكاو بفس»، بينما يدخل جالبرث لشراء علبة حبوب طبيعية صحية دون سكر دون طعم، من نوع «بران داست» للحفاظ على صحته، وأثناء الوقوف فى صف دفع النقود، تلتفت أنت إلى جالبرث قائلاً:

«لابد أن أتناول « كاكاو بفس» كل صباح أنا أحبها فعلاً».

ويعترض جالبرث بصوت عال؛ فهـو يفرق بين «الاحتياجات» و «الرغبات»، فلا يمكن أن «تحتاج» كاكاو بفس، فالاحتياجات تنبعث من داخلك. فلا يوجد دافع طبيعى لاستهلاك كاكاو بفس... أنت فقط تريد هذا النوع من الحبوب، والرغبات أقل أهمية من الاحتياجات. ثانياً، ينكر جالبرث، أنك قررت بناءً على رغبتك شراء كاكاو بفس بنفسك، فالإعلانات أغرتك بأن «تريد» كاكاو بفس. فرجال الإعلانات والمبيعات «لا يمكن أن يتقبلوا فكرة الرغبات التى يتم تحديدها بشكل مستقل، لأن وظيفتهم الرئيسية هى خلق الرغبات ـ أى أن يخرجوا إلى حيز الوجود، ماهو ليس موجوداً أصلاً»(١٥).

ويعتقد جالبرث أنه نسف فكرة مارشال عن المنفعة الحدية للطلب. وحيث إن السوق لا يعرف الطلب الحقيقى للمستهلك، والموجود فى صميم أعماقه.. فإنه (السوق) يعرف الرغبات الاصطناعية التى زرعها المعلنون المتلاعبون، وهذا ما يسميه جالبرث «أثر التبعية» أو الانصياع.

ولا يقف جالبرث عند مجرد الإصرار، بل يصل إلى استنتاج قوى: حيث إن المؤسسات تخترع وتغرس الرغبات فى النفوس.. فيجب على الحكومة أن تحد من

الاستهلاك الشخصى، وأن تستخدم مواردها لتحسن المرافق العامة. ويستنكر جالبرث السيارات الفاخرة التى تجوب المتنزهات البالية والأحياء الفقيرة، ويؤكد أن أمريكا الخاصة تزدهر فى غنى أنانى مقزز، فى حين تتضور أمريكا العامة جوعاً؛ فالأمريكيون لا يريدون ـ حقيقة ـ عدم التوازن الحاصل. ولكن الشركات تفتنهم.

بل إن جالبرث يتنبأ بمستقبل أكثر حقارة، مالم تتبن الحكومة مبادئ الاشتراكية الديمقراطية والتخطيط. كما يتنبأ بمزيد من البطالة، عندما تحل التكنولوجيا محل العمال، ومزيد من التلوث، ومزيد من البيوت المليئة بأدوات جديدة محسنة عديمة الفائدة. من منا يحتاج حقيقة إلى أنبوبة معجون أسنان ذات مضخة؟ هل كانت الأنبوبة التى نضغطها بالأصابع معقدة إلى هذا الحد؟

هذا الهجوم الذى شنه جالبرث ضرب مركز الأعصاب فى الاقتصاد الكلاسيكى الحديث. فإذا كان تحليل المنفعة الحدية أضعف من «ساحر أوز».. فإن مارشال يتحول إلى فزاعة (خيال المآته) دون عقل. ولكن من هو ذلك القادم من الشرق، ليلعب دور الساحرة الطيبة، ويغرق نظرية جالبرث بالماء ؟ إنه فريدريك فون هايك.

رد هايك فى مقالته «عدم الأمان فى أثر التبعية» على إدعاء جالبرث بأن كل الرغبات المهمة تنبع من داخل الإنسان(١٦). فيؤكد هايك أن قليلاً فقط من الاحتياجات يكون حقيقياً طبيعياً. فهل يعنى جالبرث أن الطعام والجنس فقط لهما أهمية فى الحياة، وأن كل الاهتمامات الأخرى هى رغبات تافهة؟ ويسأل هايك لماذا يجب على التأثيرات البيئية أن تنكر أهمية الرغبات؟

إذا كان منطق جالبرث سليماً.. فإن الثقافة أمر تافه؛ ففى القرن السادس عشر.. لم يحدث أبداً أن استيقظ شخص ما من النوم، وقال: «أتمنى لو أن هناك سيمفونية لموتسارت»: لقد وضع موتسارت الموسيقى أولاً، ثم أثار الرغبة لدى

الآخرين لسماعها. هل موسيقاه مجرد لعبة فى يد الأغنياء؟ أم هى مساهمة مهمة تثرى البشرية؟

تقوم شبكة التليفزيون «نظام الإذاعة العام» بالدعاية للطباخة الفرنسية جوليا تشايلد، قبل برنامج جوليا. هل استيقظ أحد المشاهدين من النوم فى منتصف الليل، وهو فى حاجة ماسة إلى امرأة طويلة حمقاء، ذات صوت مضحك لكى تعلمه الطهى؟ بالطبع لا (الكوابيس غير محسوبة).

إن ما نسميه بالحضارة هو - إلى حد كبير - انعكاس للعوامل الخارجية المتنافسة على جذب انتباه العقل والعواطف.

يطالب جالبرث بمزيد من المدارس العامة. ومن المفروض أن هذه المدارس ستنفق وقتاً طويلاً فى تعليم الأطفال أشياء «غير مهمة» و «نابعة من خارج النفس»، مثل: الأدب والموسيقى.

ولاشك أن البيوت الحديثة تزدحم باللعب السخيفة والأجهزة و «أدوات المحادثة»، ولكن ما العلاج الذى يمكن أن يقدمه لنا جالبرث، دون أن يبدو طاغية أو متناقضاً؟

إن الحظر البسيط على سلع الاستهلاك يعتبر أمراً تحكمياً. وبدلاً من ذلك.. فإنه بإمكان جالبرث أن يحث على إصدار حظر على إعلانات سلع الاستهلاك، وأخذاً بنصيحة جالبرث.. فإنه بإمكان القادة أن يناشدوا الأفراد إنفاق نقودهم بأسلوب أكثر تعقلاً وأقل تفاهة. وبإمكانهم أن يقنعوا الأفراد بالمساهمة بثرواتهم الشخصية للصالح العام. ولكن هذه النصيحة تتعارض مع مبدأ جالبرث! ومع تطوير استهلاك أكثر تعقلاً، ومصالح عامة أكثر.. فإن القادة سوف يغرسون فى النفوس رغبات جديدة «نابعة من خارج النفس»، و «غير مهمة»؛ فالإعلان سواء قام به الساسة أو مندوبو المبيعات يظل إعلاناً.

وهذا النقد لأفكار جالبرث لا يتضمن أن الساسة لا يجب أن يؤيدوا المدارس العامة، ولكن جالبرث لا يجب أن يدفع الساسة نحو هذا التأييد، دون التسليم بوجود خلل فى نظرية «أثر التبعية» الخاصة به.

ربما بالغ جالبرث فى قوة تأثير الإعلان التى تعتبر قضية معقدة، فلا شك أن معركة الإعلانات بين المنتجات المتشابهة فعلياً، والتى تمثل صاجات موسيقية وأنواعاً من الهزازات، هى تبديد للموارد. ومع ذلك.. يقدم كثير من الإعلانات بعض المعلومات المفيدة وسط كثير من البهرجة. هل هذه البهرجة هى التى تجذب انتباه المشاهدين، بينما تقوم المعلومة بالبيع الفعلى للمنتج؟

فى دراسة شهيرة عن الإعلان والنظارات.. ظهر أنه فى الولايات التى تسمح لبائعى النظارات بالإعلان، تباع النظارات بأسعار أقل ٢٥-٣٠٪، عنها فى الولايات التى تمنع الإعلان(١٧).

هل يقع الناس ضحية لمجرد رؤية البريق؟ إن تاريخ السوق الأمريكى حافل بقصص الفشل التى تدعى إيدسل، واشتار، وبريمبر، عن سجائر دون دخان. وتكافح أقسام التسويق بالشركات كى تجارى شطحات (نزعات) الجمهور الأمريكى، فضلاً عن قيادته. وقد أوردت صحيفة وول ستريت مؤخراً أن صانعى الأحذية الخفيفة يختبرون أسواق منتجاتهم فى المدن الداخلية، لأن شباب المدينة عادة ما يشعلون الهوس العرقى. فى عام ١٩٨٦، تم تحول إنتاج حذاء خفيف اسمه «الفرسان الإنجليز» (اختصار B.K) هذا الحذاء قفز إلى الشهرة، وارتفعت المبيعات إلى أن قامت عصابات الشوارع ـ بدون سبب معروف ـ بإطلاق اسم «قاتل الزنوج» على الحذاء، وهنا تدهورت المبيعات(١٨).

وحتى لو أقنع الإعلان المثير مستهلكاً بشراء نوع معين من الشامبو ـ مثلا، فهل يقدم المستهلك على شرائه ثانية لو اكتشف أن هذا الشامبو يقصف الشعر؟ إن معظم إعلانات التلفزيون والمجلات تعرض منتجات، تعتمد كلية على معتادى

الشراء وعلى إخلاص العميل، وهلم جرا . فالسلع لا تصنع الربح من بيعها «مرة واحدة فقط»، ولا يستطيع المنتجون تحمل البيع لمرة واحدة فقط، وترك زبائنهم دون تلبية طلباتهم. ومن جهة أخرى.. تصرخ إعلانات السلع الباهظة التكاليف ـ مثل السيارات ـ طالبة من المستهلك أن يجرب قيادة السيارة، ولا يشترى سيارة بونتياك من مجرد إعلان تلفزيونى سوى شخص أبله.

إن النقاط السابقة لا تدافع عن الإعلان غير الشريف، ولا تنكر وجوده. ولكن أغلب المعلنين ليسوا جماعات متعطشة للخداع من أجل مكسب سريع. ويقول جالبرث نفسه إن الشركات تركز أكثر على حصتها من السوق، أكثر من الربح السريع، فالمنتجات الرديئة تفقد حصتها من السوق بسرعة.

كثير من الناس لا يرتاحون ـ مثل جالبرث ـ إلى الاختيارات التى تمنحها الرأسمالية المعاصرة للمستهلك المعاصر. وعديد منهم غير مرتاح نفسياً لأن يكون أمامهم مجال واسع للاختيار؛ إذ تأتى مع الاختيار المسؤولية عن الاختيار، وبالتالى القلق المصاحب له. من بين معاجين الأسنان هل نختار كريست أم أكوافريش أم كلوس أب، أم الترابرايت، أم كولجيت، أم جليم؟ نستطيع أن نلقى اللوم على المعلن بالنسبة لاختيارنا النهائى، وبالطبع.. فإن معجون الأسنان شئ تافه. فلندرس المبدأ الأكثر أهمية المتضمن: لو أن جالبرث على حق، هل يستطيع أن يقدر فرد على أحكامه فى قضايا مهمة، مثل: تفضيل تشرشل على جوبلز، أو تفضيل الجمعية الوطنية لتقدم الملونين على جماعة كوكلوكسى كلان. إن النقد الذى يقدمه جالبرث يتعلق سطحيا بمسألة الإعلان، والأكثر أهمية هو الاهتمام بمن هو الإنسان حقيقة.

هل نحن أكثر حرية من كلاب بافلوف؟ فإذا لم نكن كذلك.. فإن جالبرث على حق، وبذلك يكون الاقتصاديون الكلاسيكيون المحدثون قد فشلوا.

ويضع جالبرث نفسه فى صف فبلن، فهو يشاركه عديداً من الصفات، بما فيها الرأى الساخر المتعلق بالثقافة المعاصرة والرأسمالية، ولكنه يشاركه صفة أخرى،

وهى الغموض. فلم يصنع أحدهما نموذجاً أو أسلوباً يتيح للاقتصاديين اختباره بعناية أو حتى مضاهاته، ويبدو أن المؤسسيين قانعون بالنقد والمراقبة. والعمل الذى قاموا به، تقوم به الآن جريدة أمريكان جورنال أوف إيكونوميكس أندسوسيولوجى، وجريدة جورنال أوف بوست كينزيان إيكونوميكس. ويتأثر المشاركون فى الجريدة الأخيرة ـ إلى حد كبير ـ بالاقتصادى الإيطالى بييرو سرافا، Piero Sraffa، والماركسى البولندى ميشال كالسكى، Michal Kalecki، وكتاب اقتصادى كامبردج الراحل جوان روبنسون حول «المنافسة غير الكاملة».

المؤسسون الجدد واقتصاديات القانون

شاهد جالبرث فى حياته قمة ما وصل إليه المؤسسيون القدماء، ونشأة المؤسسيين الجدد، ومن الطبيعى أن يحب القدامى أكثر، فقد كانوا ينتقدون اقتصاد السوق الحر نظراً لتجاهله المؤسسات، وهاجموا اقتصاد السوق الحر لاستناده الأعمى على فروض مارشال حول السلوك الإنسانى.

أما المؤسسون الجدد المنشقون.. فإنهم يعكسون تقريبا كل ما أراد فبلن وجالبرث أن يفعلاه، فهم لا يعلنون أن المؤسسات تكذب اقتصاد مارشال. وبدلا من ذلك.. فإنهم يستخدمون مشرط ومقص مارشال لتشريح المؤسسات، وهم ليسوا مجموعة مخططة بعناية، أغلبهم اقتصاديين، وبعضهم محامون لديهم تدريب اقتصادى، يوحدهم الفضول بشأن المؤسسات الاجتماعية، والثقة فى الاقتصاد الكلاسيكى المحدث.

لقد غزا مدخل المؤسسون الجدد عالم القانون. وبالرغم من أن قانون محاربة الاحتكار كان دائماً يتضمن الاقتصاد، إلا أن الاقتصاديين أجبروا المحامين والقضاة على فحص كافة القرارات القانونية ـ تقريبا ـ بعيون ألفريد مارشال وأتباعه. فلا يوجد أى مجال قانونى، يمكنه الهرب من التحليل الاقتصادى، ولا يستطيع أى مدرس للقانون أن يدرّس بكفاءة، دون أن يحظى ببعض التدريب الاقتصادى،

وتمتلئ جرائد القانون وقضايا المحاكم بالمناقشات حول المنافع الحدية والتكاليف الحدية. وهى ليست مجرد مناقشات أكاديمية، إذ يجلس عدة خبراء بارزين فى مجالىّ القانون والاقتصاد، فى المحاكم الفيدرالية، ويؤثرون فى حياة الملايين من الناس. ولا أحد يستطيع الهرب من الاقتصاديين، حتى السجناء يجب أن يخشوا من قيام أحد طلاب الاقتصاد بتحليل اقتصادى لعنابر السجن، وربما يثبت أن نظاماً غذائياً مكوناً من الخبز والماء يحقق أفضل معدلات لإعادة التأهيل.

فى عام ١٩١٥ كتب لويس برانديز، Louis Brandeis، أن «المحامى الذى لايدرس الاقتصاد... معرض لأن يكون عدواً للشعب»[١٩]. ولسوء الحظ.. تقوم الولايات المتحدة بتخريج آلاف من أعداء الشعب كل عام.

دعونا نستكشف أربعة مجالات مهمة، قام بها الاقتصاديون بتعديل خطير للتقاليد القانونية، وهى: الإهمال، والملكية، والجريمة، وشركات الأموال.

الإهمال:

تندرج أغلب الحوادث تحت طائلة قانون الإهمال، الذى يعرف أيضاً بقانون الضرر. وفى كل مرة ينزلق شخص ما فوق قشرة موز على أرضية السوبرماركت.. فإن المحامى يأمل فى الحصول على قضية تستند على الإهمال: «كان يجب على السوبر ماركت ألا يترك القشرة على الأرض»، هذا ما سوف يقوله المتقاضى، وربما يكسب القضية.

هل يجب أن يعتبر الشخص ـ أو الشركة ـ مسئولاً عن كل حادث يقع فوق ممتلكاته؟ فلنجرب مثالاً آخر.. حطمت العاصفة السفينة «مينو»، وألقت ركابها والقبطان جليجان فوق جزيرة مليئة بالنخيل، يسكنها شخصان فقط، ومعهم ٢٠٠ قرد. يقوم السكان الـ ٢٠٢ بإنتاج خمر الموز للتصدير، وتقوم القرود بتقشير وعصر الموز أثناء العمل.. ترمى القرود قشور الموز على أرض الجزيرة. فلنفترض أن

جليجيان يتجول فى أنحاء الجزيرة، وينزلق فوق قشرة موز. هل شركة الموز مخطئة؟ أغلب المحاكم سوف تقول لا.

ما الفروقات الرئيسية بين السوبر ماركت والجزيرة المهجورة؟ أولاً.. احتمالات سير إنسان بجوار جناح الفاكهة فى السوق، مرتفعة، فى حين أن فرصة تجول شخص ـ كان فى سفينة غارقة ـ فى أنحاء الجزيرة، ضئيلة. ثانياً .. تكلفة مراقبة السوق منخفضة، فى حين تكلفة مراقبة القرود فى الجزيرة مرتفعة.

فباستخدام هذه المفاهيم، كون القاضى ليراند هاند، Learned Hand، تحليلاً اقتصادياً ذكياً لقانون الإهمال، فى إحدى القضايا عام ١٩٤٧(٢٠). ولقد عرّف هاند ثلاثة عناصر رئيسية: احتمال الإصابة (أ)، مدى الإصابة أو الخسارة (خ)، تكلفة منع الحادث(ت). يقول هاند، يعتبر الشخص مهملاً إذا كانت الإصابة المحتملة للضحية تفوق تكلفة تفادى الحادث، وبالرموز الجبرية، يكون المدعى عليه مهملاً إذا كان (أ) x (خ) > (ت).

فى حالة السوبر ماركت.. يكون احتمال انزلاق أحد فوق قشرة موز متروكة على الأرض، احتمالاً كبيراً، فلنقل ٢٠ ٪. والإصابة خطيرة، ونفترض أنها بـ ٢٠ ألف دولار قيمة الفواتير الطبية والأجور الضائعة والإزعاج: إذن (أ) x (خ) = ٤٠٠٠ دولار.. يعتبر مهملاً، ومكنسة قيمتها ٣ دولارات فى يد عامل كافية لذلك.

فوق الجزيرة المنعشة ذات النخيل، يكون احتمال انزلاق شخص ناج من حطام سفينة، فوق قشرة موز، احتمالاً منخفضاً جداً ، ربما ١ ٪ (واحد فى المائة). وحتى لو سبب الجرح خسارة قيمتها ٢٠٠٠٠ دولار، فإن الخسارة المحتملة أو المتوقعة هى ٢٠٠ دولار فقط (٢٠٠٠٠ x ١/١٠٠ = ٢٠٠). ويعتبر منتجو الخمور مهملين فقط، إذا كانوا يستطيعون منع الحادث بتكلفة أقل من ٢٠٠ دولار. وبالطبع.. كان بإمكانهم منع الحادث بوضع أسوار وعلامات وكاميرات أمن حول

الجزيرة. ولكن هذا يكلف غالبا، وأكثر من ذلك، فقد تجرح القرود نفسها فوق الأسوار. وحسب رأى هاند.. يجب ألا يضيع المنتجون النقود للوقاية من حادث احتمال وقوعه ضعيف جداً، وإذا أعلن القاضى أنهم مهملون.. فإنه يشجعهم بذلك على إضاعة موارد ثمينة.

لزيادة الرفاه الاجتماعي.. يجب على المحاكم أن تشجع الأفراد على إنفاق النقود على السلامة، فقط طالما أن المنفعة الحدية تفوق التكلفة الحدية، وبذلك طبقت صيغة هاند منطق مارشال على القانون.

نستطيع أن نحاول تفادى كافة الحوادث، ونستطيع لف أنفسنا فى مطاط اصطناعى، وعدم مغادرة منازلنا أو إشعال الفرن، ولكن أغلبنا يوافق على تلقى بعض المخاطر. ويساعدنا هاند على معرفة متى تكون المخاطر مرتفعة لدرجة الحماقة ، أو صغيرة لدرجة التفاهة. وفى الخمسين سنة التالية.. طور المحامون والاقتصاديون ـ طبقاً لرأى هاند ـ الصيغة الأصلية للنظرية. وبالرغم من ذلك.. تظل الصيغة الأصلية تعبر ـ بشكل صحيح ـ عن روح قانون الإهمال الحديث.

الملكية:

عبر العقود القليلة الماضية، أرغم علماء الاقتصاد والقانون القضاء على الاعتراف بتأثير قراراتهم القضائيـة على العقـارات، فالقضاة الذين يتجاهلون الاقتصاد، أحياناً ما يأمرون الأفراد باتخاذ إجراءات، ينتج عنها عكس ما يقصده القضاة تماماً. فلنطالع مثالين، أجبر العلماء بهما المحاميين والقضاة والمشرعين على إعادة التفكير فى تحليلهم لنظرية الاقتصادى رونالد كوز، Ronald Coase، والرقابة على الإيجارات.

ففى عام ١٩٦٠ قدم الأستاذ رونالد كوز من جامعة شيكاغو أداة قوية للتحليل الاقتصادى[٢١]. وباختصار.. أظهر كوز أن التخصيص الابتدائى لحق الملكية لايحدد كيفية استخدام العقار فى النهاية. ودعونا نطبق نظرية كوز على قانون

الضوضاء.. لنفترض أن فرانك سيناترا يمتلك ملهى ليلياً.. تتنبأ نظرية كوز بأن سيناترا سيغنى ثانية إذا كانت قيمة الملهى بالنسبة له أكثر من قيمة النوم عند جاره سايمون. فإذا كانت قيمة الملهى عند سيناترا تعادل مليون دولار، وقيمة النوم عند سايمون تساوى ١٠٠٠٠٠ دولار، فإن سيناترا سيكون قادراً على تقديم رشوة أو تعويض لسايمون، بأكثر من ١٠٠٠٠٠ دولار. والغالب أن سايمون سوف يقبل هذا العرض، وبهذا المبلغ يستطيع سايمون أن يركب حوائط عازلة للصوت، أو يشترى سدادات للأذن مرتفعة الثمن. وتقرر نظرية كوز أنه بمجرد تحديد حق الملكية بوضوح.. فإن العقار سوف يستخدم بأقصى حد. فبمجرد ما أن يعطى القاضى لسايمون الحق فى النوم العميق، يستطيع سيناترا شراء هذا الحق، أو رشوة سايمون للتخلى عن النوم أو الانتقال إلى مكان آخر. وحتى لو أعطى القاضى الحق لسايمون بإسكات سيناترا.. فإن سيناترا يمكنه أن يغنى ثانية، إذا حصل على حق العزف بصوت عال.

لذلك.. فإن سيناترا وسايمون سوف يتفقان على سعر بين ١٠٠٠٠٠ دولار ومليون دولار (وإذا أصر سايمون على تقاضى أكثر من مليون دولار.. فلن يدفع سيناترا، كما أنه لن يغنى. وإذا عرض سيناترا أقل من ١٠٠٠٠٠ دولار.. فإن سايمون سيرفض).

ماذا يحدث لو حكم القاضى لصالح سيناترا، وقرر أن له الحق فى العزف بصوت عال، بغض النظر عن نوم الجيران؟ هل من المحتمل ألا يغنى سيناترا، حتى لو كسب القضية؟ نعم. إذا قدر سايمون نومه أكثر من تقدير سيناترا لغنائه.. فإن سايمون يستطيع شراء سكوت سيناترا عندئذ. وحسب نظرية كوز.. لا يحدد التخصيص الابتدائى (الذى صوره القاضى) ما الذى سيحدث فى النهاية، فهو يحدد فقط من يشترى ومن يبيع. فبينما يدفع المعجبون الوالهون لسيناترا كى يغنى.. فإنه بإمكان الجيران أن يدفعوا له كى لا يغنى.

ويطبق كوز نفس التحليل على ملوثى البيئة. وعلى أية حال.. يعتبر البعض صوت الإنسان المرتفع نوعاً من التلوث، فالمصنع الذى يطلق الدخان فى الهواء قد يضايق الجيران. ولكن إذا قدر المصنع حقه فى التلويث أكثر مما يقدر الجيران حقهم فى الهواء النظيف، أو إذا كان المصنع مستعداً لأن يدفع الجيران للانتقال لمكان آخر.. فإن المصنع قد يستمر فى تلويث الجو. الخلاصة : يكون القضاة أغبياء إذا افترضوا أنهم بقيامهم بتخصيص الحق، سيحددون ما الذى سيحدث فى النهاية.

ولقد هوجمت وانتقدت نظرية كوز، مثل نظرية الإهمال لهاند. والنقطة الرئيسية فى الهجوم، هى افتراض أن الناس يمكنها رشوة بعضها البعض، دون تكاليف صفقات. وفى حالات التلوث على وجه الخصوص ـ حيث تتأثر أعداد كبيرة من البيوت ـ فإنه من غير المحتمل أن تنظم العائلات صفوفها بكفاءة، تتيح لها مفاوضة جهة التلوث. وبالرغم من هذه التعقيدات.. فإنه نظرية كوز تبدو وكأنها بصيرة ذكية ومبدعة، فى الأسلوب الذى تؤثر فيه القرارات القانونية على الأفراد.

قام الاقتصاديون بتحليل دقيق لقضية أخرى من قضايا العقارات، وهى قوانين البلدية للرقابة على الإيجارات، فالمشرعون الذين يعرفون كيف يحصلون على الأصوات الانتخابية، ولا يعرفون كيف يحكمون بتعقل، كثيراً ما يصدرون لوائح سيئة اقتصادياً. وفى السبعينيات.. قام الموظفون ـ الذين تملكتهم روح مثالية ـ بإصدار قوانين الرقابة على الإيجار، تهدف إلى تقديم إسكان رخيص، عن طريق تقييد مقدرة الملاك على رفع الأسعار، وقد يسمى البعض هذا هدفاً نبيلاً، ولكنه سياسة سيئة.

وبكل بساطة.. غالباً ما تخلق قوانين الرقابة على الإيجار نقصاً فى الإسكان، وإذا كانت الأسعار منخفضة.. سيطلب الناس المساكن، ولكن القوانين تقنع الملاك بالحد من العرض. وفى البداية.. قد تعتقد أن الملاك ليس لهم خيار، بمجرد إنشاء المبنى. وفى الحقيقة.. يستطيع الملاك إنقاص العرض، فبإمكانهم إهمال الصيانة

والإصلاح، أو تحويل الوحدات الإيجارية إلى مساكن مشتركة أو تعاونيات أو دور نقاهة أو مساحات للمكاتب التجارية؛ حيث إن كرة الهدم لا تهتم بالتاريخ أو بالتكاليف السابقة. وفى دراسة اقتصادية قياسية لمدن الولايات المتحدة.. قدرت المرونة السعرية للطلب على المدى الطويل بـ ٠,٢٠، وهذا يعنى أنه إذا خفضت الحكومة ـ جبرياً ـ الإيجار بنحو ١٠٪.. فإن الملاك سوف يسحبون ٢٪ من الوحدات الإيجارية من السوق على المدى الطويل[٢٢]، ويبدل الملاك فعلاً من عدد الوحدات، استجابة لتغيير الأسعار.

فى عام ١٩٧٩ .. وضعت مدينة سانتا مونيكا ـ بكاليفورنيا ـ أقسى قوانين تقييد للإيجار فى الولايات المتحدة، تمنع الملاك من إنقاص العرض، بإجبارهم على دفع قيمة بناء وحدة إيجارية جديدة، مقابل كل وحدة محولة أو مهدمة. ونتيجة لذلك.. تراجعت قيمة العقارات، فالمبنى الفارغ يصل سعر بيعه إلى ٦٠٠ ألف دولار، بينما يباع مبنى للشقق بنفس الحجم بمبلغ أقل بـ ٢٠٠ ألف دولار.

ولاتندهش إذا كتبت مجلة فوربس قائلة: «يقف مبنى الشقق الصغير مهجوراً بجوار المنازل التى تتكلف ٥٠٠ ألف دولار أو أكثر. فالوحدات الإيجارية المخفضة تقع فى نفس الشارع مع أفخر التجار، الذين يبيعون كل شيء من الملابس الفاخرة إلى السيارات، للأغنياء والمشاهير» [٢٣].

وحتى لو لم ينقص الملاك من المعروض.. فإنهم قد يرفعون الإيجار بطريقة ماكرة، مثل طلب الرشاوى، أو « مصاريف تجهيزات» ، خاصة من السكان الجدد، فيقول المالك: «إيجار الشقة ٤٠٠ دولار شهرياً، لكن ستارة النافذة التى لابد أن تشتريها ثمنها ١٠ آلاف دولار».

هل يستفيد أحد من تقييد الإيجار؟ فى المدى القصير تربح فئتان: الأولى.. السياسيون الذين يظهرون كأبطال يذبحون الملاك الأشرار. ثانياً.. المستأجرون الذين يحتلون بالفعل وحداتهم، فى وقت إصدار قانون تقييد الإيجار، وبذلك يستمرون

فى الاستمتاع بالإيجار الرخيص. ونتيجة لذلك.. فإنه نادراً ما ينتقل هؤلاء المستأجرون، وهذا يقلل من سهولة التنقل، ويمنع وصول سكان جدد للمدينة: ونتيجة لقانون تقييد الإيجار الصادر عام ١٩٨٠، يجب على طلاب جامعة كاليفورنيا فى بيركلى أن يرتحلوا يومياً إلى صفوفهم، قادمين من مدن مجاورة. وتعج مدينة نيويورك بعديد من الشقق الكبيرة التى يسكنها زوج من العجائز، الذين كانوا يوماً يسكنون الشقة مع أولادهم. وبدلاً من الانتقال إلى شقة أصغر، عندما ترك أولادهم الشقة.. فإنهم يبقوا فيها. ولذلك.. فإن العائلة الكبيرة التى تنتقل إلى المدينة، ليست لها صلاة. وأغلب الناس يعلمون أن طريقة إيجاد شقة فى مانهاتن، تتم عن طريق صفحات الوفيات، لا صفحات العقارات.

وفى النهاية.. فإن قوانين تقييد الإيجار تميل إلى تخفيض قيمة المنازل؛ لأن الصيانة تنخفض والعرض يتضاءل، وعادة ما تكون هذه القوانين وسيلة ضعيفة لمساعدة الفقراء، ووسيلة جيدة لتدمير المدينة.

الجريمـة:

شاهدنا ــ حتى الآن ــ كيف يفحص الاقتصاديون قانون الضرر المدنى والإيجار. ولكن لا يوجد أى مجال قانونى لم يتناوله الاقتصاديون القساة.. فالاقتصادى جارى بيكر Gary Becker، طبق اقتصاديات مارشال على قانون العائلة والقانون الجنائى. والموضوع هنا مثير؛ إذ يفترض نموذج الجريمة، عند بيكر وجود المجرمين الذين يزنون تكاليف ومنافع ارتكاب المخالفات، فإذا كانت لدينا مشكلة متعلقة بجريمة.. فإن بيكر يلمح إلى أن السبب هو أن الجريمة تفيد فعلاً. وحاول الاقتصاديون حساب ما يمكن أن يردع المجرمين، وأهم متغيرين هما: (١) معدلات الاعتقال. (٢) شدة العقوبة. ويختلف الأثر الرادع حسب نوع الجريمة. وبالنسبة لبعض الجرائم.. فلابد أن تركز الشرطة على القبض على المجرمين. وبالنسبة لجرائم أخرى، لا تخيف معدلات الاعتقال المجرمين. إلا أنهم يخافون ويرتعدون من شدة

العقوبة[٢٤]. ولم يطبق تحليل بيكر هذا بشكل عام، فكثير من الإحصاءات يناقض بعضه البعض. وبالرغم من ذلك.. فإن الموضوع أكبر من نظرية إيفلين واف السخيفة؛ القائلة بأنه «كل الجرائم تعود إلى الرغبة المكبوتة فى التعبير الجمالى».

وينتقد الاقتصاديون الذين يدرسون تجارة المخدرات الإجرامية، سياسات الحكومة المضللة التى تفشل فى حل المشكلة المفزعة. ففى خلال العشرين سنة الماضية.. حاولت الحكومة الفيدرالية أن تقلص من عرض المخدرات، عن طريق تدمير المحصول أو إغلاق الحدود الأمريكية. وبالرغم من أن إدارة مكافحة المخدارت تضبط أطناناً من المخدرات كل عام، إلا أنه ـ لعدة أسباب ـ لا يعطى التركيز على جانب العرض نتائج جيدة:

أولاً.. المخدرات مثل الكوكايين مشتقة من النباتات، التى تنمو بسهولة فى أنحاء عديدة من العالم. وهناك حقول خصبة عديدة أكثر مما يمكن حرقها أو الإشراف عليها. **ثانياً**.. حيث إن القيمة السوقية للكوكايين ـ مثلاً ـ تفوق تكلفة استيراده بعشر مرات، فإن رفع السعر فى ميناء ميامى سيؤدى إلى زيادة ضئيلة فى الأسعار فى شوارع شيكاغو. **ثالثاً**.. حتى لو أدى التحريم وحرق الحقول إلى رفع سعر السوق.. فإن مدمنى الكوكايين لا يهتمون كثيراً بالتكلفة. وباستخدام مصطلحات مارشال.. يمكن القول بأن طلب المدمنين غير مرن. وبالعكس.. قد تدفع الأسعار العالية المدمنين إلى السلب والسرقة أو أكثر من، ذلك لكى يدفعوا ثمن عادات إدمانهم. (المدمنين الجدد قد يكونون أكثر تأثراً بارتفاع الأسعار).

وقد اعترفت إدارة بوش وعدد من رجال الكونجرس بهذه المشاكل. ولذلك.. فإنه من أجل كسب حرب المخدرات، أو حتى الحصول على هدنة.. يجب على الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات التركيز على جانب الطلب، ويعنى ذلك معاقبة مدمنى المخدرات بشدة. وقد يكون هؤلاء المدمنون غير مرنين بالنسبة للأسعار، ولكنهم أكثر حساسية من جهة مدة السجن. وبالطبع.. يجب توفر الاستشارة

والعلاج الجيدين أيضاً. ويجب أن تكون هذه الإجراءات مصحوبة بمطاردة وعقاب باعة الشوارع. وإلى أن يقلع الأمريكيين عن الرغبة فى استعمال المخدرات.. فإن حرب المخدرات لا يمكن كسبها فى الحقول جنوب البلاد، أو فى الموانى على الحدود الجنوبية، وإنما يمكن كسبها فقط فى شوارع المدن الأمريكية.

لا أحد ينكر أن الاقتصاديين قد أفادوا علم القانون. ويتساءل النقاد مع ذلك فيما إذا كان المحامون قد تخطوا حدودهم تحت تأثير الاقتصاديين. وعلى كل حال.. يجب على القانون أن يهدف إلى العدالة، ولكن هل الكفاءة تساوى العدالة؟ هل يجب علينا نبذ القوانين غير الكفء، بالرغم من عدالتها؟ ماذا يحدث لو كان ضرب المدمنين بالسياط يتميز بالكفاءة. يرد المدافعون بطريقتين، ويجادل المتطرفون عادة بأن العدالة تساوى الكفاءة، وهذا يذكرنا بالاقتصادى ميل المنهار عصبياً. وقد قال ريتشارد بوسنر، Richard Posner ـ فى الطبعات الأولى من بحث بعنوان «التحليل الاقتصادى للقانون» Economic Analysis of Law ـ إن الكفاءة هى «ربما المعنى الأكثر شيوعاً» للعدالة، «وسوف نرى أنه عندما يصف الناس عملاً بأنه غير عادل، كإدانة شخص دون محاكمة، أو أخذ ممتلكات دون تعويض عادل.. أنه يمكن تفسير كلامهم على أنه يعنى أن لا شئ أكثر إثارة للضجة من هذا السلوك المقصود الذى يضيع الموارد و «هذه الملاحظة الغامضة نوعاً»، والصادرة عن رجل ذكى، يوضحها لنا فى الطبعة الثالثة من البحث، حيث يعترف بوسنر بأن «هناك ماهو أدنى إلى العدالة منه إلى الاقتصاد» (٢٥).

أما الرد الأكثر معقولية فله جانبان: الأول .. أن القضاة يكافحون فعلاً من أجل الكفاءة فى عديد من قراراتهم القانونية؛ خاصة المتعلقة بقانون الأعمال، وتساعدهم مدرسة القانون والاقتصاد. وفى العقود الماضية.. حاول القضاة العمل بكفاءة، ولكن الجهل أغشى أبصارهم. ثانياً .. فى القضايا التى تثار فيها مواضيع العدالة، يجب على النظام القضائى الأخلاقى أن يعلم ـ على الأقل ـ النتائج

المحتملة لقراراته. فمن وجهة النظر الأخلاقية.. يجب أن نميز بين العمل العادل والرجل العادل، فالرجل العادل هو من يختار اختياراً سليماً بعد تفكير، في حين أن فأر المعامل يستطيع اختيار العمل السليم، ولكن هذا العمل غير عادل لأنه لم يتم التفكير فيه. والقاضي الذي يتجاهل ـ ببساطة ـ النتائج، ليس أكثر من فأر معمل، وحتى إذا رفض فرض نتيجة كفء، فعليه أن يعلم أنه يتجاهل الكفاءة. وطالما أننا لم نلمس السحاب العالي جداً، فدعونا نترك هذه المحاولة السطحية مع بوسنر وكانط، وننتقل إلى تطور مثير في قانون شركات الأموال.

شركات الأموال:

يختلف رجال القانون والاقتصاد مع المؤسسيين القدامى لأن المؤسسيين الجدد يستخدمون أدوات مارشال لدراسة المؤسسات. ومع ذلك.. هناك مجال واحد ضيق، يتفق عليه القدامى والجدد معاً. في ١٩٣٢، قال أدولف بيرل، Adolph Berle، (قانوني) وجاردينر مينز، Gardiner Means (اقتصادي) أنه يوجد انقسام خطير بين ملاك ومدراء الشركات[٢٦]. وحيث إن الملاك (بما فيهم حملة الأسهم) لم يعودوا يديرون الشركة، ولكنهم يفوضون السلطة إلى مدراء مأجورين.. فإن الشركات لم تعد تعمل بكفاءة، وأصر جالبرث ـ فيما بعد ـ على أن المدراء يسيرون وراء أهدافهم الخاصة، مثل تضخيم مراكزهم عن طريق زيادة حجم الشركة.

وبالرغم من إنكارهم للتأثيرات الرهيبة.. فإن المؤسسيين الجدد يعترفون بأن الملاك يجب أن يشرفوا على مدرائهم. والإشراف يكلف أموالاً، تسمى أحياناً «تكاليف الوكالة».

ولتخفيض تكاليف الوكالة، عادة ما يعطى الملاك للمدراء الحوافز لرفع الأرباح. ويتلقى معظم كبار موظفي الشركات جزءاً من مكافآتهم على شكل أسهم، فإذا رفعوا الأرباح.. تزيد الأسهم، ويكسبون أكثر. وبالإضافة إلى أنهم عادة ما يأخذون

«حقوق تقدير الأسهم»، حيث تدفع الشركة لهم علاوة نقدية عند ارتفاع قيمة الأسهم. وهناك كثير من الشركات، التى تتعهد بإعطاء حوافز السهم للموظفين من غير الهيئة الإدارية.

وفى الثمانينيات.. ظهرت حوافز أخرى أقوى، مع زيادة الإقبال على الشراء الكامل للشركة عن طريق الاقتراض، حيث يقترض المدير نقوداً لشراء كامل الأسهم، ويستولى بذلك على ملكية الشركة لنفسه. ثم مع حفظ الديون الجديدة.. فإن المدير يضطر إلى تخفيض النفقات والتخلص من الأصول الأقل إنتاجية، ويقوم نواب الرئيس بتسليم عهدتهم إلى الملاك الجدد، وبذلك يتم تصحيح الانقسام الخطير. وتنخفض نفقات الوكالة لأن المديرين لديهم نصيب كبير جداً فى أداء الشركة. فشركات هيرتز، Hertz، وليفى شتراوس، Levi Strauss، وسيفواى، Safeway، كلها أصبحت خاصة. وهناك انتقادات لعملية الشراء الكامل بالاقتراض. بالرغم من أن حملة الأسهم الذين باعوا أنصبتهم إلى المدراء، تلقوا زيادة إضافية كبيرة فوق سعر السوق.. إلا أن النقاد يتساءلون ما إذا كان سعر الشراء الكامل قد تم تحديده بشكل عادل. وقد يكون لدى المدراء معلومات داخلية لم يذيعوها، مما يحتم رفع الأسعار أكثر[٢٧]. وعلاوة على ذلك.. يشير النقاد إلى أن عبء الدين الكبير قد يضاعف ـ إلى حد كبير ـ من مخاطر الإفلاس إذا تداعى الاقتصاد. وهذا صحيح، إلا أن الدائنين الجدد لهذه الشركات، هم عموماً شركات التأمين والمؤسسات الضخمة التى تدرس المخاطر بعناية.

ويتم حالياً تمويل عديد من المسرحيات والأفلام؛ بحيث يدفع المنتجون للممثلين والمخرجين نسبة من الدخل الإجمالى بعد دفع التكاليف. وبذلك يكون لكل فرد حافز لتقليل النفقات، وليس هناك دافع لدى أى أحد للتبذير والتبديد على أشياء ترفيه إضافية، ويسمى الممولون فى هوليوود ذلك «تأجيلات الطوارىء».

وهناك تطبيقات اقتصادية لكل ظاهرة اجتماعية ولكل مؤسسة تقريباً. وطبقاً لدراسة أجريت عام ١٩٨٩ ، ترتبط المعالجة التاريخية لموضوع أسرى الحرب ارتباطاً

وثيقاً بتكاليف وفوائد قتل أو الإفراج عن المعارضين المهزومين. ولم تكن العصور الوسطى ـ كما يستنتج المؤلفون ـ كلها فظيعة بالنسبة لأسرى الحرب، حيث إن الآسرين كانوا عادة يعاملون الأسرى معاملة جيدة لطلب فدية مرتفعة عنهم(٢٨). وتحددت الأنباء السيئة بالنسبة للأسرى في العصور الوسطى: أنه إذا انخفض الطلب عليهم أو على عملهم، تبدأ رؤوسهم في التدحرج.

وهناك تطبيقات اقتصادية حتى بالنسبة للزمن: فكيف يتصرف الناس إذا علموا أن نهاية العالم غداً ؟ كيف يتصرفون إذا علموا أن هناك نظاماً قانونياً جديداً، لايجبر على تنفيذ العقود، أو معاقبة المجرمين سوف يصدر الأسبوع القادم؟.

ويتصرف الناس حضارياً تجاه بعضهم لعدة أسباب: الأول.. أنهم يريدون أن يعرف عنهم جدارتهم بالثقة، وهذا أمر مهم في قطاع الأعمال ولكن إذا كان الوقت قصيراً، والسمعة في العصر القادم لن تعتمد على السلوك الحالي.. فإن بعض الناس قد ينكثون عهودهم، ويستغلون الآخرين. ويتطلب اقتصاد السوق السليم مستوى معيناً من الكياسة واحترام الوعود. والمجتمع الذى لا يفهم المستقبل ، سيشهد انهياراً اقتصادياً(٢٩) .

من الواضح أن الاقتصاد يتضمن ما هو أكثر من الأسعار والأرباح والإيجار والتكاليف؛ فالقانون والأخلاق والعادات والفلسفات كلها تساهم في الاقتصاد؛ لأنها قد تدعمه، أو تمزقه. وقد وسَّع فبلن وجالبرث تعريف الاقتصاد، وأجبرا زملاءهما على فتح عيونهم على ظواهر أوسع، فالاقتصاد ليس بالسهولة التي أظهره بها مارشال.

يعترف المؤسسيون الجدد بأن الاقتصاد ليس سهلاً، ولكنهم يظهرون كم كانت قوية أدوات مارشال، لأنهم يستخدمون أساليبه لفهم المؤسسات المعقدة، التي تساعد على تشكيل الاقتصاد.

وقد حذر برانديز، Brandeis، من أن المحامين الجاهلين بالقانون يعرضون المجتمع للخطر. ما هو ميراث المؤسسيين الجدد والقدامى؟ لقد أوضحوا أخيراً أن الاقتصاد كبير، كبر المجتمع نفسه.

الفصل التاسع

كينز: المنقذ محب الحياة

ربما تكون كامبردج أجمل جامعة فى العالم، وفى كل عام يتجول مئات الآلاف من السواح داخل قاعاتها المبنية فى العصر الوسيط، يتنزهون فى نهر كام، ويلتقطون الصور، بينما يلعب الطلاب الكريكيت والكروكيه على العشب الوافر الخضرة. وأحيانا يترك الطلاب مضارب الكريكيت ليلعبوا بعض المقالب على الضيوف. ومنذ عدة سنوات قام بعض أبناء كامبردج المرحين بصباغة كرة من معجون الورق، بحيث تبدو كقطعة أسمنتية ثقيلة مثل الزخارف الموجودة على أحد الجسور الممتدة فوق نهر كام. وبينما كان أحد القوارب الممتلىء بالسائحين اليابانيين يمر بالقرب من الجسر، دفع الطلاب الكرة من فوق الجسر، وصرخوا، فصرخ السائحون وقفزوا من القارب، وآلات التصوير فى أيديهم. وإلى جانب السائحين المذعورين، بإمكان كامبردج أن تكون مكاناً بسيطاً. فلا يزال المدرسون والطلاب فى ثيابهم الجامعية، يدخلون إلى قاعات القرن السادس عشر، ويتناولون العشاء أسفل صور هنرى الثامن، Henry VIII، وإليزابيث الأولى، Elizabeth I، والخريجين من نيوتن وداروين ووردزوورث، Wordsworth. هنا ركض كوك كروفت، Cockcroft، خلال الشوارع، يحضن المارة ويصيح: «لقد شطرنا الذرة! لقد شطرنا الذرة! وهنا اكتشف واتسون، Watson، وكريك، Crick، الحياة السرية للجينات نموذج DNA.

ولايوجد أحد يجسد روح كامبردج من ثقافة ومرح وواجب عام مثل ماينارد كينز. لم يكن هناك أحد أكثر ذكاء أو جاذبية، ولم يؤثر أى اقتصادى فى هذا القرن على السياسيين أو على تقدم الاقتصاد أكثر منه. قال براتراند راسل، Bertrand Russell، أحد أبرز فلاسفة بريطانيا، أن كينز لديه «أذكى وأصفى» عقل عرفه على الإطلاق «عندما تجادلت معه.. شعرت أننى أحمل حياتى بين يدى، وأنا نادراً ما أندفع دون أن أشعر بأننى أحمق إلى حد ما»[1]. ويشعر الإنسان بالأسف تجاه تشارلز راى فاى، Charles Rye Fay، وهو زميل كينز فى الدراسة. كان أول طالب مستجد يقابله فاى، عند وصوله كامبردج هو كينز، واعتقد فاى المسكين أن كل زملائه سيكونون أفضل منه، مثل كينز، وقال فيما بعد، أنه اتضح له أن أول شخص قابله فى الكلية هو أذكى شخص قابله فى حياته كلها. وبالمصادفة.. كان كينز ذكياً بما يكفى ليعرف أنه ذكى، واتهمه البعض بالتواضع. وفى الحقيقة.. لم يبادل كينز صديقه فاى الإعجاب وكتب عنه فيما بعد قائلاً: «أن صديقه لم يكن يصلح كرفيق سفر لأنه «قبيح جداً، وأنا أعتقد أن قبح الوجه واليدين والجسم والملابس والسلوك، لايخفيها تماماً المرح والقلب الطيب والذكاء المتوسط»[2].

وبالرغم من نشأته فى الفردوس المفقود فى كامبردج، إلا أن كينز وأفكاره طافت أنحاء العالم. وإذا كان رونالد ريجان قد اتبع نظرية آدم سميث.. فإن كل رئيس للولايات المتحدة من فرانكلين روزفلت، Franklin D. Roosevelt، إلى ريتشارد نيكسون، Richard Nixon، قد اتبعوا نظرية كينز، خاصة كينيدى، Kennedy، وجونسون. ومن السخرية أنه بعد أن أعلن نيكسون «إننا جميعاً نتبع كينز الآن»، بدأ تأثير كينز يضعف واعترف ميلتون فريدمان، أقوى ناقد لاقتصاد كينز، أنه «من ناحية.. فإننا جميعاً نتبع كينز الآن، ومن ناحية أخرى، لم يعد أحد يتبعه»[3].

مامعنى أن نتبع نظرية كينز، يكفينا هنا افتراضان: (١) قد لا يصل الاقتصاد الخاص إلى العمالة الكاملة، (٢) يستطيع الإنفاق الحكومى أن يحفز الاقتصاد

لتغطية هذه الفجوة. وفى كل مرة يدافع فيها أحد الساسة بحماس عن الاستثمار الحكومى لامتصاص البطالة، أو تضع الحكومة البرامج لتحريك البلاد مرة أخرى، أو تخفض الضرائب بحدة لزيادة الاستهلاك.. فإن هذا السياسى يرفع من شأن كينز.

وبالرغم من ذلك.. لم يهتم كينز بالبطالة وحدها، فكتاباته المجمعة يزيد عددها عن ٢٤ مجلداً، وتغطى مواضيع عديدة، بما فيها قضايا العملة، وقيود التجارة، وإعادة التعمير بعد الحروب العالمية، ومقالات لبقة عن شخصيات مثل إينشتاين، Einstein، ونيوتن. ويضع مؤرخ أكسفورد الشهير هيو تريفور - روبر، Hugh Trevor - Roper، اسم كينز بين كبار المساهمين فى المنهج التاريخى.

الهروب من العصر الفيكتورى:

ولد كينز عام ١٨٨٣ فى منزل بيوريتانى فيكتورى. كان والده جون نيفيل كينز عالم منطق واقتصادياً معروفاً، وكان يشغل منصب المسجل فى جامعة كامبردج، وكانت والدته الجذابة هى فلورانس أدا، Florence Ada، التى شغلت فيما بعد منصب عمدة كامبردج. ورغم أن كينز كان يحب والديه، إلا أنه قضى حياته هرباً من تأثيرهما الأخلاقى والفلسفى.كان كينز يحب المرح وقليل الاهتمام بالاتجاهات البيوريتانية المجسدة فى السيد جيمس ستيفن، James Stephen، جد صديقته فيرجينيا وولف، Virginia Woolf، والذى اشتهر عنه أنه دخن ذات مرة سيجاراً ووجده ممتعاً جداً لدرجة أنه لم يدخن أبداً مرة أخرى. رغم ذلك، كان كينز مستريحاً لكونه عضواً فى الطبقة البورجوازية المثقفة. وفى تورية على الاصطلاح الإنجليزى wet (تعنى مبتل أو ضعيف الولاء السياسى)، قال عنه لينين: «بورجوازى من أعلى طبقة، (ويقصد بها ضعيف الولاء جداً)، بينما كان كينز يمزح قائلاً إنه عندما تأتى الثورة الشيوعية.. فإنه سيكون بجوار علم البرجوازية.

وأثناء دراسته فى مدرسة إيتون.. جمع جوائز فى مادة الرياضيات، ومثل جيداً على المسرح، وكان أداؤه ضعيفاً فى لعبة الكريكيت. وعندما دخل كلية كينجز

فى كامبردج، تألق نجمه أكثر. والأهم من ذلك، كون صداقات واتصالات فكرية ومادية، مع غيره من ذوى الثقافة الرفيعة، ودعى للانضمام إلى أكثر الجمعيات تدقيقاً فى اختيار أعضائها وأكثرها سرية فى الجامعة ـ جمعية الحواريين.. كانت الجمعية تضم أعضاء قدامى عظاماً، أو «ملائكة»، مثل راسل، و ج.إ. مور، G.E.Moore، وألفريد نورث وايتهيد، بالإضافة إلى نظراء كينز، الذين حقق كثيرون منهم شهرة فى عالم الأدب والفنون، مثل ليتون ستراكى،-Lytton Stra chey، و إ.م. فورستر، E.M.Forster، وليونارد وولف، Leonard Woolf. وبشكل عام.. كانت جمعية الحواريين تناقش ثلاثة مواضيع: الفلسفة وعلم الجمال وأنفسهم. ولم يكن منظرهم ـ على وجه الأخص ـ لطيفاً من الناحية الجمالية. كان معظمهم، ومن ضمنهم كينز، يفتقرون إلى ماتسميه فيرجينيا وولف، Virginia Woolf، «البهاء الجسدى». كان ألذع تعليق على مظهر كينز من مدرس مساعد فى مدرسة إيتون، فقد وصفه قائلاً إنه «قبيح بشكل واضح لأول وهلة، وشفتاه بارزتان، وكأنهما تدفعان أنفه الحسن وحاجبيه الثقيلين إلى أعلى فى شكل يشبه القرد قليلاً»[٤]. وكان الأصدقاء فى إيتون يسمونه «الأنف البارز»، وبالرغم من أن كينز تعايش مع هذا، الوجه الشبيه بالقرد.. إلا أنه ظل مقتنعاً بأنه قبيح.

كذلك كانت جماعة الحواريين تتمتع بغطرسة قبيحة، ليس فقط لأنهم اعتبروا أنفسهم أرقى بكثير من الآخرين، بل لأنهم اعتقدوا أيضاً أنهم أرقى من كل علماء كامبردج وأكسفورد «لدى شعور أن أغلب الناس لايرون أى شىء أبداً ـ أغبياء جداً وشريرين جداً» هذا ماكتبه كينز إلى ستراكى، ومع ذلك لاأحد يستطيع أن ينكر أن جماعة الحواريين كانوا مجموعة رائعة، عادة ماتشترك فى مناقشات حيوية. وفى هذه الجمعية ـ بالإضافة إلى جمعية اتحاد كامبردج ـ تعلم كينز كيف يصبح المُناظر والراوية الأول الذى فاق ـ فيما بعد ـ زملاءه ومنافسيه والسياسيين فى الحلقات الدراسية والمؤتمرات.

أصبح عديد من الحواريين ــ بمن فيهم كينز ــ جماعة بلومزبيرى، الذين أثرت مواقفهم البوهيمية المضادة للعصر الفيكتورى، بقوة على تطور الثقافة البريطانية. وبالإضافة إلى إنجازاته فى الاقتصاد، كان كينز يقضى أكبر وقت فى جمع الكتب، وتأسيس مسرح الآداب فى كامبردج، والخدمة فى وظيفة أمين القاعة الوطنية للفنون، ووظيفة مشترى لجمعية الفن المعاصر، ورئيس مجلس أمناء دار الأوبرا الملكية. وفى عالمنا المعاصر الأكاديمى الأكثر تخصصاً.. يتساءل المرء عما إذا كان كينز سيختار الاقتصاد، مع حبه للفنون أم لا.

لم يأت كينز إلى كامبردج لدراسة الاقتصاد بل الرياضيات. وبالرغم من أن أداءه كان جيداً، إلا أنه شق طريقه بجهد، فقد كتب إلى صديقه[٦] قائلاً: «إننى أسبب الحزن لعقلى، وأدمر ذكائى وأفسد مزاجى». وبعد النجاح فى اختبار الرياضيات، قرأ أول كتاب فى الاقتصاد، وهو مبادىء الاقتصاد لمارشال. وبدأ كينز يكتب مقالات إلى مارشال الذى كان يكتب له بعض الكلمات المشجعة فى الهوامش. وفى أعظم تصريح منذ أعلن سميث أنه سيبدأ فى وضع كتاب من قبيل «تمضية الوقت»، كتب كينز عن الاقتصاد: «أعتقد أننى جيد إلى حد ما فى مادة الاقتصاد» ثم أضاف «أريد أن أدير محطة قطار، أو أنظم اتحاداً احتكارياً، أو على الأقل أحتال على جمهور المستثمرين». وبعد عدة أيام قال إن «مارشال يضايقنى بإلحاحه علىّ كى أتحول إلى اقتصادى محترف.. هل تعتقد أن هناك فائدة فى ذلك؟ أشك فى ذلك»[٧].

استمرت دراسة كينز مع مارشال ثمانية أسابيع، ولم يحصل على شهادة فى الاقتصاد، ومع ذلك أثبت نشاطاً ملحوظاً فى التدريب العملى أثناء الوظيفة.

فى عام ١٩٠٥.. بدأ كينز يدرس باجتهاد لامتحان الخدمة المدنية، وأثناء مراجعة الرياضيات والفلسفة وعلم النفس ومواد أخرى، برزت تحيزاته ثانية. لقد قرأ كتاباً لفيلسوف من غير جامعة كامبردج، فتأسى قائلاً: «إن أوكسفورد مصدراً

للأفكار المريضة». وجاء ترتيب كينز الثانى من بين ١٠٤ متقدماً. ومن باب السخرية.. كانت نتائج الاقتصاد والرياضيات من أسوأ النتائج! وعلق قائلاً: «إن المعرفة الحقيقية هى عقبة مطلقة فى طريق النجاح». أما عن الاقتصاد، فقد قرر كينز أن الممتحنين لم تكن لديهم معلومات كافية، وأنه سوف يعلمهم[٨].

فى عام ١٩٠٦.. انتقل كينز للعمل فى مكتب الهند فى لندن، ولكنه لم يصل إلى الهند أبداً. كانت أول مهمة هى شحن عشرة ثيران صغيرة إلى بومباى بالباخرة، وسرعان ماشعر أنه أصبح سخيفاً، أو بمعنى أدق، وقحاً، بسبب الملل. وكتب إلى ستراكى أنه يعمل فى إعداد التقرير السنوى عن التقدم المادى، والأخلاقى للهند، وينوى وضع «إضافة خاصة» فى «تقرير هذا العام.. ملحق مصور عن اللواط»[٩].

عاد كينز إلى كلية كينجز فى كامبردج، هارباً من الملل، وقد جذبه عرض مارشال للتدريس كمدرس اقتصاد. واعتمد كينز على واحد من القليل من الكتب التى قرأها فعلاً، وهو كتاب مارشال. وفى السنوات الأولى لم يبعد اقتصاده كثيراً عن مارشال والمنهج الكلاسيكى. ومع ذلك ـ فمع زيادة قراءاته ـ ذاعت شهرة بصيرته وبعد نظره، ونتج عنها تعيينه كمحرر مساعد فى الجريدة الاقتصادية ذات النفوذ. واحتفظ كينز بالوظيفة حتى ١٩٤٥، وكون سمعة ممتازة من التحرير الدقيق والدعابة الحلوة. وذات مرة أخبر مؤلفاً أجنبياً أنه بينما يمكن اختصار الاصطلاح اللاتينى exempli gratia (أى على سبيل المثال) بالحروف e.g ، إلا أنه لايستطيع اختصار نفس الاصطلاح بالانجليزية "for instance" بالحروف f.i. وبعد سنتين، أى فى عام ١٩١٣ نشر كتاب «العملة الهندية والمالية»، Indian Currency and Finance ، أحد ثمار عمله القليلة فى مكتب الهند، وقد قال عنه جوزيف شومبيتر «أفضل عمل باللغة الإنجليزية عن قاعدة تبادل الذهب»[١٠]. وبالطبع.. فإن شومبيتر، الذى كان يحسد كينز، قد يكون قاصداً إهانة الاقتصاديين الإنجليز، بدلاً من مدح الكتاب.

الحرب والسلام الخطير:

أعادت الحرب العالمية الأولى كينز إلى العمل الحكومى فى وزارة المالية، وقد وضعت الحرب اختباراً أمام جماعة بلومزبيرى ومعتقداتها المتحفظة والمعادية لنظام الحكم، وغير الوطنية. وقد طالب أغلب أعضائها الذكور ـ ومعهم كينز ـ بالإعفاء من الخدمة العسكرية، لأنهم معارضون ذوو ضمير. وكالمعتاد.. أدخل لايتون ستراكى الهزل فى الموضوع الجاد. فالبرغم من أنه أعلن أن كل المفكرين اللائقين بدنياً يجب أن يكونوا على استعداد للدفاع عن شواطىء إنجلترا، إلا أنه أضاف شرطاً واحداً: لايوجد أى مفكر لائق بدنياً. وبعد ذلك بقليل، قدم ستراكى أفضل مساهمة للمجهود الحربى، إذ حاك وشاحاً صوفياً لونه أزرق لأحد البحارة. وأخيراً.. عندما تم تقديم ستراكى إلى محكمة الحرب لاختبار موقفه المعارض ذى الضمير، سأله المسئولون السؤال التقليدى: ماذا تفعل لو رأيت جندياً ألمانياً يحاول اغتصاب شقيقتك؟ تمهل ستراكى، وغمز بعينه قائلاً: «سوف أحاول أن أضع جسدى بينهما»[١١].

بعد الحرب.. مثل كينز وزارة المالية فى مؤتمر فرساى، ومرة أخرى تضايق من الحكومة، ولكن ليس من الملل. لقد شاهد كينز الرئيس الامريكى وودرو ويلسون، Woodrow Wilson، يقع فى شرك خداع رئيس الوزراء البريطانى لويد جورج، Lloyd George، والفرنسى كليمنصو، Clemenceau، للضغط على ألمانيا المهزومة... ضغطاً فوق المنطق وفوق طاقاتها على النهوض، إلا فى حالة الاشتراك الفعلى المخيف فى حرب. بل إن كينز قارب على التنبؤ بوقوع حرب عالمية ثانية، ولما لم يستطع تحمل هذا الكابوس الديبلوماسى الذى كان يشاهده، استقال، وكتب بسرعة واحداً من ألذع مقالاته الهجومية، حتى لو قيس بمعايير جمعية بلومزبيرى، وهو «النتائج الاقتصادية للسلام». فإلى جانب الصور القاسية لرؤساء العالم التى رسمها كينز.. حاول أن يبرهن أن ألمانيا لاتستطيع أن تتحمل التعويضات

المطلوبة منها. وارتفعت مبيعات الكتب، وحطمت الأرقام القياسية فى إنجلترا والولايات المتحدة، وكذلك ارتفعت سمعته وزاد غروره. وفى قصيدة سافرة علقت إحدى المجلات على «صراحة كينز»: «لازلنا نشعر.. أن أحد الأشياء النهائية قد يكون خافياً على أتباع الملك»[١٢].

لم يكن هناك كثير مما يخفى على كينز. وخلال العقد التالى.. استمر فى التدريس، وتحرير الصحيفة، والكتابة، وتقديم المشورة للحكومات، والعمل كرئيس مجلس إدارة شركة للتأمين على الحياة. وتراسل مع غالبية مشاهير الساسة والأكاديميين والفنانين فى زمانه عام ١٩٢٥ تزوج من ليديا لوبوكوفا، Lydia Lopokova، راقصة الباليه الروسية، وقد ساعده الحظ مع قدر جيد من المهارة فى كسب ثروة من المضاربة فى أسواق العقود والأسهم. وبعض النقاد يتحدون الاقتصاديين «أن يزدهروا أو يسكتوا»، أى أنه إذا كانت لديهم معرفة بالنقود، فلماذا إذن لم يصبحوا أغنياء؟ فإذا حكمنا على الاقتصاديين بهذا المعيار، فإن كينز يأتى فى المرتبة الثانية بعد ريكاردو. أما فى المركز الأخير.. فإن هناك عدداً من الاقتصاديين أكبر مما نستطيع أن نذكر.

الكساد العظيم وسقوط الاقتصاد الكلاسيكى

فى مجال الاقتصاد.. ركز كينز على السياسة المالية غالباً، وكتب «مقالة عن الإصلاح النقدى» عام ١٩٢٣، وأتبعها بجزءين من «بحث فى النقود» عام ١٩٣٠، والذى ارتبط، مع أغلب كتابات كينز الأولى حول الاستثمار، مع أفكار جديدة حول الارتباط بين المدخرات والاستثمار. ولكن بالرغم من الطبيعة الشاملة للبحث.. فإن عام ١٩٣٠ جاء للاقتصاد بتحديات معقدة، لدرجة أنه لم يستطع مواصلة اعتماده على أعماله المنشورة أو سحرها الجذاب. وبالرغم من أن كينز لم ينضب، إلا أن حظ العالم نضب.. إذ غرقت الدول فى الديون واليأس الذى جلبه الكساد العظيم.

تذكروا الصورة المفزعة التى رسمها مالتس، حيث ينقسم العالم، تاركاً الضحايا يتدافعون من أجل البقاء. فى أحد الأيام القريبة ـ وفى مكان معروف لدينا ـ كاد ذلك أن يحدث فى الفترة من ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ فى الولايات المتحدة، صفعت يد الاقتصاد الحر الخفية الرخاء على وجهه؛ إذ ارتفعت نسبة البطالة بسرعة من ٣٪ إلى ٢٥٪، وتدهور الناتج القومى إلى النصف، وتوقفت المبانى السكنية. وفقد كثيرون منازلهم وأعمالهم. أصبح انهيار سوق الأوراق المالية عام ١٩٢٩ ، وماتبعه من انتحار المضاربين، رمزاً وسبباً لمزيد من التدهور الاقتصادى. وتعثرت العشرينيات المزدهرة واتجها نحو التوقف، تاركة الدخل عام ١٩٣٣ أقل مما كان عليه عام ١٩٢٢ . وتدافع العمال على الوظائف القليلة المتوفرة. وأقيمت مطاعم الحساء. وصاحب الكساد الاقتصادى اكتئاب نفسى.

ردد مؤلف الأغانى الشهير يب هاربورج، Yip Harburg ، والذى وعد فيما بعد جودى جارلاند بمكان أفضل فى أغنيتها «فوق قوس قزح»، ردد إحباطه وكآبة الكساد فى أغنيته الشهيرة «أخى هل تستطيع إعطائى دايم (عشرسنتات) ؟» لقد أرّخت الأغنية للأجيال التى كدحت؛ لتساعد فى صنع الحضارة المزدهرة من الصحراء الأمريكية المقفرة. إلا أن المغنى الذى ساعد فى بناء السكك الحديدية التى سابقت الزمن، لاعمل لديه. هل يستطيع الانسان أن يشحذ بكرامة وكبرياء؟ نعم لأنه لم يفقد وظيفته بسبب الفشل الشخصى، فالاقتصاد الذى أخفق هو الذى سرقه.

لقد ناقش المؤرخون الاقتصاديون طويلاً سبب الكساد العظيم، ولكن لاتوجد إجابة بسيطة. والسؤال الأهم هو ما الذى حوّل الركود المؤقت إلى كابوس؟ لقد عايشت الولايات المتحدة فترات ركود من قبل، ولكن ليس بهذه الحدة. ويؤكد أغلب الاقتصاديين تصادف اجتماع أكثر من حدث سيء فى وقت واحد: نضوب فرص الاستثمار بعد تسارعها فى العشرينيات، وقرار المستهلكين تقليل الإنفاق

وسداد القروض، واتخاذ الحكومات المذعورة لسياسات حمائية. وفى مواجهة كل ذلك كان رد فعل نظام الاحتياطى الفيدرالى هو سياسات أشد، وليس سياسات أخف(١٣).

عندما خاض رونالد ريجان معركة الرئاسة ضد الرئيس كارتر عام ١٩٨٠ ، قام بتعريف عدة مصطلحات اقتصادية بأسلوب طريف: «الركود هو أن يفقد جارك وظيفته، والكساد هو أن تفقد أنت وظيفتك، والانتعاش هو أن يفقد جيمى كارتر وظيفته».

قد يوافق جون ماينارد كينز على ذلك، ولكن مع تعديل بسيط على التعريف الأخير. فالانتعاش من الكساد العظيم هو أن يفقد العجائز فى وزارة المالية البريطانية (والحكومة الأمريكية) وظائفهم. فالبنسبة لكينز.. فإن عجائز وزارة المالية كانوا ثملين من الخمر القديمة، التى قدمها لهم الاقتصاديون الكلاسيكيون، والتى تحولت إلى خل بالنسبة لذوقه. وهاجم كينز بعنف رأى وزارة المالية الذى أوصى بالصبر ووعد بالانتعاش على المدى الطويل. ماهى فائدة وجود مثل هذه الحكومة؟ «على المدى الطويل سنموت كلنا»، وذلك ماكتبه فى «مقالة عن الإصلاح النقدى».

برر كينز النصيحة التى أعطاها إلى السياسيين فى كتابه الرائع عام ١٩٣٦ «النظرية العامة فى التوظيف والفائدة والنـقود» ، The General Theory of Employment, Interest and Money والذى يحطم رأى وزارة المالية، ويقدم إطار عمل جديداً لتحليل الاقتصاد الشامل. وكما تنبأ كينز فى كتاب «المقدمة».. سوف يتأرجح الاقتصاديون التقليديون «بين إيمان بأننى مخطىء تماماً، وإيمان بأننى لم أقل شيئاً جديداً» . قام صامويلسون، صاحب كتاب مبادىء الاقتصاد، الذى علم اقتصاديات كينز لأجيال من الطلاب، قام بالحكم ـ بذكاء ـ على غموض النظرية العامة: «هو كتاب سىء الصياغة، ضعيف التنظيم، وأى أنسان عادى ـ خدعته السمعة

السابقة للمؤلف ـ يشترى هذا الكتاب، فإنه مخدوع فى الثمن.. إنه كتاب متعجرف، ذو مزاج سيء عنيف فى جدله، وليس كريماً فى شكره، يزخر بالفوضى والارتباك.. باختصار إنه عمل عبقرى»[١٤].

يبدأ كينز بالهجوم بلا رحمة على الاقتصاديين السابقين، وعلى زملاء دراسته فى كامبردج (خاصة أ.س.بيجو) أحياناً مباشرة، وأحياناً بشكل غير مباشر، وأحياناً من خلال صور هازلة. وأثناء سنوات الرخاء قبل الكساد، اعتاد بيجو أن يقول بثقة «الحل كله عند مارشال»، كما لو أن قلة قليلة من القضايا الاقتصادية هى التى بقيت دون حل. وعلى العكس من كينز.. كان بيجو يكره مناقشة الخلافات الاقتصادية، بعد أن يضع الطباشير ويترك الصف. أما صديق كينز ـ فيلسوف كامبردج اللامع ـ لودفيج ويتجنشتاين، Ludwig Wittgenstein، فقد كان أقل منالاً؛ إذ كان بعد الدراسة يركض إلى دور العرض مفضلاً الأفلام التى تقوم ببطولتها كارمن ميراندا الشهيرة بالرقص والفاكهة فوق رأسها، وتغنى أغنية «تشيكيتا بانانا» ولانعلم ما إذا كان ويتجنشتاين قد وجد معان أعمق فى هذا «المذهب» أم لا.

قدم هارى جونسون، Harry Johnson، وصفاً جيداً للضربات الفكرية الإرهابية الساخرة، التى أوردها كينز فى النظرية العامة. «إنها تضع مجموعة مجهولة الاسم من المغفلين الراشدين المجهولى الهوية، ومن بينهم يمكن تمييز قلة من الوجوه المعروفة، وتقوم بالسخرية من الصور الزائفة لآرائهم المنشورة، سواء كانت مفترضة أو منسوبة إليهم[١٥]. والشيء الأكثر غباء هو تصديق قانون «ساى»، الذى هاجمه مالتس منذ قرن مضى. ونذكر من أحد الفصول السابقة أن قانون ساى يقرر أن إنتاج السلع يخلق دخلاً للعمال والمنتجين، كافياً لشراء كافة السلع، ولذلك لايمكن حدوث تخمة عامة (فائضاً)، فالناس لديها نقود كافية لشراء كل شئ ثم إنتاجه. (بالطبع.. يمكن أن ينتج التاجر كمية أكثر من اللازم من سلعة معينة، ولكن هذا لايشكل تخمة عامة؛ إذ سينخفض السعر ليقضى على الفائض المعين).

ومع ذلك.. إذا صدقنا قانون ساى.. فإنه يجب ألا نصدق وجود بطالة طويلة المدى أو حدوث كساد عظيم طويل المدى. المجنون فقط هو الذى لايصدق الاثنين معاً. وحتى كينز لم يكن ليتهم زملاءه بالجنون، فقد أعطاهم ميزة الشك، وسماهم أغبياء.

تجاهل المغفلون موضع تسرب مهم فى التدفق الدائرى السلس، من المنتجين إلى المستهلكين إلى المنتجين... وهكذا. ماذا يحدث عندما تدخر الأسرة؟ ألن يجد التجار أنفسهم، أثناء تكديس أرصدتهم بالبنوك،يحدقون فى أكوام السلع غير المباعة؟ هذا ما أعتقده كينز، والمغفلون ليست لديهم إجابة: هل كان هذا صحيحاً؟ هذا مالم يعتقده كينز. لقد ناقش كينز فرضين أساسيين:

١ ـ حسب رأى الكلاسيكيين.. تستهلك الأسرة من دخلها، وتدخر الباقى. فإذا قرر المستهلكون إدخار مبلغ أكبر، ينخفض الطلب على السلع والخدمات، ولكن هذا يتم معادلته لأن التجار يستثمرون أكثر. لماذا يستثمر التجار أكثر؟ عندما يدخر الناس.. فإنهم لايضعون النقود فى فراشهم، ولكنهم سيضعونها فى البنك، والبنك يقرض التجار. فإذا زادت المدخرات الموضوعة فى البنك.. فإن البنك يقوم بتخفيض سعر الإقراض، وهو معدل الفائدة. وعندئذ يزيد اقتراض التجار من أجل الاستثمار، حيث تصبح بعض المشروعات مربحة بالمقارنة مع تكلفة الاقتراض. وبذلك زاد ادخار المستهلك وقل استهلاكه؛ لأن ذلك يحفز التجار على زيادة استثمارهم. وحسب نظرية مارشال.. يقوم سعر الفائدة المرن بربط الاستثمار والمدخرات معاً. ويمكننا القول بأن المستهلكين يقدمون عرض المدخرات (التى ترتفع مع ارتفاع سعر الفائدة؛ لأن الادخار يصبح أكثر جاذبية)، بينما يقدم التجار الطلب على هذه المدخرات (الذى ينخفض مع ارتفاع سعر الفائدة).

٢ ـ تدعم الأجور والأسعار المرنة قانون ساى. ولنفترض أن كافة التجار يعرجون، فهم لايستطيعون المشى إلى البنك بنفس سرعة المستهلكين الذاهبين لزيادة

إدخارهم. وبذلك لايستطيع التجار الاستثمار بالسرعة الكافية لتعويض الاستهلاك المتناقص؛ إذ قد يحدث ركود قليل. ولكن الأجور قد تنخفض كرد فعل لانخفاض الطلب على السلع، والخدمات. ومع انخفاض الأجور، يعاد تشغيل العمال العاطلين. ومع انخفاض الأسعار، يباع فائض السلع، وينتهى الركود بسرعة.

ونظراً لأن كينز محب للفنون، فقد رفض أن يعترف بأن الصورة الكلاسيكية المنطقية المنظمة تنتمى إلى المدرسة الواقعية؛ إذ أنكر أولاً الرباط الآلى بين الادخار والاستثمار. فالأسر ورجال الأعمال يدخرون ويستثمرون لأسباب مختلفة تماماً، فقد تدخر الأسرة بدافع العادة ـ أو لسبب معين ـ مثل كبر السن، أو لشراء سيارة. وقد يغير رجال الأعمال خطط استثمارهم المبنية على السياسة، أو الثقة، أو التقنية، أو النقد الأجنبى، أو المعدلات. ومن السخافة أن نتوقع أن تحقق معدلات الفائدة تناسقاً بين العرض والطلب؛ فإذا فاقت مدخرات الأسرة استثمار رجال الأعمال، فسوف يحدث فائض سلعى، وسيقوم رؤساء الأعمال بفصل الموظفين، ويؤدى هذا إلى استهلاك أقل. ومع انخفاض الدخل.. فقد تنخفض المدخرات بما يكفى لمعادلة الاستثمار، ولكن ليس بالضرورة عند مستوى العمالة الكاملة.

ثانياً: سخر كينز من الأجور والأسعار السائلة والمرنة،فعندما يتنبأ الساسة بأن الأسعار سوف تعود إلى مستوياتها السليمة.. فإنهم يشبهون السحرة الذين يصيحون متنبئين بإن «أبرا» سيرتفع و«كادبرا» سيهبط، فالاحتكار وعقود النقابات تعوق بالتأكيد عملية التكيف. وأثناء الركود.. يجب أن تنخفض الأجور الحقيقية، طبقاً للنظرية الكلاسيكية. أما كينز.. فيرى أن العمال يرفضون عادة قبول أجور اسمية أقل.

يرى كينز أن رجال الأعمال يقومون أثناء الكساد بخفض الاستثمارات بحدة. ونتيجة لذلك يكون الادخار مساوياً للاستثمار، ولكن لماذا؟ ليس لأن الاستثمار يرتفع (طبقاً لرأى الكلاسيكيين)، ولكن لأن الموظفين المفصولين لايستطيعون الادخار، وكذلك لأن الأجور والأسعار تأخذ وقتاً طويلاً لتتكيف، وفترات الركود والكساد الطويلة ممكنة.

وبكل تأكيد.. كانت المدخرات مساوية للاستثمار فى أوائل الثلاثينات؛ إذ لم يكن هناك ادخار أو استثمار، وانتهى عصر الكلاسيكيين.

الحل الكينزى:

لقد بدأ العصر الجديد، وسوف تتركز الأضواء على الطلب الإجمالى. والمبدأ يقول: «يحدث الكساد عندما يكون الطلب الكلى على السلع والخدمات أقل من الدخل الكلى». (تذكر أنه أثناء الكساد تزيد الوظائف الشاغرة). ويحذر كينز فى تحليله من الطلب غير الكافى على السلع والخدمات من قبل الأفراد ورجال الأعمال، فإذا لم يشتروا كميات كافية، فسوف يفصل التجار العمال ويخفضوا الناتج.. هذا هو وصف كينز الموجز للكساد.

دعونا نبدأ النموذج البسيط لكينز خطوة بخطوة، مع البدء بمناقشة الأسرة أولاً، ثم رجال الأعمال. وحيث إن الأسرة تشترى مزيداً من السلع.. فإن الأسرة تعد أهم مكونات الطلب الكلى. ما الذى يحدد مقدار ما تنفقه الأسرة؟ بالرغم من أهمية حجم الأسرة والأذواق والتوقعات، إلا أن كينز يحدد الدخل كمحدد رئيسى. فإذا ارتفع الدخل، سيشترى الناس أكثر، وإذا انخفض الدخل،فسوف يشترون أقل، وهذا يبدو منطقياً فى الحقيقة. ويفترض كينز أنه فى كل مرة يحصل الفرد على دولار زيادة.. فإنه سوف ينفق معظم الدولار ويدخر الباقى. يسمى كينز القسم المنفق «الميل الحدى للاستهلاك». ولتفترض أن دولاراً هبط من السماء إلى جيبك، وعندها سوف تشترى حلوى بـ٨٠ سنتاً، وتضع الباقى فى البنك.. ويكون إذن ميلك الحدى للاستهلاك ٨٠٪ (جبرياً: التغير فى الاستهلاك مقسوماً على التغير فى الدخل)، وميلك الحدى للادخار ٢٠٪.

ويشترى رجال الأعمال أيضاً السلع والخدمات. فبالاستثمار فى المعدات والابتكارات.. يشكلون القسم الآخر المهم من الطلب الكلى. وعلى ماذا يعتمد الاستثمار؟ يعتقد كينز أن الاستثمار أكثر تقلباً بكثير من الاستهلاك المنزلى،

فالتوقعات وأسعار الفائدة والثقة والطقس والسياسة.. كلها أمور قد تربك خطط الاستثمار. فى النموذج الكينزى البسيط.. نفترض أن هناك عديداً من العوامل التى تدخل فى الحسبان لدرجة أن رجال الأعمال لايغيرون من خطط استثمارهم تبعاً لتغيرات قصيرة المدى فى الدخل (تذكر أن الأسرة تغير فعلاً استهلاكها فى المدى القصير).

ما الذى يعنيه هذا النموذج؟ لكى يكون لدينا اقتصاد سليم ذو عمالة تامة.. يجب على الأسرة أن تستهلك استهلاكاً كافياً، وأن يستثمر رجال الأعمال استثماراً كافياً، لدرجة تساوى مبيعات السلع مع الكمية المنتجة، فإذا استهلك الناس كل دخلهم (الميل الحدى للاستهلاك ـ ١)، فإن قانون ساى يعطينا عمالة كاملة. ولكن حيث إن الناس يدخرون.. فإن استثمار رجال الأعمال يجب أن يسعى نحو هذه المدخرات، فإذا لم يحدث ذلك.. فإن الناتج سيفوق المبيعات، ويتراكم المخزون السلعى، ويفصل أصحاب العمل الموظفين. فالمشكلة هى نقص الطلب على السلع والخدمات، والمذنب فى الركود هو المدخرات.

قبل عدة سنوات من النظرية العامة.. حث كينز المواطنين على إنفاق المزيد. وفى مقالة لمجلة «الكتاب الأحمر»، عنوانها «هل تستطيع أمريكا أن تشق طريقها نحو الانتعاش بالإنفاق؟» قال كينز «بالطبع تستطيع»، ولكن لم يستمع إليه سوى القلة، ولم يستمعوا إليه حين كتب فى جريدة «المستمع»:

«عند تخفيض الإنفاق، سواء من قبل الأفراد أو مجلس المدينة أو إدارة حكومية.. يكتشف شخص ما ـ فى اليوم التالى ـ إن دخله قد نقص، وهذه ليست نهاية القصة. هذا الشخص الذى نقص دخله أو فصل من عمله... سيضطر من جهته إلى تخفيض إنفاقه، سواء أراد أو لم يرد.. وبمجرد بدء الضرر، من الصعب جداً وقفه.»[١٦]

وفى حين أشار النقاد القدامى للرأسمالية بإصبع الاتهام نحو أقطاب السوق: اللصوص أو المنتفعين الفاسدين.. أعلن كينز بهـدوء أن المدخرين ذوى النية

الحسنة ـ حتى السيدات المسنات منهم ـ يسببون ضرراً أكبر من أى رجل صناعة فاسد.

هذا الضرر يضاعف نفسه، وهو مبدأ «المضاعف» الرائع الذى وضعه كينز (فى الواقع استعاره من زميله ريتشارد كان، Richard Kahn) . وتعتمد فكرة المضاعف على أن أى تغيير فى إنفاق شخص واحد، يبدأ تأثيراً يشبه كرة الثلج، والتغيير النهائى فى الإنفاق القوى يفوق كثيراً التغيير الابتدائى.

فلنفترض أن مؤسسة ماينارد قررت رفع استثمارها بمبلغ ١٠٠ دولار، وذلك ببناء استراحة جديدة للرجال، سوف يرتفع الإنفاق الكلى ١٠٠ دولار. ولكن المؤسسة عليها أن تدفع للسباكين والمهندسين وعمال الديكور. ماذا سيفعل هؤلاء بالنقود عند عودتهم من العمل؟ ينفقون البعض ويدخرون الباقى، وسيذهب الجزء المنفق إلى البقال وبائع التليفزيون والكشافة... وهؤلاء الذين استلموا النقود، لديهم الآن دخل أكبر ينفقون منه جزءاً، وتستمر سلسلة ردود الأفعال. وبالرغم من أن الإضافة الابتدائية هى ١٠٠ دولار فقط.. فإن الدخل الإجمالى قد يزيد ٣٠٠ دولار، والمضاعف هنا هو ٣:

ويقدم كينز صيغة بسيطة لحساب المضاعف، وحيث إنه يمجد الاستهلاك.. فلا غرابة أن المفتاح هو الميل الحدى للاستهلاك:

المضاعف هو:

$$\frac{١}{١ - \text{الميل الحدى للاستهلاك}} \quad \text{أو} \quad \frac{١}{\text{الميل الحدى للاستهلاك}}$$

وكلما زادت درجة الاستهلاك، زاد المضاعف، وتحركت سلسلة ردود الأفعال أسرع كما زاد إنفاق أصحاب الدخول. ومرة أخرى يقول إن الادخار يبطىء من العملية.

يتبع ذلك نتائج مذهلة: أولاً: قد تسبب الانخفاضات القليلة فى الاستثمار ـ ربما بسبب جو الركود أو رجال الشركات الخائفين ـ ضغطاً شديداً على الاقتصاد ككل. فإذا ادخر الناس ثلث دخلهم الإضافى.. يكون المضاعف ٣. ولذلك إذا خفض رجال الأعمال استثمارهم ٥٠ مليون دولار.. فإن الدخل القومى ينخفض بمقدار ١٥٠ مليون دولار، ويعتبر تشاؤم رجال الأعمال بمثابة نبوءة تحقق نفسها. وتتحول الأحلام الحزينة إلى كوابيس انتحارية. ولاعجب إذن فى أن رؤساء الشركات ونوابهم يقضون هذا الوقت الطويل فى المرح، حتى إيزنهاور ـ الذى دفع تحفظه بعض الناس لإطلاق اسم «مقبرة الجندى المعروف جيداً» على البيت الأبيض ـ توسل إلى الجمهور كى يقبل على الشراء، وذلك فى ركود ١٩٥٨. يشترى ماذا؟ يشترى أى شئ. وفى عام ١٩٨٢، وصف مستشارو رونالد ريجان تدهوراً فى الاقتصاد بأنه «ركود فى النمو». وادعوا أن الاقتصاد أبطأ أثناء الاستعداد للانطلاق قدماً، وتهكم النقاد باطلاق اسم «حصان النمو» على كلب رونالد ريجان.

إن التليمحات المفزعة فى نصيحة كينز ليست كلها سيئة. فى الواقع، بعضها يكاد يكون سحرياً. إذا كان نقص الطلب يجلب الركود، فإن العلاج يجب أن يكون التشجيع على زيادة الإنفاق. وإذا عرفنا الميل الحدى للاستهلاك، سنعرف المضاعف. لذلك بإمكاننا ضخ الإنفاق داخل الاقتصاد. هذا الإنفاق سيتضاعف داخل الاقتصاد ويعالج الركود عن طريق ملء الفجوة الأساسيـة بين الناتج والمبيعات.

من نقصد بـ «نحن»؟ نقصد الحكومة. لا شئ يمنع القطاع الخاص من الانسياب داخل المضايق الرهيبة والغرق فى البحر، بينما العمال الذين ألقى بهم من فوق السفينة تتقاذفهم العواصف. لكن الحكومة الوطنية تستطيع إما أن تخفض الضرائب أو تدفع النقود مباشرة لإنقاذ السفينة. فإذا أحدث نقص الطلب فجوة ركود قيمتها ١٢ بليون دولار، والميل الحدى للاستهلاك = $\frac{٢}{٣}$، فإن المضاعف

يكون ٣. لذلك فإن إنفاق الحكومة ٤ بلايين دولار سوف يحفز الاقتصاد على إغلاق الفجوة.

وفى الواقع، قدر كينز مضاعف الولايات المتحدة بحوالى ٢,٥، ودعا إلى وضع برامج إنفاق شعبى هائل، وذلك فى رسائله إلى الرئيس روزفلت والمجلات، ففى خطاب عام ١٩٣٣ نصح «بإنفاق قرض ضخم تحت رعاية الحكومة، وليس من اختصاصى اختيار وجوه إنفاق معينة. ولكن يجب إعطاء أفضلية لتلك الوجوه التى يمكن أن تجعلها تنضج بسرعة وعلى نطاق واسع، مثل السكك الحديدية مثلاً. والهدف هو بدء دحرجة الكرة».

كان كينز يعلم أن الاقتصاديين والساسة سوف يهاجمون سياسته المالية الفعالة. وقد فضل موظفو وزارة المالية فى بريطانيا والولايات المتحدة سياسة الميزانية المتوازنة، وإذا اتبعت الحكومة رأى كينز، سوف يظهر عجز. وماذا فى ذلك؟ رد كينز: أثناء الركود، تعتبر الميزانية المتوازنة عملاً غبياً، لأن هناك جانبين للميزانية: عائدات الضرائب، والنفقات. وحيث أن الدخل ينخفض فى فترات الركود، تحصل الحكومة ضرائب أقل. وإذا ظلت الحكومة متمسكة بالميزانية المتوازنة، فيجب عليها إما خفض الإنفاق أو رفع الضرائب. ولكن كاد هذان الحلان يضغطان أكثر على الاقتصاد عن طريق عملية المضاعف. ويقول كينز إنه خلال الدورة الاقتصادية يجب أن تكون الميزانية متوازنة. فخلال فترة الازدهار يدفع الناس ضرائب أكثر، ويحدث فائض فى الميزانية، لكن خلال فترات الركود، يجب أن تسمح الحكومة بحدوث عجز. واستغرق المغفلون فى وزارات المالية وقتاً طويلاً كى يفهموا هذا.

وقد ركز رونالد ريجان بشدة، خلال فترة رئاسته، من أجل تعديل دستورى يتطلب ميزانية متوازنة، بالرغم من وجود عجز بلغ ٢٠٠ بليون دولار فى ذلك الوقت. وقد عمل جاهداً لفرض خفض فى النفقات، لا رفع للضرائب. واعترض أغلب الاقتصاديين، ذاكرين نصيحة كينز، على الاقتراح لدرجة أن القانون كان

سيتطلب ميزانيات متوازنة خلال فترات الركود. (سيرد شرح أكثر مع نقد الاختيار العام لكينز).

كذلك عرف كينز أنه سيواجه معارضة فلسفية. وعلى كل حال، المزيد من التدخل الحكومى يعنى حرية أقل، هذا ما تعلمناه من مذهب عدم التدخل (حرية العمل والتجارة). لكن كينز الذى سخر من ماركس وتهكم على أصدقائه الذين خدعهم ستالين، اعتقد أنه يحاول إنقاذ الرأسمالية، لا دفنها:

«أنا أشجع [زيادة التدخل الحكومى] .... لسببين: الأول، لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة الممكن استخدامها لتفادى هلاك المؤسسات الاقتصادية القائمة فى مجموعها. والثانى لأنه (التدخل الحكومى) الشرط اللازم للتشغيل الناجح للحافز الفردى..... لأنه لو كان الطلب الفعال منخفضاً، فلن يقتصر الأمر على أن الفضيحة العامة للموارد الضائعة لا تحتمل، ولكن صاحب المشروع الفردى الذى يريد تشغيل هذه الموارد، يعمل والاحتمالات ليست فى صالحه.»

أحيانا من المهم تنحية المبدأ جانباً وعمل الصواب. وعادة ما كان رد فعل كينز ساخراً على الاعتراضات الفلسفية: «إذا كانت وزارة المالية تريد تعبئة الزجاجات القديمة بأوراق النقد، ثم تدفنها على أعماق مناسبة فى مناجم فحم غير مستعملة، ثم تملأ المناجم بالقمامة إلى السطح، ثم تترك القطاع الخاص المدرب جيداً على مبادئ حرية العمل والتجارة ليحضر ويخرج هذه النقود ثانية... فلن تصبح لدينا بطالة، وفى النتائج المترتبة على ذلك، ربما سيصبح الدخل القومى للمجتمع وثروته الرئيسية أكبر بكثير مما هو عليه الآن. وبالفعل يكون من المنطقى بناء المنازل وما أشبه، لكن إذا كانت هناك صعوبات سياسية وعملية تعترض طريق هذه العملية، فإن كل ما سبق سيكون أفضل من لا شئ.»

وبالرغم من أن الإنفاق الحكومى فى ظل حكم روزفلت لم يصل إلى المستويات التى اقترحها كينز أو حتى أسوأ مخاوف نقاد كينز، إلا أنه منذ نشر النظرية العامة

عام ١٩٣٦ إلى أيام نيكسون، وتأثير كينز يتزايد. ويذكر بول صامويسلون أن «النظرية العامة أصابت أغلب الاقتصاديين دون سن الـ ٣٥ بأعراض مرض خبيث غير متوقع، وكأنه مرض يصيب (لأول مرة) ويهلك غالبية أفراد قبيلة معزولة فى جزر بحر الجنوب. أما الاقتصاديون فوق سن الخمسين، فقد اتضح وجود مناعة تامة لديهم ضد المرض.»

أصبحت جامعة هارفارد، تحت تأثير ندوة البروفيسور ألفين هانسون الشهيرة حول كينز، القاعدة الأمامية الأمريكية الرئيسية لأتباع كينز، وتعلم فيها اقتصاديون بارزون مثل صامويلسون وجيمس توبين وروبرت سولو. وأثناء حكم كينيدى وجونسون أصبح مجلس المستشارين الاقتصاديين قاعدة أمامية لجامعات كامبردج وماساتشوسيتس وأتباع كينز، بالإضافة إلى مشاركين بارزين من جامعات ييل ومينيسوتا. هؤلاء الاقتصاديون، مع زملائهم الأوروبيين طوروا اقتصاد كينز، وأضافوا كلاماً دقيقاً فى الأماكن التى تركها كينز للبداهة ونفاذ البصيرة.

أصبح بإمكان السياسيين، بعد أن أصبح الاقتصاد الكينزى فى قبضتهم، أن يكفروا باليد الخفية، ويحاربوا الدورة الاقتصادية. وعندما أبطأ الاقتصاد، أطلقوا الإنفاق الحكومى أو خفضوا الضرائب، مما يتسبب فى حدوث عجز مؤقت إلى أن ينشط الاقتصاد. فإذا ارتفع الطلب بسرعة كبيرة متخطياً عرض السلع ورافعاً ـ بالتالى ـ الأسعار ـ رفعوا الضرائب أو خفضوا الإنفاق الحكومى للتحكم فى الطلب. تناسق محكم، ولو لم يكن ذلك حقيقة واضحة، لاعتبروه سحراً. زادت الثقة فى الدور الضريبى. ومرر الساسة ـ بسعادة ـ فى عام ١٩٤٦ قانون التوظيف الذى اقتحم بجرأة مجالات لم يدخلها قانون من قبل، معلناً عن مسؤلية الكونجرس عن «خلق أقصى توظيف وإنتاج وقوة شرائية.»

لمع نجم كينز أكثر عام ١٩٦٤ عندما أحس مستشارو كينيدى / جونسون بحدوث تراخ فى الاقتصاد، وأوصوا بثقة بإعطاء الاقتصاد جرعة منشطة. وقدر المستشارون وجود فجوة ركود بحوالى ٣٠ بليون دولار، ومضاعف ٢,٣ ، فخفضوا

الضرائب الفردية وضرائب الأعمال بحوالى ١٣ بليون دولار. ولم يحدث أبداً أن أعطت أى سياسة اقتصادية تقديرية نتيجة أفضل من ذلك، كما استجابت كافة المؤشرات الحيوية بعنف. وقد أدى الطلب المرتفع إلى دفع الناتج إلى الأمام، مع خلق وظائف للآلاف وبدا أن الاقتصاد قد ألغى أخيراً الوصمة المهينة التى وضعها كارلايل «علم كئيب».

وتعتمد السياسة الضريبية التقديرية على حكمة الساسة، وحيث إن هناك قلة فقط من الناس تنام بعمق، معتمدة على مورد ضعيف.. فإن الاقتصاد تم تجهيزه بأدوات تلقائية لكبح تقلبات الدورة الاقتصادية. فالمثبتات التلقائية مثل الضرائب التصاعدية وتأمين البطالة تقوم بإبطال مفعول فترات الركود والعجلات التضخمية؛ فإذا أبطأ الاقتصاد، وبدأ الدخل فى الانخفاض.. ينتقل الأفراد تلقائياً إلى شريحة ضريبية أصغر (بالرغم من أنه منذ ١٩٨٧أصبحت الشرائح أوسع). وعند طرد العمال.. يتيح لهم تأمين البطالة مداومة الإنفاق. وعند عودتهم للعمل.. تتوقف مدفوعات التأمين، وهذه المثبتات تعمل عكس اتجاه الدورات الاقتصادية، وتبطل مفعول التقلبات، وهى بذلك تثبت أنماط النوم القومية أيضاً.

شك كينز فى أن تقلب الاستثمار قد يقود إلى تزايد التأثير الحكومى على مستوى الاستثمار الوطنى، أو شئ من هذا القبيل. ففى عبارات غامضة.. تكلم كينز أحياناً عن «التكييف الاشتراكى» للاستثمار، وأحياناً أخرى مدح هيكل الوضع الراهن، ولا عجب أنه اشتهر بازدواجية الاقتصاد، وفى بعض كتاباته كانت كل كلمة تقريباً غامضة. وحكى زملاؤه قصصاً عديدة عن أوضاعه المتقلبة، وهناك طرفة تحكى أنه «عندما تطلب لجنة ملكية آراء خمسة اقتصاديين، تحصل على ست إجابات، اثنتين من كينز». ولو طلب هارى ترومان اقتصادياً بيد واحدة، فإنه بالتأكيد لم يكن ليأخذ كينز، فقد كان كالأخطبوط فى مسائل السياسة الاقتصادية.

ولكن هذه الشهرة ليست عادلة إلى حد ما، فربما تكلم كينز وكتب كلاماً أكثر ولمستمعين أكثر من أى اقتصادى آخر. وحيث إن المواقف تختلف.. فلا بد أن تختلف الوصفات العلاجية أيضا. وقد قال كينز ـ ذات مرة ـ إن الاقتصاديين يجب أن تكون عقليتهم عملية، مثل أطباء الأسنان، كم شخص يتعجل الجلوس فى كرسى طبيب الأسنان، الذى دائما ما يحفر نفس الضرس، بغض النظر عما يريده المريض؟ وعندما تنزلق يد طبيب الأسنان مصادفة أو تجرح المريض، يقول بهدوء الكلمة الوحيدة التى يفترض أنه تشفى كافة جراح الفم، وهى: «تمضمض». فى الاقتصاد الشامل.. لا توجد «مضمضة» (رغم أن شومبيتر أعتقد أن الركود يؤدى مفعول الدش البارد الجيد، وينعش الاقتصاد فى النهاية، عن طريق الأفكار والمخاطر الجديدة التى يقابلها المستثمرون). وعندما حاول البعض مضايقة كينز بخصوص شهرة أفكاره المتقلبة.. ردّ قائلاً: «عندما تتغير معلوماتى، أقوم بتغيير استنتاجاتى، وأنت ماذا تفعل ياسيدى؟».

إلا أن التقلب قد يكون علامة على عدم الاتقان؛ إذ إن جميع الاقتصاديين يدركون أن الوقت مورد نادر، وربما يكون كينز قد خصص للنظرية الاقتصادية نسبة من وقته أقل من أى شخص آخر، ذُكر فى هذا الكتاب. ومن جهة أخرى.. ربما حصل كينز على أعلى عائد لاستثماره؛ إذ كان عادة يفضل الذهاب إلى المسرح عن قراءة الأعمال النظرية للاقتصاديين الآخرين. ومع الأخذ فى الاعتبار نجاح مسرح الآداب الذى أسسه فى كامبردج، وجفاف أغلب الأكاديميين.. فإننا لانستطيع أن نلومه. ومن الواضح أن كينز لم يهتم بالنظرية الاقتصادية، من أجل نفس الإثراء والانبهار الفكرى، الذى وجده فى التطبيقات العملية، وفى فروع المعرفة الأخرى. ومع أخذ هذه الميول فى الاعتبار.. ربما يكون قد ضحى بإطار عمل تحليلى متماسك، وأكثر تكاملاً.

وكما أن النقاد وجدوا كينز متقلباً، فإنه وجد سوق الأوراق المالية كذلك. ويعتبر الفصل الثانى عشر من النظرية العامة، وعنوانه «وضع التوقعات الطويلة المدى» مهماً

لسببين: الأول، يوضح كينـز فيه السبب فى أن الأمـل فى الدقة الحسابيـة للاقتصاد يعتبر حماقة. والثانى يصف فيـه التقلـب الغريزى للاستثمار، ويؤكد كينز أن كثيراً من الاستثمار يتم بناؤه على «غريزة حيوانية»، وهى القوى غير الرشيدة، التى تجبر رجال الأعمال والمضاربين على المضى قدماً، ولكن هذه القوى ليست ثابتة.

«إن التقييم التقليدى الذى يتم كناتج مجموع الحالات النفسية لمجموعة كبيرة من الأفراد الجهلة، عرضة للتغير بعنف لتقلب مفاجئ فى الرأى... وسيكون السوق عرضة لموجات من الإحساس المتفائل والمتشائم، وهذه الموجات غير منطقية، إلا أنها تعتبر صحيحة نوعا ما؛ حيث لا توجد قاعدة ثابتة للحساب المعقول[٢٢]».

ويتنبأ كينز ـ بذكاء ـ بأن وسيلة تكوين ثروة فى سوق الأوراق المالية، ليست أن تكون أفضل محلل مشارك، ولكن أن تكون أفضل من يخمن الشئ الذى يعتقد الآخرون أنه جيد. وفى استعارة صريحة.. يشبّه كينز الاستثمار المحترف بتلك المسابقات الصحفية حيث يختار المتسابقون أجمل ستة وجوه من بين مئات الصور، وتعطى الجوائز للمتسابقين الذين يكون اختيارهم أقرب توافقاً مع متوسط أفضليات المتسابقين ككل. لذلك.. يجب على كل متسابق ألا يختار الوجوه التى يعتقد أنها جميلة، ولكن يختار تلك الوجوه التى يعتقد أنها أقرب لإعجاب المتسابقين الآخرين، الذين ينظرون إلى المسألة من نفس وجهة النظر»[٢٣].

ويذكرنا المقطع السابق بما قال وودى آلان، Woody Allen، عن الغش فى امتحان ما وراء الطبيعة، بالنظر إلى داخل روح الطالب الذى يجلس بجواره.

ولا يستنبط كينز من هذا سبباً لليأس، بل فقط سبباً لتواضع غير اعتيادى فى الاقتصاد:

«يجب ألا نستنتج... إن كل شئ يعتمد على الموجات النفسية غير التقليدية. وعلى العكس.. فإن حالة التوقعات طويلة المدى عادة ما تكون ثابتة... ونحن نذكر أنفسنا فقط بأن القرارات الإنسانية التى تؤثر على المستقبل، سواء كان شخصياً أو سياسياً أو اقتصادياً، لا يمكنها الاعتماد على التوقعات الحسابية الصارمة؛ حيث إن أساس وضع هذه الحسابات غير موجود، كما أن حافزنا الفطرى للنشاط هو الذى يجعل العجلة تدور: نفسنا الرشيدة تختار بين البدائل كأفضل ما نستطيع، ونحسب حيثما تستطيع ذلك، ولكنها عادة تتراجع إلى دافع النزوة أو عاطفة الصدفة»[٢٤].

نظرة من المستقبل

كان كينــز ـ الذى توفى عام ١٩٤٦ ـ سيسعد لرؤية انتصار أفكــاره، ولكنه ما كان ليندهش. لذلك تمسك كينز بحماس ـ مخالفاً الماركسيين والمتدينين ـ بأن الحقيقة سوف تجعلك حراً، وحيث إنه أمضى غالبية حياته مستشاراً للحكومات.. فإنه شهد قوة العقل، وأكد ذلك بشدة فى الفقرة الأخيرة الشهيرة من كتابه «النظرية العامة»:

«إن أفكار الاقتصاديين وفلاسفة السياسة، سواء كانوا مصيبين أو مخطئين، أقوى مما هو معروف لدى العامة. حقاً إن العالم لا يحكمه الكثير من غير هذا، فالرجال العمليون الذين يعتقدون أنهم مستثنون تماماً من أى تأثير فكرى، هم عادة عبيد لاقتصادى ميت. والمجانين الممسكون بالسلطة الذين يسمعون أصواتاً فى الفضاء، يستمدون جنونهم من مؤلف أكاديمى تافه قديم.. لكن عاجلاً أو آجلاً.. ستكون الأفكار ـ لا المصالح المكتسبة ـ هى التى تشكل خطراً، سواء للخير أو للشر»[٢٦].

والآن.. تحارب مدرسة الاختيار العام رأى كينز، محذرة من أن المصالح الخاصة تأسر الأفكار الجيدة والسياسة الجيدة، وتحتفظ بهما كرهائن.

وبالرغم من فكرة «المدى الطويل» الشهيرة.. فإن كينز فكر جيداً فى المستقبل، ففى مقال رشيق عام ١٩٣٠ فى ذكرى ميل، عنوانه «الإمكانات الاقتصادية لأحفادنا».. مسح كينز على كرة البللور متنبئاً: الأخبار جيدة، ومالتس كان مخطئاً. وخلال المائة سنة القادمة.. يتمكن الإنسان من حل مشكلة سبب بقاء الاقتصاد، وهو الندرة. وحيث إن كل جيل يقف على كتفى أبويه، يتقن إنجازاتهم ويعيش أحلامهم.. فإن أحفادنا، وأحفاد أحفادنا قد يصعدون لأعلى بما يكفى لإشباع كل رغباتهم المادية، بما فيها الترف، وسرعان ما تجد أن الشوارع قد رصفت بالذهب. وعلى كل حال.. فإنه بالرغم من وجود مطبات خلال الدورة الاقتصادية والحروب الرهيبة.. فإن الاقتصاد الغربى نما بسرعة خلال المائتى عام السابقة.

والأغرب من ذلك.. أنه كلما أصبح الوجود الإنسانى أكثر سهولة.. فإن القلوب الإنسانية تصبح أكثر رقة.. إن كينز يقول إننا نحتاج إلى ظهور الإنسان الاقتصادى ذى الاهتمام الذاتى، وبعد إشباع رغباته المادية.. فقد يرتفع الإنسان برغبته إلى العطف والحب.

ومع ذلك.. فإننا قد لا نعيش سعداء بقية العمر. فإذا امتلأت الخزائن، وتم الحصول على سيارات جديدة لامعة، ماذا سوف نفعل؟ هذا ما سأله كينز. فى الوقت الحالى، عادة ما يتوق المتقاعدون إلى العمل ويشكون من الملل. ماذا يحدث لو تقاعد العالم كله؟ كم شخص مثل لورانس ويلكس، Lawrence Welks، يلزمنا للترفيه عن عالم متقاعد بالكامل؟ وقد ينتشر القلق فى عالم متخم، فالمرح يأتى باحثاً عن الأهداف، وليس مليئاً بها.

وربما توضح ذلك شخصية كينز المتقلب، كينز جامع التحف، والمستثمر، والمحسن، والوصى. ربما كان ينوع محفظة نشاطاته، خوفا من أن يصبح ممتازا أكثر من اللازم فى الاقتصاد، وأن يسحبنا نحو الجنة أقرب من اللازم.. لقد أراد شيئا ينشغل به فى حالة نجاحه على المدى الطويل.

الفصل العاشر

معركة خبراء النقد ضد كينز

رد و. س فيلدز W.C. Fields على متسول قائلا بسخرية: «آسف يا عزيزى، إن كافة أموالى المتاحة موظفة فى شكل نقود سائلة». إن هذا الوضع يشكل مشكلة بالنسبة لكينز، وليس فقط للمتسول؛ فالاحتفاظ بالثروة «موظفة» فى شكل نقود سائلة أو حسابات جارية، يدعو كينز لأن يقول إن فيلدز كان يساعد على تعميق الكساد.

وحيث إن رأى كينـز هو أن البخلاء الأشحاء هم الذين يديمـون فتـرة الكساد، فإنه كان يؤيد الإنفاق الحكومى لزيادة معدل الاستهـلاك. والاقتصـاد القومى ـ بالنسبة لأتباع كينز ـ مثل سيارة، كتب على دواسة البنزين فيها «إنفاق حكومى أعلى / ضرائب أقل». وكتب على الفرملة «إنفاق حكومى/ ضرائب أكثر». والحكومة التى تقود السيارة برشاقة وحرص، تستطيع أن تحقق النمو الاقتصادى وأسعاراً ثابتة.

وهذا الفصل يقص علينا قصة حركة فكرية، تهاجم بالتأكيد النموذج الكينزى، فى أن: ١ ـ الحكومات عادة لا تحسن القيادة. ٢ ـ أن فرملة الاقتصاد ودواسة البنزين ليست لهما إلا علاقة صغيرة بالسياسة المالية. هذه الحركة التى تسمى«بالمذهب النقدى»، تعترف «بأن الاقتصاد له بالفعل دواسة بنزين وفرامل، ولكنها تصر على أنه يجب أن يكتب على دواسة البنزين «موارد مالية أعلى» وعلى

الفرامل «موارد مالية أقل»، وكذلك يختلف خبراء النقد مع أنصار كينز حول من يجلس فى مقعد القيادة. يقول أنصار كينز إن الكونجرس الذى يرخص بالإنفاق والضرائب هو السائق. وعلى العكس.. يرى خبراء النقد أن هيئة الاحتياطى الفيدرالى المشرفة على أعمال البنوك هى السائق.

وقد وقع صراع ضخم بين أنصار كينز وخبراء النقد من الخمسينيات، حتى السبعينيات من هذا القرن. قاد حركة خبراء النقد ميلتون فريدمان وكارل برونر، Karl Brunner، وآلان ملتزر Allan Meltzer، وفى البداية قوبلوا بسخرية، على الرغم من أن أسلافهم الفكريين تضمنوا لوك وهيوم وميل وريكاردو. ولكن مع استمرارهم فى تقديم دراسات مقنعة، وطلاب خريجين شجعان، أضعفوا المعارضة الكينزية، واكتسبوا مزيداً من الاحترام والشهرة، إلى أن طلب الكونجرس أخيراً ـ فى عهد كارتر ـ من هيئة الاحتياطى الفيدرالى أن يأخذ حجج خبراء النقد على محمل الجد، وقرر رئيس هيئة الاحتياطى الفيدرالى اتباع نصيحة خبراء النقد.

ماهو موقف الصراع الآن؟ إنه يقف موقف التعادل، وسنرى أن الحكومة الفيدرالية تعامل الاقتصاد الوطنى على أنه سيارة ذات أربع دواسات، اثنتان للسرعة واثنتان للفرامل. هل تذكر هارى ترومان المسكين وهو يتوسل من أجل علم اقتصاد ذى يد واحدة. ويبدو أن قادة اليوم مرتبطون باقتصاديين ذوى أربعة أقدام. ولزيادة الأمور سوءا.. فإنه لا يبدو أن دواسات البنزين فعالة، كما وعد خبراء النقد المتزمتون وأتباع كينز النقديون.

ما هى النقود؟

لفهم الاقتصاديات الكبرى الموجودة اليوم.. علينا أن نتتبع مسار المعارك بين أنصار كينز وخبراء النقد، وتعلم كيف يعمل نموذج خبراء النقد. وهذا يتطلب منا أن نتعلم القليل عن نظام البنوك وهيئة الاحتياطى الفيدرالى. قد تبدو بعض المفاهيم خادعة فى البداية، ولكن الجهد الضرورى لفهمها جدير بالاهتمام، لأن قصة

كسب نظريات خبراء النقد للاحترام، تعتبر واحدة من الملاحم الساحرة فى التاريخ الفكرى المعاصر.

يتهم خبراء النقد كينز بتجاهل النقود والموارد المالية، وهو ما يبدو أمراً سخيفاً. ومع ذلك كيف يستطيع رجل جمع ثروة من الأسهم والسلع، وأحدث ثورة فى الاقتصاد الكبير، أن يتجاهل النقود؟ سيكون ذلك مثل اتهام ميلفيل بتجاهل الحيتان. بالتأكيد كان لدى خبراء النقد شئ فى رأسهم غير فكرة النقود اليومية.

ماهى النقود؟ إن أى شئ يمكن أن يكون نقوداً، بما فى ذلك الأصداف والخرز، بل إن السجائر كثيراً ما تستخدم كنقود فى السجون. وفى لغة الاقتصاد الكبير المعاصرة، نحن نتبع تعريفات هيئة الاحتياطى الفيدرالى للموارد المالية. أشهر مقياس يسمى M1 وهو يعادل: ١ ــ مقدار العملة المحتفظ بها خارج البنوك، بالاضافة إلى: ٢ ــ مقدار الأموال الموجودة فى الحسابات الجارية (ودائع تحت الطلب) فى البنوك التجارية (لاحظ أن أسهم الشركات والسندات لا تعتبر نقوداً. والمقاييس الأوسع للموارد المالية تشمل الأصول الأقل سيولة، مثل حسابات المدخرات والأرصدة المشتركة لسوق النقد).

لماذا يكون أى شخص من الحماقة إلى حد المحاولة بشأن الموارد المالية؟ وكلما زادت النقود كان ذلك أكثر نشاطاً، أليس ذلك صحيحاً؟ بل خطأ. فى الأفلام الكوميدية الرخيصة، يسقط رجال العصابات المضطربين فى سيرهم حقائب مليئة بأوراق النقد، ويتدافع الجمهور آملين فى الحصول على بعضها. والجمهور دائماً يتسم، بينما ينتحب الأشرار. لماذا يبكى الاقتصاديون مع رجال العصابات؟ لا توجد مشكلة عندما تفتح بضعة عدة حقائب فقط، ولكن إذا أغرقت حقائب كثيـرة مدينــة ما بالنقود فجأة، فقد يتبع ذلك تضخم. فإذا فاق مقدار النقود القدرة على إنتاج السلع، فإن المستهلكين، الذين يملكون مزيداً من النقود المتاحة للإنفاق، يرفعون الأسعار. فالمدينة لم تصبح أغنى مما كانت قبلاً، فالمزيد من النقود لا يحدث

مستوى معيشة، مرتفعاً عما تحدثه إضافة صفرين إلى مرتب أى شخص وتذكر أن الثروة تقاس بما تشتريه من سلع وخدمات، وليس بعددها. وحيث إن الدولار يشترى آلاف من البيزوس، فإن المليونير المكسيكى قد يكون فقيراً بالمقارنة مع أى أمريكى منخفض الدخل. كما أن إعطاء كافة المكسيكيين حقائب مليئة بالبيزوس لن يفيد؛ فالمرح لا يتبع بالضرورة المزيد.

ماهو المستوى الصحيح للموارد المالية؟ الإجابة السهلة هى: ما يكفى لشراء كافة السلع المنتجة، بحيث تصل للعمالة الكاملة دون رفع الأسعار. ولكن هذه الاجابة السهلة تتفادى السؤال الحاسم: ما مقدار النقود الواجب وجوده فى التداول للحصول على عمالة كاملة وأسعار ثابتة؟ للإجابة عن هذا السؤال.. يجب أن نعرف مدى سرعة إنفاق الناس للنقود التى يحصلون عليها. هل يميل الناس للاحتفاظ بنقودهم لفترة طويلة قبل إنفاقها، أم ينفقونها بسرعة؟ ماهى سرعة تنقل النقود وتداولها داخل الاقتصاد؟ إذا كانت النقود تتحرك بسرعة، فلن تحتاج الدولة إلى مقدار كبير منها، مثل المقدار الذى ستحتاجه لو أن الناس يتركون النقود ملقاة فى أدراج جواربهم شهوراً قبل إنفاقها، فالمهن الأكاديمية والاقتصاد الوطنى يتوقفان على هذه القضية البسيطة، والمعدل الذى تتداول به النقود كل عام يسمى «سرعة دوران» أو تداول النقود. ويقارن الاقتصاديون هذا مع الناتج القومى الإجمالى، ويتكلمون عن دخل سرعة النقود «ف» وبذلك تصبح «ف» مساوية لمستوى إجمالى الناتج القومى، مقسوماً على موارد المال.

على سبيل المثال.. إذا بلغ الناتج القومى الإجمالى ٣٦٠٠ بليون دولار، وموارد المال ٦٠٠ بليون دولار.. فإن «ف» يجب أن تساوى «٦»، أى إنه إذا كانت النقود تتداول ٦ مرات خلال العام.. فإن الناس يحتفظون ـ فى أى يوم معين ـ بما يساوى دخل شهرين (فى شكل عملات أو حسابات جارية).

ما أهمية ذلك؟ كيف يمكن أن يناقش أحد ذلك إلا بأنه لامبالاة مهذبة؛ فإذا كانت سرعة التداول ثابتة، وإذا كان البنك المركزى يتحكم فى موارد المال، فإن

الحكومة لديها أداة قوية تمكنها من زيادة سرعة الاقتصاد أو إبطائه. وتقوم دواسات البنزين والفرملة المكتوب عليها «موارد المال» بالتحكم مباشرة فى المحرك. ومع ذلك فإنه إذا كانت سرعة التداول غير ثابتة، وإذا كان الناس مترددين بين الاحتفاظ بكمية كبيرة أو صغيرة من أموالهم فى شكل عملة وحسابات جارية، فإن التحكم فى موارد المال لن يكون مفيداً جداً، وتصبح دواسة البنزين منفصلة.

ولتبسيط جوانب المعركة.. نقول: إن خبراء النقد يعتقدون أن سرعة التداول ثابتة، بينما يرى أنصار كينز أنها غير ثابتة. ولا عجب إذن فى أن خبراء النقد يعتبرون موارد المال أقوى دواسة فى سيارة الحكومة، فى حين يزيد أنصار كينز من شأن السياسة المالية، ويرى بعض المتزمتين منهم أن السياسة النقدية لا تزيد أهميتها للمحرك عن ماسحة المطر فى السيارة.

وقبل استكشاف تاريخ المذهب النقدى ومالها وما عليها من أدلة، يجب أن نلخص أولا كيف تستخدم هيئة الاحتياط الفيدرالى على عرض النقود. هناك ثلاث أدوات هى الأكثر أهمية:

الأولى، تقوم تلك الهيئة بالتحكم فى نسبة الودائع التى يسمح للبنوك بإقراضها (نسبة الاحتياطى). ولنفرض أن هذه الهيئة حددت نسبة الاحتياطى بـ ٢٠٪، وبذلك تستطيع البنوك إقراض ٨٠٪ من النقود المودعة لديها. ثم نفترض أن صديقنا «كريس» أودع ١٠ دولارات فى حسابه الجارى. هذا المبلغ يحتسب ضمن الموارد المالية (تذكر أن الموارد المالية تساوى الحسابات الجارية + العملة). فإذا اقترضت «لين» مبلغ ٨ دولارات من نفس البنك، ارتفعت الموارد المالية بمقدار ٨ دولارات. وإذا أودعت ٨ دولارات فى حسابها الجارى، ثم اقتصد «براد» ٦,٤٠ دولار، زادت الموارد المالية بمقدار ٦,٤٠ دولار. والآن.. إذا طلبت الهيئة من البنوك إقراض نسبة ٧٥٪ فقط بدلا من ٨٠٪ من الودائع، فإنه يتعين على البنوك استرداد بعض قروضها؛ مما يؤدى إلى انكماش الموارد المالية، فكلما زادت البنوك من الإقراض كانت الموارد المالية أكبر.

ثانيا: أحياناً تقرض هيئة الاحتياطى الفيدرالى أموالا إلى البنوك، ويرفع سعر الفائدة على هذه القروض (سعر الخصم)، فإن الهيئة تثنى البنوك عن الإقراض وبذلك تقبض على زمام الموارد المالية.

ثالثا: والأهم، أن هيئة الاحتياطى الفيدرالى تشترى وتبيع الأوراق المالية الحكومية (عمليات السوق المفتوحة). ويحتفظ الجمهور، أفراداً وشركات، بما قيمته تريليون دولار تقريباً من السندات الحكومية التى تدفع فائدة سنوية لحامليها، لفهم هذه الأداة يتطلب الأمر بعض التركيز، وربما نحتاج إلى مساعدات بصرية. خذ ورقة مالية قيمتها دولار وقطعة ورق، أكتب كلمة «سند» على الورقة البيضاء، وأطلق على أحد طرفى المائدة اسم «الجمهور» والطرف الآخر «هيئة الاحتياط الفيدرالى». تذكر أن الأوراق النقدية التى بحوزة هيئة الاحتياطى الفيدرالى لا تدخل ضمن الموارد المالية. وإذا أرادت هذه الهيئة أن توسع الموارد المالية، فإنها تستطيع أن تشترى السندات من الجمهور. وبهذا الشراء تحصل هيئة الاحتياط الفيدرالية على سند (ليس جزءاً من الموارد المالية) وتعطى البائع شيكاً أو (أوراق نقد بالدولارات مقابلة) وعند صرف الشيك، أو إيداعه فى الحساب يصبح جزءاً من الموارد المالية (عندما كان لدى الهيئة لم يكن يعتبر جزءاً من الموارد المالية). وبالعكس إذا باعت الهيئة سنداً إلى فرد أو مؤسسة، فإنها تتلقى شيكاً (أو أوراقاً نقدية) مسحوباً من حساب أحد الأفراد. وتتقلص الموارد المالية، لأن السند الذى يستلمه المشترى ليس نقوداً، فى حين أن الأموال التى تحصل عليها هيئة الاحتياط الفيدرالية تفقد وظيفتها كنقود بمجرد امتلاكها لها.

نموذج النقديين وانتقادات كينز

حتى قبل وضع نظام الاحتياطى الفيدرالى عام ١٩١٣، أوضح الاقتصاديون الكلاسيكيون، والكلاسيكيون المحدثون تأثير التغيرات فى الموارد المالية، واتخذ إيرفنج فيشر، Irving Fisher، الأستاذ فى جامعة ييل، خطوة حاسمة للأمام عام ١٩١١،

وذلك باشتقاق إطار عمل حسابى بسيط من تحليل جون ستيوارت ميل، فى إحدى النسخ الشهيرة من «نظرية الكمية»:

المواردالمالية × التداول = مستوى الأسعار × كمية الناتج (الناتج القومى الإجمالى)

ن × س = م × ك

وهذه المعادلة البسيطة تجعلنا نفهم معلومات كثيرة عن الانتقاد الذى يوجهه خبراء النقد. ولا أحد يناقش هذه المعادلة. وحسب التعريف.. فإن مقدار النقود (ن) مضروباً فى عدد مرات تداوله (س) يساوى القيمة الاسمية للسلع والخدمات المشتراة. ولكن الاقتصاديين يستطيعون أن يجادلوا إلى مالا نهاية فى سلوك هذه المتغيرات.

أبسط صورة لنظرية «المذهب النقدى» تقول التالى: ١ ـ سرعة التداول ثابتة. ٢ ـ مقدار السلع والخدمات الممكن إنتاجه ثابت على المدى القصير لذلك. ٣ ـ إذا رفعت هيئة الاحتياطى الفيدرالى الموارد المالية بنسبة ٥ ٪، سنشاهد ارتفاعاً بنسبة ٥ ٪ فى الأسعار. وتمحو نظرية الكمية البدائية أساساً وجود سرعة التداول وكمية الناتج القومى من المعادلة، ونستنتج أن أى تغير فى الموارد المالية نشعر به فقط فى مستوى الأسعار.

وبالرغم من ذلك.. فإن هذه الصورة الكاريكاتورية لها بعض المزايا، خاصة عند إيضاح التضخم الجامح، والنموذج هو جمهورية فايمر فى ألمانيا فى الفترة بين ١٩٢١ - ١٩٢٤؛ حيث اشتغلت المطابع بأقصى طاقاتها قاذفة الموارد المالية إلى الفضاء الخارجى، فلم تضاعفه مرتين أو ثلاث أو أربع. لقد ارتفعت ٢٥ ترليون فى المائة! وتبعها مؤشر الأسعار، مرتفعاً فى عام ونصف من ١ إلى ٢٠٠ مليون. كل فرد أصبح بليونيراً! وكل مليونير كان جائعاً، وازدحمت الحجرات بالفواتير بينما كانت الخزائن خاوية. وفى أمريكا قال صامويل جولدوين، Samuel Goldwyn، أن «كل عقد شفوى لا يستحق ثمن الورق الذى كتب عليه». وفى ألمانيا،

لم تكن النقود تستحق ثمن الورق المطبوعة عليه. لقد دمر الاقتصاد الألمانى، والحكمة هنا أن النقود الرخيصة لا تأتى بسهولة.

ويدعى فلاسفة النظرية الحديثة للكمية ـ خبراء النقد ـ أن أسلافهم الفكريين كانوا متواضعين جدا بالنسبة للنقود: على المدى القصير.. باستطاعة النقود أن تؤثر ليس فقط فى الأسعار، ولكن أيضاً فى النشاط الاقتصادى. ومع ذلك.. فعلى المدى الطويل، التغير فى الموارد المالية يغير فقط الأسعار. كذلك يضيف خبراء النقد مبدأ مضاداً لكينز: الإنفاق الحكومى لن يؤثر على الأسعار أو الناتج مالم تتغير الموارد المالية أيضاً. النقود فقط هى التى تهم.

لدينا هنا ثلاثة واجبات مهمة: **الأول**.. يجب أن نرى لماذا يبدو خبراء النقد واثقين ـ لدرجة العجرفة ـ حول موضوع النقود. **ثانياً**.. يجب أن نرى لماذا يتكلم أيضاً كينز بذلك الاستهتار عن النقود. **ثالثاً**.. يجب أن نرى لماذا يتكلم خبراء النقد بذلك الاستهتار عن الإنفاق الحكومى. وبعد ذلك يمكننا أن نبحث موقف المناظرة فى يومنا هذا.

دعونا ننظر إلى آلية التحويل التى تربط الموارد المالية مباشرة مع الناتج القومى الإجمالى. لنفترض أن خبراء النقد على حق: سرعة التداول ثابتة. إذا زادت هيئة الاحتياطى الفيدرالية من عرض النقود عن طريق شراء سندات، فإنها تضع مزيداً من النقود فى أيدى البائعين، ولكن الناس يريدون الحفاظ على مستوى ثابت من الممتلكات النقدية. طبقاً لخبراء النقد.. يحتفظ الناس بالنقود غالباً لغرض المعاملات اليومية، وحيث إن لديهم الآن نقوداً زائدة.. فإنهم سوف ينفقونها على السلع والخدمات والعقارات، ويرتفع الناتج القومى الإجمالى.

لو أن هيئة الاحتياطى الفيدرالية لمست الفرملة بدلاً من ذلك، وباعت سندات، فسيكون لدى الناس نقود أقل، وحيث إنهم يريدون الحفاظ على مستوى ثابت من النقود.. فسوف يخفضون الإنفاق، ويتباطئ الناتج القومى الإجمالى.

تلعب السياسة النقدية ـ بشكل أساسى ـ بالسيولة لدى الجمهور، وبإمكان السياسة النقدية أن تؤثر بشكل متوقع وقوى على الناتج القومى الإجمالى، بشرط أن يرغب الناس ـ وبإصرار ـ فى الاحتفاظ بمستوى سيولة ثابت، ويستطيع الاحتياطى الفيدرالى أن يتلاعب بالجمهور لتشكيل مستويات مختلفة من الإنفاق.

كيف يستطيع كينز وأتباعه مخالفة هذا النموذج! ومن باب السخرية.. فإن كينز آمن به فى أحد الأيام. والأكثر سخرية، أن أقدم خبير نقدى منذ الحرب العالمية الثانية، وهو ميلتون فريدمان، لم يكن يؤمن به. بدأ كينز نقدياً ونضج فكرياً وأصبح كينزياً. أما فريدمان.. فقد بدأ كينزياً ونضج فأصبح نقدياً. وربما كان أصدقاء كينز يلقبونه بـ «الأنف البارز»، عندما كان صغيراً، ولكنهما ـ هو وفريدمان ـ لم يولدا عنيدين (برأس خنزير).

دعونا نتتبع تحول كينز عن مبادىء خبراء النقد. كان جزءاً من تقاليد كامبردج التى تشربها كينز، هو « معادلة كامبردج» التى كان يعلمها مارشال. وهذه المعادلة تعمل بشكل مماثل لنموذج فيشر. وطبقاً لأقوال كينز.. كان مارشال دائماً يعلمهم، (ويعتقد) أن الطلب على النقود يقاس بـ «متوسط مخزون الطلب على السلع التى يهتم أى شخص أن يحتفظ بها جاهزة»[1]. وأثناء التضخم الألمانى الجامح.. أكد كينز قوة نظرية الكمية فى «مقالة عن الإصلاح النقدى» التى صورت مدى سرعة التضخم (الذى يشجع الناس على إنفاق النقود بمعدل أسرع) فى رفع الأسعار بسرعة أكبر، ومع ذلك، عندما كتب النظرية العامة أقنع الكساد الكبير كينز بأن مبادئ خبراء النقد كانت عقيمة.

كان الهدف الرئيسى لانتقادات كينز هو سرعة التداول؛ أى لماذا نفترض أن سرعة تداول النقود ثابتة؟ وماذا يحدث لو قام البنك المركزى بزيادة الموارد المالية والسيولة؟ لماذا نفترض أن الناس سينفقون النقود الزائدة؟ ربما سيحتفظون بها داخل الفراش. وإذا أنفقوا النقود.. فإن سرعة التداول البطيئة سوف تتعادل مع النقود الزائدة، وسيظل الناتج القومى الإجمالى متعثراً، واعتقد كينز أن هذا ممكن حدوثه

خاصة فى حالات الكساد. وفى حين ظل أنصار نظرية الكمية على رأيهم فى أن الناس يحتفظون بالنقود للمشتروات اليومية وربما للأيام العصيبة.. أدخل كينز دافعاً ثالثاً هو «المضاربة»؛ فقد يحتفظ الناس بسيولة زائدة لغرض المضاربة فى سوق الأسهم والسندات. فإذا قفز سعر الفائدة.. فإن طلب النقود لغرض المضاربة سيرتفع أيضاً. وبذلك، حتى إذا ارتفع عرض النقود.. فقد ترتفع أيضاً الرغبة فى الاكتناز.

وقد ذكر كينز فى خطاب إلى الرئيس روزفلت تشبيهاً ذكياً، مع الاستهزاء بالقوى النقدية: «بعض الناس تلمح... إلى أنه يمكن رفع الناتج والدخل عن طريق زيادة كمية النقود، ولكن هذا يشبه محاولة من يريد أن يسمن فيشترى حزاماً أكبر. فى الولايات المتحدة اليوم حزامك كبير جداً بما يكفى لبطنك»[٢].

لم يكتف كينز بإهانة قوة النقود، بل إنه ـ مع اتباعه ـ وضعوا آلية تحويل مختلفة للنقود؛ فالسياسة النقدية لا تعمل مباشرة من خلال الاستهلاك، ولكن من خلال معدلات الفائدة والاستثمار.

ويجب عمل قفزتين طويلتين، غادرتين، إذا أردنا أن يشعر الاقتصاد بتأثير ما من المناورات النقدية، فإذا زاد الاحتياطى الفيدرالى من عرض النقود.. فلا يجب أن يكتنز الناس نقوداً (خطوة رقم ١). وحتى لو أنفق الناس النقود ـ حسب رأى أنصار كينز ـ فقد يشترون أسهماً وسندات؛ أى أصولاً مالية بدلاً من العقارات، وهذا سوف يخفض سعر الفائدة. وسوف يتحرك الناتج القومى الإجمالى فقط فى حالة قيام رجال الأعمال والأسر بالاقتراض من البنوك، ثم شراء السلع والخدمات (خطوة رقم ٢). وأثناء انتظار هاتين الخطوتين الكبيرتين الخطرتين.. فقد يقع عديد من خبراء النقد فى الخندق السفلى.

والمشى فى الاتجاه المعاكس لا يقل طولاً ولا خطورة. فإذا خفض الاحتياطى الفيدرالى عرض النقود.. فقد لا يهتم الناس بأن النقود قد نقصت فى أدراجهم.. وحتى لو استجابوا وباعوا أصولاً مالية (مما يرفع سعر الفائدة)، فالمعترضون قد

لاتثبطهم تكلفة الاقتراض المرتفعة (على سبيل المثال.. إذا كانوا مضطرين لإكمال مشروع بناء)، وقد يستمر الناتج القومى الإجمالى فى النشاط.

والخلاصة.. أن النقاد الكينزيين يكونون أقسى ما يمكن عندما: ١ ـ تكون سرعة التداول أو الطلب على النقود متقلبة. ٢ ـ لا يهتم المقترضون بمعدلات الفائدة.

ويشكو فريدمان من أن تأثير كينز «أدى إلى احتجاب مؤقت لنظرية كمية النقود، ولكن من المحتمل أن يكون قد أدى إلى تضاؤل دائم للبحث والكتابة الاقتصادية الموجهة للنظرية والتحليل النقدى.. وقد ساعد ذلك على انتشار الرأى القائل بأن النقود لا تهم، أو أنها لاتهم كثيراً»(٣).

بل إن هذا التفوق حجب آراء فريدمان الأولى، وبالرغم من أن فريدمان تلقى دراسته فى جامعة شيكاجو ـ معقل نقاد كينز ـ فإنه كتب عام ١٩٤٢ مقالاً حول التضخم لم يذكر فيها القوى النقدية إلا نادراً. وبعد عشر سنوات.. ظهرت المقالة فى كتابه «مقالات عن الاقتصاد الوضعى» مع سبع فقرات جديدة، وأوضح فريدمان الإضافة: «كما أعتقد أن المادة الجديدة سوف توضح الموضوع، واعتقد أيضاً أن حذف التأثيرات النقدية من هذه النسخة هو خطأ كبير لا عذر له، ولكن يمكن تبريره بالجو الكينزى السائد فى ذلك الوقت»(٤).

ميلتون فريدمان والهجوم المضاد:

لم يكن هناك من هو أفضل مزاجاً أو فكراً من فريدمان، لقيادة الثورة المضادة التى شنها خبراء النقد؛ فقدكان مناظراً عنيفاً يناقش القضية بقوة شديدة؛ لدرجة إثارة أعصاب معارضيه الأكاديميين، فلم يكن فريدمان يخاف من الفكر التقليدى. وفى الفترة السابقة للثورة المضادة.. كان صغر حجمه موائماً لمنزلته العلمية. ويذكر جالبرث أنه خلال الخمسينيات والستينيات من هذا القرن، كان الشخص الذى «يسهب فى الكلام وبإصرار» عن دور الموارد المالية، كان يعتبر «مهووساً». ولكن

فريدمان ـ من خلال شجاعة قلبه وذكاء عقله ـ زادت منزلته العلمية الرفيعة، وربح جائزة نوبل عام ١٩٧٦، وربح اعتراف جالبرث به «ربما كان أكثر الاقتصاديين تأثيراً فى النصف الثانى من القرن العشرين»(٥).

بعد الحرب العالمية الثانية، والتى عمل خلالها إحصائياً لدى الحكومة.. تخلى فريدمان عن الأفكار الكينزية بالتدريج، وبدأ يتوسل إلى الحكومة ألاّ تتدخل فى تثبيت الاقتصاد.

فى سلسلة من الدراسات.. أنقذ فريدمان نظرية الكمية من هجوم كينز ـ لقد ترك كينز مهرباً واحداً وعراً وقذراً، وكان على فريدمان إثبات أن القطاع الخاص كان ثابتاً. ويجب ألاّ يتأرجح الاستهلاك مع سرعة الدوران، مثل أرداف راقصة من هاواى، لإعطاء معنى لنظرية خبراء النقد.

فى عام ١٩٥٦، عندما كان أنصار كينز مسيطرين أكاديمياً.. نشر فريدمان مجموعة مقالات طورت واختبرت نظرية كمية النقود. فبدلاً من مجرد ربط النقود بالأسعار، هدف فريدمان إلى إعادة تعريف الطلب على النقود (مطلوب سرعة التداول). وسلّم فريدمان بأن الطلب على النقود ثابت، لأنه يعتمد على عناصر طويلة المدى مثل الصحة والتعليم والدخل المتوقع خلال الحياة. وحيث إن هذه العناصر لا تتذبذب بشدة.. فإن سرعة التداول لن تتذبذب بشدة، أما كينز.. فقد استخف بالتأثيرات طويلة المدى(٦).

فى العام التالى.. تحول فريدمان نحو الاستهلاك. وقد افترض النموذج الكينزى البسيط أنه كما يرتفع وينخفض الدخل الجارى.. فإن الاستهلاك يفعل كذلك. فإذا انخفض الدخل فى عام معين، فسوف ينخفض إنفاق الناس، وهذا يبدو واضحاً. ومرة أخرى.. أيّد فريدمان الرأى الطويل المدى، فعلى كل حال، لن يجوع الرجل الذى يتلقى راتبه يوم الجمعة طوال الأسبوع، ثم يولم الولائم أخر الأسبوع، بل إنه يفضل الحفاظ على تدفق ثابت من الاستهلاك؛ لأن لديه توقعات عن الدخل

على المدى الطويل. وفى «فرضية الدخل الثابت».. يفترض فريدمان وجود طريق ممهد، يغير اتجاهه فقط فى حالة توقع تغير تدفق الدخل فى المستقبل. ولن يسمح المستهلكون لأسبوع سيء - أو شهر أو سنة - بتغيير نظامهم؛ فهم ببساطة، سيستخدمون جزءاً من مدخراتهم. وفى السنة الجيدة جداً، سيكتفون بزيادة الادخار، ولن يغيروا سلوكهم إلاّ إذا توقعوا تحولاً رئيسياً فى الدخل(٧).

لم يكن فريدمان وحده الذى أبرز أهمية المدى الطويل، فهناك نوبل لوريت فرانكو موديليانى، Nobel Laureate Franco Modigliani، - أحد أنصار كينز، وقد أجرى دراسات مماثلة فى نفس الوقت عن «فرضية دورة الحياة»، وخرج بنتائج مماثلة(٨).

الاستنتاج الرئيسى لعمل فريدمان هو أن الاستهلاك ثابت بشكل مؤثر: إذا كان فريدمان وموديليانى على حق.. فإن السياسات المؤقتة للحكومة لها تأثير ضعيف فقط على الاقتصاد الخاص. كيف يمكن اختبار ذلك؟

أدى تخفيض ناجح جداً للضرائب إلى رفع الاستهلاك، ورفع الاقتصاد عالياً. وحيث إن البرنامج خفض معدلات ضريبة المرتبات.. فإن المستهلكين اعتبروه دائماً. وفى عام ١٩٦٨ خشيت حكومة جونسون من التضخم والعجز، الناتجين عن نفقات حرب فيتنام، والإنفاق الاجتماعى المتزايد بسرعة. ولذلك.. أقر الكونجرس ضريبة إضافية مؤقتة محددة لإبطاء الاقتصاد، وبالتأكيد استجاب المستهلكون، ليس بخفض الإنفاق، ولكن بالسحب من مدخراتهم للحفاظ على مستوى استهلاكهم المرتفع. وفى عام ١٩٧٥ .. ثبت أن تخفيضاً ضريبياً مؤقتاً لم يكن فعالاً.

وبالرغم من أن فريدمان وضع نظريات مؤيدة لادعاءات خبراء النقد.. إلا أنه سرعان ماتطلب الأمر دراسات تاريخية تجريبية، للرد على النقاد الذين تراوحوا ما بين مشككين وساخرين. وتمسك فريدمان طويلاً بالموقف الفلسفى، القائل بأن التجربة الحقيقية لنظرية ما، هى ما إذا كانت قادرة على التنبؤ بالأحداث أم لا، فالنماذج

الأنيقة خاطئة إذا كانت عديمة الفائدة فى الحياة العملية. وفى عام ١٩٦٣ أصدر فريدمان مع أنّا.ج شفارتز، Anna J. Schwartz، تقريراً ضخماً «التاريخ النقدى للولايات المتحدة ١٨٦٧ ـ ١٩٦٠»(٩). وقد كان فريدمان يعلم أن أقوى قضية واجهت أنصار كينز، كانت الكساد العظيم. ولم يضع إلا قليلاً من الوقت قبل إعلانه أن الكساد أثبت قوة السياسة النقدية، لا عقمها كما اعتقد كينز. وبمعنى آخر.. سرق أفضل شاهد لدى كينز، وفى الفترة من ١٩٢٩ ـ ١٩٣٣ انخفضت كمية النقود بمقدار الثلث، واتهم فريدمان وشفارتز، هيئة الاحتياطى الفيدرالى، التى رفضت تقديم السيولة للبنوك، عندما قرع العملاء المذكورون أبوابها مطالبين بودائعهم؛ إذ كان بإمكان دعم بسيط من هيئة الاحتياط الفيدرالية أن يزرع كثيراً من الثقة بين العملاء.

الخلاصة.. ادعى «التاريخ النقدى» أن اساءة استخدام النقود صاحبت كل ركود شديد، وكل تضخم جامح خلال القرن الماضى. ولم يكن هناك ركود أو تضخم كينزى؛ فأحد النتائج الفرعية لعمل فريدمان، كان إزالة تهمة تسبب التضخم عن نقابات العمال، وهو ما كان عادة يحدث.

وبينما مزق فريدمان وخبراء النقد الآخرون، مثل ملتزر وبرونر، المعتقدات الكينزية، اختلفت ردود أفعال أنصار كينز، فبعضهم عارض بدراساته الشخصية، والبعض اعترف بأن خبراء النقد لديهم بعض الحق، والبعض استمر يضحك. وفى مؤتمر عقد فى أواخر الستينيات من هذا القرن، علق روبرت سولو، من معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا، على ورقة مقدمة من فريدمان: «هناك اختلاف آخر بين ميلتون وبينى وهو أن كل شىء يذكر ميلتون بالموارد المالية، حسناً كل شىء يذكرنى بالجنس، ولكننى أحاول أن أبعده عن كتاباتى».

ومع مرور فترة الستينيات.. اكتسب خبراء النقد قوة أكثر، لأن سرعة التداول أظهرت نمطاً ثابتاً بشكل ملحوظ. وفى الواقع ـ أثناء العقود الثلاثة التالية لعام

١٩٤٨ـ كانت سرعة التداول التى تسير بشكل متوقع، تنمو بأزيد من ٣٪ سنوياً فقط، فالحرب التى خاضها فريدمان مع القليل من الأتباع، بدأت تتلقى مساعدة ربانية.

وبعد إثبات قوة النقود، ونفخ حياة أخرى فى نظرية «المذهب النقدى»، بدأ خبراء النقد فى تحدى الادعاء الكينزى بأن الإنفاق الحكومى يستطيع حفز الاقتصاد. ولذبح هذا التنين.. احتاجوا لإظهار أن مضاعف كينز كان صفراً.

أعلن خبراء النقد أن كينز تفادى السؤال الكبير: من أين تأتى النقود للإنفاق المالى الحكومى؟ إذا ظلت الموارد المالية ثابتة، وأنفقت الحكومة نقودا.. فإن جهة أخرى يجب أن تنفق أقل، فلا يوجد شىء يسمى غذاءً مجانياً. وإذا رفع الكونجرس الضرائب لتمويل البرامج، فالمستهلكون لن يشتروا كثيراً. وإذا افترض الكونجرس مالاً عن طريق بيع سندات الخزانة للجمهور.. فإن رجال الأعمال لايستطيعون افتراض كثير من أجل الاستثمار، وسيرتفع معدل الفائدة وينخفض الاستثمار. فالإنفاق الحكومى يجب أن يطرد الإنفاق الخاص، ومضاعف كينز الأولى يتجاهل ذلك.

ولا ينكر أنصار كينز حدوث «الطرد»، ولكنهم يعارضون بأن الطرد لا يمكن أن يتكافئ تماماً مع الإنفاق الحكومى، خاصة خلال الركود، والقضية الحقيقية هى مدى الطرد. لقد أصدرت هيئة الاحتياطى الفيدرالى فى سان لويس نموذجاً اقتصادياً قياسياً مبنياً على مبادىء خبراء النقد. وقدر هذا النموذج أنه إذا رفعت الحكومة بشكل دائم إنفاقها بمبلغ بليون دولار.. فلن يتأثر الاقتصاد بهذا إلا قليلاً فى السنة الأولى، ولن يتأثر إطلاقاً بعد ذلك. أما نموذج «مصادر البيانات» الذى اتجه أكثر نحو الكينزية.. فقد قدر المضاعف بـ ١,٦ فى السنة الأولى، ثم قدر انخفاض مضطرد بعد ذلك. ومن الثابت أن النماذج الكينزية تعترف بأن كينز قد بالغ فى قضيته، ولكن هذا ليس سبباً لأن يبالغ بعض خبراء النقد فى قضيتهم[١٠].

التواضع عند الانتصار

تخيل أنك ميلتون فريدمان، وأنك قد أثبت أن النقود لا تجعل الاقتصاد يتكلم فقط، بل تجعله يمشي ويركض.. فإن الخطوة التالية هى إقناع هيئة الاحتياطى الفيدرالى بزيادة الموارد المالية فى فترات الركود، وتخفيضها عند ظهور التضخم مباشرة، أليس كذلك ؟ عندما يبدو أن العمل راكداً.. فإنك سوف تشير إلى مطابع النقود، وتصرخ فى محافظى هيئة الاحتياطى الفيدرالى: «لا تقفوا ساكنين! افعلوا شيئاً! ولكن ميلتون فريدمان لا يفعل ذلك، بل إنه يصرخ: «قفوا مكانكم!».

يعلن فريدمان فى تواضع ـ غير معهود ـ أن الاقتصاديين لا يعلمون عن السياسة المالية ما يكفى لتحريكها بحكمة، وقد يستغرق الأمر أحياناً ستة شهور قبل أن تؤثر السياسة المالية على الناتج القومى الإجمالى الاسمى، وأحياناً سنتين. فالهيئة عادة ما تؤذى الاقتصاد، عندما تحاول ضبط إيقاعه، لأنها لا تستطيع معرفة كم سوف تستغرق فترة الركود. فى عام ١٩٦٨، خشيت هيئة الاحتياطى الفيدرالى من حدوث ركود، فضغطت بشدة على دواسة بنزين النقدية. ولكن الاقتصاد لم يشعر بالتأثير، إلا بعد مرور فترة الركود، وكانت النتيجة تضخماً جامحاً، لأن التأثير جاء فى فترة الانتعاش، فى عام ١٩٧٤عندما ضغطت الهيئة على فرملة النقدية لوقف التضخم. وفى عام ١٩٧٥ ظهرت فترة ركود. وعندما قفز جيرالد فورد إلى مقعد الرئاسة فى البيت الأبيض، قبل ـ بذكاء ـ تشبيه السيارة، وأبلغ الكونجرس أن يقيد طموحاته العالية، لأنه كان «فورد وليس لنكولن»، وكانت هذه نصيحة عاقلة، لأن الاقتصاد ركض مثل سيارة «إيدسيل».

إن نصيحة فريدمان إلى هيئة الاحتياطى الفيدرالى بعدم رد الفعل إزاء الأنباء الاقتصادية، تشبه نصيحة الأدميرال هايمان ريكوفر، Hyman Rickover، عندما سئم من تخبط البنتاجون (وزارة الدفاع)؛ إذ قال الأدميرال: يجب تقسيم البنتاجون إلى ثلاثة أقسام: الأول، يقوم بكل العمل، والثانى والثالث يقضيان اليوم بكامله فى

كتابة رسائل مطولة لبعضهما. وحتى لو اتبعت هذه الخطة.. فإن البنتاجون سيعمل أكثر مما يريد فريدمان من هيئة الاحتياطى الفيدرالى أن تعمل.

يقترح أنصار فريدمان تبديل هيئة الاحتياطى الفيدرالى، وإحضار رجل آلى يضغط بخفة على دواسة البنزين النقدية عند معدل نمو محدد، بغض النظر عن الظروف الاقتصادية. وسوف يمحو النمو الثابت، ٣٪ أو ٤٪ أو ٥٪، مصدراً رئيسياً لعدم الاستقرار، وهو نزوات الاحتياطى الفيدرالى. فإذا تعثر الاقتصاد.. تقوم الإضافات المستمرة للسيولة بتغذية الإنفاق. وفى فترات الرواج.. فإن شعلة التضخم لن تجد وقوداً كافياً للاشتعال.

يا له من اختلاف عن موقف الاقتصادى آرثر أوكيون، Arthur Okun ـ من معهد بروكينجز ـ الكينزى النشيط الواثق، فى الستينيات! إذ لم يتوقف « التقرير الاقتصادى للرئيس عام ١٩٦٢» عند الصراع بين التضخم أو الركود، فالاقتصاديون المحنكون سوف يضبطون الاقتصاد القومى، وسوف تمهد السياسات الضريبية الطريق إلى رخاء دائم النمو:

«إن الطلب غير الكافى يعنى بطالة... والطلب الزائد يعنى تضخماً.. والاستقرار لا يعنى مجرد مساواة القمم والقيعان فى الإنتاج والعمال.. إنه يعنى تقليل الانحرافات عن مسار الصعود»(١١).

وبينما لا يستطيع أى اقتصادى نزيه أن يكتب مثل هذا التبجح.. فإن معظم الاقتصاديين يخالفون المذهب النقدى لفريدمان، وشعارهم هو: البشر خطاؤون، ولكن لتعقيد الأمور، فالأمر بحاجة إلى كمبيوتر. حتى لو كان فريدمان على حق، وسرعة التداول تبدو ثابتة على المدى الطويل.. فإنها بالتأكيد تنحرف عن مسارها على المدى القصير. فإذا هبطت سرعة التداول لعدة شهور، بينما استمرت النقود على اتجاه ثابت، فإن الاقتصاد سوف يتعثر. ربما ليس لفترة طويلة، ولكن الوظائف ستتعلق بأداء هيئة الاحتياطى الفيدرالى فى هذه الأوقات، وتبقى

الأسئلة الصعبة ـ المتعلقة بالهيئة النشطة ـ دون حل. كم يلزم من الوقت لتكشف هيئة الاحتياط الفيدرالية عن تقلبات سرعة التداول (فترة التعرف)؟ كم يلزم من الوقت كى يؤثر تصرفهم على الاقتصاد (فترة التأثير)؟ هل تعرف هيئة الاحتياط الفيدرالية ما ينبغى فعله؟

سرعة التداول تضايق المنتصرون

بعد إقناع موديليانى وصامويلسون بأن النقود لها معنى كبير، كان خبراء النقد بحلول ١٩٨١ يغنون أغنية جيرشوين القديمة «لمن كانت الضحكة الأخيرة الآن؟» (من يضحك أخيراً يضحك كثيراً).

لكن خبراء النقد سرعان ما توقفوا عن الغناء. لقد قامت مارجريت تاتشر فى بريطانيا، ورونالد ريجان فى الولايات المتحدة بتشجيع البنوك المركزية على اتباع منهاج خبراء النقد المضاد للتضخم، وخفض الموارد المالية وتجاهل ارتفاع أسعار الفائدة. وبالتأكيد هبط التضخم إلى معدل مؤثر فى الولايات المتحدة؛ إذ هبط من أكثر ١٢ ٪ عام ١٩٨٠ إلى أقل من ٤ ٪ عام ١٩٨٢. وقليل من الاقتصاديين توقع أن تعمل النقود بهذه القوة ـ مع ذلك ـ كما كان متوقعاً، وقد صاحب ذلك ركود شديد (السبب أن السياسة النقدية فى البداية تغير الناتج والأسعار، وليس الأسعار فقط كما تفعل على المدى الطويل). كما زادت البطالة فى الولايات المتحدة فوق ١٠ ٪، ولم تبدأ فى الانخفاض حتى ١٩٨٣. إن إزالة التضخم من الاقتصاد ليس لعبة مسلية.

يعتقد خبراء النقد أن هيئة الاحتياطى الفيدرالى اتخذت مسلكاً فظاً أكثر من اللازم، وضغطت الفرملة النقدية بشدة زائدة. وأكثر من ذلك.. فإنهم يؤكدون أن الهيئة تحت رئاسة بول فولكر، Paul Volcker، سمحت للموارد المالية بالتأرجح بعنف. ومع ذلك.. فإن خبراء النقد أنفسهم يعترفون بأنه حتى السياسة الأكثر تدريجياً كانت ستولد ركوداً.

لو أن المنهج المضاد للتضخم أثبت قوة النقود، لماذا لا يعزف خبراء النقد لحناً مرحاً؟ لماذا انتهت الثورة المضادة بالتعقيد؟ حسناً، حدث شيء طريف أثناء عملية الانتعاش. هل تذكر محور النظرية النقدية، سرعة التداول الثابتة؟ بمجرد وصول خبراء النقد إلى منزلتهم الرفيعة، بدأ الناس يفحصون أدراجهم ثانية. من ١٩٤٨ إلى ١٩٨١، ثبتت سرعة تداول النقود عند نمو يبلغ ٣,٤٪ كل عام. وفجأة في عام ١٩٨٢ امتلأت أدراجهم بالنقود؛ إذ هبطت سرعة التداول بـ ٥٪، ومن ١٩٨٢ إلى ١٩٨٨، كان مسار سرعة التداول محيراً تماماً. إذا انخفضت سرعة التداول، ولم ترتفع الموارد المالية بمعدل مرتفع.. ومن ثم، كان لابد أن ينخفض الناتج الإجمالي القومي أيضاً.

كيف استجاب الاحتياطي النقدي لانهيار سرعة التداول؟ بدلاً من اتباع المذهب النقدي بالسماح لـ ٣٪ أو ٤٪ نمو.. فإنهم ضغطوا بشدة على دواسة البنزين النقدية، متجاهلين الهدف وهو ٣ ــ ٨ ٪ نمو، وأطلق الاحتياطي الفيدرالي إلى مقياس M1 (العملة خارج البنوك × أرصدة الحسابات الجارية) إلى أكثر من ١٥ ٪ خلال عام ١٩٨٦، وذلك لمعادلة سرعة التداول المتعثرة.

ربما تسببت القاعدة النقدية الثابتة عام ١٩٨٦ في كارثة. وحتى بيريل سبرينكل، Beryl Sprinkel، أحد تلاميذ فريدمان، أول نقدي تقليدي يرأس مجلس المستشارين الاقتصاديين، اعترف في «التقرير الاقتصادي إلى الرئيس» عام ١٩٨٧:

ضمن سياق النمو الحقيقي المعتدل والتضخم الطفيف وتوقعات التضخم، ومع وجود عدم اليقين بخصوص سلوك سرعة التداول.. فإن عدم التأكيد على (عملات + أرصدة) لصالح المتغيرات الصغرى... يبدو حكماً صائباً... ولاتوجد أدلة على أن الاحتياطي الفيدرالي أخطأ من ناحية القيود النقدية[١٣].

كذلك ضغطت حكومة تاتشر على دواسة البنزين النقدية في مواجهة سرعة التداول المنخفضة.

ولا يعرف أحد هل ستعود سرعة التداول إلى النمط الثابت (بالرغم من أن التضخم المرتفع الذى حدث فى الولايات المتحدة وبريطانيا عام ١٩٨٩ يمكن أن يشير إلى سرعة تداول أكثر ثباتاً، ولكن مع فترة تباطؤ أطول مما هو متوقع) . وقد تم تقديم عدة فروض لشرح هذا الهبوط. ونظراً لعدم تنظيم العمل المصرفى عبر العقد الأخير.. فإن الناس تحتفظ بأصول أكثر فى حسابات جارية ذات فوائد، وحيث إنهم يمتلكون نقوداً أكثر.. فإن سرعة التداول تنخفض. وتظهر بعض الاختبارات أن سرعة تداول النقود كانت ستنخفض بالرغم من هذا الصمام. ويوضح فريدمان وخبراء النقد الآخرون أن الهبوط الحاد فى التضخم ومعدلات الفائدة فى أوائل الثمانينات قد قلل من سرعة التداول. لقد قدر الاقتصاديون حساسية سرعة التداول تجاه معدلات الفائدة بأقل من قدرها.

واقتباساً من تشرشل.. نقول إن سرعة التداول فى الثمانينات كانت لغزاً ملفوفاً فى الغموض داخل أحجية. إن سرعة التداول هى التى تضحك أخيراً.

التوليفة أو جمع النقيضين، مع نظرة على العرض:

منذ وفاة كينز.. شهد العالم صراعاً فكرياً خصباً، فالطرق المتواصل من جانب فريدمان حافظ على تقليد يعود إلى قرون مضت. ولا يستطيع علم الاقتصاد السائد أن ينكر ماضيه، أو أن يرفض كل ابتكارات كينز. وقد أمر آلان جرينسبان، Alan Greenspan، ـ رئيس هيئة الاحتياطى الفيدرالى ـ الاقتصاديين العاملين معه باختبار كل من مقياس M 2 والمفهوم الكينزى للناتج القومى الإجمالى المحتمل، وكان ذلك بمثابة «وضع رأس كينز على جسد ميلتون فريدمان».

فى الفصل السابق.. سألنا هل كان كينز سيختار دراسة الاقتصاد فى أيامنا هذه. وهنا نسأل: هل كان كينز سيظل محافظاً على مبادئه الكينزية، لو أنه عاش ليرى أبحاث خبراء النقد، والولادة الجديدة لهم. وحيث إن كينز كان يحمل عقلاً ثاقباً

وعملياً، فإنه بالتأكيد كان سيعترف بأن بعض الأشياء الأساسية يمكن تطبيقها مع مرور الزمن.

أما الجيل التالى من الاقتصاديين اللامعين بعد فريدمان وصامويلسون فقد شمل أعلاماً، مثل!!: مارتن فيلدشتاين، Martin Feldstein، ومايكل بوسكين، Michael Boskin، وآلان بلايندر، Alan Blinder، ولورنس سومرز، Lawrence Summers، هذا الجيل الذى استراح من المناظرة الكينزية النقدية اللعينة. لقد وجدوا جميعهم دوراً مناسباً لكل سياسة من السياستين النقدية والمالية.

وبدلاً من المشاحنة حول السياسات، التى تحاول السيطرة على الطلب الإجمالى.. تحول الاقتصاديون الجدد إلى قضية العرض الإجمالى، وتساءلوا كيف تستطيع الحكومة الفيدرالية حفز الشركات على رفع الإنتاجية؛ فالإنتاجية المرتفعة تترجم إلى مستوى معيشة مرتفعة، ولكن رفع الإنتاجية يتطلب رفع الاستثمار فى المصنع والمعدات والأبحاث والتعليم. واتحد الاقتصاديون الأمريكيون مع الأحزاب السياسية الرئيسية فى لوم السياسات الضريبية الطائشة؛ لتسببها فى نمو الإنتاجية المتراخى(١٤).

ويميز أغلب هؤلاء الاقتصاديين أنفسهم، عن مؤلفى النشرات المتحمسين والسياسيين فى أوائل الثمانينيات، والذين وصفهم هيربرت شتاين، Herbert Stein، بأنهم «التافهون، أنصار نظريات العرض»، والذين وعد بعضهم بأن تخفيض سعر ضريبة الدخل سوف يطلق العنان لزيادة رهيبة فى النشاط الاقتصادى، لدرجة أن الضريبة على الدخول سوف ترتفع بالفعل. وفى حين أدت مناقشة «منحنى لافر» (نسبة إلى الرسم الساخر للاقتصادى أرثر لافر، Arthur Laffer، من جامعة جنوب كاليفورنيا) إلى بعض الأخطاء فى سياسات البيت الأبيض.. فإن الحماس المعدى لأنصار نظريات العرض ألهم التيار الرئيسى من الاقتصاديين، الاجتهاد فى أبحاثهم عن الأثر الضعيف للضرائب المرتفعة، ومعدلات الادخار المنخفضة على الاقتصاد.

وحتى أولئك الاقتصاديين، الذين يحتقرون أنصار نظريات العرض.. فإنهم يعارضون العودة إلى الشريحة الضريبية ٧٠ ٪ لعام ١٩٨٠ (أو معدل الضريبة الحدى ٩١ ٪ فى أوائل الستينات!)، وهذا ما جعل الناس يتجنبون الضرائب، عن طريق الخدع والإفادة من أسباب الإعفاء ،أو استخدام الثغرات القانونية.

كلنا كينزيون الآن، شكراً لكينز، وكلنا خبراء نقد الآن، شكراً لفريدمان، وكلنا انتقائيون الآن، شكراً للعالم المضطرب.

الفصل الحادى عشر

مدرسة الاختيار العام: السياسة «كنشاط اقتصادى»

قال مارك توين: «لقد رأيت منظراً أخاذاً اليوم، سياسى يضع يديه فى جيوبه الخاصة».

هل ممكن أن تنشأ مدرسة جديدة فى الفكر الاقتصادى، مبنية على تلميحات توين الساخرة. فى عام ١٩٨٦، منحت لجنة نوبل جائزة الاقتصاد إلى جيمس. م. بـوكانان، James M. Buchanan، مؤسس مدرسة الاختيار العام فى الاقتصاد، التى تطلب منا إعادة النظر فى ـ بل ورفض ـ نظرية المالية العامة التقليدية، بناء على أسباب يفهمها مارك توين. وتقول المدرسة، إن الرأى الواقعى فى السياسة يلعن الاقتصاد الكينزى أكثر من أى إحصاءات عن المضاعف يجمعها خبراء النقد، فأنصار الاختيار العام لا يثقون بالسياسيين إلا بالقدر الذى يمكنهم من الخلاص منهم.

تعتقد هذه المدرسة أنه بإمكانها شرح عديد من القضايا السياسية والاقتصادية: لماذا نعانى من عجز دائم فى الميزانية؟ لماذا تتكاثر جماعات المنفعة الخاصة؟ لماذا تستمر البيروقراطية فى التوسع، بالرغم من وعود رؤساء الجمهورية بتحجيمها؟ لماذا يقوم منظمو الحكومة ـ عادة ـ بحماية رجال الأعمال أكثر من المستهلكين؟

ويرى أغلب الاقتصاديين أن السياسة هى عقبة غير اقتصادية غير مفهومة، مضايقة لأى سياسة جيدة. وعلى العكس من ذلك.. يصر اقتصاديو الاختيار الحر على أن السياسة يجب دراستها بأدوات اقتصادية، وعلى أن «السياسة هى نشاط اقتصادى»، ويجب ألا يكتفى الاقتصاديون بإلقاء سلاحهم ومطالعة ما حولهم بازدراء، بل يجب أن يسألوا لماذا يضايق المشرعون وموظفو الحكومة السياسة الجيدة.

فإذا دققنا النظر جيداً.. نجد كثيراً من رواد نظرية الاختيار العام حولنا، فمنهم آدم سميث وجيمس ميل والسويدى كنوت فيكسل، Knut Wicksell، وكل من كان يلعن البيروقراطية. ومع ذلك.. فإن العمل المدرسى الحقيقى نشط بعد الحرب العالمية الثانية؛ إذ نمت الحكومات، وكذلك نقادها.

كان جيمس بـوكانان ـ مثل الناقد اللاذع ثورستاين فبلن ـ يشعر كأنه منبوذ وسط الدوائر الأكاديمية الأساسية. ولد فى ميرفريزبورو، بولاية تينيسى عام ١٩١٩. لم يتحمل بـوكانان نفقات الدراسة بجامعة شهيرة، وبدلاً من ذلك اختار كلية المعلمين الحكومية بوسط تينيسى، وذلك فى بلدته. وقد كان ذلك الحائز على جائزة نوبل يكسب مصاريف تعليمه من حلب الأبقار كل صباح ومساء. وبعد أربع سنوات من الحياة الخاملة.. دخل بـوكانان جامعة تينيسى؛ حيث حصل على درجة الماجستير فى الاقتصاد. وجاءت الحرب العالمية الثانية لتعطل مساره الأكاديمى، وأرسله التجنيد إلى كلية الحرب البحرية فى نيويورك.

لقد نشأ جون جالبرث فى نفس البيئة الريفية، بين الأبقار والمروج فى كندا. ومع ذلك.. فبينما انتقل جالبرث بسهولة إلى الصفوف الأكاديمية السائدة مع وظيفة فى جامعة هارفارد، فإن بـوكانان كافح، وتعلم بسرعة كيف يحتقر «صفوة الشرق». ومازال بـوكانان يجفل من الترفع الفكرى والتمييز الذى واجهه فى نيويورك لأنه جنوبى. وبعد الحرب.. ذهب بـوكانان غرباً، وحصل على الدكتوراه من جامعة شيكاجو، ثم هرب إلى الجنوب إلى جامعة فرجينيا.

ولا يزال بـوكانان يرى أن كثيراً من عمله كان رد فعل للتأملات المثالية لعلماء البرج العاجي في الشرق. وفي الوقت الذي تدفقت فيه قوافل الاقتصاديين من هارفارد نحو واشنطن في عهد حكومتي كينيدي وجونسون.. كان بوكانان يهاجم آراءهم بهدوء من فوق تلال فرجينيا، ونشر كتاب «حساب الموافقة» The Calculus of Consent، مع جوردون تولوك، GordonTullock، عام ١٩٦٢.

وحسب رأي بـوكانان.. فإن «الصفوة الأكاديمية الشرقية لا تستطيع التخلي عن دورها، الذي اختارته كحكماء متكبرين، يصدرون آراءهم المهيبة إلى الحكومة، ودائماً ما يظنون أنفسهم مستشاري واشنطن».

وماذا عن نفسه؟ «أنا أعتبر نفسي جزءاً من الرعاع العظام، الذين يحاولون أن يفهموا ما الذي يحدث»[1].

وحتى أصدقاء بـوكانان يقرون بأنه ليس ممن يضربون من الخلف. وإذا وضعنا في الاعتبار شخصيته الصارمة وكراهيته للمترفين الذين يغتسلون بالمياه المعدنية.. فإنه يمكننا تخيل بضعة مواقف أكثر إثارة، من وضع بـوكانان في نفس الغرفة مع جون جالبرث المتأنق.

وبدلاً من تتبع تاريخ مدرسة الاختيار العام.. دعونا نرى كيف تنظر المدرسة إلى عديد من أكثر القضايا إلحاحاً في الاقتصاد السياسي. إن القوة الدافعة عند مدرسة الاختيار العام غاية في البساطة: فإذا كان رجال الأعمال يبحثون عن مصالحهم الذاتية.. لماذا لا نفترض أن موظفي الحكومة هم أيضاً «رجال أعمال سياسيون»؟ ما أهم شيء عندهم؟ قوتهم ومقدرتهم على كسب الأصوات. لقد أمضى الاقتصاديون مائتي عام لتطوير نموذج للسلوك الإنساني، فلماذا يهملونه عند مواجهة الحكومة؟.

تناقض جماعات المصالح الخاصة

لا أحد يحس بالأمان أثناء انعقاد الكونجرس ـ بما في ذلك أعضاء الكونجرس ـ فجماعات الضغط تطاردهم وتطارد أفكارهم، وتضغط عليهم من أجل الخدمات

والتهرب من الضرائب والمنح والحماية. ويؤكد الأستاذ مانكور أولسون Mancur Ol-son ـ من جامعة ميريلاند ـ أن العمل المنظم لإضعاف كفاءة المجتمع، هو الذى يحرك منظمات المصالح الخاصة، سواء كانت اتحادات أو نوادى أو هيئات(٢).

لماذا لا تقوم جماعات المصالح الخاصة ـ بدافع الوطنية ـ بالضغط على الكونجرس لرفع الإنتاجية والثروة القومية؟ لأن ذلك لا يستحق الجهد المبذول! انظر إلى لجنة التعليم السياسى الزراعى الشامل لمنتجى الألبان، والتى تعلو قائمة المتبرعين لحملات انتخابات الكونجرس. يحب منتجو الألبان دعم الأسعار، بما يضمن لهم الحصول على حد أدنى من الأسعار لكل جالون. ولكن الاقتصاديين يكرهون دعم الأسعار، كما يقاسى المستهلكون بسببه. (بالمناسبة، يشرب الأطفال نصيباً غير كاف من اللبن. وحيث إن الأطفال يشكلون نسبة كبيرة من الفقراء.. فإن الأطفال الفقراء يعانون أكثر). دعنا نفترض أن أعضاء اللجنة يشكلون ١ ٪ من سكان الولايات المتحدة. لو نجحوا فى الضغط على الكونجرس لتمرير قانون عام يرفع الإنتاجية الكلية للولايات المتحدة.. فإنهم يتلقون فقط ١ ٪ من المنفعة. إلا أنهم قد بذلوا ١٠٠ ٪ من جهدهم لتمرير القانون، وسيكونون قد أنفقوا ٥٠ ألف دولار على تشريع خلق مليون دولار من الثروة الجديدة للبلاد، ولكن نصيبهم سيكون ١٠ آلاف دولار فقط. ولو أن القانون سيضخ دخلاً جديداً أكبر من نفقات الضغط مائة مرة.. فإنه فى هذه الحالة ـ فقط ـ يصبح الضغط الوطنى ذا معنى. وبالتالى.. فإن المنظمات لها مصلحة ضئيلة فى تطوير مجتمع أكثر كفاءة من خلال السياسة، ومن ثم فالأمر لا يستحق الجهد المبذول.

دعونا نفكر فى أن لجنة اللبن تبحث عن مصالحها، إذ يمكنها أن تأخذ أرباحاً من الآخرين من خلال خطط دعم الأسعار. ولكن من هم هؤلاء الآخرين؟ من المستهلكين طبعاً. لنفرض أن دعم سعر اللبن يكلف اللجنة ٥٠ ألف دولار كمصاريف ضغط، ولكنه يرفع دخل المنتج ١٠ ملايين، فالمنتجون يتحملون

١٠٠ ٪ من عبء الضغط، ولكن يتلقون ١٠٠ ٪ من المنفعة، لأن السياسة يمكن أن تكون استثماراً رائعاً. لا عجب فى أن المنتجين عادة مايهتمون بتزيين المكاتب فى واشنطن، أكثر من اهتمامهم بالمعدات الجديدة فى مصانعهم، ولاعجب فى أنهم يستأجرون عديداً من المحامين: فالعائد أفضل. وقد أوضح ويللى ساتون، Willie Sutton، أنه سرق البنوك، لأن «هذا هو مكان النقود»، وبالنسبة لعديد من المنظمات.. فإن النقود فى واشنطن.

إن هذه النشاطات السياسية عادة ما تضر المجتمع. هل يهتم الائتلاف بذلك؟ لجنة اللبن فى مثالنا هذا تتحمل فقط ١ ٪ من الضرر الكلى، ولن يثنيهم عن عملهم سوى هبوط الناتج القومى الإجمالى مائة مرة، قدر الضرر الذى تسببه أرباحهم للاقتصاد. ويقول أولسون: «إن المجتمع الملىء بجماعات الضغط الخاصة، مثل دكان الخزف المزدحم بالمتنافسين، يتقاتلون حول محتوياته، ويكسرون أكثر مما يأخذون»(٣).

إذا كان دعم الأسعار «ينشل» حوافظ نقود المستهلكين، فلماذا لا ينتظم المستهلكون معاً لهزيمة هذه الخطط؟ إن الأمر لا يستحق الجهد المبذول فى مثالنا السابق؛ لأن التكلفة الكلية للمستهلكين تصل إلى ١٠ ملايين دولار. وإذا كان تعداد السكان ٢٥٠ مليون.. فإن كل مستهلك يخسر ٤ سنتات فقط، ولكن كل منتج يربح ٤ دولارات. ولذلك سوف يظهر منتج اللبن اهتماماً يعادل اهتمام المستهلك ٤٠ مرة. وأكثر من ذلك.. فإن تنظيم المنتجين أكثر سهولة.

وتستطيع جماعات ضغط منتجى السكر ـ وهم حوالى ٠,٠٠٠٢ من الشعب الأمريكى ـ المحافظة على سعر السكر فى الولايات المتحدة، بما يعادل ثلاثة أضعاف السعر العالمى. ولا يقتصر الأمر على المكاسب الهائلة، ولكن منتجى الحلوى المصنوعة من الذرة (بدائل السكر) يكسبون أرباحاً كبيرة من منافسة الأسعار العالية المصطنعة للسكر. وتظهر الدراسات العلمية أن بعض أنواع الحلوى الاصطناعية،

يمكن أن تسبب السرطان لفئران المعامل، وكذلك يمكن أن يسبب الدعم المصطنع للأسعار السرطان لجسم الأمة السياسي.

وتثور هذه المشكلة مراراً وتكراراً فى الأمم الديموقراطية، فالمنظمات ذات المصالح تدوس على مصالح المستهلكين، الذين لديهم حصص فردية صغيرة فى الناتج. وفى النهاية.. يتضرر المستهلكون الأفراد بشدة، مع تدهور كفاءة ودخل الأمة. ولكن على من يلقون اللوم؟ لا يظهر مذنب واضح فى الصورة؛ لأن المصالح الخاصة تنهش قطعاً صغيرة من الخير العام.

ولا يعقل أن يلوم المستهلكون أنفسهم، كما أن متابعة أعمال الكونجرس تكلف أموالاً. إذاً من العقل تجاهل الخدمات الخاصة الممنوحة للآخرين، طالما أنها تكلفك ٤ سنتات فقط. وعلى كل حال.. سيكلفك الأمر أكثر من ذلك بكثير، إذا اتصلت بنائب دائرتك لكى تكتشف كم سوف تكلفك هذه الخدمات الخاصة، ويسمى الاقتصاديون هذا العمل بالجهل الرشيد، وذلك إذا لم يمكننا أن نعلم كل شىء، وليس لدينا متسع من العقل أو الوقت أو النقود لكى نعلم. وكما قال أحد الممثلين الفكاهيين «لا يمكن أن تملك كل شىء، أين سوف تضعه؟»

يعرف كل شخص فى نيويورك وبوسطن أن هناك نقصاً فى سيارات الأجرة، فهذه المدن تحدد عدد رخص الأجرة الممنوحة، مما يرفع من دخل السائقين، ويخفض من معنويات المدن. وأكثر من هذا.. فإن حكومات المدن ترفض مساندة تذمر الجمهور ضد أصحاب سيارات الأجرة المتبجحين، ولا تكتفى مدرسة الاختيار العام بالإشارة ببساطة إلى أن «العجلات التى تصدر صوتاً تحتاج إلى شحم»، بل إن الأهم من ذلك أن أولسون وزملاءه يعلموننا السبب فى أن التحالف المحكم يصدر صوتاً، أقوى بكثير من صوت الجمهور غير المنظم المبعثر.

ويمضى أولسون من مناقشاته إلى مجالات أكثر إثارة للجدل، وذلك برسم قواعد تاريخية عريضة؛ إذ يفترض أولسون أن المجتمعات المستقرة أكثر عرضة

للمصالح الخاصة، ثم يدعى أن المجتمعات «الأطول استقراراً» ستنمو ببطء أكثر من المجتمعات الحديثة نسبياً مع مرور الزمن، ثم تقوم الجماعات الطفيلية بمضاعفة ثم امتصاص «دم» الأمة. وإذا كان الأمر كذلك.. فإن الثورات والحروب يمكن أن تنعش الاقتصاد، حيث تفقد جماعات المصالح الخاصة قبضتها الخانقة. ويصنف أولسون بريطانيا كأمة متخلفة مستقرة، ويابان ما بعد الحرب كمعجزة اقتصادية.

يتابع قليل من الاقتصاديين أولسون إلى أن يصل الى استنتاجه حول ارتفاع وسقوط الأمم. ومع ذلك.. فإن حسابات جماعات المصالح الخاصة معقولة.

إن تناقض المصالح الخاصة يبدو قضية دون أمل، هل هذا صحيح؟ ليس بالضرورة. وعلى كل حال.. فإن كل جماعة تعانى عندما يمنح الكونجرس خدمات إلى الجماعات الأخرى. فإذا استطاع الرئيس أو أى زعيم فى الكونجرس الحصول على تشريع يخفض ميزانية النفقات الخارجية، أو الحصول على سياسات عريضة ضد المساعدات،أو دعم الأسعار، أو خطط الحماية.. فإن الكفاءة المتزايدة للاقتصاد سوف تعوض هذه الجماعات عن قطع الخدمات الخاصة، ومن المؤسف أن الأمثلة التاريخية قليلة. ومن الأكثر احتمالاً أن يستمر السياسيون فى إلقاء الخطب الرنانة، فى حين تطلق المصالح الخاصة كلمات الشهامة، ولكن لا شئ يحدث فى الواقع.

كيف يستطيع المحكومون أن يسيطروا على الحاكمين

لماذا تنظم الحكومة عديداً من الصناعات؟ الإجابة السريعة ـ والتى نجدها فى كتب المدارس الثانوية ـ هى أن هذه الصناعات إما احتكار فردى، أو احتكار قلة، وأنه يجب حماية المستهلك من الابتزاز، والإجابة تلمح إلى أن المشروعات تكره التنظيم.

وباتباع تعاليم جورج ستيجلر ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ فأن لاقتصاديى الاختيار العام إجابة أخرى محتملة: «تحتاج المشروعات إلى تنظيم لأنه يحميهم من

مخاطر المنافسة النشيطة» .. فإنهم فى الواقع يضغطون من أجل وجود تنظيم، وتعرف هذه بنظرية «الأسر» فى التنظيم، لأن المشروعات الخاضعة للتنظيم «تأسر» المنظمين(٤).

كيف تعمل هذه النظرية؟ دعنا نفترض وجود هيئة حلاقة تابعة للولاية، تصر على قواعد ومعايير معينة ـ كأن يعقم كل الحلاقين الأمشاط، وأن يرفضوا الزبائن الذين يبدو مظهرهم كالكلاب. قد يؤدى تدخل الهيئة إلى زيادة قليلة فى التكلفة، ولكن قد يقنع الحلاقون الهيئة بتبنى قواعد أخرى تنفعهم كثيراً، خاصة حظر دخول المهنة؛ فيمكن للهيئة أن تحول دون انتقال حلاقين جدد للولاية، بأن تطلب منهم قضاء سنة فى جامايكا يقصون شعر أفراد قبيلة راستافارى، أو أن يعمل الواحد منهم كحلاق مقيم بأجر منخفض، لمدة ثلاث سنوات فى عيادة معتمدة لعلاج القشرة. إن كل بند فى هذا التنظيم ـ يهدف لحماية الحلاقين من المنافسة ـ يمكن تقديمه تحت ستار حماية الجمهور من الحلاقين غير المتمرسين، وهم فى الواقع، يسلخون فروة رأس الجمهور.

ونادراً ما يؤثر التنظيم بالخير فقط أو الشر فقط على الصناعة، فقد يطلب منظمو اللبن وجود أوعية من الصلب الذى لا يصدأ، وهذه تكلف أكثر من الأوعية البلاستيك. هذا البند قد يضايق منتجى الألبان، ولكن دعم الأسعار والإعانات التى يتلقونها تزيد بالتأكيد عن هذه المضايقات التافهة.

لماذا تنجح الصناعات الخاضعة للتنظيم فى الاستحواذ على من يفترض أنهم أوصياء على مصالح الشعب؟ تذكروا هذا «الجهل الرشيد» فى تناقض المصالح الخاصة، فالصناعة لديها حافز لجمع كل ما تستطيع من الأدلة الأكاديمية لصالحها. ويعلن الاقتصاديون عن أنفسهم فى مجلات القانون، عارضين أبحاثهم ذات الخبرة. ومن الناحية التنظيمية، فغالباً ما كان الموظفون يشعرون بضرورة استسلامهم للصناعات، حيث إن الجمهور لا يبدى اهتماماً كبيراً. وأخيراً، يلوح

لنا تفسير أكثر سخرية: عادة ما تكون للمنظمين علاقات محرمة مع الخاضعين للتنظيم؛ فأعضاء لجان التنظيم يأتون من القطاع الخاص، ويعودون إليه بعد انتهاء فترة تكليفهم، وتكوين الأصدقاء هو إحدى الطرق لتكوين الثروات. فى عام ١٩٧٠ أشار رالف نادر، Ralph Nader، إلى لجنة التجارة بين الولايات (أو بالأحرى لجنة إهمال التجارة فى حالة حذف حرف C من كلمة Commission) على أنها لجنة فيدرالية تعمل على راحة صناعة النقل.

لم تلفت نظرية «الأسر» انتباه جميع الاقتصاديين، فهى تقدم وجهة نظر ضيقة من جانب واحد عن السياسة. وأحياناً يعكس الساسة القبضة، ويأخذون المشاريع رهينة. فالسياسى الغوغائى يمكن أن يرتقى إلى السلطة، بناء على وعود بتحطيم أقطاب الصناعة الجشعين اللصوص، كما أن بإمكانه أن يعد بوضع ديك محشو فى كل قدر، ويخفض قسراً أسعار الديوك، مع ضوابط عقابية تؤذى صناعة الطيور، فالسياسى الساخط الذى يثير غضب واهتمام الجمهور يقدم الشاهد الرئيسى لنظرية الاختيار العام.

ولا يدعى اقتصاديو الاختيار العام أن كل الضوابط (التنظيمات) تساعد الصناعة وتؤذى المستهلك، فهم لا يجادلون من أجل اقتصاد حر. ومع ذلك.. فإنهم يشجعون الجمهور على مقارنة نتائج السوق الحر مع نموذج معقول للتنظيم الحكومى، بدلاً من الرؤية الأسطورية، التى تفترض حكومة خيّرة، تكافح دائماً من أجل خدمة مصالح الشعب.

وعود كبيرة وميزانيات متضخمة وبيروقراطية

يصور أولسون وستيجلر جماعات المصالح الخاصة، وهى تحارب بقذارة من أجل دس أنوفها فى أطباق الجمهور. لماذا تطعمهم الحكومة؟ لماذا تمدهم بالسلع والخدمات التى تتطلبها مختلف الجماعات؟ ويجيبون عن هذه الأسئلة عن طريق بحث البيروقراطية والسياسيين.

قام جوردون تولوك، ووليام نيسكانين William A. Niskanen، الابن بدراسة الموظفين الحكوميين عن قرب، مثلما يدرس علماء الأحياء فئران المعامل، وهذا يعكس مستوى إعجاب هذين الكاتبين بموضوع دراستهما. يقول نيسكانين إن الموظفين البيروقراط يتنافسون فى سباق أحمق عنيف مماثل للسباق بين رجال الأعمال، فالموظف البيروقراطى هو مثل رجل الأعمال، فأر يهتم بنفسه، ولكن اهتمامه بنفسه يظهر بعدة طرق. رجل الأعمال يقاتل من أجل مضاعفة أرباحه، وبالطبع.. لا يستطيع الموظف مضاعفة أرباحه إلا عن طريق الرشوة. وبدلاً من ذلك.. فإنهم يحاولون مضاعفة مجموعة مختلفة من المتغيرات: الراتب، والعلاوات، والسلطة، والمركز، والفرص المتاحة بعد التقاعد،... وهكذا. كيف يقومون بمضاعفة ذلك ؟ عن طريق تضخيم الميزانية وحجم المكتب. ويصف نيسكانين المكاتب بأنها منظمات مضاعفة الميزانية. وقد تتوسع المكاتب أكبر بكثير من الحجم الأمثل، وعن طريق اعتصار دافع الضرائب، فزيادة النقود تعنى زيادة النفوذ، ولذلك لا يوجد لدى الموظفين حافز قوى لخفض النفقات؛ فالبيروقراطية البخيلة تؤدى لظهور موظفين بيروقراط دائمى التذمر.

وحتى لو تعهد الموظفون المنتخبون بتخفيض البيروقراطية.. فإنهم نادراً ما يعبئون الجهد لفعل ذلك. وقد وعد كل من جيمى كارتر ورونالد ريجان بتخفيض البيروقراطية، وكلاهما فشل، واستمرت جداول الرواتب الحكومية فى الارتفاع خلال حكومتيهما، وتعلما أن يتعاطفا مع القيصر الذى اعترف: «أنا لا أحكم روسيا، بل يحكمها عشرة آلاف موظف». وبالرغم من أن القائد السياسى يستطيع أن يأمر باتخاذ أعمال معينة، إلا أن البيروقراطية فقط هى التى تنفذها. وأحياناً تقوم البيروقراطية ـ بمهارة ـ برفض أو إعاقة أو تأخير التنفيذ، وهى تأمل أن يتقاعد القائد أو يخسر الانتخابات أو يموت، وعادة ما يكسب الموظفون الذين يرتدون الزى الرمادى.

وتواجه نظرية نيسكانين بعض المشاكل، فهو يجمع كل البيروقراطيين معاً بنفس الطريقة التى يجمع بها ماركس كل العمال معاً، كأنهم جميعا ذوو مصالح متشابكة طاغية، والأمر ليس كذلك، فبالإمكان رسم نموذج أكثر تعقيداً للبيروقراطية. وعلى كل حال، من الذى يحاسب باعتباره رئيس المكتب؟ وزير الدولة، رئيس مجلس الوزارء؟ هل يمكن أحياناً أن يكسبوا ميزة سياسية عن طريق تخفيض البيروقراطية؟ خلال أول فترة فى حكم ريجان.. حاول وزير الداخلية جيمس وات، James Watt، أن يلغى أقساماً من وزارته. وهناك قصة أخرى تتعلق بكاسبر واينبرجر، Caspar Weinberger، فأثناء حكم ريجان اكتسب لقب «كاب السكين» بسبب رقابته الصارمة على الصحة والتعليم والرفاهية. وفيما بعد، عندما أصبح وزيراً للدفاع فى عهد ريجان، تحول «كاب السكين» إلى «كاب المغرفة»، وحول البنتاجون إلى قافلة للكسب غير المشروع، ولم يستطع إيجاد الأدوات اللازمة لقطع الجيلى، فضلاً عن قطع ميزانية تبلغ تريليون دولار. ما الذى يفسر انقلاب واينبرجر؟ لماذا نجحت نظرية نيسكانين نصف الوقت فقط؟ ربما لأن واينبرجر اعتقد أن إحدى الوزارات كانت متضخمة، والأخرى يجب أن تتوسع لتحقيق أهداف الرئيس.

إن نموذج نيسكانين للبيروقراطية أكثر من نصف مطبوخ، ولكن يحتمل أن يحتاج لفترة أطول فى الفرن.

والآن.. دعونا نناقش نظريات الاختيار العام مع السياسيين المنتخبين.

علق أحد المهاجرين الروس ذات مرة قائلاً: «إن الكونجرس شئ غريب.. يقف الرجل ولا يقول أى شئ، ولا يستمع إليه أحد، ثم يقف الجميع ويرفضون». ويرى جيمس بوكانان عكس ذلك؛ فهو يرى تأييداً أكثر من اللازم فى الكونجرس، فالسياسيون يحبون أن يقفوا ويشجبوا عجز الميزانية، ويحبون أن يجلدوا بألسنتهم الحكومة بسبب التبذير والخداع وإساءة الاستعمال. فى الحملة الرئاسية للحرب

الديموقراطى عام ١٩٨٨ ، هاجم المحافظ مايكل دوكاكيس، Michael Dukakis، إدارة الضرائب لاستخدام أساليب خاطئة لتحصيل الضرائب، وهاجم جارى هارت، Gary Hart، البنتاجون المبذر، وشجب القس جيسى جاكسون، Jesse Jackson، الثغرات الضريبية المفتوحة للأثرياء. وعند بحث موضوع خفض عجز الميزانية، أحنوا رؤوسهم فى موافقة سعيدة.

فى نفس الوقت الذى شجب فيه السياسيون بالإجماع عجز الميزانية، صوتوا كلهم لصالح إنفاق مزيد من النقود على برامج «تضخم الميزانية». ومنذ عام ١٩٦٠ .. لم تستمتع الولايات المتحدة بميزانية متوازنة سوى مرتين، ويرى بوكانان أن بلاغة السياسيين تتعارض مع سجلات التصويت، فهم يتكلمون مثل رجال الدولة، ولكنهم يصوتون مثل أبناء عرس. ويقول البعض إن أهم عجز فى واشنطن، موجود على طول العمود الفقرى وبين آذان السياسيين، وعبر تيدى روزفلت، Teddy Roosevelt، عن ذلك: بإمكانك أن تنحت من الموز رجالا أصلب عوداً منهم.

ولا يذم بـوكانان السياسيين، رغم أنه يجيد ذلك، فهو يبحث عن القوى التى تضغط على السياسيين، وتجعلهم يتصرفون بنفاق. وفى الواقع .. فإن المشكلة ليست فى الأفراد أو فى الكونجرس، بل المشكلة فى النظام، فالنظام السياسى يتبنى عجز الميزانية، كما يدعى بـوكانان.

دعونا نبدأ بأن نتذكر درس كينز: أثناء فترات الرخاء.. يجب أن تصل الميزانية إلى فائض مع ارتفاع العمالة وإيرادات الضرائب. وأثناء الركود يحدث عجز فى الميزانية مع انخفاض العمالة وإيرادات الضرائب. وعلى طول الدورة الاقتصادية.. يجب أن تتوازن الميزانية، ويريد بـوكانان أن يعرف لماذا استمتعنا بفترات رخاء، دون أن نرى فائض الميزانية.

الإجابة بسيطة وتعود بنا إلى جيريمى بنتام: يريد السياسيون إرضاء ناخبيهم. والناس تحب السرور وتكره الألم، وبرامج الحكومة مبهجة، والضرائب مؤلمة. خمّن

ماذا يريد الناس من ممثليهم؟ إنفاقاً كبيراً وضرائب منخفضة، وهذا ما يظهر فى شكل عجز الميزانية.

دعونا نرد رداً سريعاً على بـوكانان: إذا كان عجز الميزانية الدائم يضر الاقتصاد، ألا يشعر الناس بالألم ويرغبون فى ميزانية متوازنة؟

يجيب بـوكانان بأن عجز الميزانية يؤذى، ولكن الألم غير مباشر ومنتشر. قارن الألم المباشر لفائض الميزانية مع الألم غير المباشر للعجز. فإذا بدأنا بميزانية متوازنة، ونريد خلق فائض.. فإنه يمكننا أن: ١ ـ نرفع الضرائب أو ٢ ـ نخفض النفقات. وكلتا السياستان تسبب ألماً مباشراً؛ فالضرائب المرتفعة عادة ما تخفض الاستهلاك الخاص. وتأتى أية منافع ـ على ضوء الاقتصاد السليم ـ فيما بعد، وتساعد بشكل غير مباشر ضحايا الضرائب العالية أو الإنفاق المنخفض، ويجب أن تتخيل الضحية كيف ستحصل على الفائدة فى المستقبل.

والآن نبحث عجز الميزانية: يمكننا خلق عجز فى الميزانية، عن طريق خفض الضرائب أو زيادة الإنفاق الحكومى. وكلتا السياستان تضعان الابتسامة على وجوه دافعى الضرائب والمستفيدين، فالعجز يسمح للناس بزيادة الإنفاق على أنفسهم نعم، رغم أنه قد يربك الاقتصادى، ولكن الآثار غير مباشرة: يجب أن يتخيل الناس المستقبل، ويسألوا عما إذا كان سيتأثرون[٥] به أم لا.

يعتمد شرح بـوكانان على أن الناس يسيئون الحكم على الآثار المستقبلية غير المباشرة، فكثير من الناس يتبعون البرت إينشتاين، الذى قال: «أنا لا أفكر أبداً فى المستقبل ـ فإنه يأتى مسرعاً بما فيه الكفاية». ويفضل بـوكانان لو أن الناس اتبعوا كلام أماندا وينجفيلد فى قصة تينيسى وليامز «معرض الوحوش الزجاجية»: «المستقبل يصبح حاضراً والحاضر يصبح ماضياً، والماضى يتحول إلى ندم دائم إذا لم تخطط له».

ونظراً لأن إنفاق العجز يتجاهل المستقبل.. فهو يؤذى الأجيال القادمة. وفى الواقع، يثير بـوكانان هنا سؤالاً أخلاقياً: ألا يشبه العجز ضرائب دون تمثيل نيابى؟ ويقوم النواب اليوم بزيادة رفاهية ناخبيهم فى الحاضر، عن طريق تعريض رفاهية أحفادهم للخطر. فالأشخاص الذين لم يولدوا بعد لا ينتخبون، مع أن كل طفل يولد وتولد معه أعباؤه المالية.

وتتلقى وجهة نظر بـوكانان فى الأجيال القادمة سندها القوى من مدرسة فكر التوقعات الرشيدة، التى سوف نناقشها فى الفصل القادم. ويجادل فلاسفة التوقعات الرشيدة ـ بشكل أساسى ـ بأن الناس يقدرون المستقبل بشكل صحيح، ويدرسون النتائج بصدر رحب. ومن ثم.. يمكن أن نتوقع أن تثير هذه المدرسة الفكرية الجديدة مزيداً من الجدل، يفوق الجدل الذى أثارته مدرسة الاختيار العام.

قام بعض رواد مدرسة الاختيار العام بتوسعة مدخل بـوكانان، وقرروا أن الساسة يعالجون الاقتصاد الشامل، بحيث يزيد من فرص إعادة انتخابهم. ويرى أنصار نظرية «الدورة السياسية» أنه خلال فترات الانتخاب.. يخفض السياسيون البطالة باستخدام سياسات تضخمية؛ فالتضخم سوف يأتى فيما بعد، ولكن بعد الانتخابات فقط. والركود سيعالج التضخم، والبطالة ستنخفض ثانية فى الوقت المناسب للانتخابات التالية. وبالرغم من أن كثيراً من الفلاسفة المحافظين سياسياً يتعاطفون مع هذه النظرية.. فإن أحد الشيوعيين البولنديين، ميشال كالسيكى، Michal Kalecki، كان أول من قدمها عام ١٩٤٣. واكتسبت هذه النظرية احتراما فى سنوات حكم نيكسون، عندما بدا أن الأدوات النقدية تتبع نتائج الاقتراع أكثر من اتباع السياسة العاقلة، ومع ذلك.. فإن الدراسات الأحدث تثير شكوكاً كثيرة. وكما سوف نرى فى الفصل التالى.. سارع فلاسفة التوقعات الرشيدة بالهجوم على هذه النظرية أيضاً.

ويتوسع إنتاج مدرسة الاختيار العام فى كل عام، والقضايا مثيرة: لماذا توقف عدد أعضاء الكونجرس عند ٤٣٥، بالرغم من أن التعداد فى تزايد مستمر؟ أى المناطق

الانتخابية تتلقى أغلب المنح الحكومية؟ كيف تؤثر المساهمات فى الحملات الانتخابية على البرامج السياسية؟

ينظر أغلب الاقتصاديين إلى مدرسة الاختيار العام بتشكك. ومع ذلك.. فإن حتى أقوى المعارضين يعترف بحقيقة أهم دروس المدرسة: لا تفترض أن الحكومة تتخذ خطوات متعقلة اقتصادياً فى مواجهة المعارضة السياسية ـ لقد أشارت كتب الاقتصاد ـ المكتوبة فى السنوات العشرين التالية للحرب العالمية الثانية ـ إلى عيوب السوق، مثل: الاحتكارات والتلوث، ثم قررت أن هذه العيوب يمكن علاجها أو تجنبها عن طريق إجـراءات حكومية، ثم وصفت كيف يمكن أن تتصرف الحكومة ـ نظرياً ـ لضمان الكفاءة. ويجبرنا فلاسفة الاختيار العام على التساؤل: هل تؤدى الحكومة فعلاً واجبها النظرى، أم أن الضغوط السياسية والحوافز سوف تفسد السيناريو المحكم؟ وكما أن السوق بها عيوب.. فإن الحكومة كذلك بها عيوب. ويجب أن نقارن النتائج الواقعية لاقتصاد السوق مع التوقع الواقعى لنتائج أعمال الحكومة. لقد قارنت الكتب ـ طويلاً ـ الرأى المعيب للاقتصاد الخاص مع رأى الحكومة «العالى» النظافة. وأخيراً.. يمكننا أن نقر بأن الشئ الوحيد «العالى» فى واشنطن يأتى من صوت «مترو الأنفاق»، وليس من مقر الحكومة..

لماذا لم يتوقع كينز نشأة مدرسة الاختيار العام؟

بالرغم من امتداد جذور مدرسة الاختيار العام إلى آدم سميث، وكنوت فيكسل، واقتصاديين آخرين من القرن التاسع عشر.. إلا أن المدرسة تعتبر إحدى ظواهر أواخر القرن العشرين. لماذا لم تثر شكوك الاقتصاديين الأوائل حول النظام السياسى؟ وعلى وجه الأخص، لماذا لم يحذرنا العبقرى كينز ـ وهو الذى طور فكرة التدخل الحكومى ـ من أخطاء الجهاز الحكومى؟ إما أن كينز كان ساذجاً سياسياً، أو أنه كان خبيثاً، وإما أنه طور ـ عن غير عمد ـ نظاماً خاطئاً، أو أنه علم وصمت. وبمراجعة النظر إلى كينز الرجل الذى تتنازعه القيم الفيكتورية والمجتمع الحديث..

يمكننا أن نفهم ـ بشكل أفضل ـ الشخصية الفريدة المنتمية للقرن العشرين لنظرية الاختيار العام.

وصفة كينز العلاجية للتدخل الحكومى

أوضح كينز ـ بإيجاز متقن ـ موقفه من الدور المناسب للحكومة: «ألا تدخل فى نشاطات يمارسها الأفراد بالفعل، ولكن تدخل فى النشاطات التى لم يمارسها أحد فى الوقت الحالى»، مثل: تطوير عمالة كاملة عن طريق زيادة الاستهلاك والاستثمار(٦). ولم يضمر كينز أى رغبة لتدمير الرأسمالية؛ إذ كان يعتقد أن ماركس لم يضف أى شئ للاقتصاد، وأضاف المشاكل فقط للسياسة. إلا أن كينز رأى عيوباً فى النظام الرأسمالى، يمكن إصلاحها بالتدخل الحكومى، وفى كراسته السياسية البحتة، والوطنية الخالصة عام ١٩٢٩ «هل يستطيع لويد جورج، Lloyd George، أن يفعلها؟» لقد حث كينز القطاع العام بشدة على تخفيف البطالة، وشجب رأى وزارة المالية، التى احتضنت آراء الكلاسيكيين المحدثين بأن الإنفاق الحكومى سيؤدى فقط إلى طرد الاستثمار الخاص بدلاً من خلق الوظائف. وقد وصف الاقتصادى الماركسى بول سويزى، Paul Sweezy، مدخل كينز بأنه «عادة معاملة الدولة على أنها مثل آلهة الخير والشر، يمكن الاستعانة بها عندما يقع اللاعبون الآدميون، الذين يتصرفون طبقاً لقواعد لعبة الرأسمالية، فى مشكلة يبدو ألا مفر منها»(٧).

كان كينز يعلم أن الحكم المسبق على «الحجم السليم» للحكومة هو أمر سخيف، وبالرغم من ذلك، قال إنه على الدول أن تقود الاستهلاك عن طريق ضرائب الدخل ومعدل الفائدة. وبحلول عام ١٩٢٥، أدرك كينز أن الدولة الحديثة سوف تحتاج إلى أنواع جديدة من الإدارات: «أعتقد أنه سيكون على الحكومة ـ فى المستقبل ـ أن تأخذ على عاتقها مهاماً كثيرة، كانت تتجنبها فى الماضى. وقد لا يصلح الوزراء وأعضاء البرلمان لهذه الأغراض»(٨) ويعتقد كينز أن

إدارات جديدة مسؤولة أمام البرلمان سوف تنفذ ـ أو على الأقل ـ تؤثر على ثلثى أو ثلاثة أرباع الاستثمار الكلى.

وقد وضع كينز أمام قرائه وجمهوره عدة تحذيرات. لقد ذكر هايك فى كتابه: «الطريق إلى العبودية» "The Road to Serfdom" أن التورط السياسى المتزايد فى الاقتصاد يؤدى فى النهاية إلى الاستبداد. ورد كينز عليه بعناد: «إننا بالتأكيد نريد المزيد» من التخطيط وليس أقل، «ولكن يجب أن يحدث التخطيط فى مجتمع يتشارك فيه أكبر قدر ممكن من الناس ـ قادة وأتباع ـ مشاركة كاملة فى القضية الأخلاقية»[٩]. وبالرغم من ذلك لم يشرح كينز ـ إلا قليلاً ـ كيف يعرف الشعب من هو صاحب القلب «الموجه توجهاً سليماً»، أو ما إذا كان الشعب يفضل الأنواع ذات التوجه السليم على من يعدونه بالمزيد من المنافع.

التأثيرات الثقافية والفكرية على كينز

هل تستطيع العوامل الثقافية والفكرية أن تبرر عدم الحرص لدى كينز؟ توضح لنا دراستنا السابقة لكينز نشأته الفيكتورية. ويشير روى هارود، Roy Harrod، الاقتصادى من أكسفورد، وأول من كتب عن حياة كينز، إلى «الرواسب القديمة لهارفى رود» منزل كينز فى كامبردج. وبالرغم من أن كينز كان يرفض أحياناً هذه الرواسب فى نفسه، إلا أنه ألصقها بالآخرين. ماهى؟ إنها تبدو مثل قسم الكشافة: الاقتصاد، والتصرفات الأخلاقية، والواجب العام، والانضباط. وكان كينز يعتقد أن أهل الفكر البريطانيين كانوا يتبعون هذه المعتقدات بشكل عام.

ومع ذلك، فبالنسبة لنفسه ولمجموعة من صفوة المفكرين فى كامبردج، تسمى الحواريين.. كانت الأخلاقيات القديمة قد جرحت جرحاً مميتاً على يد ج. إ. مور، G.E. Moore، فى كتابه «مبادئ الأخلاق» "Principia Ethica" . كان مور فيلسوفاً من كامبردج، أمدّ كينز ومجموعة مختارة من أصدقائه بذلك الدين الجديد الذى هاجم أرسطو بقسوة، والمسيح، وميل، وكانط. ويرى مور أن الخير الأعلى

هو حالة من الوعى، وليس تصرفاً معيناً. وفسر كينز كلام مور على أن الاستمتاع بالأشياء الجميلة وبالعلاقـات الإنسانية، يأخذ أولوية على التصرفات الأخلاقية التقليدية. واعترف كينز بأنهم أحطوا من قدر مور (من باب السخرية أن جوان روبنسون اتهمت أتباع كينز بأنهم حطوا من قدر كينز)، وقرر كينز أن «ما كنا نحصل عليه من مور لم يكن هو كل ما أعطانا إياه... لقد قبلنا دين مور... ونبذنا أخلاقياته». كذلك.. اعترف كينز أنه وأصدقاءه وجدوا صلة ضعيفة بين وجودهم فى حالة صفاء عقلى، و«عمل الخير». ويذكرنا موقفهم بذلك الكويكرز الذى يقال إنه حضر إلى الولايات المتحدة لعمل الخير، وانتهى به الأمر إلى تكوين ثروة. كان مذهب مور الزائف يبدو أرستقراطيا فكيف عرفوا أى حالات العقل هى الصافية؟ وإذا ثار أى خلاف.. كانوا يستنتجون عادة أن بعض الناس لديهم إحساس مرتفع بالعدالة، «تماما مثلما يستطيع البعض الحكم على النبيذ، ولا يستطيع البعض الآخر». هل يمكن أن تقيدهم القواعد العامة للأخلاق؟ لا. «نحن نتبرأ تماماً من الأخلاق الاعتيادية والمعتقدات، والحكمة التقليدية: لقد كنا.. لا أخلاقيين»(١٠).

إن ما سبق ربما يوضح الخطاب الذى كتبه كينز عام ١٩٠٥، كاشفاً فيه عن اهتمامه بالاقتصاد: «أريد أن أدير محطة قطار، أو أنظم احتكارا، أو على الأقل احتال على جمهور المستثمرين»(١١).

فى عام ١٩٣٨ كشف كينز أن «دينه» ـ رغم بعض الندم ـ كان «أقرب إلى الحقيقة» من أى دين آخر. والقضية ليست أن الدين جيد أو سيئ أو تحقير لمور، بل إن القضية الحقيقية هى: هل يناقض كينز نفسه باعتناقه ديناً، يثير حالات وعى ذاتية الاهتمام، مع الافتراض بأن الآخرين سوف يتعلقون ـ بحماقة ـ بالأخلاقيات المحتضرة التى هرب منها وهو سعيد؟ لقد كان كينز واحداً من اثنين: إما مؤمنا بحكم الصفوة الذين يفترضون أن الآخرين لا يرون الضوء، أو أنه ناقضاً لنفسه؟ كان كينز لا يجد مشكلة فى اعتبار نفسه من الصفوة، ومن يستطيع الاعتراض؟ وبغض النظر عما سبق.. قدم كينز أسباباً قليلة لافتراضه أن السياسيين وموظفى

الحكومة لا يعملون على زيادة حالة وعيهم على حساب الشعب، بنفس الطريقة التى يتبعها هو نفسه.

لماذا لم يهتم كينز بالسياسيين وموظفى الحكومة الهاربين، هناك سببان رئيسيان: أولا: يبدو أن كينز كان يؤمن برأى فيبر فى السياسة والبيروقراطية: إذا كان السياسيون غير ملتزمين بمبدأ «كانط» الأخلاقى المطلق (افعل الخير حتى لو سقطت السماء) فهم ملتزمون بأخلاقية المسؤولية؛ أى «الحكم على الأخلاق بالنتائج» (الخير العام هو القانون الأعلى). ولا يستطيع كينز أن يتجاهل نتائج إهمال الصالح العام لحساب المنفعة الخاصة. كذلك تبنى كينز رؤية فيبر بخصوص الموظفين البيروقراط الذين يتبعون الأوامر بإخلاص ونزاهة. يقول فيبر «إن شرف الموظف الحكومى يكمن فى مقدرته على تنفيذ أوامر السلطات العليا بضمير، تماماً كما لوكان الأمر يتفق مع اقتناعه»(١٢). ويقول فيبر إن هذا بالطبع نموذج مثالى، وأن مثل هذا النقاء لا يحتمل وجوده فى الواقع. وبالرغم من ذلك.. كان كينز يفترض عادة أنه يتعامل مع النماذج المثالية.

ثانيا: تشبع كينز برواسب هارفى رود، التى تقول إن الحكومة ستحكمها الأرستقراطية الفكرية التى تسمو فوق المصالح الذاتية البحتة، وبدلا من ذلك.. تشتبك فى مناظرات راقية حول فرض القضايا الاجتماعية (حول نبيذ العنب ولاشك!). كانت اتصالات كينز مع موظفى الحكومة ومديرى بنك إنجلترا وقادة المؤسسات البريطانية البارزة، تشبه اجتماعات الخريجين فى كامبردج وأكسفورد. وبالرغم من أن هؤلاء المندوبين قد يكونوا من جماعة الحواريين.. إلا أنهم كانوا خطباء بارعين لقضية الصالح العام. لا عجب إذن أن يدعى كينز فى النظرية العامة أن «قضية المصالح الكامنة مبالغ فيها كثيراً، بالمقارنة مع الانتهاك التدريجى للأفكار»(١٣). ولكن كينز لم يسأل أبداً السؤال التقليدى: من يحرس الحراس؟ ولم يسأل كذلك ما إذا كانت كامبردج وأكسفورد ستخرج ما يكفى من الحواريين

ورجال الدين أو غلمان التراتيل؛ لملء الوظائف التى يتخيلها، وينشـرون ـ بإخلاص ـ بشارة الخـلاص كلما توسعت الحكومة.

ربما كانت انطباعات كينز عن الحكومة صائبة، آخذين فى الاعتبار فترة خدمته بالحكومة قبل الحرب العالمية الثانية. فإذا كان الأمر كذلك.. فإننا سنوجه إليه اللوم فقط على عدم التنبؤ بأن موظفى الحكومة سوف يتصرفون بأنانية. لقد شاهد كينز عديداً من الحالات، التى رفض فيها موظفو الحكومة أن يتصرفوا بطريقة نفعية، سياسياً. ومرة بعد أخرى شاهد موظفى الحكومة يلتزمون بالمعتقدات القديمة، ويرفضون المناصب الجديدة الجذابة. وفى عام ١٩٢٥ ، عادت الحكومة البريطانية ـ على حساب البطالة ـ إلى سعر التعادل الذهبى الذى كان سائدا قبل ١٩١٤ ، وبعد عدة سنوات شجب كينز الحكومة لرفضها زيادة الإنفاق العام. لماذا قاومت الحكومة؟ بالتأكيد لم يكن السبب هو أن البطالة العالية جعلتهم أكثر شعبية أو أكثر قوة أو أكثر ثراء؛ فقد اعتقد كينز أن لديهم أسباباً جيدة، ولكنها لن تخرج عن كونها معتقدات اقتصادية خاطئة. لقد آمن القادة السياسيون ـ بشكل أساسى ـ بمبدأ الحرية الاقتصادية الذى تعلموه، وكانت أكبر العقبات هى العناد والجمود، وليس الطموح المفرط. وقد اتهم كينز ـ فى خطاباته ومقالاته المكتوبة، فى وسط فترة الكساد العظيم ـ الوزراء بالتشبث بالحدود القصوى والشعارات القديمة التى ترجع إلى ماقبل الحرب العالمية الأولى. ففى طريق النمو الاقتصادى « لا يقف إلا بضعة رجال مسنين فى معاطفهم المزررة، ويحتاجون فقط إلى أن يعاملوا بقليل من عدم الاحترام الودود، وأن يطرحوا أرضاً مثل الزجاجات الخشبية» (فى لعبة البولينج) . كذلك عرقلت إدارة الخدمة المدنية مسيرة التقدم، وأعلن كينز أن موظفى الحكومة أهم من الوزراء بالنسبة للتصرفات البناءة. وفى الواقع، «القليل فقط ـ مما يستحق العمل ـ يمكن عمله دون مساعدتهم ونواياهم الطيبة.. واليوم تقع إدارة الخدمة المدنية تحت سيطرة مدرسة وزارة المالية، ويتم تدريب الموظفين بالتقاليد والخبرة والمهارة الوطنية على كافة أشكال الإعاقة الذكية.. فهم يقيدون الطاقة،

ويفسدون أو يشتتون أفكارنا». وهنا تبدو كوابيس العبودية لدى هايك وبوكانان سخيفة بالنسبة لكينز، لأن الوزراء والموظفين « يقضون أوقاتهم - ليس فى إعداد الأغلال لنا - بل فى إيجاد أسباب مقبولة لكى لا يفعلوا شيئاً مما يطلبه الرأى العام بإلحاح»[١٤].

وبذلك.. يرى كينز أن موظفى الحكومة يتجنبون - عمداً - الفرص المتاحة لزيادة قوتهم، ومضاعفة الأصوات عن طريق الإنفاق العام. ولم يحاول أبداً أن يحذرنا من الضرر القادم فى المستقبل، إلا عندما أعلن - بشكل هزلى - أنه بمجرد ما أن يترك الرجال ذوو السترات الطويلة وضع حرية الاقتصاد الميت عديم الفائدة، فإن «من المحتمل أن يتمتعوا بحياتهم.. بعد أن يتغلبوا على الصدمة»[١٥]. ويصرح أنصار الاختيار العام أن الموظفين أحبوها أزيد من اللازم، وفى أحوال أخرى، أكثر كثيراً من اللازم.

كذلك.. عرض كينز نشأته الأكاديمية مع إيمانه الشديد بالتفكير المتروى الرشيد. وإذا اختلف معه أعداؤه السياسيون والأكاديميون.. فإنهم ولا شك يفكرون بشكل خاطئ، وبإمكانه تغيير تفكيرهم عن طريق الإقناع. وأقر كينز أن إيمانه كان مبالغاً فيه، وأن اللوم يقع على تأثير مور. ثم اعترف كينز قائلاً «لقد أسأنا فهم الطبيعة البشرية تماماً، بما فى ذلك طبيعتنا نحن. والتعقل الذى نعزوه إلى طبيعتنا قادنا إلى السطحية، ليس فقط فى الحكم على الأمور، بل فى الإحساس أيضاً.. من الناحية الفكرية، كنا من الجيل السابق لفرويد.. ولا أزال أعانى بشكل مزمن من إرجاع فضل التعقل غير الحقيقى إلى شعور وسلوك أشخاص آخرين (وشعورى وسلوكى أنا أيضاً)»[١٦]. (بالرغم من أنه بالمقارنة مع نظريات التوقعات الرشيدة المعاصرة، يبدو كينز مثل الكاهن الهندوسى!).

ونظراً لأن كينز افترض عادة الدوافع النبيلة والتعقل.. فقد كان يرجع السياسة الرديئة دائما إلى المنطق الردئ (أو على الأقل إلى العادات المبنية على المنطق الردئ،

كما فى حالة «الرجل العجوز»). وتمتلئ الأعمال المجمعة لكينز بخطابات، تتهم الموظفين بتطبيق برامج غبية غير منطقية، ولكنهم لا يقومون أبداً بتصرفات أنانية أو فاسدة. وأطلق على السلام الصارم المفروض على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى «عملاً خطيراً من أعمال الحماقة السياسية». وعندما استعاد وزير الخزانة للجنيه الإسترلينى قيمته الذهبية السابقة، سأل كينز لماذا يفعل تشرشل «شيئاً سخيفاً مثل هذا»، وألقى اللوم على الخبراء المضلِّلين. وفى عام ١٩٢٨ .. أرسل كينز إلى تشرشل رسالة خطية بليغة، مرفقة بمقال:

سيدى وزير الخزانة:

ياله من قانون غبى للنقد، ذلك الذى أصدرته! وردَّ عليه تشرشل بلباقة أنه سوف يدرس مقالة كينز المرفقة[١٧] .

وفى بعض الأحيان كان كينز يسخط على الموظفين، الذين لا يحسنون الاستنتاج. وفى هذه المناسبات كان يتهم معارضيه بالجنـون، أو يتحسس طريقه باحثاً ــ بيأس ــ عن مبررات منطقية، ومع ذلك لم يكن يناقش الدوافع. وفى ١٩١١ كتب إلى صديقه دونكان جرانت، Duncan Grant: «أعتقد أنك لم تختلط أبداً مع السياسيين عن قرب ــ إنهم فظيعون... إن غباءهم غير آدمى»[١٨] .

إلى جانب إيمان كينز بالمنهج المنطقى.. فقد كان يؤمن بقوة الإقناع. وكانت القاعدة الذهبية لإيمانه تتركز فى قدرته على الإقناع أكثر من أى شخص آخر. وأثبتت هذه القاعدة الذهبية صحتها مرارا، فبداية من عشرينيات هذا القرن.. أرسل كينز سيلاً من الرسائل إلى رؤساء تحرير الصحف والمجلات، مثل «مانشيستر جارديان» و «نيشن»، و«ذى تايمز أوف لندن». ويقول ليونيل روبنز، Lionel Robbins، من مدرسة لندن للاقتصاد، أن كينز كان يرد على الموضوع الخادع بإزالة التعريفة المؤقتة بأنه: «أنا لم أتكلم أبداً ــ حتى الآن ــ فى هذه المشكلة»[١٩] ويخبرنا هايك تكراراً عن مقابلة حدثت قبل وفاة كينز بعدة أسابيع عام ١٩٤٦، حيث أكد كينز له أنه لو أصبحت نظرياته الموضوعة عام ١٩٣٠ ــ ضارة، فإنه

سيقوم بسرعة بتغيير الرأى العام. وطبقا لرواية هايك، اعتقد كينز أنه «يستطيع أن يلعب على الرأى العام، مثلما يلعب عازف الكمان على آلته»[٢٠]. كذلك فكر كينز جيداً فى افتراضه المبالغ فيه عن التعقل الآدمى وعن «التعبير الصغير ـ ولكنه بالغ السخافة...، وهو الدافع إلى الاعتراض.. كتابة خطاب إلى جريدة التايمز، والدعوة إلى اجتماع فى جيلدهول، والاشتراك فى أحد صناديق التمويل.. أنا أتصرف كما لو كانت هناك ـ حقيقة ـ سلطة ما، أو قاعدة ما، أستطيع أن أنجح فى اللجوء إليها، عندما أصيح بأعلى صوتى ـ ربما كان ذلك ذرة إيمان، موروثة، فى مدى فعالية الصلاة»[٢١].

الخلاصة، لقد أقنعت التجربة والنفوذ كينز أن السياسيين وموظفى الحكومة ـ بالرغم من عنادهم أحياناً وغبائهم عادة ـ يعملون للصالح العام كما يفهمونه. علاوة على ذلك.. فإنهم يخطئون من ناحية التراخى فى العمل. وأخيراً، وبالرغم من أن الجمهور أحمق.. إلا أنه متفتح العقل، ويمكن إقناعه بالوضع السليم. لقد أبعدت هذه المبادئ كينز عن قواعد الاختيار العام، ولكن إذا لم تكن التأثيرات الفكرية والثقافية تأثيرات حتمية.. فإننا نعتبر كينز مسؤولاً عن قبولها قبولاً شاملاً.

يد السياسة الخفية

لم يبحث كينز دوافع السياسيين وموظفى الحكومة، ربما لأنه اعتنق فكرة يد السياسة الخفية، التى تضمن التقاء المصالح الخاصة السياسية مع الصالح العام؛ فمثلاً قد يؤيد السياسى تطبيق سياسة «س» لسبب واحد فقط، هو أنها شعبية، وتضاعف الأصوات. لكنها قد تكون شعبية لأن الجمهور يدرك تماماً أنها مرغوبة، وبذلك يحصل الشعب على ما يريد، وما يريده هو شئ جيد. ويحصل السياسى على مايريد، بالرغم من أن اهتمامه ضعيف بالعمل الذى أنجزه.

ربما كانت فكرة يد السياسة الخفية قابلة للتطبيق، فى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، فإذا كان الأمر كذلك.. فإن سذاجة كينز السياسية كانت ستصبح

غير ذات موضوع، لأن الحكومة سوف تهزأ بالصالح العام، من قبيل الاقتناع (كما في حالة رأى وزارة المالية)، وليس من قبيل الجشع أو الفساد؛ فالجشع سوف يقود الموظفين إلى السياسة السليمة، أو على الأقل السياسة الشعبية. لقد قام ميكيافيللى، Machiavelli ـ الذى يعتبره ليو شتراوس، Leo Strauss أول فيلسوف سياسى حديث ـ بوضع تعريف جديد لمصطلح «الفضيلة»، ففى حين كانت الفضيلة ـ لدى الفلاسفة المدرسين فى العصور الوسطى ـ تعنى الكمال الأخلاقى.. فإنها عند ميكيافيللى تضمنت حب الفنون، والكمال فى تحقيق مجموعة من الأهداف ـ بغض النظر عن العدالة والشهامة... إلخ[٢٢].

إن الصورة الى رسمها كينز للملك جورج وكليمونصو والرئيس ويلسون فى مؤتمر سلام فرساى، تثير قضية يد السياسة الخفية. فقليل من الكتب صور بهذا الموضوع تلك الشخصيات المتنوعة. وفى رأى كينز أن العالم أرسل إلى مؤتمر القمة هذا اثنين من هواة الفن، وشخصاً واحداً فاضلاً، كان كليمونصو هو «الأرقى فى حب الجمال»، والأكثر تصميماً على فرض سلام قاسٍ. أما الملك جورج، أذكاهم فكرياً، فقد كان مثل «ساحرة ويلز» نصف إنسان وله أقدام ماعز «زائر إلى زماننا من غابات السلت الأثرية المسكونة بالسحرة والجنيات الشريرة»، وكان الرئيس ويلسون «عضو الكنيسة المشيخية العجوز المشوش الذهن» إلا أنه كان الأنبل أخلاقياً. وبالرغم من هذا التناقض الصارخ.. كان كل شخص فى هذه المسرحية تحفزه مصلحته القومية، كما يوضحها شعبه. كان كليمونصو يريد تحطيم قدرة ألمانيا على التفوق مرة أخرى على فرنسا، وكان الملك جورج يريد أن يحدث انطباعاً مؤثراً على الشعب الإنجليزى عن طريق فرض شروط صارمة، وكان ويلسون يريد تحقيق سلام شهم، وهو ما كان مرغوباً بشدة فى الولايات المتحدة. ولسوء الحظ، تمكن هواة الفن جورج وكليمونصو من إقناع ويلسون بأن السلام القاسى لم يكن قاسياً بل كان شهماً. ويقول كينز ؛ وفى النهاية.. أدرك جورج أن الخطة كانت قاسية أكثر من اللازم، لكن «عدم خداع المشيخى العجوز كان أصعب من خداعه... »[٢٣]. وبالرغم من أن كلا منهم جاء إلى الاجتماع بدوافع مختلفة تماماً.. إلا أن

كليمونصو وجورج قادتهم يد السياسية الخفية لخدمة مصالحهم القومية، كما يحددها شعوبهم. وهذا ما كان سيفعله المشيخى العجوز على أية حال.

ومع ذلك.. فإنه إذا ارتخت قبضة يد السياسة الخفية.. فإن سذاجة كينز السياسية تبدو فى النهاية مهلكة، ويلام لعدم توقعه تلك السقطة المميتة. لماذا؟ لأن القوى النظامية العادية تكمن خلف هذه السقطة، فهى ليست مجرد عمل شيطانى فظيع.

لماذا تختلف المصلحة الذاتية السياسية عن المصلحة العامة؟ مع توسع الحكومة فى العمليات الجزئية عن طريق التنظيم والإعانات والمنح.. ترتفع نفقات الإعلام، ليس فقط لدى الحكومة، بل أيضاً لدى الجمهور؛ أى إن الجمهور الذى يريد الحصول على معلومات عن الإنفاق العام والسياسة العامة، يجب أن يستثمر مزيداً من الوقت والجهد لجمع المعلومات، إذاً سيكون هذا الاستثمار ـ بالنسبة لأغلب المواطنين ـ غير رشيد اقتصادياً؛ لأن نفقات الإعلام تفوق منفعته بالنسبة لهم. فقد يقضى الشخص يوماً كاملاً يتحرى المعلومات عن برنامج، يمنح مليون دولار لمائة شخص، ولكن قيمة استبعاد أو زيادة البرنامج بالنسبة لكل شخص، قد تكون نفس قيمة كيس من شرائح البطاطس. والمواطن الذى ليس ضمن المائة شخص، ولا يستعلم عن البرنامج ربما يكون جاهلاً رشيداً. وبذلك.. فإن الاتجاه التوسعى الحكومى هو اتجاه نحو فصل الأعمال السياسية عن معرفة الجمهور، ويستطيع الموظفون أن يفعلوا أكثر من ذلك ـ خيراً وشراً ـ دون أن يعرف الجمهور. إن مثل هذه الأعمال تسقط من بين أصابع يد السياسة الخفية.

إن حكومة الولايات المتحدة مسئولة عن حوالى ٢٥٪ من الناتج القومى الإجمالى. وزيادة على ذلك.. فإن الوكالات والتنظيم الفيدرالى تخترق المجتمع. ونظراً لوجود هذا العدد من الجماعات المتصلة بالحكومة الفيدرالية.. فإن نفقات استغلال النظام السياسى قد تضخمت؛ إذ لا يحتاج أحد لأن يعتلى صندوقاً، ويقنع أغلبية المواطنين أو الهيئة التشريعية بأن يتصرفوا؛ فاللقاء الاجتماعى مع وجود

بعض مندوبى الحكومة سوف يفى بالغرض.كذلك.. فإن المقصورة ذات المقاعد الأربعة فى إستاد «اليانكى»، أكثر فائدة من الصندوق فى سنترال بارك.

لقد كان من المفروض أن تقوم المراجعات والموازنات بين فروع الحكومة وجماعات المصالح بمنع تجار النفوذ. ويقول جيمس ماديسون. James Madison، فى تقريره الفيدرالى رقم ١٠، أن الدستور يجب أن يجعل استغلال النظام السياسى لغرض الربح الاقتصادى، عملاً غير مربح للأحزاب، ولكن قوة السلطة الفيدرالية المنتشرة أضعفت خطة ماديسون.

وفى عالمنا المعقد.. تفقد يد السياسة الخفية قبضتها، فالديموقراطية ليست نظيراً سياسياً محدداً للسوق الاقتصادى الحر. ويذكر كينيث أرو، Kenneth Arrow، ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ أن التصويت لصالح مرشح ما ليس معادلاً لشراء منتج، والاقتصاديون لا يستطيعون تصميم نظام سياسى منطقى يعكس السوق(٢٤). وفى النظام الديمقراطى.. لا يشترى الناخبون سلعة معينة مثل فرن المايكروويف، بل يشترون صفقة ـ مرشح يأملون فى أن يصوت مثلما يفعلون. وفى الحقيقة.. فإن المرشح ليس متأكداً مما سيحصل عليه؛ إذ إن الديمقراطية تقف فى مكان ما بين السوبر ماركت وكيس التسوق.

وقد أدى تأييد كينز لزيادة كبيرة فى الإنفاق العام والدخل، إلى إضعاف قبضة يد السياسة الخفية، مما يكشف خطورة الثقة فى دوافع السياسيين. ففى زمن كينز.. ساعدت المعرفة العامة والقواعد السائدة على تقوية الدوافع الطيبة لدى موظفى الحكومة. ولو أن كينز تخيل وجود أية إشارات على الفساد السياسى.. فإن ذلك كان سيتم خلال عملية الحملة الانتخابية؛ حيث تكون الحكومة مجبرة على الرد على اتهامات المعارضة، وهذه إشارة لها معنى بالتأكيد. وعلى الرغم من ذلك.. فإن هذه الإشارة تتجاهل قوة موظفى الحكومة، غير المنتخبين على توسعة نفوذهم؛ بغض النظر عن النظام الحاكم المنتخب، وبالإضافة إلى أن الهجوم على البرامج الصغيرة (العاملة بنظام نصيب الفرد) قد لا يصلح كشعار جذاب للحملة الانتخابية.

وللحملة الهجومية ضد كينز ـ النابعة من افتراضه الضمنى بوجود يد السياسة الخفية ـ أبعاد نابعة من الاقتصاد الجزئى وأخرى من الاقتصاد الكلى. فمن جهة الاقتصاد الجزئى.. يستطيع الموظفون تمويل برامج الإنفاق، وتنظيم الإنفاق لصالح المصالح الخاصة السياسية، عندما تكون نفقات الإعلام ـ بالنسبة للناخبين ـ عالية بالمقارنة مع المنفعة الناتجة، وهذه النفقات ترتفع مع توسع عمليات الحكومة. وعلاوة على ذلك.. يقوم الناس بخصم فوائد الحصول على المعلومات عن عمليات الحكومة، طالما لا يرون ضرراً من التأثيرات غير المباشرة لعمليات الاقتصاد الجزئى بين الحكومة والآخرين. ومن جهة الاقتصاد الكلى.. ستنحاز المالية العامة نحو الضرائب المنخفضة والإنفاق الحكومى المرتفع، ومرة أخرى، إلى أن يقيم الناخبون النفقات غير المباشرة ومنافع السياسة النقدية والضريبية بأقل من قيمتها. وربما تكون المناقشة أقوى بالنسبة لمساوئ الاقتصاد الجزئى؛ لأنها تعتمد أكثر على الجهل الرشيد، أكثر من اللاعقلانية أو الوهم.

الحكم على كينز

إذا كانت نظرية الاختيار العام صحيحة.. فإن كينز كان ساذجاً من الناحية السياسية.، وحتى لو كانت نظرية الاختيار العام صحيحة جزئياً.. فإن كينز لا يزال عديم الإحساس بالنسبة للقضايا المثارة. وحتى هارود المعجب بكينز، سلم بذلك.. إلا أنه ـ استناداً إلى تجارب كينز مع إدارة الخدمة المدنية البريطانية، والقرائن التاريخية ـ نستطيع أن نلومه فقط على عدم توقع الفساد السياسى فى برنامجه. وعلاوة على ذلك.. يجب أن يفصل نقاد كينز ـ بحرص ـ الانتقاد السياسى وانتقاد نظرية الاختيار العام عن انتقاد نظريته السياسية. إن السخط على الساسة وعدم الثقة بهم، ليس إثباتاً ناجماً عن خطأ اقتصاديات كينز، وسيكون ذلك بمثابة إنكار أن الماء يطفئ النار؛ لأن رجال الإطفاء كسالى لا يريدون ترك لعبة الأسهم. والدليل على صحة اقتصاديات كينز، أنه أعطانا الماء اللازم لإطفاء النيران، ولكن كان يجب عليه أن يعطينا بعض الإنذارات المعينة.

الفصل الثانى عشر

العالم الوحشى للتوقعات الرشيدة

هل أنت مستعد لتلقى نظرية حمقاء فعلاً؟ ما رأيك فى نظرية لا تؤمن بالبطالة الاختيارية؟ ما رأيك فى نظرية تطور لعبة رمى الأسهم، كوسيلة لاختيار الأسهم والسندات؟ مارأيك فى نظرية لاتصدق أن الحكومة يمكن أن تؤذى أو تساعد الاقتصاد كثيراً؟ يالها من نهاية غريبة لدراستنا للتاريخ الاقتصادى! لقد بدأنا بالتجاريين الذين قالوا إن الحكومة تساعد الاقتصاد بشكل عام، ثم أنصار سميث الذين قالوا إن الحكومة مؤذية. وقال أنصار كينز إن الحكومة تساعد الاقتصاد. أما خبراء النقد فقالوا إن الحكومة يمكنها أن تساعد، ولكنها أحياناً تؤذى الاقتصاد. وقال اقتصاديو الاختيار العام إن الحكومة عادة ماتؤذى الاقتصاد. والآن يضحك اقتصاديو التوقعات الرشيدة (أو الكلاسيكية الحديثة) من كل السابقين، ويدعون أن التدخل الحكومى هو وهم، مثل خدع السحرة، لا يستطيع تغيير الحقيقة كثيراً.

للوصول إلى هذا الاستنتاج المذهل.. يتبع اقتصاديو الكلاسيكية الحديثة منطقاً خادعاً. ومع ذلك.. فإنه لديهم فى النهاية نموذجاً دقيقاً، يستحق الإعجاب نظراً لجمال نظريته. ومع ذلك.. ينظر النقاد باحتقار إلى النموذج النقى ـ لكن غير الواقعى ـ الذى يصلح لمعارض الفنون، أكثر مما يصلح لمجلس مستشارى الاقتصاد.

إن حماة الاقتصاديين ـ أنصار توبين، Tobin، وموديليانى وصامويلسون وفريدمان ـ يجدون أن إنجازاتهم طوال حياتهم، قد قللت من شأن هؤلاء القادمين الجدد،

الذين ترجع أصولهم إلى دراسة قام بها جون موث، John Muth، عام ١٩٦١. لقد جذبت حركة التوقعات الرشيدة الشابة نسبة كبيرة من العلماء الشبان، الذين جذبتهم دقتها الرياضية وفرص الاكتشافات الجديدة. ويخشى أنصار كينز القدامى من أن يسبقهم العلماء الجدد، كما تفوقوا هم منذ خمسين عاماً على معلميهم الكلاسيكيين، الذين رفضوا اتباع كينز. والتحدى الذى يواجه الاقتصاديات السائدة، هو البحث داخل نظرية التوقعات الحديثة عن أجزاء من الحقيقة، ثم إضافتها إلى النظرية السائدة.

دعونا نرى لماذا لا يرفض أحد نظرية التوقعات الرشيدة رفضاً تاماً. إن أول مبادئ النظرية يقرر أن كافة الأسواق تتوازن، ويعنى ذلك أن الأسعار تتوافق مع بعضها دائما؛ للتخلص من أى فائض أو نقص. ولا يمكن حدوث تكدس.. فإذا أنتج السمك الكثير من الكافيار، سينخفض السعر، وإذا انخفض الطلب على العمال، تتدهور الأجور. إن أغلب الاقتصاديين يوافقون على أن الأسواق ـ فى النهاية ـ تصبح متوازنة، ولكن خبراء النقديين والكينزيين يسمحون بفترة انتقال أطول، ويشير الكينزيون إلى وجود «أجور جامدة»، وإلى وجود فترات تباطؤ فى انتقال السياسة النقدية، ويرد المغرورين الصغار: هراء.

ثانيا: يؤكد أنصار النظرية أن الناس يدرسون كافة المعلومات المتاحة عند اتخاذ قراراتهم الاقتصادية، ويجددون باستمرار نماذجهم أو توقعاتهم الاقتصادية. دعونا نقارن بين التوقعات المكيفة القديمة والتوقعات الرشيدة: عندما يتصرف الناس بطريقة التكيف.. فهم ينظرون إلى سلوك المتغيرات فى الماضى، ويعدلون ـ تدريجياً فقط ـ فى وجهة نظرهم، فإذا ارتفعت الأسعار ٦٪ سنويا خلال السنوات القليلة الماضية، إلا أنها ارتفعت ١٠٪ هذه السنة.. فسوف يتوقع الناس ارتفاع الأسعار بنسبة ٧٪ العام القادم، وذلك فى ظل نموذج التكيف، وهذا ما يؤكد بشدة أهمية البيانات السابقة؛ إذ إنهم ينتظرون إلى أن تضربهم الخبرة على رؤوسهم، بدلا

من تغيير توقعاتهم على أساس من المعلومات الجديدة. ماذا يحدث لو سمع الناس أن الحكومة الفيدرالية قد حررت الموارد المالية والإنفاق المالى ضمن سياسة توسعية ضخمة؟ ففى ظل التوقعات المكيفة.. لن يغير الناس توقعاتهم إلى أن يشاهدوا أدلة قوية.

نفترض أن الشخصية الكارتونية كويوت (الذئب) يقف على ناصية شارع هوليود منتظراً الحافلة للعودة إلى المنزل. لقد تعلم من التجربة السابقة أن يبتعد خطوتين عن موقف الحافلة فى الخامسة والنصف مساء كل يوم؛ لأنه فى نفس الوقت يومياً يسقط ـ بالصدفة ـ «سندان» زنة خمسة أطنان من الطابق الخمسين، من سطح شركة «القمة لصناعة السندان». وفى أحد الأيام انتظر كويوت عند الناصية، وسقط السندان متأخراً خمسة عشر دقيقة، وحطمه فى الساعة ٥,٤٥. فإذا كانت لدى كويوت توقعات مكيفة، ماذا كان سيفعل فى اليوم التالى فى الساعة ٥,٤٥؟ سيقف فى موقف الحافلة، لأنه يعلم أن السندان نادراً ما يسقط الساعة ٥,٤٥، ومن ثم.. سوف يتحطم ثانية. وأخيراً.. وبعد أسبوع من التحطيم (وهذا يحدث فقط فى أفلام الكارتون)، قد يستوعب الفكرة بأن جدول العمل فى الشركة قد تغير.

وماذا يحدث لو أن توقعات كويوت كانت رشيدة؟ بعد أول ضربة، سيذهب إلى شركة السندان، ويستكشف الأمر، ثم يعيد صياغة جدوله، وينسى البيانات السابقة إذا ظهرت معلومات جديدة تلغيها.

وإذا كانت لدى الناس توقعات رشيدة.. فلن يقعوا فى أخطاء متكررة. قد ينخدعوا أو يُفاجَئوا مرة، ولكنهم سيعملون على منع تكرار الخطأ. وكما يقول سكوتى، المهندس فى مسلسل «ستار ترك»: «إذا خدعتنى مرة، فهذا عار عليك، وإذا خدعتنى ثانية، فهذا عار علىّ».

الاقتراع بالأسهم على الوسطاء

يقدم سوق الأوراق المالية أكثر الأدلة إقناعاً على صحة التوقعات الرشيدة؛ حيث يقرر الاقتصاديون الأكاديميون أن سوق الأوراق المالية يمتص المعلومات على الفور، تقريباً. وبتعبير آخر.. بمجرد أن تشبع المعلومات.. فإن أسعار الأسهم تعكسها فوراً. فإذا قرأت فى جريدة الأمس أن شركة «سيرز» تتوقع عاماً طيباً.. فأنت قد تأخرت عن الاستفادة من هذه المعلومات،وسيكون سهم الشركة قد ارتفع على الفور، على أساس توقعات السنة القادمة، وأصبحت المعلومات المتوفرة للجميع عديمة الفائدة. ثمة مثال آخر.. لنفترض أنك لاحظت ـ بذكاء ـ أن ملايين الطلاب تندفع أفواجاً من بوسطن إلى نيويورك، قبل عيد الشكر مباشرة، ثم اكتشفت أن شركة طيران «كيدى»، تنقل هؤلاء الطلاب ـ ستقوم أنت فى سبتمبر ـ قبل شهرين من عيد الشكر ـ بشراء أسهم شركة «كيدى»، متوقعاً أن يرتفع سعرها عالياً فى نوفمبر، وهذه خطوة غبية. إن أسعار أسهم «كيدى» تعكس بالفعل الأسعار المتوقعة خلال عيد الشكر، والجميع يعلم أن «عيد الشكر» هو فرصة طيبة لشركة «كيدى»، والأسعار مبنية على الأرباح والعوائد المتوقعة، وليست على البيانات المالية السارية.

لو كان هذا النموذج ـ «ويسمى فرضية السوق الكفء» ـ صحيحاً.. فلا يمكنك أن تهزم متوسط العائد على الأسهم عن طريق تتبع الشركات بدقة، أو أن تقرأ العوائد المالية أو أن تتابع تحركات السعر. فالسوق يقوم بالفعل بتقدير العوائد المستقبلية بكفاءة.، فلا يمكن أن تكون الأسهم مقومة بأعلى أو أقل من سعرها الحقيقى (ما لم يكن الجميع يجهلون بعض خصائص الشركة، أو هناك معلومات محجوبة) . ويصبح سعر السوق معبوداً لايخطئ، إلى أن تظهر معلومات جديدة تبرر سعراً جديداً (بالرغم من ذلك يشير انهيار سوق الأسهم فى أكتوبر ١٩٨٧ إلى أن الغريزة الحيوانية البدائية، لا تزال كامنة أسفل القمصان البيضاء المجعدة لتجار الأسهم) .

وربما تفعل نفس الشئ باختيارك الأوراق المالية، عن طريق إلقاء وسيط أسهم على لوحة الأسهم، وذلك لسماع نصيحته ـ وسوف توفر نقوداً. وهذه خطة متفقة مع فرضية السوق الكفء، لكى تتصرف مثل أشهر مستشارى الأوراق المالية : ضع صحنين من طعام الكلاب أمام كلبك ـ أحدها مكتوب عليه اسم "IBM"، والثانى مكتوب عليه اسم «موبيل». والآن.. قم بشراء أسهم الشركة التى يختار كلبك أن يذهب إليها. فإذا لم يكن الكلب جائعاً، ضع نقودك فى صندوق السندات المشترك.

يكثر عديد من الوسطاء ووكلاء الدعاية من الكلام عن توقعاتهم، ولكن بالدراسة الواعية، لانجد سبباً لتصديقهم[1]. بالتأكيد قد يتمتع البعض بضربات حظ، ولكن مقامرى لاس فيجاس أحياناً ما يربحون مبالغ كبيرة أيضاً، ولا نقصد أن الوسطاء عادة مايخسرون نقوداً، بل نقصد أنهم لا يتفوقون على العائد المتوسط دائما. وحتى لو اكتشف أحد عباقرة المحللين طريقة رابحة لتفسير البيانات، سيتبعه الآخرون، وتصبح الطريقة قديمة. إذن لماذا تدفع نقوداً أكثر مقابل العمولة، والاستشارة المالية للحصول على العائد المتوسط؟ بإمكانك أن تحصل على محفظة أوراق مالية ـ جيدة التنويع ـ توازن مختلف الأخطار، أو تستثمر فى دليل (مؤشر) سوقى عريض، يتحرك مع متوسط السوق.

يقول اقتصاديو التوقعات الرشيدة، ومنهم روبرت لوكاس، Robert Lucas، وتوماس سارجنت، Thomas Sargeant، أن الحكومة سلطتها ضعيفة على السوق، ويبدأون بسوق الأوراق المالية ثم ينتقلون إلى الأسواق الأوسع فى الاقتصاد. ماذا يحدث إذا حاولت الحكومة أن ترفع ـ مؤقتاً ـ سعر أسهم شركة طيران «كيدى»، وذلك بشراء أسهمها؟ إن السعر الأصلى يمثل الشعور «الصحيح» السائد حول العائدات والأرباح المستقبلية، وهو ما يحقق معدل عائد جيداً. فإذا اشترت الحكومة أسهماً ورفعت السعر، سيشعر حملة الأسهم على الفور بأن السهم مقوم

بأعلى من سعره، وسوف يبيعون. وإذا أغرقت الحكومة السوق بأسهمها، ودمغت الأسعار نحو الانخفاض بشدة.. فسوف يشترى المستثمرون، نظراً لشعورهم بأن الأسهم تستحق سعراً أعلى. وفى النهاية مهما تفعل الحكومة.. سيعود السعر إلى قيمته «الصحيحة» ، ما لم تظهر معلومات جديدة، تقنع المستثمرين بأن هناك ما يبرر وجود السعر الجديد.

قبل الأخذ بالقياس مما تقدم على الاقتصاد الكلى، دعونا نناقش نقطتين مهمتين: الأولى: لاحظ أن فرضية السوق الكفء لا تتضمن معلومات داخلية، أو معلومات سرية عن الأرباح أو الخسائر فى المستقبل، أكثر مما يتوفر لدى موظفى الشركة. فالمستثمرون الذين لديهم معلومات غير متوفرة للجمهور، يحققون أرباحاً أعلى من المتوسط، وهذا يبدو منطقياً ولكن غير عادل. فالساذج المسكين الذى لايعمل فى مجلس الإدارة، لن يحصل على نفس الأرباح التى يحصل عليها العاملون بالداخل، ولهذا السبب.. تعتبر تعاملات من يعملون بالداخل غير قانونية، وتقوم لجنة الأوراق المالية والبورصة بالإشراف على تجارة الأسهم بين العاملين داخل الشركات، وتقرر عقوبات للنشاطات غير القانونية، تشمل: السجن والتخلى عن الأرباح. وبالطبع.. لا يتم القبض على جميع المخالفين، ولا تشمل القوانين جميع من لديهم معلومات داخلية.

نفرض أن شركة «فيدو» تخطط فى الخفاء للاستيلاء على شركة «سبوت» عن طريق شراء أسهمها، وسيقوم مدراء «فيدو» بإدارة «سبوت» بكفاءة أكبر، وبذلك يرفعون قيمة أصول «سبوت». ولذلك ترغب «فيدو» فى دفع أعلى لسهم «سبوت» ، وسوف يحقق حملة أسهم «سبوت» الذين سيبيعون أسهمهم أرباحاً طائلة. إن خطة الاستيلاء سرية، لا يعرفها سوى رئيس شركة فيدو ونوابه والمحامين. وبالطبع.. إذا اشترى كبار موظفى «فيدو» أسهم «سبوت» لأنفسهم، قبل الإعلان عن محاولة الشراء.. فإنهم قد يعتقلون بتهمة التعامل من الداخل. ولكن ماذا

يحدث لو أن موظف المطبعة، التى تطبع منشورات الدعاية القادمة اشترى أسهم «سبوت» قبل الإعلان العام؟ هـل يعتبر موظفاً داخلياً ويعاقب؟ تقول المحكمة العليا: لا.

من باب السخرية أنه عند سؤال فينسنت كياريللا، Vincent Chairella، صاحب المطبعة الذى برأته المحكمة العليا، عما إذا كان ينبغى عقاب إيفان بويسكى، Ivan Boesky، الذى أدين بعد عدة سنوات بتهمة التعامل من الداخل، فقال: وجهوا التهمة له(٢).

تثير النقطة الثانية حول فرضية السوق الكفء سخرية أخرى؛ إذ تعد عملية اختيار الأسهم غير فعالة، لأن كثيراً من الناس مشتركون فى أبحاث وتحليل سوق الأسهم. وتعكس الأسعار السائدة «بدقة» التوقعات، لأن كثيراً من الناس يشترى ويبيع على أساس المعلومات المتوفرة. أمامك فرصة ضئيلة لتفسير المعلومات، بشكل متماسك وبطريقة متفوقة، ومع ذلك.. إذا لم يقم أحد غيرك بإجراء الأبحاث، فبإمكانك أن تتفوق فى التنبؤ على المدخل العشوائى. ولذلك.. فإن نصيحة من يؤمنون بالسوق الكفء، أن الاختيار العشوائى يصبح أسلوبا قديما، إذا اتبع الجميع هذه النصيحة.

انتقاد لوكاس

قبل مناقشة نظرية التوقعات الرشيدة.. فلنتابع مضامينها اللافتة للنظر؛ بخصوص الاقتصاد الكلى. تذكر أن اللاعب الرشيد يجدد باستمرار نموذجه الاقتصادى، ولذلك.. فإن الدرس الأول هو أن نماذج الاقتصاد القياسى أصبحت قديمة؛ لأنها تعتمد على بيانات ونماذج إحصائية قديمة، لا يمكنها التنبؤ بتأثير سياسة الحكومة الجديدة.

وعلى سبيل المثال.. إذا وجدت الحكومة علاقة تاريخية ثابتة بين لعبة البيسبول والناتج القومى الإجمالى، وحاولت بالتالى رفع الناتج القومى الإجمالى، عن طريق

زيادة عدد مباريات البيسبول.. فإن اللاعبين الاقتصاديين سوف يعتبرون هذه السياسة بمثابة معلومات جديدة، ويقومون بتعديل نموذجهم، وبذلك يكون سلوكهم القديم أساساً ضعيفاً لخلق سياسة جديدة. إن هذا المضمون يعرف باسم: انتقاد لوكاس[٣]. ويؤكد روبرت هول، Robert Hall، الذى تابع عمل لوكاس، أن نماذج الاستهلاك السائدة ـ التى تعتمد على المعلومات السابقة عن الدخل والثروة ومعدلات الفائدة والتضخم ـ فشلت فى التنبؤ، مثلما فشل نموذج بسيط، يعتمد على عاملين فقط، هما: استهلاك العام الماضى ومتغير عشوائى. ويقول هول إن الفرق الوحيد بين استهلاك العام القادم واستهلاك العام الحالى، يمكن تفسيره بالمفاجآت العشوائية أى المعلومات الجديدة[٤].

يقلل الدرس الثانى؛ من أهمية سياسة التثبيت الحكومية؛ فاستراتيجية المفاجأة فقط هى التى لها تأثير. ولنفترض أن الاقتصاد وقع فى ركود عميق، علامته ارتفاع البطالة، فمن المحتمل أن يوصى علماء الاقتصاد السائد باتباع سياسة توسعية. وحسب رأى غالبية الاقتصاديين.. تؤدى زيادة الطلب الكلى إلى ارتفاع الناتج وعمالة أكثر، وينهض بذلك الاقتصاد خارجاً من الركود.

ولكن هذا ليس رأى اقتصاديى التوقعات الرشيدة، فهم يؤكدون أن اللاعبين علموا بأن الحكومة الفيدرالية تقفز دائما لعلاج الركود عن طريق رفع الطلب، ولذلك ستقوم الشركات برفع أسعارها. وبدلاً من السماح للأسعار بالهبوط خلال الركود، أو رفع الإنتاج.. فهم يتوقعون السياسة الحكومية. وحيث إن الطلب المرتفع موجود بالقرب منهم، فقد تعلموا ألا يتركوا الأسعار تنخفض فى الركود. ويبدو ذلك كما لو أن الحكومة أصدرت قانوناً، بأنه عند وصول البطالة إلى ٧٪.. تقوم هيئة الاحتياطى الفيدرالى بالضغط على دواسة بنزين السرعة النقدية. وللتدليل على كلامهم.. يقولون إن فترات الركود قبل الحرب العالمية الثانية شهدت انخفاضاً فى الأسعار، بينما شهدت فترات الركود بعد الحرب العالمية الثانية أسعاراً أكثر استقراراً،

نظراً لتوقع ردود الأفعال من جانب الطلب. كما أن قانون العمالة لعام ١٩٤٦ ـ الذى يضمن أقصى عمالة ـ أشعر الشركات فعلاً أن العم سام يتدخل دائما للنجدة. والخلاصة.. أنه إذا فعل العم سام ماهو متوقع منه، فهو فى النهاية لم يفعل أى شئ.

إن التحركات المباغتة فقط هي التي تحدث تأثيراً على مستوى الناتج. تخيل كيف صدمت هذه النظرية الكينزيين خبراء النقد. إن نصيحتهم تبدو تافهة، مثل العرض السخيف الذى قدمته الممثلة الكوميدية جراس ألين، Gracie Allen، لحل النزاع الحدودى بين كاليفورنيا وفلوريدا.

وهاهى صدمة أخرى.. إذا كانت النظرية سليمة.. فإنه يجب أن يسهل على هيئة الاحتياطى الفيدرالى تخفيض معدل التضخم. لماذا؟ لأنه بموجب المداخل الاقتصادية السائدة.. تؤدى السياسة الانكماشية ـ فى بادئ الأمر ـ إلى ركود، وفى النهاية إلى تخفيض التضخم. وبموجب التوقعات الرشيدة، إذا أعلنت هيئة الاحتياطى الفيدرالى الموثوقة أن الموارد ستزيد صفراً بالمائة.. فإن الناس سيتوقعون تلقائياً انخفاض الأسعار، ويخفضون أسعارهم وأجورهم، وسيقبلون تلقائياً معدل تضخم أقل بناء على سياسة الهيئة. ونظراً لعدم وجود توقعات مكيفة لديهم..فإنهم لا يحتاجون لرؤية الركود المعتصر، قبل أن يخفضوا توقعاتهم للأسعار.

والآن.. بعد أن ألحقت التوقعات الرشيدة الإهانة الشديدة بالكينزيين وخبراء النقد، فسوف نلقى نظرة خاطفة على السهام المدببة، التى أطلقتها النظرية على اقتصاديى الاختيار العام. يؤكد جيمس بوكانان أن الساسة يتبنون سياسة إنفاق العجز، ولذلك فهم يخدعون الأجيال القادمة. أما برونو فراى، Bruno Frey، وهو اقتصادى آخر من مدرسة الاختيار العام، فيؤكد أن الدورات السياسية تحدث فى الدول الديموقراطية، وأن الساسة يتلاعبون بالتضخم والبطالة؛ لكى يفوزوا فى الانتخابات.

وكلا هذان الإدعاءان يتعارضان مع نظرية التوقعات الرشيدة. أولاً : لنناقش الدورة السياسية، ونفترض أن الساسة يحاولون اللعب بأدوات السياسات لدعم فرص الانتخابات. وحسب نظرية التوقعات الرشيدة.. سيفهم الناخبون اللعبة بعد المحاولة الأولى، وسوف يستنتجون أن الاقتصاد المزدهر هو سنة انتخابية، تنذر بتضخم عالٍ، وسوف يتخذون الخطوات التى تفسد الازدهار الزائف، لأنهم سيتعلمون بسرعة أن الحكومة ستضغط الفرامل بعد الانتخابات. إن هذا التفسير معقول، وربما يوضح الأدلة المهلهلة على وجود دورات سياسية ومتماسكة. وبالنسبة لعجز الميزانية المزمن.. يؤكد الاقتصادى روبرت بارو، Robert Barro، من هارفارد - باعتباره ممثلاً لنظرية التوقعات الرشيدة - أن المستثمرين والمدخرين يحسبون أعباء المستقبل ضمن معدلات الفائدة طويلة المدى(٥). وبالتأكيد.. تؤثر معدلات الفائدة طويلة المدى العالية على أداء الاقتصاد فى الوقت الحاضر، وبذلك.. تكون طموحات وتوقعات المستقبل ممثلة فعلاً فى الأسواق الرئيسية اليوم. ويرجع رأى بارو إلى ديفيد ريكاردو، الذى لاحظ أن الدين العام والضرائب متماثلة تماماً؛ لأن الجمهور الرشيد يعرف أن الدين يجب دفعه فى وقت ما فى شكل ضرائب عالية. ولذلك.. تغير سندات الحكومة المستخدمة لتمويل العجز من التوقعات المستقبلية، بشأن الضرائب. وكرد فعل.. يلاحظ بوكانان أن أجيال المستقبل ليست لديها صوت سياسى، وإن كان لها صوت غير مباشر فى سوق السندات. وفى النهاية،.. يرى بوكانان أنها قضية أخلاقية، بقدر ماهى قضية اقتصادية.

ومن باب المصادفة.. يستطيع اقتصاديو التوقعات الرشيدة أن يجمعوا أدلة، على أن الناس يكتشفون المخادعين السياسيين. فكروا فى مارجريت تاتشر فى أوائل الثمانينيات، عندما وعدت بتخفيض عجز الميزانية، ورفعت الضرائب فى وسط الركود؛ لكى تحافظ على وعدها. هل تعتبر أن إعادة انتخابها مرتين، دليلاً على أن البريطانيين اكتشفوا ورفضوا السياسات السائبة لحزب العمال؟

الاقتصاد السائد يرد الضربة

وأخيراً.. حان الوقت لرد الضربة إلى التوقعات الرشيدة، وهم يستحقون بالفعل عديداً من الضربات. يشعر جميع الاقتصاديين تقريبا بالإهانة من طرف المغرورين، وسنناقش أولاً بعض العقبات النظرية، ثم نتحول إلى النتائج الاقتصادية الحقيقية.

بإمكان اقتصاديى التوقعات الحرة أن يكونوا مبالغين ومثبطين للعزيمة عند مناقشتهم، فهم مثل الشيعة الأصوليين الذين يجادلون بالقرآن، إذ لديهم إجابة قاسية سريعة عن كل سؤال، وتحتوى أعمالهم على عديد من الفروض الشاذة، مثل الأسواق التى تتكيف فورياً، والقدرة الإنسانية الخارقة على امتصاص المعلومات. فإذا سلمنا بهذه الفروض.. تبدو النظرية متماسكة لايمكن اختراقها. إذاً كيف يمكننا الهجوم؟ لتحطيم نموذج اقتصادى.. يجب أن نفعل أكثر من مجرد الضحك على الفروض غير الواقعية. وكما قال ميلتون فريدمان (عن كارل بوبر، Karl Popper) إن الاختيار الحقيقى للنموذج يكمن في توقعاته، وليس فى الوصف الدقيق ـ المهتم بالتوافه ـ للاقتصاد الواقعى(٦).

تتنبأ النظرية بأن الحافز الحكومى لايحفز الاقتصاد، وأن تقليص النفقات الحكومية لايضر، ولنبدأ بالأخير. كيف يبدو وضع نسبة ١٠,٦٪ بطالة عام ١٩٨٢؟ بعد سياسة التخفيض النقدى عامى ٨٠-١٩٨١، سقط الاقتصاد فى ركود، وإثر إتباع سياسة مماثلة عام ١٩٧٥ تدهور الاقتصاد، وتطلب الأمر عدة معدلات للبطالة لتخفيض التوقعات بالتضخم فى هاتين الفترتين. قد يكون رد فعل لوكاس وجماعته هو اعتبار الانهيار النقدى «مفاجأة»، وقد يتساءلون: «من كان يعلم ما إذا كانت هيئة الاحتياطى الفيدرالى ستلتزم بإجراءتها الصارمة أم لا»؟ وبغض النظر عن الرد.. استغرق الأمر عدة فصول مالية كئيبة وطويلة، قبل أن يعدل الناس توقعاتهم التضخمية. وتعتبر هذه النظرية فارغة، إذا كانت تهرب من الانتقاد، بإدعاء أن كل حدث اقتصادى هو مفاجأة.

ماذا عن حفز الحكومة للاقتصاد؟ إذا كان اقتصاديو التوقعات الرشيدة على حق.. فإن تخفيض الضرائب لن يؤثر على الاستهلاك عند تطبيقها؛ إذ بمجرد توقيع قانون تخفيض الضريبة.. يعدل الناس استهلاكهم، حتى إذا تم التخفيض الحقيقى بعد عدة سنوات.ومع ذلك.. أظهر التخفيض الضريبى فى عهدى كينيدى وريجان أن الاستهلاك ظل ثابتاً، ثم ارتفع بعد التطبيق. ويجد آلان بلايندر، Alan Blinder، ـ الاقتصادى الكينزى من برنستون ـ أن ازدراء اقتصاديى التوقعات الرشيدة للسياسة المالية أمراً يبعث على الضيق: «قال لى بارو ذات مرة: إنه لايوجد أى دليل فى العالم على أن السياسة الآلية فعالة. فقط افتح عينيك، وشاهد فترات الاستقطاع الضريبى والإنفاق الحكومى وهى تتزايد. ما رأيك فى الحرب العالمية الثانية؟ لقد كانت لها تأثيرات ضخمة على الناتج». كذلك يهاجم بلايندر الإدعاء بأن الأسواق دائماً متوازنة: «هذا أيضا افتراض سخيف. إن بعض الناس قادرون على النظر إلى العالم، مع عدم رؤية البطالة غير الاختيارية. أعتقد أننى أراها فى كل مكان، خلال فترات الركود الدورية، وأعتقد كذلك أننى أرى بضائع غير مباعة فى كل مكان، مثل كميات السيارات[٧]». «هل يستطيع المدافعون عن التوقعات الرشيدة أن يفسروا الكساد العظيم ـ صراحة ـ على أنه إثنا عشر عاماً من المعلومات المفاجئة «الجديدة».

لماذا يميل أغلب الاقتصاديين إلى الاتفاق مع النظرية، عندما تتحدث عن سوق الأوراق المالية؛ ومع ذلك تنفجر الخلافات، عند الحديث عن الاقتصاد الكلى؟ الحقيقة.. أن سوق الأوراق المالية، أكثر كفاءة من بقية الأسواق. فهو سائل تماما؛ إذ يستطيع المرء أن يشترى ويبيع بسهولة. إن تكاليف العمليات قليلة، وبإمكان المستثمر استخدام وسيط خصم لتداول مشتراوته. وبالعكس.. تظهر الأسواق الحقيقية للسلع والخدمات تعقيداً وجموداً أكثر. هل تستطيع ترك وظيفتك بسهولة، مثلما تبيع أسهمك؟ هل تستطيع الشركة أن تفصل موظفيها، أو تغلق مصنعاً، أو تبنى مصنعاً جديداً بسرعة وسهولة، مثل شراء وبيع الأسهم.. بالطبع لا.

فى الأسواق الحقيقية.. تلعب العقود دورا كبيراً، فهى تزيد من مستوى اليقين بالنسبة للسعر الإسمى للعمل، ورأس المال والمعدات، ولكنها تقلل درجة السيولة والمرونة؛ فإذا توقعت شركة طيران «كيدى» ـ مثلاً ـ هبوط الأسعار والأجور، فقد تكون مرتبطة بعقود مع الاتحادات لمدة ثلاث سنوات لإبقاء الأجور مرتفعة، وإذا كانت لدى المدراء توقعات رشيدة.. فإن العقود تقيدهم فى طريق التوقعات المكيفة، ويسأل نقاد النظرية سؤالين: ١ ـ هل لدى الناس توقعات رشيدة، بدلاً من العادات السائدة؟ ٢ ـ حتى لو كان لديهم ذلك.. هل يستطيعون التصرف ببراعة كما يعتقدون؟ إلى حد ما. وكلتا الإجابتان: كلا، فنظرية التوقعات الرشيدة تصور الاقتصاد بصورة خاطئة.

بإمكاننا أن نشوى هذه المدرسة الفكرية الجديدة الجريئة، إلى أن تحترق تماما، ولكنها تستحق تقديراً أفضل من هذا. فإذا خففنا الافتراضات حول المعلومات الكاملة، والأسواق التى يتم إخلاؤها سحرياً.. فإنه تتبقى لدينا عدة أفكار، يحاول علماء الاقتصاد السائد أن يضمنوها إطار عملهم الاعتيادى. كما أن الناس تكشف فعلاً الألاعيب السياسية والاقتصادية بعد فترة، كما أنهم ـ كذلك ـ يعدلون ويتخلون عن التوقعات السابقة، أسرع مما يصفه نموذج التكيف التدريجى، والتحدى هنا هو تضمين هذه القدرات، مع إدراك مشاكل العقود والمعلومات الناقصة[٨]

بهذا الأسلوب المتطرف.. يبدو أنصار التوقعات الرشيدة، وكأنهم قفزوا من صفحات مجلات مارفل المصورة. وإذا افترضنا أن الناس يتصرفون دائماً بتعقل تام، فلماذا لاتعطيهم بصراً مزوداً بأشعة x، وتعطيهم القدرة على الطيران؟ وبالتأكيد.. لم يوجد أبدا ركود طلب، مصحوباً بتضخيم على كوكب كريبتون. فمن الناحية المتطرفة.. تعطينا النظرية نموذجاً مثالياً أفضل مما يصلح لعالمنا الحقيقى. وبالتأكيد.. لا نستطيع تجاهل التناقضات فى النظرية. وكما يعبر عنها جيمس توبين، James

Tobin : إن استخدام هذه النظرية البدائية لشرح العالم، مثل البحث عن كيس نقود مفقود أسفل مصباح الشارع فقط[٩]، والمشكلة أن الكيس المفقود عادة ما يكون فى مكان مظلم، وأثناء انحنائك باحثاً دون جدوى، أسفل الضوء الساحر لمصباح الشارع.. قد تتلقى ضربة من الواقع فوق رأسك.

الفصل الثالث عشر

غيوم داكنة وبطانات فضية

لقد قطعنا شوطاً طويلا منذ آدم سميث، كان طويلاً وسريعاً حتى إنه أشبه التزلج أمام قرون من الروائع الفنية فى متحف اللوفر، مع وقت يكفى فقط لنظرة خاطفة على ابتسامة الموناليزا المحيرة. وياله من مسكين ذلك الاقتصادى الذى نتوقع منه أن يختار «الحقيقة» من الجولة الملتوية للتاريخ، ثم يعطى المشورة إلى الرؤساء بغير تردد.

«والحقيقة» هى أن الاقتصاد يربك حتى أذكى العقول، وإن التحدث بتفاخر يفضى إلى العقوبة. فالاقتصاديون المتهورون سوف يستفيدون بأخذ مكان بروميثيوس، Prometheus، حيث تنهش النسور أكبادهم إلى أن يتعلموا التواضع. لماذا يتحدى الاقتصاديون كل هذا العدد من الناس بل ويخيفون عدداً أكبر؟ فالاقتصاديون ـ على العكس من علماء الأحياء ـ لا يستطيعون إجراء تجارب علمية مع جماعات فحص، تراقبهم بدقة. وبطبيعة الحال لاتوجد جماعات فحص لكل العلوم الطبيعية.، فعلماء الفلك لا يستطيعون أن يستخدموا عينة من الأقمار، بأكثر مما يستطيع الاقتصاديون أن يستخدموا عينة عشوائية من مدبرات المنازل. ولكن ـ على الأقل ـ لن يقلق علماء الفلك من أن تتصرف الكواكب فجأة تصرفات غريبة الأطوار، كما قد يفعل المستهلكون، كما أن علماء الفلك لديهم سجل جيد للتنبؤ بموعد عودة المذنب هالى. أما الاقتصاديون فلهم سجل سئ فى التنبؤ بمعدلات مدخرات الأسرة. وفى فكاهة من الاتحاد السوفيتى، يسأل رجل: «هل

تم اختراع الشيوعية بواسطة علماء أحياء أم سياسيين؟ «والإجابة» سياسيون بالطبع لأن علماء الأحياء سيجرون التجارب على الفئـران أولاً». ولسوء الحظ.. لاتستطيـع الفئـران أيضاً أن تساعـد الاقتصاديين كثيراً. فقد تكون للفئران دورات دمويـة مشابهة لما لدى الكائنات البشرية، ولكن علم الاقتصاد مسألة عقل، لاتشريح.

إن علم الاقتصاد ليس، كما حاول أن يصفه آدم سميث وبعض خلفائه العقلانيين، علماً ذا قوانين محددة بدقة. وقد تكون النزعات كذلك؛ فالإنتاج المرتفع يعنى عادة أسعاراً منخفضة، إلا عند دخول سلع فبلن إلى السوق. والموارد المالية الأكثر ارتفاعاً تعنى عادة أسعار فائدة أكثر انخفاضاً، إلا عندما يدفع الخوف من التضخم أسعار الفائدة للارتفاع. وتمثل أسعار الأسهم عادة توقعات عقلانية للتدفق النقدى فى المستقبل، إلا عندما تشعر «الروح الحيوانية» بالفزع، أو تثير المستثمرين للقيام بحركات نشطة مؤثرة. وعادة ما يخاطر المستثمرون، إلى أن تتساوى المنافع الحدية مع التكاليف الحدية، إلا بالنسبة لمقاولى شومبيتر الخارقين، الذين يدركون القيم أفضل من السوق هذه القوى غير المحددة التى تعطل المنهج العلمى ليست بالضرورة غير منطقية (أى مجنونة).قد تكون غير عقلانية، ولايمكن التنبؤ بها، كما فى حالة الفيزياء الكمية؛ حيث تتصرف الإلكترونات بجنون، بل إنها ببساطة تتحدى أساليبنا السائدة لصنع النماذج، فنحن كاقتصاديين لم نكتشف كل شئ. ومن جهة أخرى.. فإن تعمد الاستهزاء بالاتجاهات التى اكتشفها مشاهير الاقتصاديين، هو بمثابة العبث بكارثة اقتصادية، فسياسات دعم الأسعار والحماية وحرية التلوث، ينتج عنها جميعاً ـ وبسرعة ـ أسعار مرتفعة، وضرائب مرتفعة، وهواء قذر. وبالرغم من شهرتها فى إثارة الخلافات.. فإن قلة من الاقتصاديين المثقفين قد يوصون باتخاذ أى منها.

ليس من السهل أن تكون اقتصادياً. وكالعادة.. وجد كينز الكلمات الأكثر بريقاً لوصف الاقتصادى الخارق، الذى «يجب أن يكون منعزلاً وغير قابل للإفساد مثل

الفنان، غير أنه يجب أن يكون قريباً من الأرض مثل السياسى»[1]. وهذا التوصيف الوظيفى لا يستطع أن يملأه كل رجال الملك أو جلاديه.

ولم يستطع أى من الاقتصاديين، الذين استطلعنا آراءهم أن يوازن ـ دون خطأ ـ بين العام والخاص، أو المستقبل والحاضر، أو السماء والأرض. ولم يثبت أى منهم أنه متمكن ـ بشكل متساوٍ ـ من تحليل الاقتصاديات الصغرى والاقتصاديات الكبرى، فقد كانت لديهم حدودهم، بل إن بعضهم كان يعرف ذلك.

ومع ذلك.. كانوا جميعا يعرفون شيئاً واحداً: أنهم لا يستطيعون تجاهل التفاعل بين الحكومة والاقتصاد.لقد هاجم آدم سميث الحكومة لتأييدها قيود التجارة، التى طالبت بها النقابات، وزعم مالتس أن القوانين الرديئة تعزز الفقر، وحذر ريكاردو من أن مذهب الحماية قد يغرق إنجلترا فى هاوية عصر مظلم جديد.، وجادل ماركس: أن الحكومة تعمل فقط كأداة استغلال وقمع، وحاول كينز أن يوقظ موظفى الحكومة من نوم عميق وخطير، وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من الصرخات المنعزلة من بعض المتطرفين.. فقد تعلمنا أن الحكومات ليست بالضرورة شريرة أو صالحة؛ فهى ليست منقذة أو شياطين، بالرغم من أن سياساتها قد تكون لها أحياناً نتائج منقذة أو شيطانية.

وبالرغم من ذلك.. فقد حذرنا كل اقتصادى درسناه ـ بالرغم من اختلافاتهم العديدة ـ من أن الحكومات تواجه دائماً ضغوطاً سياسية لاتخاذ إجراءات، قد تدمر اقتصاديات جيدة. وقد يقضى رجال الكونجرس الأمريكى حياتهم العملية بكاملها يواسون ويجمعون ضحايا سياسة اقتصادية جيدة، فالسياسة الدولية الحرة تضر بعض المنتجين المحليين، والتضخم المنخفض يضر المقترضين، وهبوط أسعار الفائدة يضر مشترى السندات، والابتكارات التكنولوجية تضر بعض العمال، والضرائب على التلوث تضر الشركات.

ولانساق إلى التفكير فى أن ضحايا السياسات الاقتصادية الجيدة، يعادلون تماماً المنتفعين منها، فالسياسات الاقتصادية الجيدة ليست لعبة «بلا فائزين»: تأخذ من «بترا» لكى تدفع إلى «باولا». ففى الواقع.. قد يمكننا تعريف السياسات الاقتصادية الجيدة بأنها سياسات، تعطى مكاسب إيجابية، حتى وإن خلقت ضحايا.

ونظراً لأنه حتى السياسات الاقتصادية الجيدة تسفر عن ضحايا فإن الاقتصاديين يواجهون وقتاً عصيباً للغاية فى إقناع الحكومات الديمقراطية بالتماس النصيحة الجيدة. والاقتصاديون الأكفاء قد لا يكونون محبوبين، خاصة على المدى القصير. وقد تستغرق فوائد التضخم المنخفض والاستثمار المرتفع بعض الوقت ليظهر تأثيرها ـ خاصة لكى تتألق من خلال الصور التلفزيونية للمزارعين المنهارين وأصحاب المنازل المتأثرين بالكساد (الذين استمتعوا بارتفاع قيمة الأصول خلال تضخم السبعينات، ثم قاسوا أوقاتاً أكثر قسوة فى الثمانينيات). ولسوء الحظ.. تفضل وسائل الإعلام عادة اللقطات القصيرة للصور العنيفة والمحزنة، عن العروض المطولة للصور الآمنة السارة.

ولايحسن الاقتصاديون الأكفاء الأداء فى العبارات السريعة ذات الخمسة عشرة ثانية، كما يسميها مؤيدو وسائل الإعلام، ففى خلال خمس عشرة ثانية.. يستطيع أى فرد من جماعات الضغط، أن يهزم بقسوة أى اقتصادى غير متحيز. وما يحتاجه الاقتصاديون ـ فعلاً ـ هو دروس فى تأليف الشعارات وكتابة المنشورات، وما تحتاجه برامج الأخبار هو الصبر على الاستماع للمناقشات الصعبة.

وبالرغم من ذلك.. دعونا نتكلم بصراحة. إن وسائل الإعلام تعكس ـ إلى حد كبير ـ فقط رغبات المشاهدين فى الأنباء الشيقة، التى تدغدغ مشاعرهم. ومن الواضح أن الناس تستمتع بقصص الأنباء المخيفة، كما يستمتعون بأفلام الرعب. ويقع علينا بعض الخطأ فى وجود برامج إخبارية تافهة؛ لأننا لانستطيع أن نتعاطف مع اقتصاديات السوق، ثم ننتقد شبكات الإعلام بقسوة لأنهم يلبون رغبات الجماهير.

إن أمامنا كجمهور، ثلاثة حواجز نفسية على الأقل للحصول على مستوى من الثقافة الاقتصادية. **أولاً**: نحن نفضل لقطات خاطفة موجزة مـن المعلومات، **وثانياً**: نحن نفضل النتائج الفورية، ونفقد الصبر بسرعة. لقد فهم كينز الوضع فهماً خاطئاً، فعلى المدى الطويل لن نكون أمواتاً، أو على الأقل أحفادنا. فإذا استسلمنا لكل حافز اليوم.. فإننا لن نترك شيئاً للغد. فإذا لم ندخر، وإذا اقترضنا فقط، وإذا رقصنا بابتهاج بالغ الليلة.. فإن الغد سيكون يوماً شاقا وطويلاً جداً، فالمجتمعات تزدهر فقط عندما تفكر على المدى الطويل، ولا يعنى هذا أن مجتمع البخلاء يزدهر دائماً. وبينما أدت هواجس العصور الوسطى عن وجود حياة أخرى فى السماء، إلى امتصاص طاقة الابتكار والإبداع على الأرض على الأرجح.. فإننا فى القرن العشرين قد مجدنا الليلة على أنها اللحظة «الألفية» (لنزول المسيح على الأرض)، بدلاً من غدٍ أو بعد غد.

ثالثاً: بالرغم من تركيزنا على المدى القصير.. فإننا نجد صعوبة فى تعرف «الأوقات الطيبة» حتى عندما تكون لدينا؛ فالسعادة الاقتصادية ليست انفجاراً للثورة؛ فالثورة الصناعية ـ وهى أعظم الأحداث الاقتصادية إثارة فى تاريخ البشرية ـ جاءت بمعدل ٥ ٪ فقط سنوياً. والارتفاع بنسبة ٥ ٪ فى مستوى المعيشة لا يرفع الشخص الشديد الفقر إلى غرفة النوم الرئيسية فى القصر، ولا يضع مكان العصيدة كبد البط. فالتغيرات من عام الى آخر تحدث ببطء. ولكن عندما يقترب الشخص الشديد الفقر من الموت.. فإنه قد يجد أن مستوى معيشته قد تضاعف أربع مرات. فالحياة نادراً ما تكون سعيدة للغاية، ولكنها غالباً ما تكون محتملة فقط. وحتى لو كان مستوى المعيشة الأعلى يمكن أن يجلب السعادة،.. فإنها عادة ما تأتى ببطء شديد لنا[٢] . وعندما تأتى أخيراً.. نكون قد وصلنا للسن المناسبة لغناء أغانى الحنين إلى «الأيام الجميلة السابقة». ومع ترحالنا عبر الزمن .. فإننا ننظر من النافذة الأمامية بنظارة قصار البصر. ومع ذلك.. فإننا ننظر فى المرآة الخلفية بنظارة ذات لون وردى.

ومن الصعب التحرك للأمام بهذه الطريقة، ومن الصعب على الاقتصاديين أن يوجهونا للاتجاه الصحيح.

ونادراً ما تعلن الصحف عن أيام الذروة، وتستطيع ذلك كتب التاريخ فقط. وإذا استعدنا الأحداث الماضية.. لوجدنا أن الستينيات كانت أيام الذروة للاقتصاد؛ فقد امتد النمو الاقتصادى المدعم لمدة سنوات، وظهرت نظرية كينز فى أوج قوتها. ومع ذلك.. أبرزت التقارير المعاصرة لهذه الفترة اليأس وعدم اليقين الاقتصادى، ومرت الأيام الجيدة دون أن نلاحظ كثيراً، كما لو أن لنا الحق فى توقع نجاح اقتصادى مطول، فالكساد فقط هو الذى يحتل الصفحات الأولى. وكما لاحظ شوبنهاور، Schopenhauer .. فإن الأيام الهادئة فى كتب التاريخ تظهر كفترات توقف، قصيرة الآمد مبعثرة هنا وهناك، بينما تسيطر عليها الحروب والثورات. ويعبر بيكاريا، Beccaria، عن ذلك ببلاغة أكبر قائلا: «الأمة التى بلا تاريخ هى أمة سعيدة».

وقد حذرنا صامويل جولدوين من أن نتنبأ بأى شئ، خاصة فيما يتعلق بالمستقبل، فلنتجاهله. فبالرغم من التشاؤم من نبوءة قادمة، تحمل معها جوعاً ويأساً وبؤساً للعالم، فإن لدينا ما يدعو للتفاؤل، وهو ليس ضماناً ولا منافع غامرة، بل مجرد سبب منطقى. ولنتذكر أن الدخل القومى يعتمد على العمل، ورأس المال، والموارد الطبيعية، والتكنولوجيا. والتطورات الحديثة فى كل عنصر من عناصر الإنتاج هذه، تشير إلى نمو اقتصادى على المدى الطويل.

فى الولايات المتحدة ـ كما فى الديمقراطيات الغربية الأخرى ـ يبدو العمل أفضل فى علاقته مع الإدارة، عنه فى العقدين الماضيين. وبتأثير من أساليب الإدارة اليابانية.. يلعب العمال فى المصانع الكبرى دوراً أكبر فى تصميم وتحسين عملية الإنتاج. وأكثر من ذلك.. تعترف النقابات بأن ازدهارها يعتمد على نجاح الشركة، وليس على ابتزاز أجور عالية، دون زيادات مصاحبة فى الإنتاجية. ويبدو أن النقابات

الأمريكية راغبة فى قبول أجور أقل خلال فترات الركود، بدلاً من تسريح العمال، وبذلك ترتفع أموالهم وتنخفض مع أموال الشركة. وفى المقابل.. تفهم الإدارة ـ فى النهاية ـ أن العمال يجب أن تكون لديهم حصة أكبر فى أداء الشركة. والآن يتلقى عديد من الموظفين حقوق أسهم، كجزء من مكافآتهم، فالعلاقة الأكثر تعاوناً تطوّر النمو الاقتصادى.

إن الأسواق المالية اليوم أكثر كفاءة مما كانت عليه منذ عشر سنوات، ويتحرك رأس المال الدولى بسيولة أكبر عبر الحدود القومية. وتشعر الحكومات والشركات غير الكفؤة بضغط قوى لإصلاح أساليبها، حتى لا تفشل فى جذب المستثمرين؛ إذ تجد الشركات أنه من الأسهل لها أن تجمع الأموال لبناء مصانع جديدة وشراء معدات جديدة. وفى أحد الأوقات.. تستطيع الشركة أن ترسم دائرة حول منطقة جغرافية، تحصل منها على تمويل، ومنذ قرن مضى.. كان نصف قطر الدائرة حوالى عشرة أميال. فإذا لم يدخر المواطنون أموالاً كافية.. فلن تستطيع الشركة الاقتراض من البنك. وعبر القرن الماضى اتسع نصف قطر الدائرة، ويصل الآن إلى نصف قطر الكرة الأرضية؛ فاليوم تستطيع شركة فى بيتسبرج أن تطرح سنداتها فى أستراليا، حتى لو ادخر كل الجيران فى بيتسبرج أموالهم فى الفراش، بدلاً من الصناديق المشتركة.

وتمثل التقنية الجزء الأكثر جاذبية وعدم توقع فى دالة الإنتاج. من يعلم متى سيظهر رجال آخرون مثل تورينج، Turing، أو فون نيومان، von Neumann، وإلى أين سيأخذوننا؟ لقد جاءوا لنا بالكمبيوتر الحديث، وهم أنفسهم سيدهشون من الأجيال الحالية بالكمبيوتر. ويعمل علماء الفيزياء والكيمياء ـ بنشاط محموم ـ فى مجال اندماج الذرة وفرط الموصلية، وهو مشروع يلغى تماماً الحواجز التى يشكلها الاحتكاك بالنسبة لنا. فسوف تنقل المواد الفائقة التوصيل أجسامنا ورسائلنا بسرعات مخيفة للعقل، ويتدافع علماء البيولوجيا (بحرص كما نأمل) على استغلال عنصر الوراثة المتحد DNA؛ لتحسين مصدر الغذاء وإزالة آثار المرض. وعلى

مستوى التنظيمات.. نرى تعاوناً مزدهراً بين مراكز الأبحاث الجامعية والشركات؛ فالمشاريع المشتركة التى تضم عباقرة هذين النوعين من المؤسسات، تسرع من خطى العلم المزدهرة.

وبالطبع.. تتضاعف مواردنا الطبيعية، عندما تمنحنا التكنولوجيا أساليب جديدة لاستخراج أو استرداد أو تجديد ثروات الطبيعية (وموارد الفضاء).

وبالتأكيد.. يجب ألا نركب موجة التفاؤل الطائش فى طريقنا نحو المستقبل، فمع كل إمكانية للتطور الايجابى.. توجد مخاطر وعوائق. وإذا تذكرنا دالة الانتاج.. نجد أن نقابات العمال لا تمد يدها دائماً للتعاون مع الإدارة، فقد تؤدى الابتكارات الصناعية إلى الاستغناء عن بعض العمال، وقد تحدث إضرابات طويلة. وقد تعيق التجارة من الداخل، والعمليات الأخرى غير القانونية، نمو الأسواق الرئيسية، وقد تقوم بعض الشركات غير المسؤولة بالاستغلال الأنانى للموارد الطبيعية.... وهكذا.

وأخيراً.. يجب أن نأخذ فى الاعتبار العوامل السياسية والنفسية والتنظيمية، التى تشكل تفكيرنا؛ فالتكنولوجيا يمكن أن تثرى التقدم، ولكن المحظورات القبلية تعوقه. وعلى سبيل المثال: لو كنا نعتقد أن الرمال مقدسة، لما كان لدينا زجاج أو أشباه موصلات، أو منازل للعطلات فى ميامى بيتش. وبالتأكيد.. كانت القيود القديمة، وقيود العصور الوسطى على الاقتراض عائقاً أمام التقدم الاقتصادى فى القرون الماضية. وبالاضافة إلى ذلك.. اكتشف روبرت صولو، Robert Solow، ـ الحاصل على جائزة نوبل ـ إن التقدم الاقتصادى يتطلب جمهوراً متعلماً، ويقول جوزيف شومبيتر (قبل إنشاء جائزة نوبل للاقتصاد) إن التقدم الاقتصادى يحتاج أيضاً إلى قيادة رجال الأعمال. من يعلم: هل تدفعنا القوى الروحية والعقلية إلى الأمام، أم تدور بنا وتقذفنا إلى البربرية؟ هل هناك رجال أعمال من أنصار الخمينى، Khomeini ؟

لقد تنبأ شومبيتر بمستقبل الرأسمالية فى كتابه الرائع «الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية» "Capitalism, Socialism, and Democracy". ولم يأت التهديد الأعظم ـ فى رأى شومبيتر ـ من العناصر الاقتصادية مثل هبوط الأرباح، ولكن أتى من العناصر السياسية. وفى الواقع.. يؤدى نجاح الرأسمالية إلى دمارها، فعند خلق طبقة عالية التعليم ـ لديها وقت فراغ كبير ـ فإن الرأسمالية تسمح للجيل الجديد بأن يبدأ فى التساؤل عن إطار العمل الأخلاقى لها، حيث سيبدأ بالسؤال عن عدم مساواة توزيع الدخل والعدالة والتلوث و.... هكذا. وأخيراً.. تحرق هذه الأسئلة اللاذعة الأساس الأخلاقى الواهى للرأسمالية، وتحول الأمم إلى الاشتراكية، التى سوف تعد بالرخاء المادى والدعم الأخلاقى للمتشوقين للعدالة على الأرض. ويضع شومبيتر سؤاله الشهير: «هل بمقدور الرأسمالية أن تبقى؟. لا أعتقد»(٣).

فى أواخر الستينيات ـ ومع انتشار الشعر الطويل، وموسيقى الروك الصاخبة،والألوان الصارخة، وإدمان المخدرات ـ بدا أن توقعات شومبيتر تتحقق. وتحولت دول العالم الثالث المتحررة حديثاً من الاستعمار الأوروبى، إلى الاشتراكية. وبحلول السبعينيات.. كان حملة شهادة الدكتوراه يقودون سيارات التاكسى، ويهاجمون الكنيسة.

لكن ماذا يحدث فى الثمانينيات.. انتشر صغار الحرفيين، والشعر القصير، والقمصان المخططة، وطابور من الدول المتخلفة يبيعون كتاب «رأس المال» لماركس، ويشترون كتاب «الهندام من أجل النجاح» "Dress for Succes". وحتى الاتحاد السوفيتى.. يكافح لإنعاش اقتصاده المتصلب، ولم يعد يوجد من يحبذ التخطيط المركزى. وفيما يلى بعض العناوين من موضوعات جريدة نيويورك تايمز: «رأسمالى يوغسلافيا تيلت، Tilt، يصل إلى مقدمة المرشحين»، و «آدم سميث يزاحم ماركس فى أنجولا»، و «تشخيص جذرى لانحراف الاقتصاد فى أمريكا اللاتينية: كتاب يشجع العمل الخاص ويجتاح المنطقة»(٤). وأخيراً، نورد سطوراً قليلة من قصة

غلاف النيويورك تايمز: «المسيرة العالمية نحو الأسواق الحرة: مع تزايد تنافس الاقتصادى العالمى.. تعود الدول الرأسمالية والشيوعية على حد سواء، إلى آدم سميث».

«فى موسكو.. يقوم الرفاق، رجال الأعمال الخاصة بإدارة صالونات التجميل وورش إصلاح السيارات الخاصة بهم، بينما يقوم فلاحو الصين بالتخلى عن نظام الكميونات لصالح بيع المنتجات التى يزرعونها بأنفسهم...يبدو أنه حيثما نظرت.. تجد أن الحكومات تتحول نحو آلية السوق ـ اليد الخفية العبقرية لآدم سميث ـ وذلك لتنشيط اقتصادهم. ويقول الاقتصاديون إن هناك اتفاقاً غير عادى بين الدول الرأسمالية والشيوعية حول أهمية إعطاء حرية أكثر إلى السوق؛ فهذه الآلية السائدة التى توضح رغبات المستهلك، هى التى تشجع روح الاختراع، وتنظم المنتجين غير الأكفاء»(٥).

وحتى لو كانت العودة إلى آلية السوق لا تحول الفقر إلى غنى بطريقة سحرية.. فعلى الأقل، تخلت الحكومات عن كراهيتها الأيديولوجية الجامدة لنظم اقتصاد السوق.

وبالطبع.. لن يعالج الازدهار النسبى بعض المشاكل، التى اعتقد شومبيتر أنها ستنتشر كالوباء بين الطبقة المتعلمة. سوف يبقى عدم المساواة والفقر موجـودين. ما أفضل وسيلة لتخفيفهما؟ قد تساعدنا الضرائب، وإعادة توزيع الدخل التى لا تثبط الإبداعية والعمل الخاص. ويشجع عديد من الاقتصاديين إحلال ضرائب الاستهلاك على الحلول نهائياً محل ضرائب الدخل.

تبقى مشكلة واحدة لا تحلها الأسواق أو الحكومات الذكية: هل يستطيع الإنسان أن يجارى الابتكارات، التى تجعل الوظائف والأدوار التقليدية ذات طراز عتيق؟ هل يستطيع الإنسان أن يعلم نفسه بسرعة كافية للتعامل مع عصر الكمبيوتر وما بعد

الكمبيوتر؟ نعم.. يستطيع غالباً أن يفعل ذلك، ولكن مع زيادة تعقيد المجتمع.. سيقع مزيد ومزيد من فتحات شباك الإنقاذ، وسوف يتداعى من لديهم إعاقات نفسية وجسدية وذكائية. فالعالم سهل من الناحية المادية، ولكن الأكثر صعوبة من الناحية النفسية، أن نعيش فى عالمنا المعاصر، لا قبل مائتى عام. فالحياة فى مدينة من مدن القرن العشرين، صعبة على روح الإنسان، بنفس صعوبة الحياة فى مزرعة. فمن السهل أن تـزل قدم الإنسـان فى العالـم الحديـث، وأن يدور داخل عجلة المصنع ثم يُلفـظ خارجاً، متشرداً دون مـأوى، مثـل شارلـى شابلن، Charlie Chaplin، فى فيلم «الزمن الحديث».

لم تعد الساعة البيولوجية داخلنا متزامنة مع أسلوب حياتنا؛ فمنذ مائتى عام.. كانت النساء يبدأن حملهن للأطفال فى سن العشرين، وفى ذلك الوقت كن يعرفن ماذا سيقدم لهن العالم، وما نوع الوظائف المتاحة، وما نوع المستقبل الممكن توقعه؟ كان بإمكانهن تعليم الأطفال أن يتعايشوا مع العالم. كم شخص فى العشرين اليوم ماذا يمكنه أن يعرف ماذا يفعل، أو ما سوف يفعل عندما يبلغ الخامسة والعشرين؟ فالعالم الحديث يقدم لنا عديداً من الفرص، لدرجة أننا لا نستطيع أن نتنبأ جيداً بما سيحدث فى حياتنا، أو حياة أطفالنا. أطفالنا اليوم لا يربيهم آباء يعرفون العالم، لا لأن الآباء أصبحوا أكثر غباءً أو كسلاً، ولكن لأن العالم أصبح أكبر مما يستطيع التحكم فيه. ويجب فى النهاية أن يعلم الآباء أبناءهم كيف يتعاملون مع عدم اليقين ـ لا كيف يضمنون الاستقرار.

أثناء سرد الأنباء الكئيبة.. تجاهلنا عديداً من الاحتمالات، من ضمنها الكوارث الطبيعية؛ فقد يغمر المحيط الهادى كاليفورنيا، وقد تصيب الأوبئة الملايين من الناس، وقد يسبب الجفاف الجوع لملايين أكثر، وقد تسرق الحروب الشباب من أمم عدة؛ فمن السهل أن نرسم صورة قاتمة للولايات المتحدة وبقية العالم.

يجب أن يدرس الاقتصاديون كل هذه الأحداث، فكل اقتصادى يقف أمام حامل اللوحات، وينثر اللطخ على اللوحات الرائعة المتقنة الصنع، التى يريد أن يكشفها للعالم.

فى أغلب فترات حياة الإنسان على الأرض.. لم يعش الإنسان وهو على قدمين بشكل أفضل، مما عاشه وهو على أربع. انسبوا الفضل للاقتصاديين لشرحهم ووصفهم اللحظات القصيرة المزدهرة، عندما كان هناك فرق.

الهوامش

I. Introduction: The Plight of the Economist

١ - William Manchester, *The Last Lion: Winston Spencer Churchill* (New York: Dell, 1983), p. 35.

٢ - T. S. Kuhn, *The Structure of Scientific Revolutions*, 2d ed. (Chicago: University of Chicago Press, 1970).

٣ - With the rise of quantum physics and its corollaries such as Heisenberg's principle, even the "hard" sciences are losing their muscle tone.

٤ - John Maynard Keynes, "Alfred Marshall" in *Essays in Biography*, in the *Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol. x (London and New York: Macmillan/St. Martin's Press for the Royal Economic Society, 1972), p. 173.

٥ - See my "Biblical Laws and the Economic Growth of Ancient Israel," in the *Journal of Law and Religion*, vol. 6, no. 2 (1988).

٦ - For a fascinating history of the usury doctrine, see Benjamin Nelson, *The Idea of Usury* (Princeton: Princeton University Press, 1949).

٧ - Georges Duby, *The Age of the Cathedral*, trans. Eleanor Levieux and Barbara Thompson (Chicago: University of Chicago Press, 1981), p. 3.

II. The Second Coming of Adam Smith

١ - Adam Smith, *Lectures on Justice, Police, Revenue, and Arms*, ed. Edwin Cannan (London: Oxford University Press, 1896), p. 179. These lectures are based on notes from students.

٢ - Adam Smith, *An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations*, R. H. Campbell, A. S. Skinner, and W. B. Todd, eds., 2 vols. (Oxford: Clarendon Press, 1976 [1776]), vol. 1, p. 284.

٣ - Smith, *Lectures*, pp. 172–173.

٤ - Adam Smith, *The Correspondence of Adam Smith*, E. C. Mossmer and I. S. Ross, eds. (Oxford: Clarendon Press, 1977), p. 102.

٥ - Peter Gay, *The Enlightenment: An Interpretation*, 2 vols. (London: Weidenfeld and Nicholson, 1967), vol. 2, p. 348.

٦ - Ibid., p. 349.

٧ - David Hume, *The Letters of David Hume*, J. Y. T. Greig, ed., 2 vols. (Oxford: 1932), p. 19.

٨ - Smith, *Wealth of Nations*, vol. 2, p. 678.

٩ - Thomas Hobbes, "The Introduction," in *Leviathan* (New York: Collier, 1962), p. 19.

١٠ - Smith, *Wealth of Nations*, vol. 1, p. 341.

١١ - Ibid., p. 25.

١٢ - Ibid., pp. 26–27.

١٣ - Ibid., p. 456.

١٤ - Ibid., p. 15.

١٥ - Ibid., p. 20.

١٦ - Both the preceding Hayek quotation and this Whitehead quotation appear in F. A. Hayek, "The Use of Knowledge in Society," *American Economic Review*, vol. 35 (September 1945), pp. 526–528.

١٧ - Smith, *Wealth of Nations*, vol. 1, p. 456.

١٨ - Ibid., pp. 23–24.

١٩ - See Milton Friedman, *Capitalism and Freedom* (Chicago: University of Chicago Press, 1967), p. 109.

٢٠ - Smith, *Wealth of Nations*, vol. 2, pp. 782–785.

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

٢١ـ Paul A. Samuelson, "A Modern Theorist's Vindication of Adam Smith," *American Economic Review, Papers and Proceedings*, vol. 67 (February 1977), pp. 43–44.

٢٢ـ Smith, *Wealth of Nations*, vol. 1, p. 145.

٢٣ـ Ibid., p. 137.

٢٤ـ Even MIT economist Lester Thurow, a fiery adversary of Friedman, argued against the government breakup of AT&T on these grounds. See "Antitrust Grows Unpopular," in *Newsweek* (January 12, 1981).

٢٥ـ Smith, *Wealth of Nations*, vol. 1, p. 457.

٢٦ـ Ibid., p. 471.

٢٧ـ Ibid., p. 468.

III. Malthus: Prophet of Doom and Population Boom

١ـ William Godwin, *An Enquiry into Political Justice*, 2 vols. (London: 1798), vol. II, p. 504.

٢ـ Ibid., p. 528.

٣ـ The formula for the future value (FV) of a principal amount of money (P) held for (N) years at (R) percent compound interest is:

$$FV = P \times (1+R)^N$$

A helpful rule of thumb is the Rule of 72, which states that the number of years it takes for a number to double, when growing at a constant rate, equals 72 divided by that number. For instance, if the economy expands at 4 percent per year, in 18 years the economy would double.

٤ـ Thomas R. Malthus, *An Essay on the Principle of Population*, 1st ed. (London: Macmillan reprint, 1909), pp. 139–140.

٥ـ Ibid., pp. 6–7, 92.

٦ـ James Bonar, *Malthus and His Work* (London: Macmillan, 1885), p. 127.

٧ـ Thomas R. Malthus, *An Essay on the Principle of Population*, 2d ed. (London: Everyman Library, 1914), vol. II, p. 168.

٨ـ Quoted in Patricia James, *Population Malthus* (London: Routledge & Kegan Paul, 1979), pp. 110–111.

٩ـ See Paul Bairoch, "Agriculture and the Industrial Revolution," trans. M. Grindrod, in C. M. Cipolla, ed., *The Industrial Revolution* (Sussex: Harvester Press, 1976), pp. 452–501.

١٠ـ André Armengaud, "Population in Europe 1700–1914," in Cipolla, p. 48.

١١ـ Thomas R. Malthus, *Principles of Political Economy*, (Boston: Wells and Lilly, 1821), pp. 4–5.

١٢ـ See Dennis Meadows et al., *The Limits to Growth* (New York, Universe Books, 1972); Jay Forrester, *World Dynamics* (Cambridge: Wright-Allen Press, 1971); Robert Heilbroner, *An Inquiry into the Human Prospect* (New York: W.W. Norton, 1974).

١٣ـ Gerald O. Barney, ed., *The Global 2000 Report to the President* (Washington: U.S. Government Printing Office, 1981).

١٤ـ Wassily Leontief, *The Future of the World Economy* (New York: Oxford University Press, 1977), p. 6.

١٥ـ World Bank, *World Development Report* (Washington: World Bank, 1984). See Allen C. Kelley, "Economic Consequences of Population Change in the Third World," vol. XXVI *Journal of Economic Literature* (December 1988), pp. 1685–1728.

IV. David Ricardo and the Cry for Free Trade

١ـ David Ricardo, *The Works and Correspondence*, Pierro Sraffa, ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1951–55), vol. VI, p. 231.

٢ـ Quoted in Robert Lekachman, *A History of Economic Ideas* (New York: Harper & Row, 1959), p. 143.

٣ـ If the opportunity costs are equal, there are no possible gains from trade. They might as well be self-sufficient.

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

The model works less persuasively if resources cannot be reallocated and prices are extremely "sticky." More complex approaches such as the Heckscher-Ohlin-Samuelson model examine what determines opportunity costs and comparative advantages besides labor hours.

٤ - Quoted in Harry Anderson, Rich Thomas, and James C. Jones, "Carving Up the Car Buyer," in *Newsweek*, (March 5, 1984), p. 72.

٥ - If Britons dump their dollars, the value of the dollar (the exchange rate) will fall. Thus, trade deficits generally lead to depreciating currencies. But with a cheaper dollar, American exporters would find it easier to sell to foreigners, and foreign producers would have more trouble selling their goods in the United States. This process would eventually reduce the trade deficit. Foreigners may also use their U.S. dollars to buy American assets such as property and factories, if they think the U.S. economy is healthy and will yield higher returns than investing in their own countries.

While an "invasion" of foreign purchasers could give foreigners a larger political voice in the United States, so far the proportion of foreign ownership is still small enough that the political effects remain slight. In the meantime, Americans benefit through more jobs, more tax revenue to towns, states, and Washington, and a transfer of foreign skills and technology to the United States.

٦ - See Murray Weidenbaum and Michael Munger, "Protectionism at Any Price?" in *Regulation* (July/August 1983), pp. 14–22, cited in Benjamin M. Friedman, *Day of Reckoning* (New York, Random House, 1988), pp. 58–60.

٧ - Frédéric Bastiat, *Economic Sophisms* (Princeton: D. Van Nostrand, 1964), pp. 56–57. Bastiat also sarcastically suggested that France double its need for jobs by chopping off everyone's right hand.

٨ - Ricardo, vol. V, p. 55; vol. I, p. 265. Also see Mark Blaug, *Ricardian Economics* (New Haven: Yale University Press, 1958), p. 33. The German Historical School would later reject Ricardo's approach and apply an organic model

to nations. Wilhelm Roscher and Gustav Schmöller argued that nations are born, raised, and ultimately buried. Policies and principles that work well at one stage in a nation's life may work badly at another.

٩ - Ibid., vol. I, p. 97. Query what material goods are necessary today to define "necessaries." A radio? A television?

١٠ - Ibid., vol. I, p. 70.

١١ - Ibid., vol. I, p. 35.

١٢ - Ibid., vol. I, p. 120.

١٣ - Ibid., vol. VIII, p. 208; Also see Ricardo writing in the 1820 *Encyclopedia Brittanica*, vol. 8, p. 179.

١٤ - Henry George, *Progress and Poverty*, (New York: Schalkenbach Foundation, 1929), p. 545.

١٥ - Malthus, *Principles of Political Economy*, p. 186.

١٦ - Smith, *Wealth of Nations*, pp. 337–338.

١٧ - Malthus, *Principles of Political Economy*, p. 395.

١٨ - John Maynard Keynes, "Thomas R. Malthus," in *Essays in Biography*, in *Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol x, (London: Macmillan, 1972), p. 100.

١٩ - Ricardo, vol. VIII, p. 184.

٢٠ - Robert Torrens, *Essay on the External Corn Trade* (London: 1815), pp. viii–ix.

٢١ - Mark Blaug, *Economic Theory in Retrospect*, 3d ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1978), p. 140.

V. The Stormy Mind of John Stuart Mill

١ - John Stuart Mill, *Autobiography* (London: Longmans, Green, Reader, and Dyer, 1873), p. 28. Michael St. John Packe takes a more lenient view of James Mill in *The Life of John Stuart Mill* (New York: Macmillan, 1954).

٢ - Ibid., pp. 30, 28.

٣ - W. L. Courtney, *Life of John Stuart Mill* (London: Walter Scott, 1889), p. 40.

٤ - Mill, pp. 66–67.

٥ - Ibid., pp. 98–100.

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

٦ - Jeremy Bentham, *Introduction to the Principles of Morals and Legislation* (New York: Haffner, 1948), p. 1.

٧ - Ibid., pp. 30–31.

٨ - Quotation from Bentham, "Defence of a Maximum," in *Jeremy Bentham's Economic Writings*, vol. iii, W. Stark, ed. (London: George Allen and Unwin, 1954 [1801]) pp. 247–302. See my "Punishing Humans," in *Thought*, vol. 59 (September 1984) for a critique of Benthamite justice.

٩ - Mill, pp. 40–41.

١٠ - Ibid., p. 109.

١١ - Ibid., pp. 132–134.

١٢ - Ibid., p. 49.

١٣ - John Stuart Mill, *The Early Draft of John Stuart Mill's Autobiography*, J. Stillinger, ed. (Urbana: University of Illinois Press, 1961), p. 184. See also A. W. Levi, "The Mental Crisis of John Stuart Mill," in *Psychoanalytic Review*, vol. 32 (January 1945), pp. 86–101.

١٤ - Lionel Robbins, *The Evolution of Modern Economic Theory* (London: Macmillan, 1970), p. 109.

١٥ - John Stuart Mill, "Bentham," in *Essays on Politics and Culture*, G. Himmelfarb, ed. (Garden City: Doubleday, 1962 [1838]), pp. 85–131; "Coleridge," in *Essays* [1840], pp. 132–186.

١٦ - Ibid., pp. xix–xx.

١٧ - Mill, *Autobiography*, pp. 186–187.

١٨ - John Stuart Mill, *On Logic* (1840), p. 617.

١٩ - John Stuart Mill, *Principles of Political Economy*, W. J. Ashley, ed. (New York: A. M. Kelly, 1965 [1848]), pp. 199–200.

٢٠ - George J. Stigler, "The Nature and Role of Originality in Scientific Progress," in *Economica*, vol. 22 (November 1955), pp. 293–302.

٢١ - John Stuart Mill, *Principles of Political Economy*, p. 808.

٢٢ - Ibid.

٢٣ - Ibid., p. 869.

٢٤ - Ibid., p. 759.

٢٥ - Ibid., p. 950.

٢٦ - Ibid., p. 799.

٢٧ - Ibid., p. 748.
٢٨ - Ibid.
٢٩ - Ibid., p. 757.
٣٠ - Quoted in Gertrude Himmelfarb, "Introduction," in *Mill, On Liberty* (London: Penguin Books, 1986), p. 10.
٣١ - Mill, *Autobiography*, p. 199.
٣٢ - Edmund Burke, *Reflections on the Revolution in France* (1790), in *The Works of the Right Honorable Edmund Burke* (London: F., C. & J. Rivington, 1808), vol. 5, p. 149.

VI. The Angry Oracle Called Karl Marx

١ - David McLellan, *Karl Marx: His Life and Thought* (New York: Harper & Row, 1973), p. 4. See Karl Marx, "On the Jewish Question," in Robert C. Tucker, ed., *The Marx-Engels Reader* (New York: W. W. Norton, 1978), pp. 26–52; Gertrude Himmelfarb, "The Real Marx," in *Commentary* (April 1985) pp. 37–43 and "Letters" (August 1985).
٢ - McLellan, pp. 6–7.
٣ - Ibid., p. 33.
٤ - Robert Payne, *Karl Marx* (New York: Simon and Schuster, 1968), p. 77.
٥ - McLellan, p. 53.
٦ - Saul K. Padover, *Karl Marx: An Intimate Biography* (New York: McGraw-Hill, 1978), p. 179.
٧ - McLellan, p. 99.
٨ - Karl Marx and Friederich Engels, *Collected Works* (New York: International Publishers, 1982), vol. 38, p. 115.
٩ - K. Marx, "Introduction to A Critique of Hegel's Philosophy of Right," in K. Marx, *The Early Texts*, D. McLellan, ed. (Oxford: Oxford University Press, 1971), p. 116.
١٠ - Karl Marx, *The German Ideology*, in Tucker, pp. 155–156.
١١ - Karl Marx, *A Contribution to the Critique of Political Economy*, trans. N. I. Stone (Chicago: Charles Kerr, 1904), preface.

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

١٢ - Karl Marx, *The Eighteenth Brumaire of Louis Bonaparte*, in Tucker, ed., p. 595.

١٣ - Karl Marx and Friedrich Engels, *The Communist Manifesto*, Samuel Beer, ed. (Arlington Heights: Harlan Davidson, 1955), p. 9.

١٤ - Marx, *A Contribution to the Critique of Political Economy*, preface.

١٥ - Karl Marx, *Capital*, vol. I (Chicago: Charles Kerr, 1906), p. 13.

١٦ - Marx and Engels, *The Communist Manifesto*, pp. 13–14.

١٧ - Ibid.

١٨ - McLellan, p. 98.

١٩ - Sandover, pp. 291–293.

٢٠ - Payne, p. 295.

٢١ - McLellan, pp. 264, 357.

٢٢ - Ibid., p. 284.

٢٣ - Karl Marx, *Capital*, vol. 1, pp. 649, 652.

٢٤ - Ibid., p. 687.

٢٥ - Ibid., p. 836.

٢٦ - Ibid., p. 837.

٢٧ - Marx and Engels, *The Communist Manifesto*, p. 46.

٢٨ - Marx, *Capital*, vol. 1, p. 21.

٢٩ - Marx and Engels, *The Communist Manifesto*, pp. 31–32.

٣٠ - Marx, *Capital*, vol. 1, p. 637.

٣١ - Payne, p. 143

٣٢ - Marx and Engels, *The Communist Manifesto*, p. 22; Thomas Sowell, *Marxism: Philosophy and Economics* (New York: William Morrow, 1985), p. 138.

٣٣ - The question of relative poverty is extremely difficult to assess. First, since there is an income gap between rich and poor, even if the poor gain at a faster rate, the gap in absolute dollars may enlarge. Compare person A, who starts with $10,000 and enjoys a 10 percent raise each year with person B, who starts at $100,000 and enjoys only a 5 percent raise each year. In about seven years, A is earning about $20,000, while B is earning over $140,000. Second, in the United States, over the course of a generation there is considerable upward and downward mobility. One ma-

jor study revealed that about one-third of the children of the most affluent parents in the country received income below the national average. Furthermore, about one-third of the children of the poorest parents climbed up and above the national average. See Christopher Jencks et al., *Inequality: A Reassessment of the Effect of Family and Schooling in America* (New York: Basic Books, 1972), pp. 209–216. For an international approach to mobility, see W. W. Rostow, *Why the Poor Get Richer and the Rich Slow Down* (Austin: University of Texas Press, 1980). We can confidently say that during most of the twentieth century, all classes in the United States have enjoyed sustained absolute progress. Nonetheless, during the stagflation from 1974 to 1982 all income classes lost ground. The poor especially suffered for economic as well as sociological reasons, as the number of female-headed households jumped by about 40 percent. During the middle and late 1980s the 1973 plateau was reached again and surpassed.

٢٤ - John Rawls, *A Theory of Justice* (Cambridge: Harvard University Press, 1971).

٢٥ - John Maynard Keynes, *The Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol. 28, (London and New York: Macmillan/St. Martin's Press, 1973). pp. 38, 42.

٢٦ - See Stephen A. Marglin, "Radical Macroeconomics," (Cambridge: Harvard Institute of Economic Research, 1982), Discussion Paper No. 902, pp. 1–26.

٢٧ - See Robert Conquest, *The Harvest of Sorrow* (New York: Oxford University Press, 1987).

٢٨ - John Steinbeck, *The Grapes of Wrath* (New York: Penguin Books, 1986), p. 537.

VII. Alfred Marshall and The Marginalist Mind

١ - We assume that the backpacker cannot return to Italy for more pleasure. Also, the cost of stepping forward

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

includes the opportunity cost—the pleasure derivable from staying home, for instance.

٢ - John Maynard Keynes, "Alfred Marshall," in *Essays in Biography* (London: Macmillan/St. Martin's Press for the Royal Economic Society, 1972), p. 164. Though majestic, Keynes' essay contains some factual errors uncovered in Ronald H. Coase, "Alfred Marshall's Mother and Father," *History of Political Economy*, vol. 16 (Winter 1984), pp. 519–527.

٣ - Ibid., p. 171.

٤ - A. C. Pigou, "In Memoriam: Alfred Marshall," in *Memorials of Alfred Marshall*, A. C. Pigou, ed. (London: Macmillan, 1925), p. 89.

٥ - Keynes, p. 175.

٦ - C. R. Fay, "Reminiscences," in Pigou, pp. 74–75.

٧ - Alfred Marshall, *Principles of Economics*, 9th ed., Guillebaud, ed. (London: Macmillan, 1961 [1920]), vol. 1, pp. 7–9.

٨ - Ibid., p. xv.

٩ - Ibid., p. 461.

١٠ - Alfred Marshall, "Letter to Bowley," in Pigou, p. 427.

١١ - Keynes, p. 196.

١٢ - John Neville Keynes, *The Scope and Method of Political Economy* (London: Macmillan, 1891), p. 217n.

١٣ - Marshall, *Principles*, p. xiv.

١٤ - Ibid., p. 366.

١٥ - Ibid., p. 271.

١٦ - Ibid., p. 316. Schumpeter argued that dominant firms and monopolists could help the economy, because their excess profits enabled them to invest heavily in research and development. Schumpeter's position remains controversial.

١٧ - John A. Byrne, "Is Your Company Too Big?" in *Business Week* (March 27, 1989), pp. 84–94.

١٨ - Ibid., p. 348.

١٩ - Ibid., p. 99.

٢٠ - Ibid., p. 118.

٢١ - Keynes, p. 205.

٢٢ - Marshall, *Principles*, pp. 587–588.

٢٣ - This is a highly complex issue. See Ellen E. Meade, "Exchange Rates, Adjustment, and the J-Curve," in *Federal Reserve Bulletin*, vol. 74 (October 1988), pp. 633–644.

٢٤ - Alfred Marshall, *Money, Credit and Commerce* (London: Macmillan, 1923), p. 247.

٢٥ - F. Y. Edgeworth, "Reminiscences," in Pigou, p. 70.

٢٦ - Alfred Marshall, Letter to Lord Reay, in Pigou, p. 462; Marshall, *Principles*, p. 713.

٢٧ - Marshall, *Principles*, p. 3.

٢٨ - Keynes, p. 173.

VIII. Old and New Institutionalists

١ - Auguste Comte gave the same advice to Mill. The neoclassicalists didn't listen. Instead they derided the even limper "soft" sciences. Ironically, the new institutionalists today meet on the same turf as other social scientists, partly because they bullied themselves into anthropology, criminology, and sociology.

٢ - Joseph Dorfman, *Thorstein Veblen and His America* (New York: Viking, 1934), p. 79.

٣ - Thorstein Veblen, "Why Economics Is Not an Evolutionary Science," *Quarterly Journal of Economics*, vol. 12 (July 1898), p. 389.

٤ - Thorstein Veblen, *The Theory of the Leisure Class* (New York: The Modern Library, 1934), pp. 42–43.

٥ - Harvey Leibenstein, "Bandwagon, Snob, and Veblen Effects in the Theory of Consumer Demand," *Quarterly Journal of Economics*, vol. 62 (May 1950), pp. 183–207.

٦ - Although he eschewed Marx's approach to exploitation, Veblen accepted Marx's charge that the institution of private property hurts society. Nonetheless, his antipathy toward private property did not stop him from defending his secluded mountain cabin from a trespasser by attacking the intruder with a hatchet.

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

٧ - Thorstein Veblen, *The Theory of Business Enterprise* (New York: Scribner's, 1904), p. 309.

٨ - Ibid., p. 286.

٩ - Thorstein Veblen, *The Engineers and the Price System* (New York: Viking, 1921), pp. 18–19.

١٠ - Thorstein Veblen, *The Vested Interests and the Common Man* (New York: Capricorn Books, 1969), p. 165.

١١ - Veblen, *The Engineers and the Price System,* p. 58.

١٢ - T. Pare and Wilton Woods, "The World's Top 50 Industrial CEO's," in *Fortune,* vol. 116 (August 3, 1987), p. 23.

١٣ - Wesley C. Mitchell, *What Veblen Taught* (New York: Viking, 1936), p. xviii; Joseph Dorfman, "Background of Veblen's Thought," in Carlton C. Qualey, ed., *Thorstein Veblen* (New York: Columbia University Press, 1968), p. 129.

١٤ - John Kenneth Galbraith, *The Scotch* (Boston: Houghton Mifflin, 1964), p. 26.

١٥ - John Kenneth Galbraith, *The Affluent Society* (Boston: Houghton Mifflin, 1976), p. 149. Given his forceful critique, it is ironic that Galbraith recently agreed to write a hardcover book (for Whittle Communications) that will contain advertisements!

١٦ - Friedrich A. Hayek, "The *Non Sequitur* of the Dependence Effect," in *Southern Economic Journal,* vol. 27 (April 1961), pp. 346–348.

١٧ - Lee Benham, "The Effect of Advertising on the Price of Eyeglasses," *Journal of Law and Economics,* vol. 15 (October 1972) pp. 337–352.

١٨ - Joseph Pereira, "Pricey Sneakers Worn in Inner City Help Set Nation's Fashion Trend," *The Wall Street Journal* (December 1, 1988), pp. A1–A10."

١٩ - Louis Brandeis, "The Living Law," vol. 10, *Illinois Law Review* (1916).

٢٠ - *United States v. Carroll Towing Co.,* 159 F.2d 169 (2d Cir. 1947).

٢١ - Ronald Coase, "The Problem of Social Cost," *Journal of Law and Economics,* vol. 3 (October 1960), pp. 1–44.

٢٢ - See Werner Z. Hirsch, *Habitability Laws and the Welfare of Indigent Tenants* (Los Angeles: University of California Press, 1978).

٢٣ - Marc Beauchamp, "Bankrupt Landlords in Wonderland," *Forbes* (March 20, 1989), pp. 105–106. Rent control is another issue that unites economists regardless of liberal or conservative politics. See Alan Blinder's lucid *Hard Heads Soft Hearts: Tough Minded Economics for a Just Society* (Reading, Mass.: Addison-Wesley, 1987), pp. 194–195.

٢٤ - See Gary Becker, "Crime and Punishment: An Economic Approach," *Journal of Political Economy*, vol. 78 (March/April 1968), pp. 169–217; I. Ehrlich, "Participation in Illegitimate Activities: A Theoretical and Empirical Investigation," *Journal of Political Economy*, vol. 81 (May/June 1973), pp. 521–565; D. L. Sjoquist, "Property, Crime and Economic Behavior," *American Economic Review*, vol. 63 (June 1973), pp. 439–446.

٢٥ - Richard A. Posner, *Economic Analysis of Law*, 2nd ed. (Boston: Little, Brown and Company, 1977), p. 22; 3d ed. (Boston: Little, Brown, 1986), pp. 25–26. See also my "Punishing Humans," *Thought*, vol. 59 (September 1984), p. 290.

٢٦ - A. A. Berle and G. C. Means, *The Modern Corporation and Private Property* (New York: Macmillan, 1932).

٢٧ - See Dale Arthur Oesterle and John R. Norberg, "Management Buyouts: Creating or Appropriating Shareholder Wealth?" *Vanderbilt Law Review*, vol. 41 (March 1988) pp. 207–260; Michael C. Jensen, "Takeovers: Their Causes and Consequences," *Journal of Economic Perspectives*, vol. 2 (Spring 1988), p. 21; Benjamin J. Stein, "Loss of Values: Did Amsted LBO Shortchange Shareholders?" *Barron's* (February 16, 1987), p. 8.

٢٨ - Bruno S. Frey and Heinz Buhofer, "Prisoners and Property Rights," *Journal of Law and Economics*, vol. 31 (April 1988), pp. 19–46.

٢٩ - For a theoretical model and an examination of South Vietnam in 1975, see Todd G. Buchholz, "Revolution,

Reputation Effects, and Time Horizons," *Cato Journal*, vol. 8 (Spring/Summer 1988), pp. 185–197.

IX. Keynes: Bon Vivant as Savior

١ - Bertrand Russell, *Autobiography* (London: Unwin Paperbacks, 1975), p. 69.

٢ - Robert Skidelsky, *John Maynard Keynes*, vol. i, (London: Macmillan, 1983), p. 180.

٣ - Milton Friedman, *Dollars and Deficits* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1968), p. 15.

٤ - R. F. Harrod, *The Life of John Maynard Keynes* (London: Macmillan, 1951), p. 50.

٥ - Skidelsky, p. 118.

٦ - Harrod, p. 101.

٧ - Skidelsky, pp. 165–166.

٨ - Ibid., pp. 173, 175.

٩ - Ibid., p. 177.

١٠ - Joseph A. Schumpeter, *Ten Great Economists* (London: George Allen and Unwin, 1952), p. 265.

١١ - Andrew Sinclair, *The Red and the Blue* (London: Weidenfeld and Nicolson, 1986), p. 17; Michael Holroyd, *Lytton Strachey: A Critical Biography*, vol. ii, (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1968), p. 17.

١٢ - John Maynard Keynes, *The Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol. xvii (London: Macmillan/St. Martin's Press for the Royal Economic Society, 1973), p. 16.

١٣ - For different views on the causes of the Great Depression, see Milton Friedman and Anna J. Schwartz, *A Monetary History of the United States, 1867–1960* (Princeton: Princeton University Press, 1963); Peter Temin, *Did Monetary Forces Cause the Great Depression?* (New York: Norton, 1976) and Karl Brunner, ed., *The Great Depression Revisited* (Boston: Martinus Nijhoff, 1981).

١٤ - Paul Samuelson, "Lord Keynes and the General Theory," *Econometrica*, vol. 14 (1946), p. 190.

١٥ - Elizabeth S. Johnson and Harry G. Johnson, *The Shadow of Keynes* (London: Basil Blackwell, 1978), p. 102.

١٦ - Keynes, *CW*, vol. xxi, pp. 334, 144.

١٧ - Keynes, *The General Theory*, in *CW*, vol. vii, p. 128. For more elaborate proofs and explanations why the tax cut multiplier is smaller than the government and investment multiplier, see any introductory economics textbook.

١٨ - Keynes, *CW*, vol. xxi, p. 296.

١٩ - Keynes, *The General Theory*, in *CW*, vol. vii, pp. 380–381.

٢٠ - Ibid., p. 129.

٢١ - Samuelson, p. 187.

٢٢ - Keynes, *The General Theory*, in *CW*, vol. vii, p. 154.

٢٣ - Ibid., p. 156.

٢٤ - Ibid., pp. 162–163.

٢٥ - Ibid., pp. 383–384.

٢٦ - Keynes, *CW*, vol., ix, pp. 321–332.

X. The Monetarist Battle Against Keynes

١ - A. C. Pigou, ed., *Memorials of Alfred Marshall* (London: Macmillan, 1925), p. 25.

٢ - John Maynard Keynes, *The Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol. xxi (London: Macmillan/St. Martin's Press for the Royal Economic Society, 1973), p. 294.

٣ - Milton Friedman, "Money: Quantity Theory," in *International Encyclopedia of the Social Sciences* (New York: Macmillan and Free Press, 1968), p. 438.

٤ - Milton Friedman, "Discussion of the Inflationary Gap," *American Economic Review*, vol. 32 (June 1942), pp. 314–320. Reprinted in *Essays in Positive Economics* (Chicago: University of Chicago Press, 1953), p. 253.

٥ - John Kenneth Galbraith, *Economics in Perspective* (Boston: Houghton Mifflin, 1987), pp. 270–271.

٦ - Milton Friedman, *Studies in the Quantity Theory of Money* (Chicago: University of Chicago Press, 1956).

٧ - Milton Friedman, *A Theory of the Consumption Function* (Princeton: Princeton University Press, 1957).

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

٨ - A. Ando and F. Modigliani, "Tests of the Life Cycle Hypothesis of Savings: Comments and Suggestions," *Bulletin of the Oxford University Institute of Statistics*, vol. 19 (1957).

٩ - Milton Friedman and Anna J. Schwartz, *A Monetary History of the United States*, 1867–1960 (Princeton: Princeton University Press, 1963). For a critical view see Peter Temin, *Did Monetary Forces Cause the Great Depression?* (New York: Norton, 1976) and Karl Brunner, ed., *The Great Depression Revisited* (Boston: Martinus Nijhoff, 1981).

١٠ - Gary Fromm and Lawrence R. Klein, "A Comparison of Eleven Econometric Models of the United States," *American Economic Review*, vol. 63 (May 1973), pp. 385–393.

١١ - *Economic Report of the President* (1962), p. 68.

١٢ - Paul A. Samuelson and William D. Nordhaus, *Economics* (New York: McGraw-Hill, 1985), p. 331.

١٣ - *Economic Report of the President* (1987), p. 55.

١٤ - A good primer on the matter is Martin S. Feldstein, ed., *Taxes and Capital Formation* (Chicago: University of Chicago Press, 1987). The book contains articles by Summers, chief economic adviser to Michael Dukakis' 1988 presidential campaign, as well as articles by Boskin, Feldstein, and Lawrence Lindsey, chief advisers to George Bush's 1988 presidential campaign.

XI. The Public Choice School: Politics as a Business

١ - David Vesey, "Personality Spotlight: James Buchanan; Nobel Prize winner for economics," *United Press International* (October 16, 1986).

٢ - Mancur Olson, *The Rise and Decline of Nations* (New Haven: Yale University Press, 1982).

٣ - Mancur Olson quoted in "The Political Economy of Interest Groups," in *Manhattan Report on Economic Policy*, vol. IV (1984), p. 4.

٤ - George J. Stigler, "The Theory of Economic Regulation," in *The Bell Journal of Economics and Management Science*, vol. II (Spring 1971), pp. 3–21.

٥ - James M. Buchanan, in *The Consequences of Mr. Keynes* (London: Institute of Economic Affairs, 1978), pp. 20–21.

٦ - John Maynard Keynes, "The End of Laissez-Faire," in *Essays in Persuasion*, in *The Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol. vii (London: Macmillan/St. Martin's Press for the Royal Economic Society, 1973), p. 379.

٧ - Paul M. Sweezy, "John Maynard Keynes," *Science and Society*, vol. 10 (1946), reprinted in R. Lekachman, ed., *Keynes' General Theory: Report on Three Decades* (London: Macmillan, 1964), p. 303.

٨ - Keynes, "Am I a Liberal?" in *Essays in Persuasion*, *CW* ix, pp. 301–302.

٩ - Keynes, *CW* xxvii, p. 387.

١٠ - Keynes, "My Early Beliefs," in *Essays in Biography*, *CW* x, pp. 436, 437, 446.

١١ - Quoted in Robert Skidelsky, *John Marynard Keynes*, vol. 1 (London: Macmillan, 1983), p. xviii.

١٢ - Max Weber, "Politics as a Vocation," in *From Max Weber*, trans. and eds. H. H. Gerth and C. W. Mills (London: Routledge & Kegan Paul, 1948), p. 95.

١٣ - Keynes, *CW* vii, p. 384.

١٤ - Keynes, "Can Lloyd George Do It?" in *CW* ix, p. 125.

١٥ - Ibid.

١٦ - Keynes, *CW* x, pp. 440, 448.

١٧ - Keynes, *CW* xix, p. 750. See also *CW* ii, p. 92; *CW* ix, p. 212; *CW* xxi, p. 201; and Geoff Hodgson, "Persuasion, Exceptions and the Limits to Keynes," in Tony Lawson and Hashem Pesaran, eds. *Keynes' Economics* (London: Croom Helm, 1985), p. 23.

١٨ - Quoted in Robert Skidelsky, "The Revolt Against the Victorians," in R. Skidelsky, ed. *The End of the Keynesian Era* (London: Macmillan, 1977), p. 7.

١٩ - Quoted in Charles H. Hession, *John Maynard Keynes* (New York: Macmillan, 1984), p. 258. See also D. E. Moggridge, *Keynes* (London: Fontana, 1976), pp. 38–39.

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

٢٠ - F. A. Hayek, *New Studies in Philosophy, Politics, Economics and the History of Ideas* (London: Routledge & Kegan Paul, 1978), p. 287.

٢١ - Keynes, *CW* x, p. 448.

٢٢ - See Leo Strauss, *What Is Political Philosophy?* (Westport: Greenwood Press, 1973), p. 40; Douglas Sturm, "Process Thought and Political Theory," *The Review of Politics*, vol. 41 (1979), pp. 383–384.

٢٣ - Keynes, *CW* ii, pp. 22–23. Keynes deleted his more cutting remarks on Lloyd George from *Economic Consequences of the Peace*. They appeared fourteen years later in *Essays in Biography*. See *CW* x, pp. 22–26 and *CW* xvii, p. 41.

٢٤ - See Arrow's "Impossibility Theorem," in Kenneth Arrow, *Social Choice and Individual Values* (New York: Wiley, 1951).

٢٥ - Keynes, *CW* ix, p. 295.

٢٦ - R. F. Harrod, *The Life of John Maynard Keynes* (London: Macmillan, 1951), p. 103.

XII. The Wild World of Rational Expectations

١ - See P. H. Cootner, ed., *The Random Character of Stock Market Prices* (Cambridge: MIT Press, 1964) and E. F. Fama, "Efficient Capital Markets: A Review of Theory and Empirical Work," in *Journal of Finance*, vol. 25 (May 1970), pp. 383–417.

٢ - *Chiarella v. United States*, 445 U.S. 222 (1980); Quoted in *The Wall Street Journal* (December 16, 1987), p. 29.

٣ - Robert E. Lucas, Jr., "Understanding Business Cycles," in Karl Brunner and Allan Meltzer, eds., *Stabilization of the Domestic and International Economy*, Carnegie-Rochester Conference Series, vol. 5.

٤ - Robert E. Hall, "Stochastic Implications of the Life-Cycle-Permanent Income Hypothesis: Theory and Evidence," *Journal of Political Economy*, vol. 86 (December 1978), pp. 971–987.

٥ ـ Robert J. Barro, "Are Government Bonds Net Wealth?" *Journal of Political Economy*, vol. 82 (December 1974), pp. 1095–1117.

٦ ـ Milton Friedman, *Essays in Positive Economics* (Chicago: University of Chicago Press, 1966).

٧ ـ Quoted in Arjo Klamer, *Conversations with Economists: New Classical Economists & Opponents Speak out on the Current Controversy in Macroeconomics* (Totowa, N.J.: Rowman, 1984), pp. 159, 162.

٨ ـ See John Taylor, "Staggered Wage Setting in a Macro Model," *American Economic Review*, vol 63 (May 1979), pp. 108–113.

٩ ـ See Mark H. Willes, " 'Rational Expectations' as a Counterrevolution," *The Public Interest* (Special Issue 1980), p. 92.

XIII. Dark Clouds, Silver Linings

١ ـ John Maynard Keynes, "Alfred Marshall," in *Essays in Biography*, in the *Collected Writings of John Maynard Keynes*, vol. x (London: Macmillan/St. Martin's Press for the Royal Economic Society, 1972), p. 173.

٢ ـ See Richard A. Easterlin, "Does Economic Growth Improve the Human Lot? Some Empirical Evidence," in Paul A. David and Melvin W. Reder, eds. *Nations and Households in Economic Growth: Essays in Honor of Moses Abramovitz* (New York: Academic Press, 1974), pp. 89–125.

٣ ـ Joseph A. Schumpeter, *Capitalism, Socialism and Democracy* (New York: Harper & Row, 1976), p. 61.

٤ ـ John Tagliabue, "Yugoslavia's Capitalist Tilt Becomes a Headlong Plunge," *The New York Times* (August 14, 1988), p. E2; James Brooke, "Adam Smith Crowds Marx in Angola," *The New York Times* (December 29, 1987), p. A6; Larry Rohter, "A Radical Diagnosis of Latin America's Economic Malaise," *The New York Times* (September 27, 1987), p. E3.

٥ ـ Steven Greenhouse, "The Global March to Free Markets," *The New York Times* (July 19, 1987), sec. 3, p. 1.

رقم الإيداع

٩٠٠٥/ ١٩٩٥

عربية للطباعة والنشر

٧،١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

TODD G. BUCHHOLZ

NEW IDEAS FROM DEAD ECONOMISTS

An Introduction to Modern Economic Thought

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب أفكاراً معاصرة عن الاقتصاديين الراحلين . ويقدم دراسة مهمة للتعريف بعديد من رجال الاقتصاد الذين رحلوا . . وأهم ما سجلوه من أفكار اقتصادية ونظريات عظيمة ، استفاد منها رجال المال والاقتصاد .

ويتناول الكتاب فى فصوله آراء آدم سميث ، ونظرية مالتوس ، وآراء ريكاردو عن حرية التجارة .

وبدقة شديدة يتناول الكتاب آراء وأفكار ستيوارت ميل ، وكارل ماركس ، والفريد مارشال لنظرية كينز ، وجميع الآراء الاقتصادية الكبرى التى تناولها كبار الاقتصاديون العظماء الراحلون .

. . . والكتاب أساسى ومهم لكل اقتصادى وكل من يهتم بالاقتصاد .

والله ولى التوفيق ؟

الناشر

ISBN : 977 - 281 - 006 - 9

ACADEMIC BOOKSHOP

